دولة الإسلام في الأندلس

من الفتح إلى بداية عهد النّاصر

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الأول - القسم الأول

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م

الحقوق كلها محفوظة للمؤلف

Copyright, Cairo, 1969

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

نموذج من صفحات الجزء المخطوط من تاريخ ابن حيان المحفوظ بمكتبة جامع القرويين بفاس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تصدر اليوم الطبعة الرابعة من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » ، وقد أتيح لنا بعون الله وتوفيقه ، أن نكمل تاريخ الأندلس منذ بدايته إلى نهايته ، وأن تظهر عصوره الأربعة على النحو الآتى :

العصر الأول – ويشمل تاريخ فتوح إفريقية والأندلس ، وعصر الولاة ، ثم تاريخ الدولة الأموية الأندلسية منذ قيامها فى ظل الإمارة ، ثم قيام الخلافة الأموية ، وانحلالها على يد الدولة العامرية ، ثم انهيارها وسقوطها ، وبدء قيام دول الطوائف الأندلسية : ٢٢ – ٤٥٠ هـ (٦٤٣ – ١٠٥٨ م) .

وهذا العصر ، هو الذى نقدمه اليوم إلى القارئ فى طبعته الجديدة .

العصر الثانى – « دول الطوائف » ، ويشمل تاريخ الأندلس منذ قيام دول الطوائف الأندلسية ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، حتى سقوطها على يد المرابطين فى أواخر هذا القرن : ٤٢٥ – ٥٠٢ هـ (١٠٣٣ – ١١٠٨ م) .

العصر الثالث – « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » ويشمل تاريخ هاتين الدولتين المغربيتين العظيمتين ، منذ بدايته حتى نهايته ، وتاريخ الأندلس الكبرى فى ظلهما ، ثم انهيارها عقب انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى : ٥٠٠ – ٦٦٨ هـ (١١٠٦ – ١٢٦٩ م) .

العصر الرابع – « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، ويشمل تاريخ مملكة غرناطة آخر دول الإسلام فى الأندلس ، منذ قيامها حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة تحت نير اسبانيا النصرانية ، بعد أن غدت طائفة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وما نزل بها من محن التنصير المغصوب ، ومختلف ضروب الاضطهاد المفجعة ، حتى إخراجها نهائياً من

الأراضى الإسبانية ، وذلك فى بداية القرن السابع عشر الميلادى : ٦٣٥ — ١٠١٩ هـ (١٢٣٧ — ١٦١٠ م) .

وقد أتيح لنا إلى جانب هذه العصور الأربعة من تاريخ الأندلس ، أن نصدر فى نفس الوقت مؤلفاً خاصاً عن الآثار والنقوش الأندلسية الباقية ، فى شبه الجزيرة الأندلسية ، وذلك بعنوان « الآثار الأندلسية الباقية ، فى اسبانيا والبرتغال » .

وتشغل هذه العصور الأربعة تسعة قرون من حياة الأمة الأندلسية ، زاخرة بالأحداث والعبر والمآسى المشجية ، لم نأل جهداً فى سردها ، وتحليلها ، وإسنادها إلى مصادرها الوثيقة .

وقد أنفقت فى كتابة هذه العصور الأربعة ، من تاريخ الأمة الأندلسية ، خمسة وعشرين عاماً ، قمت خلالها بست عشرة رحلة فى اسبانيا والمغرب ، لم أدخر خلالها وسعاً فى البحث والتنقيب ، وتقصى مختلف المصادر والوثائق ، ودراسة المخطوطات العربية ، والوثائق القشتالية ، فى مختلف مواطنها .

ولقد كان لهذا التجوال المتكرر ، فى ربوع الأندلس القديمة ، والزيارات المتعددة للقواعد الأندلسية الذاهبة ، ولاسيما القواعد الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية ، وبلنسية ، وشاطبة ، ومرسية ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وبطليوس ، وماردة ، وأشبونة ، وباجة وغرناطة ، وألمرية ، ومالقة ، وغيرها ، وهذه الدراسات المستفيضة لآثارها ونقوشها الأندلسية الباقية ، وهذه المشاهدات لطبائع الإقليم ، والبقاع ، والأوساط التى حلت فيها الأمة الأندلسية ، وعاشت عدة قرون ، ووضعت أسس حضارتها العظيمة — كان لذلك كله فى نفسى أعمق الآثار ، وقد أمدنى بكثير من الحقائق والفكر الجديدة .

وأود أن أنوه هنا ، بأنه فضلا عن استيعاب المصادر القشتالية واللاتينية القديمة ، والمصادر الغربية الحديثة ، إلى جانب المصادر العربية المختلفة العامة والخاصة ، قد أتيح لى أن أنتفع بكثير من المصادر المخطوطة الهامة ، مما عثرت عليه خلال بحوثى فى المجموعات الإسبانية (ولاسيما مجموعة الإسكوريال ومجموعة أكاديمية التاريخ) ، والمجموعات المغربية فى الرباط وفاس ، وأن أنتفع فى هذا القسم من تاريخ الأندلس ، بوجه خاص ، بثلاث قطع مخطوطة نادرة

من مؤلف ابن حيّان القيم فى تاريخ الأندلس ، وهو كتاب « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » .

القطعة الأولى — وتشمل حوادث سنى ١٨٠–٢٣٢ هـ ، أعنى عصرى الحكم ابن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ، وتقع فى نحو مائة صفحة (ص ٨٨ — ١٨٩) من القطع الكبير ، وهى عبارة عن بداية السفر الثانى من كتاب « المقتبس » ؛ ويرجع الفضل فى انتفاعى بهذا القسم ، إلى صديقى العلامة المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وكان قد عثر عليه فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وقد اختفى الآن هذا القسم ولا نعرف مكان وجوده .

القطعة الثانية — وهى تأتى مباشرة بعد القطعة الأولى ، وتشمل حوادث سنى ٢٣٣ — ٢٦٧ هـ ، أعنى بقية عصر عبد الرحمن بن الحكم ، ومعظم عهد ولده الأمير محمد ، والبوادر الأولى للثورة الكبرى ، وتقع فى ٩٥ لوحة أعنى مائة وتسعين صفحة من القطع الكبير ، وهى عتيقة بالية كثيرة الخروم ، متساقطة الحواشى ، مكتوبة بخط أندلسى قديم ، وقد كتب فى نهايتها « كمل السفر الثانى بحمد الله تعالى ، يتلوه الثالث ، مبتدأ بخوم عمر بن حفصون كبير الثوار بالأندلس » . وهى تحتوى على تفاصيل ومعلومات هامة عن بلاط قرطبة وأحواله فى هذا العصر ، وعن الصقالبة والوزراء والعمال . وقد عثرت على هذه القطعة فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وحصلت منها على صورة فتوغرافية ، وانتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً ، وذلك بالرغم من صعوبة المراجعة فى هذه المخطوطة البالية[1].

ويتلو هذا القسم المخطوط الذى يشتمل على السفر الثانى من « المقتبس » ، السفر الثالث ، الذى قام بنشره المستشرق الإسبانى الأب الأوغسطينى ملشيور أنتونيا عن مخطوطة المكتبة البودلية بأكسفورد (باريس سنة ١٩٣٧) ، وهو يشتمل على عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وحوادث الفتنة الكبرى من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٢٩٨ هـ ، قبيل عهد الناصر بعامين .

القطعة الثالثة — وهى تتعلق بأعظم اكتشاف من نوعه من كتاب « المقتبس » ،

---

(١) وقد قام صديق الدكتور محمود على مكى أخيراً بتحقيق هذه القطعة ونشرها ، وسوف تظهر قريباً .

وهو العثور على « السفر الخامس » منه المتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر .

إن هذا الاكتشاف يتعلق بأعظم قطعة مخطوطة عثر بها البحث حتى اليوم من هذا المؤلف الكبير . وقد تم العثور عليها منذ أعوام قلائل بين موجودات الخزانة الملكية بالرباط ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا الاطلاع عليها ودراسة محتوياتها دراسة وافية .

وهى عبارة عن جزء ضخم من كتاب « المقتبس » يقع فى مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة تضم ٣٧٠ صفحة ، ولا يحمل المخطوط عنواناً لأنه ناقص من أوله . ولكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخى وأسلوبه النقدى ، ومصادره التى يقتبس منها ، أن يدرك لأول وهلة أنه أمام جزء كبير من المقتبس . ومن جهة أخرى ، فإنه مما يقطع بصحة هذا الاستنتاج ، ما قرأناه فى حوادث سنة ٣٢٧ ﻫ ، عن موقعة الخندق ، من قول المؤلف خلال حديثه عمن قتل من المسلمين فى الموقعة « وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والمحشودة ، فافترطنا فيهم إلى جدنا حيان الأمثل طريقة أبا سعد مروان بن محمد بن حيان رحمه الله » .

ويضم هذا المجلد الضخم السفر الخامس من كتاب « المقتبس » ، وذلك حسبما ورد فى ختامه . وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر . ومن ثم كانت أهميته البالغة ، بيد أنه مع ضخامته لا يشمل عصر الناصر كله ، وهو يبدأ من سنة ٣٠٠ﻫ وينتهى فى سنة ٣٥٠ﻫ . بل تنقص هذا السفر الخامس من « المقتبس » فى البداية نحو ستين صفحة ، وهو يبدأ بحوادث سنة « سبع وثلاثمائة » ، وينتهى بحوادث سنة ٣٣٠ ﻫ وإن كان يتناول أحياناً بعض الحوادث التى وقعت قبل ذلك أو بعد ذلك حتى سنة ٣٤٠ ﻫ .

والمخطوط قديم ، ومكتوب بخط أندلسى جميل ، ولكنه لا يحمل تاريخ كتابته(١) .

وقد قضينا فى دراسة هذا المخطوط والنقل منه فترات طويلة ، وانتفعنا

---

(١) هذا وقد كتبت عن هذا الاكتشاف بحثاً مفصلا ، نشر بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد فى المجلد الثالث عشر (سنة ١٩٦٥ — ١٩٦٦) . ثم ألقيت بعد ذلك عنه محاضرة بالإنجليزية بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن فى ربيع سنة ١٩٦٧

بمحتوياته أعظم انتفاع ، فى هذه الطبعة الرابعة من كتابنا ، وما نقلناه منه يرى الضياء لأول مرة .

وتوجد إلى جانب ذلك قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيّان فى مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة كوديرا) ، تقع فى ١٣٦ صفحة صغيرة ، وتشتمل على حوادث سنى ٣٦١ — ٣٦٤ ﻫ ، وهى أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وتحتوى على معلومات هامة عن الشئون المالية والإدارية فى هذا العصر .

فإذا ذكرنا بعد ذلك كله ، ما نقله الكتاب والمؤرخون اللاحقون مثل ابن بسام صاحب الذخيرة ، وابن عذارى صاحب البيان المغرب ، وابن الخطيب ، فى الإحاطة ، وأعمال الأعلام ، والمقّرى فى نفح الطيب ، من الفصول والشذور العديدة ، من تاريخ ابن حيان ، أدركنا أننا قد ظفرنا فى الواقع بقدر كبير ، وربما بمعظم محتويات هذا التاريخ العظيم الجامع ، الذى يعتبر بحق من أقيم مصادر التاريخ الأندلسى ، وأكثرها اتزاناً ، وأقواها من حيث الروح التحليلية والنقدية ، ولا سيما فيما يتعلق بحوادث سقوط الخلافة الأموية ، وأوائل عهد الطوائف ، وهو العصر الذى أدركه ابن حيان وعاش فيه ، وشهد أحداثه المثيرة ، وترك لنا عنها أبدع الصور وأقواها .

ونكتفى بهذه الإشارة إلى المصادر المخطوطة ، وهى عديدة ذكرت فى مواضعها ، وكذلك المصادر الأخرى من عربية وقشتالية وغيرها ، فقد ذكرت كذلك فى مواضعها ، وسوف نثبتها جميعاً فى نهاية الكتاب فى ثبت خاص .

وأما المصادر والنصوص والوثائق اللاتينية والقشتالية ، فقد راجعت معظمها فى مدريد ، فى المكتبة الوطنية ، وقسم المخفوظات التاريخية ، وكذلك فى مكتبة معهدنا المصرى بمدريد ، وهى تضم مجموعة نفيسة من مصادر التاريخ الأندلسى .

* * *

ولا بد لى أن أكرر هنا ما سبق أن ذكرته فى مقدمة الطبعة الأولى ، وهو أنى بذلت فى كتابة هذا المؤلف الذى يمتزج فيه تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، جهداً خاصاً لتمحيص الروايات والنصوص العربية والإفرنجية ، واستخراج الرواية الراجحة ، وتكوين الرأى المستقل مهما يكن هذا الرأى

ومما تجدر ملاحظته أن تاريخ الأندلس كتاريخ الحروب الصليبية ، يمتاز فى كثير من الأحيان بتباين واضح بين الرواية الإسلامية والرواية النصرانية ، وقد تتأثر هذه الرواية أو تلك ، بالمؤثرات القومية أو الدينية ؛ ولكن الرواية الإسلامية فيما يتعلق بتاريخ الأندلس ، تبدو على العموم أقل تحاملا ، وأكثر دقة واعتدالا . وأما الرواية النصرانية فكثيراً ما يشوبها الإغراق والتحامل ، وينقصها الإنصاف والدقة . ويرجع ذلك إلى أن الروايات النصرانية الأولى ، التى كتبت عن تاريخ اسبانيا المسلمة ، كانت من تصنيف بعض الأحبار المتعصبين ، وإلى أن مؤرخى اسبانيا المحدثين ، لبثوا حتى أواخر القرن الثامن عشر يكتبون تاريخ اسبانيا من ناحية واحدة ، ويرجعون إلى المصادر النصرانية دون غيرها ، ويجتنبون كل بحث أو تنقيب فى المصادر العربية ، وذلك بالرغم من أن تاريخ اسبانيا المسلمة يشغل أعظم مكانة فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ؛ ويكون صفحة من أمجد صفحاته . وقد نعى النقد الإسبانى الحديث نفسه هذا المسلك على مؤرخى اسبانيا النصرانية ، فمثلا يقول العلامة المستشرق الإسبانى جاينجوس فى مقدمة ترجمته لكتاب نفح الطيب : « إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانيين تحدوهم عاطفة بغض قومى عميق ، أو نزعة تعصب دينى ، أبدوا دائماً أبلغ الإحتقار لمؤلفات العرب .. فكانوا يرفضون وسائل البحث التى تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة ، ويهملون المزايا التى قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية ، ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد . وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذى يطبع كتاباتهم أثر واضح . ذلك أن تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ما يزال بالرغم من كل ما أفاض عليه النقدة المحدثون ، معتركاً من الخرافة والمتناقضات » .

وقد أرسل العلامة جاينجوس هذه الصيحة منذ نحو قرن . ومع ذلك فإن فريقاً من المؤرخين والمفكرين الإسبان ، ما زال حتى عصرنا يعتبر تاريخ الأمة الأندلسية صفحة بغيضة من التاريخ القومى ، وأن القضاء على الأمة الأندلسية وعلى حضارتها إنما هو نصر قومى باهر ، وأن مطاردات ديوان التحقيق المروعة لبقايا الأمة المغلوبة ، إنما هى عمل إنقاذ وسلام . وينسى هذا الفريق أو يتناسى كل المزايا ، وكل الجهود الإنتاجية ، وكل التراث الحضارى ، وكل التقدم الإنسانى الذى

حققه المسلمون فى اسبانيا ؛ بل نجد فى العصر الحديث عالماً إسبانياً مثل المستشرق سيمونيت ، يبرر ، بل ويمجد العمل الوندلى الذى ارتكبه الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، بجمع الكتب العربية من المسلمين بعد سقوط غرناطة بقليل ، وقد بلغت زهاء مائة ألف أو تزيد ، والاحتفال بإحراقها أكداساً فى ميادين غرناطة ، لكى تحرم الأمة المغلوبة بذلك من غذائها الروحى والفكرى .

على أن البحث الغربى الحديث ، استطاع أن يستدرك كثيراً من شوائب هذا النقص ، الذى يكتنف تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، فدرست الكتب والوثائق العربية منذ أوائل القرن الماضى ، وتبوأت المصادر الإسلامية مكانها إلى جانب المصادر النصرانية ، وترجم البعض منها إلى اللغات الأوربية ، وظهرت طائفة كبيرة من الكتب والبحوث النقدية بمختلف اللغات الأوربية ومنها الإسبانية ، تكشف للغرب عن كثير من الحقائق المتعلقة بتاريخ الأندلس ، وأحوال المجتمع الإسلامى فى اسبانيا ، وتكشف بالأخص عن القسط البارز ، الذى ساهمت به المدنية الإسلامية بالأندلس ، فى بناء الحضارة الإسبانية الحديثة ، وحضارة عصر الإحياء الأوربى .

هذا وقد راعيت فى سائر فصول هذه القصة الأندلسية المشجية ، أن أسلك سبيل التبسط المعتدل ، بعيداً عن الإيجاز المخل ، بعيداً فى الوقت نفسه عن الإسهاب والتفاصيل الكثيرة ، إلا مادعت إليه المناسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حريصاً خلال ذلك كله على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور فى إطارها النقدى ، الذى تدعمه الوثائق والنصوص والقرائن ، بعيداً كل البعد عن التأثر بالعاطفة أو الأهواء أو الاتجاهات القومية أو الدينية من أى نوع ، وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك ، إلى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال ، فى كتابة هذه الصفحات المشرقة المؤسية معاً من تاريخ الأمة الأندلسية .

وقد حرصت إلى جانب تاريخ اسبانيا المسلمة ، أن أكتب فى نفس الوقت تاريخ اسبانيا النصرانية ، فاستعرضت منذ البداية نشأة المملكة النصرانية الأولى ، ثم تاريخ الممالك النصرانية اللاحقة ، ثم تناولت تاريخها تباعاً فى عصورها المتعاقبة ، وعنيت بعد ذلك بتتبع أحداث المعركة الأبدية المضطرمة ، التى نشبت بين الأندلس المسلمة ، وبين هاته الممالك النصرانية ، وهى التى غدت فيما بعد محور التاريخ الأندلسى

كله ، ثم تحولت من جانب اسبانيا النصرانية إلى ما يسميه المؤرخون الإسبان « معركة الاسترداد » La Reconquista ، وانتهت إلى نتيجتها الطبيعية المحتومة ، أعنى إلى القضاء على دولة الإسلام فى اسبانيا .

وهذه الطبعة الجديدة من « دولة الإسلام فى الأندلس » تتضمن بعض الإضافات والنصوص الجديدة ، التى استطعنا أن نقتبسها بالأخص من « السفر الخامس » من تاريخ ابن حيان ، وهو الذى يتضمنه مخطوط المكتبة الملكية الذى سبق ذكره ، وقد كنا لحسن الطالع ، أول من وفق إلى مراجعته والانتفاع به . وقد نقلنا منه كثيراً من النصوص والوثائق الهامة ، ولا سيما كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة ، وكتابه عن موقعة الخندق ، وغيرهما من الوثائق الرسمية التى ترى الضياء لأول مرة فى البحوث الأندلسية . كما تتضمن هذه الطبعة فصلين جديدين ينشران لأول مرة ، الأول عن نظم الحكم والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى عصر الإمارة والخلافة ، والثانى عن الحركة الفكرية الأندلسية .

هذا إلى ما تتضمنه هذه الطبعة أيضاً من النصوص والتعليقات الكثيرة ، المستمدة من المصادر النصرانية والقشتالية ، وهو أثر من آثار المراجعة المستمرة التى عكفت عليها فى مدريد ، خلال رحلاتى المتوالية إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

ولقد تمنيت فى ختام مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، أن يكون صدوره « بداية مشجعة تبعث إلى اهتمام الباحثين بهذه الصفحة المجيدة من تاريخ الإسلام فى الغرب » . وإنه لما يدعو إلى الغبطة ، ما يلاحظ من تقدم الدراسات الأندلسية وانتعاشها فى العهد الأخير ، وذلك سواء فى ميدان الكتابة والتصنيف ، أو ميدان نشر الآثار الأندلسية المخطوطة ، وهو نشاط تساهم القاهرة فى قسميه بأوفى نصيب .

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٨٩
الموافق مارس سنة ١٩٦٩

محمد عبد الله عنان

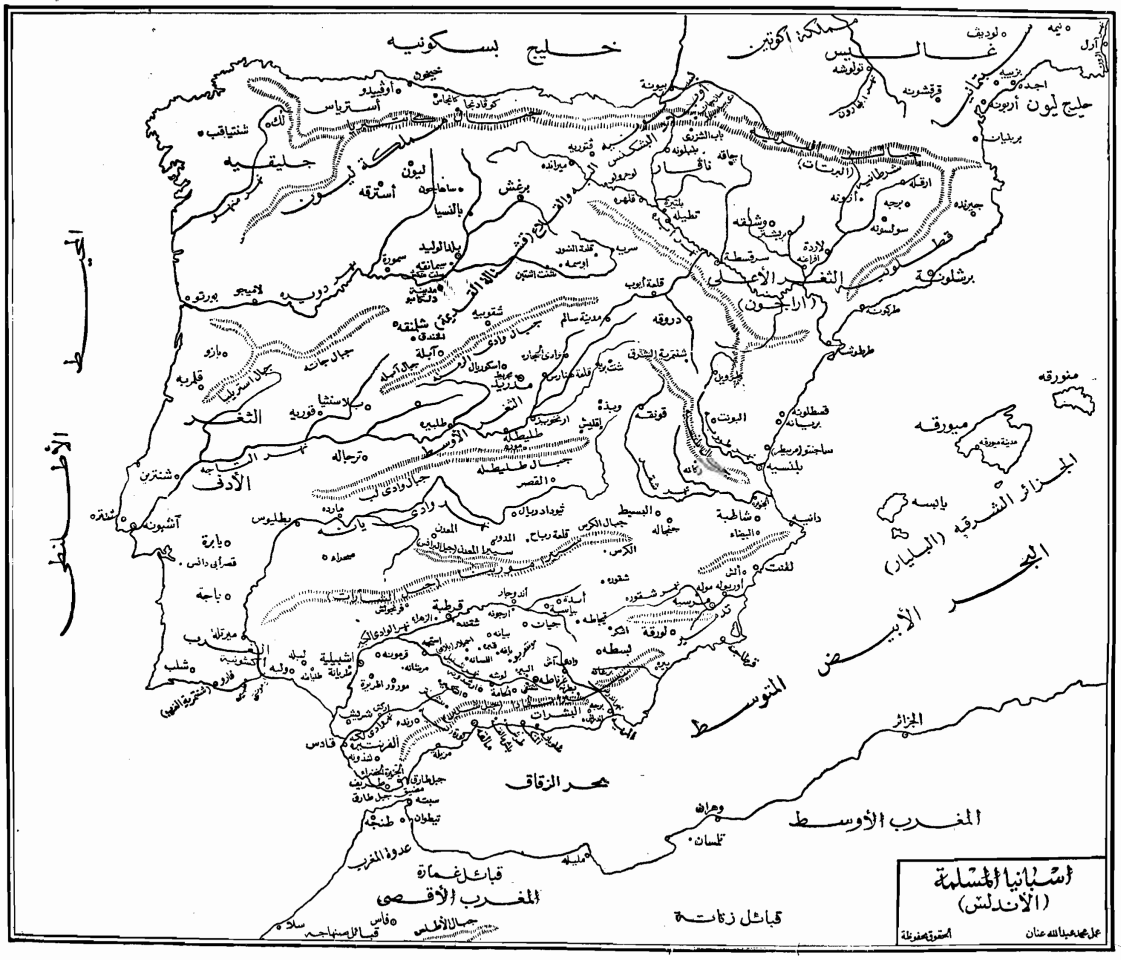

إسبانيا المسلمة
(الأندلس)
عمل محمد عبد الله عنان
الحقوق محفوظة
خليج بسكونيه
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلنطي
الجزائر الشرقية (البليار)
ميورقه
منورقه
يابسه
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
قبائل زناتة
عدوة المغرب
قرطبة
إشبيلية
طليطلة
سرقسطة
بلنسية
برشلونة
مرسية
غرناطة
ألمرية
مالقه
لشبونة
باجة
ماردة
بطليوس
قادس
سبتة
طنجة
وهران
تلمسان
الجزائر
مليله
فاس

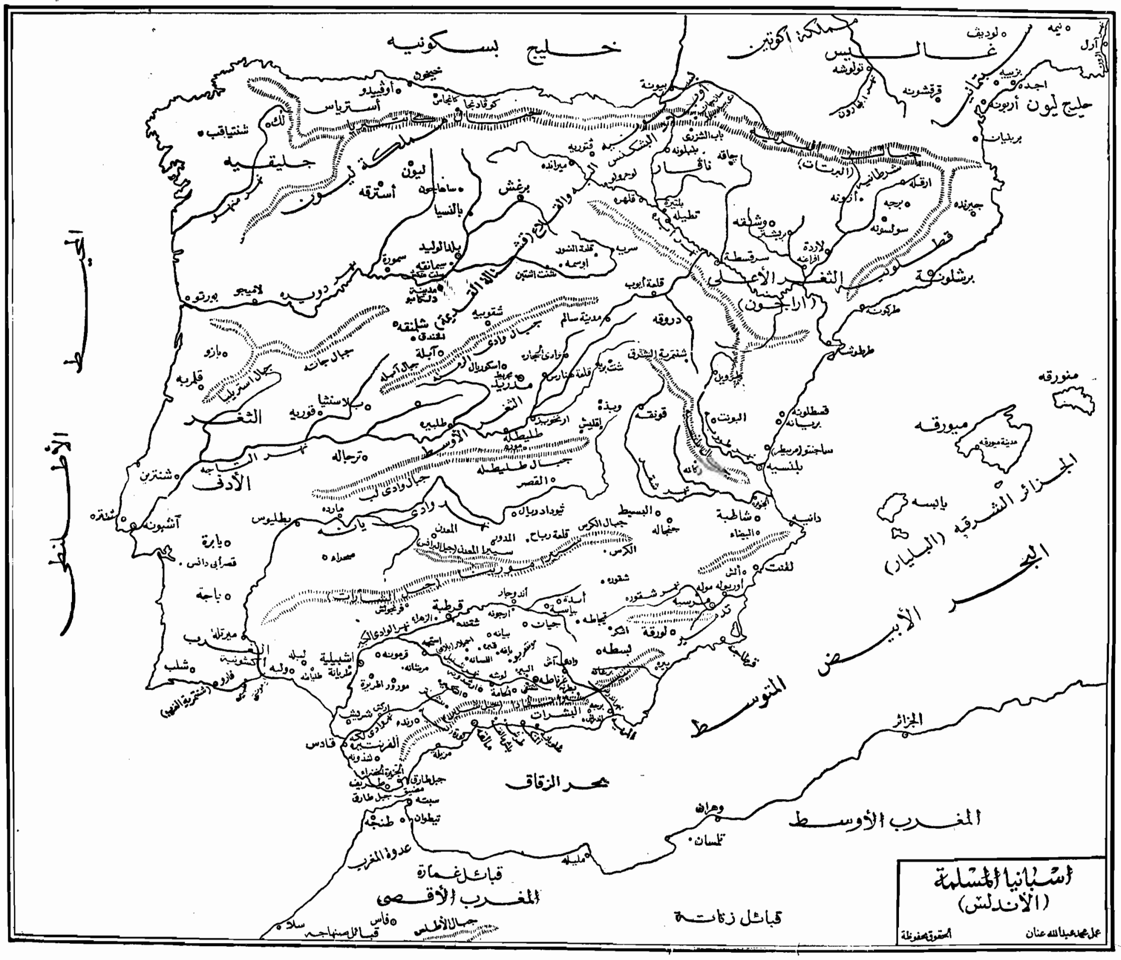

اسبانيا المسلمة
(الأندلس)
عمل محمد عبدالله عنان
الحقوق محفوظة
خليج بسكونيه
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
ميورقه
منورقه
يابسه
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
قبائل زناتة
عدوة المغرب
جليقيه
أستورياس
ليون
أسترقه
برغش
الثغر الأعلى
الثغر الأدنى
الثغر الأوسط
طليطلة
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
المرية
مرسية
بلنسية
سرقسطة
برشلونة
طرطوشة
قادس
جبل طارق
سبتة
طنجة
تيطوان
وهران
تلمسان
الجزائر
مليلة
فاس
سلا
أشبونة
شنترين
باجة
شلب
باره
بطليوس
ماردة
قلمرية
بازو

الكتاب الأول

فتوح العرب

فى إفريقية والأندلس وغاليس

وعصر الولاة فى الأندلس

٢٢ – ١٣٨ هـ : ٦٤٣ – ٧٥٥ م

الفصل الأول

فتوح العرب في إفريقية

الصراع بين الدولتين الإسلامية والرومانية . اتجاه الفتوح الإسلامية نحو الغرب . غزو برقة . جرجير حاكم إفريقية الروماني . موقعة سبيطلة وهزيمة الروم . فتح سبيطلة عقد الصلح . إفريقية وقت الفتح الإسلامي . أحوالها في ظل الحكم الروماني . انتقالها إلى الدولة الشرقية . فتحها على يد الوندال . كلمة بربر مدلولها . إستعادة الدولة الشرقية لإفريقية . ضعفها وانحلالها . وقف الفتوح العربية واستئنافها على يد الدولة الأموية . موقعة حصن الأجم . إفتتاح سوسة وحصن جالولاء . ولاية عقبة بن نافع الفهري لإفريقية . افتتاحه لأقطار المغرب . بناؤه لمدينة القيروان . ولاية أبي المهاجر الأنصاري . ولاية عقبة الثانية . مسيره ثانية إلى المغرب . ثورة البربر وقيام كسيلة بن لمزم . هزيمته للمسلمين واستيلاؤه على القيروان . ولاية زهير البلوي . زحفه على القيروان . مقتل كسيلة وافتتاح القيروان . هجوم الروم من البحر على برقة . هزيمة العرب ومقتل زهير . مسير حسان بن النعمان إلى إفريقية . غزو العرب لقرطاجنة واستيلاؤهم عليها . فقدهم إياها ثم استردادهم لها . ثورة البربر وقيام الكاهنة . القتال بين العرب والبربر . هزيمة العرب ارتدادهم إلى برقة . عود حسان إلى غزو المغرب . انصراف البربر عن الكاهنة وهزيمتها . تنظيم حكومة إفريقية وتجديد القيروان . عزل حسان وولاية موسى بن نصير . نشأة موسى وحياته الأولى . الخلاف على تاريخ توليته لإفريقية . عود البربر إلى الثورة . هزيمتهم وسحق ثورتهم . فتح موسى لطنجة . لاية طارق بن زياد لها . إنشاء موسى للأسطول . غزو العرب لجزائر البليار وصقلية وسردانية .

كان الصراع الذي نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة، وبين الدولة الرومانية الشرقية ، يضطرم حيثما تبسط الدولة الشرقية سلطانها . وكانت بسائط الشام مهاد المعارك الأولى بين الدولتين ، وكانت أول قطر غنمته الخلافة من أراضي الدولة الرومانية ؛ ثم افتتح العرب مصر بعد الشام ، وهي أيضاً ولاية رومانية ، وكان افتتاحها في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، على يد عمرو بن العاص ، وذلك في المحرم سنة عشرين من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٤٠ م) . ولما كانت مصر تتصل من الغرب بأملاك أخرى للدولة الرومانية هي الولايات الإفريقية ، فقد كان من الطبيعي أن يتخذ العرب مصر قاعدة لافتتاح إفريقية ، توطيداً لسلطانهم في مصر

والشام ، وإتماماً لسلسلة الفتوحات الغربية . غير أن تقدمهم نحو الغرب كان محفوفاً بمشاق وصعاب لم يألفوها فى فتوحهم الأولى ، فقضوا زهاء نصف قرن فى معارك عنيفة مع الروم (الرومان) والبربر ، وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم ، بأكثر من هزيمة شديدة ، وواجهوا عدة ثورات محلية عنيفة ، وانهار سلطانهم الفتى غير مرة ، قبل أن يستقر نهائياً فى إفريقية :

وبدأ العرب فتوحهم فى إفريقية عقب افتتاحهم لمصر مباشرة . ففى سنة اثنتين وعشرين من الهجرة ، أعنى بعد افتتاح مصر بنحو عامين ، سار عمرو ابن العاص غرباً إلى برقة ، فافتتحها وصالح أهلها على الجزية ، ثم افتتح طرابلس (أو إطرابلس) بعد أن حاصرها شهراً ولجأ سكانها إلى سفنهم فى البحر ، ولكنه تركها بعد اغتنام ما فيها[١] . وفى خلافة عثمان توغل العرب فى قفار إفريقية . وفى سنة سبع وعشرين (٦٤٧ م)[٢] سار عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى خلف عمراً فى ولاية مصر إلى إفريقية فى نحو عشرين ألف مقاتل[٣] ، وسارت معه حامية برقة بقيادة عقبة بن نافع ، وكان عمرو قد ولاه على تلك الأنحاء[٤] . وقصد الغزاة بادئ بدء إلى طرابلس وهى يومئذ أغنى وأمنع ثغور إفريقية[٥] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (طبعة لجنة ذكرى جب) ص ١٧١ ، وأبو الفداء (مصر) ج ١ ص ١٦٤ ، وابن الأثير (مصر) ج ٣ ص ١٠ .

(٢) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (ص ١٨٧) وهى أقدم رواية . ويوافقه البلاذرى ، وهو معاصر له تقريباً ، ولكنه يضيف إلى ذلك أن هناك رواية بوقوع هذه الغزوة سنة ٢٨ هـ ، وثالثة بوقوعها سنة ٢٩ (فتوح البلدان – مصر – ص ٢٢٦) . ويضع الطبرى تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٧ هـ متفقاً مع ابن عبد الحكم والبلاذرى (مصر ج ٥ ص ٤٨ و ٤٩) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخها فى سنة ٢٦ هـ (ج ٣ ص ٣٣) .

(٣) فتوح مصر ص ١٨٤ .

(٤) فتوح البلدان ص ٢٢٤ .

(٥) يطلق العرب اسم إفريقية على الأقطار الواقعة شمال هذه القارة دون مصر . وذكر ياقوت فى معجمه أن حد إفريقية من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً ، وعرضها من البحر إلى الرمال التى فى أول السودان (معجم البلدان فى مقال إفريقية) . وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول ، إفريقية ويمتد من حدود مصر الغربية إلى شرق الجزائر ، والثانى المغرب الأدنى ويشمل قطر الجزائر تقريباً ، والثالث المغرب الأقصى ممتداً من غرب الجزائر إلى المحيط ، ويشمل إقليم مراكش وطنجة . وكانت كلمة إفريقية تطلق أيضاً فى العصور الوسطى بمعنى أخص على إقليم تونس وما يليه .

ولكن الروم تقدموا إلى لقاء المسلمين فى مائة وعشرين ألف مقاتل[١] بقيادة جريجوريوس أو جرجير حاكم إفريقية الرومانى[٢]. وتختلف الرواية الإسلامية فى أمر جرجير هذا ، ويقول البعض إنه كان من الفرنج ، وليس من الروم ، وإنه كان ملك الفرنجة فى إفريقية ما بين طرابلس وطنجة ، وإن سبيطله كانت دار ملكه . والحقيقة أن إفريقية كانت فى ذلك الحين ولاية رومانية ، تخضع لقيصر (إمبراطور) قسطنطينية ، وكان جرجير أو جريجوريوس حاكمها من قبل الإمبراطور . على أن حاكم إفريقية الرومانى ، كان يتمتع وقتئذ بكثير من الإستقلال ، نظراً لضعف السلطة المركزية فى عاصمة الدولة الشرقية . وهكذا كان شأن جرجير ، فقد كان حاكماً بأمره فى ولايته . ولما علم العرب بتحرك جرجير ، تركوا حصار طرابلس وساروا إلى لقاء الروم ، ونشبت بين الجيشين مدى أيام معارك شديدة فى ظاهر سبيطلة (سوفيتولا) بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة ، وهى عاصمة إفريقية يومئذ ، فهزم الروم هزيمة شديدة ، وقتل قائدهم جريجوريوس ، وأسرت إبنته (٢٨ هـ — ٦٤٨م)[٣] . ثم حاصر عبد الله سبيطلة ، وافتتحها وخربها ، وبث جيوشه فى تلك الأنحاء حتى قفصة . ثم عقد الصلح مع أهلها على أن يؤدوا الجزية . وقضى فى تلك الغزوات خمسة عشر شهراً ، ولكنه لم ينشئ فى البلاد المفتوحة حكومة جديدة ، ولم يتخذ بها قاعدة إسلامية . ثم عاد إلى مصر بعد أن أنشأ حامية فى برقة وأخرى فى زويلة[٤] .

ويجب قبل أن نمضى فى الكلام على افتتاح إفريقية أن نذكر كلمة عما كانت عليه أحوالها وظروفها وقت الفتح الإسلامى . كانت إفريقية منذ زوال قرطاجنّة القديمة ، فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن الخامس بعده ، ولاية رومانية تخضع لسلطة رومة أولا ، ثم بعد سقوطها لسلطة قسطنطينية أو الدولة

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ — **Gibbon : Roman Empire, Ch. LI,**

(٢) ابن خلدون — كتاب العبر — ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) روى ابن عبد الحكم أن ابنة جريجوريوس وقعت بعد أسرها فى نصيب رجل من الأنصار ، ولكنها انتحرت أثناء الطريق (فتح مصر ص ١٨٥) .

(٤) ابن عبد الحكم ص ١٨٣ .

الرومانية الشرقية ؛ ولما غزت القبائل الجرمانية رومة واستولت على معظم أقطار الدولة الرومانية الغربية ، نفذ الوندال إلى غاليا أو غاليس (جنوبى فرنسا) ثم إلى اسبانيا ، واستقر الوندال حيناً فى جنوبى إسبانيا فى ولايات الأندلس ، التى سميت يومئذ باسمهم « ڤاندالیتا » Vandalita أو ڤاندلوسيا Vandalusia أى بلد الوندال[١] .

وكان البربر أو سكان إفريقية ، قبل الفتح الرومانى ، يدينون بالوثنية ، ولكن رومة استطاعت منذ أوائل القرن الرابع ، أن تفرض النصرانية على معظم القبائل . ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى ، إن القبائل البربرية كانت وقت الفتح الإسلامى تدين باليهودية ، وإنهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بنى إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم ، وكان من هؤلاء قبائل جبل أوراس وملكتهم الكاهنة[٢] . وكان الفتح الرومانى شديد الوطأة على القبائل المغلوبة ، وكانت النظم الإدارية والمالية التى فرضتها عليهم رومة غاية فى التعسف والشطط ، مع ما يقترن بها من اقتضاء الضرائب والمغارم الفادحة ؛ فكان البربر يتوقون إلى التخلص من نيرها ، وقد نزعوا فعلا إلى الثورة فى عهد الإمبراطور تيودوسيوس فى أواخر القرن الرابع ، ونادوا بأحد زعمائهم ملكاً عليهم ، ولكن الثورة أخفقت وأخمدت . ولما انتقلت إفريقية إلى سلطان قسطنطينية بعد سقوط رومة ، كانت قد اضمحلت ثروتها ، واضطربت نظمها ، ومزقتها الخلافات الدينية ، وضعف سلطان الدولة عليها ، وكثر الخوارج من الحكام والزعماء المحليين . وفى أوائل القرن الخامس ، عبر الوندال البحر من اسبانيا إلى إفريقية ، بقيادة ملكهم چنسريك ، وافتتحوها فى سنة ٤٢٩ م ، وعاونهم البربر[٣] حباً فى التخلص من نير رومة . ولكن الوندال عاثوا فى إفريقية أيما عيث ، وخربوا المدن والمنشآت

---

(١) سوف نفصل فى حاشية لاحقة أصول هذه التسمية وفقاً لمختلف الروايات .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) يطلق العرب كلمة « البربر » على سكان « إفريقية » أعنى من برقة إلى المحيط ، وأصل التسمية مجهول . ولكن المحقق أنها كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى بعصور بعيدة . وترجعها الرواية اللاتينية إلى أقدم العصور . فكان يطلقها اليونانيون القدماء على الأمم ذات اللغات واللهجات المعقدة بوجه عام وحيثما وجدت ، وعلى الأمم الغريبة عن لغة اليونانيين وحضارتهم . وكان يطلقها الرومان على شعوب الإمبراطورية خلا إيطاليا وولاياتها ، ثم انتهوا إلى تحديد معنى الكلمة بإطلاقها على القبائل=

الرومانية ، واستقروا سادة فى البلاد المفتوحة مدى قرن ، عانى البربر فيه أمر ضروب العسف والطغيان . وفى سنة ٥٣٤ م بعث يوستنيان ، إمبراطور (قيصر) الدولة الشرقية قائده الشهير بليزاريوس إلى إفريقية على رأس جيش ضخم فافتتحها وحطم سلطان الوندال وأجلاهم عنها ؛ ومن ذلك الحين عادت إفريقية إلى سلطان الدولة الشرقية ، وظلت كذلك حتى الفتح الإسلامى .

وكانت إفريقية يومئذ فى حال يرثى لها من الانحلال والتفكك ، يسود الاضطراب نظمها وإدارتها ، وتمزقها الأهواء والمطامع والفتن ؛ وكانت عصور من الطغيان والجور والمصادرة قد عصفت بمواردها ، ولكن الثروات كانت مع ذلك تتكدس فى بعض الثغور والمدن ؛ وكانت الدولة الشرقية قلما تعنى بإصلاح هذه الأقطار أو إعداد وسائل الدفاع عنها ، وإنما كانت ترى فيها قبل كل شىء مورداً للكسب على نحو ما قدمنا ، فكان البربر على استعداد للتخلص من هذا النير المرهق ، ومعاونة الفاتحين الجدد .

ولكن العرب شغلوا حيناً عن متابعة الفتح حينما عصفت ريح التفرق بالخلافة الإسلامية ، ونشب الخلاف بين على بن أبى طالب ، الذى ولى الخلافة على أثر مقتل عثمان ، فى مستهل سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) ، وبين خصمه ومنافسه القوى معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، واضطرمت ثورة الخوارج التى كادت أن تزعزع أسس الدولة الإسلامية الناشئة ، وشغلت الجزيرة العربية بضعة أعوام ، بتلك الحوادث والفتن الداخلية . وكان مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى رمضان سنة ٤٠ هـ خاتمة هذا النضال المؤلم ، فآلت الخلافة إلى معاوية ، وقامت الدولة الأموية فى الشام لتفتتح فى تاريخ الإسلام عصراً جديداً .

وكانت الدولة الأموية ، تتشح إلى جانب ثوبها الخلافى ، بأثواب الملك

= المتوحشة أو المعادية خارج الإمبراطورية بأسرها . ثم حرفها العرب عند الفتح من اللاتينية وأطلقوها على الأمم والقبائل التى تسكن إفريقية (خلا مصر) راجع (Gibbon. ibid, Chap. LI (note). ويقول ابن خلدون فى أصل هذه التسمية ، إن أحد ملوك التبابعة العرب لما غزا المغرب وإفريقية ، ورأى هذا الجيل من الأعاجم ، وسمع رطانتهم تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر . والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة (كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩) .

الإمبراطورى ، وهكذا قدر لها أن تكون منشئة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى . وما كادت تستقر الأمور الداخلية ، حتى نشطت سياسة الفتح مرة أخرى. وكانت الخلافة فى نفس الوقت الذى تسير فيه جيوشها نحو الشمال وتقترب من عاصمة الدولة الشرقية ، تتجه ببصرها نحو الغرب ، حيث كانت فتوحها فى إفريقية ما تزال بحاجة إلى التوسع والتوطد . وهكذا وجه معاوية عنايته إلى إتمام فتح إفريقية . وكان الروم قد عادوا إلى الأرض المفتوحة عقب انسحاب العرب ، فعاد إليها الجور والإرهاق ، وأثقل كاهل البربر بما فرض عليهم من الأعباء والمغارم الجديدة ، فاتصل زعماؤهم بالعرب واستحثوهم إلى العود واستئناف الفتح . ففى سنة ٤٥ هـ (٦٦٥ م) سار معاوية بن حُديج التجيبى (١) إلى إفريقية وهزم الروم عند حصن الأجم ، وتفرق الغزاة فى مختلف الأنحاء ، فسار عبد الله ابن الزبير إلى سوسة وافتتحها ، وافتتح عبد الله بن مروان حصن جالولاء ، وافتتحت عدة أخرى من البلاد والحصون .

وفى سنة خمسين (٦٧٠ م)(٢) قام العرب بأعظم فتح فى إفريقية بقيادة عقبة ابن نافع الفهرى . وكان عقبة جندياً عظيماً ، خبيراً بتلك الأنحاء والمسالك ، وكان يتولى قيادة حامية برقة منذ فتحها ، فاختاره الخليفة (معاوية) لولاية إفريقية ، وبعث إليه بعشرة آلاف مقاتل ليتم فتحها . فجاز عقبة وهاد برقة ، وتوغل غرباً حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع العواصم والثغور الإفريقية تباعاً ، وهزم جيوش الروم والبربر فى مواقع عديدة ، وتوغل فى مفاوز المغرب الأقصى ، ثم

---

(١) وذكر بعض المؤرخين أن معاوية بن حديج كان فى ذلك الحين والياً على إفريقية (ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٤) ، وذكر البلاذرى أنه ولى بعد ذلك على مصر سنة ٥٠ هـ ، وأنه هو الذى بعث عقبة بن نافع إلى إفريقية (ص ٢٢٧) ، وذكر الطبرى أن معاوية بن حديج ولى مصر وعزله معاوية عنها سنة ٥٠ هـ (ج ٦ ص ١٣٤) . ويضع ابن الأثير تاريخ ولاية ابن حديج لمصر فى سنة ٤٧ هـ . على أن صاحب النجوم الزاهرة الذى عنى عناية خاصة بتعداد ولاة مصر يقول : إن حاكم مصر من سنة ٤٥ — ٤٨ هـ هو عقبة بن عامر الجهنى (النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٠) ، وإن الذى وليها بعده هو مسلمة بن مخلد الأنصارى ، واستمر فى ولايتها حتى سنة ٦٢ هـ ، وفى ولايته وقع فتح إفريقية الكبير .

(٢) هذه هى الرواية الراجحة ، ولكن ابن عبد الحكم يضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٦ هـ .

أنشأ مدينة القَيْرُوان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة ، وحصناً للدفاع عنها ، وقاعدة لرد الروم والبربر .

ولم يمض قليل على قيام عقبة بذلك الفتح الكبير ، حتى عزله والى مصر مسلمة بن مخلد الذى جمع له معاوية بين حكم مصر والمغرب[١] ، وولى مكانه على إفريقية أبا المهاجر الأنصارى ، فلبث فى ولايتها عدة أعوام لم تقع فيها حوادث تذكر . ثم عزل أبو المهاجر وأعيد عقبة سنة ٦٢هـ فى بدء خلافة يزيد بن معاوية . وكانت البلاد المفتوحة ما تزال تضطرم بعوامل الخروج والثورة . وكان الروم والبربر كلاهما يترقب الفرص ، ولكن عقبة شغل عن توطيد الدولة الفتية بفتوحات جديدة ، وعاد فاخترق المغرب إلى أقصاه ، ووصل إلى ساحل المحيط هذه المرة . وهنا تقول الرواية العربية ، إن عقبة لما انتهى إلى المحيط دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره ، ، ثم قال : « اللهم إنى أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت »[٢] .

فى ذلك الحين ثار البربر بقيادة زعيم لهم يدعى كسيلة بن لمزم[٣] كان قد اعتنق الإسلام وحالف العرب ثم تغير عليهم ، وانضمت إليه جموع كثيرة من الروم والبربر ، وانتهز فرصة تفرق المسلمين فى مختلف الأنحاء ، وانقض بجموعه على جيش عقبة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة هزم فيها المسلمون ، وقتل عقبة وجماعة من القادة (سنة ٦٢ هـ) وزحف كسيلة على القيروان واستولى عليها ، وارتد حاكمها زهير بن قيس البلوى بقواته القليلة إلى برقة ، وكادت بذلك تذهب دولة العرب فى إفريقية .

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ) اعتزم أن يعمل لاستعادة إفريقية ، فولى عليها زهير بن قيس البلوى ، وكان منذ سقوط القيروان يتولى الدفاع عن برقة ، وأمده بجيش ضخم ، فزحف زهير على القيروان سنة ٦٩هـ (٦٨٨ م) والتقى على مقربة منها بجيش كسيلة ، فهزم البربر بعد معركة شديدة

---

(١) ويضع ابن عبد الحكم تاريخ هذا العزل فى سنة ٥١ هـ ، ويقول الطبرى إنه وقع فى سنة ٥٠ هـ (ج ٦ ص ١٣٤) .

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٩٩ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٢ .

(٣) هذه هى تسمية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٠) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٠٨) ولكن ابن الأثير يسميه كسيلة ابن كرم .

قتل فيها كسيلة وكثير من أصحابه ، ودخل زهير القيروان وترك فيها حامية للدفاع عنها ، وفرق جنده لإخضاع الثوار فى مختلف الأنحاء . ولكن الروم انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدهم قيصر قسطنطينية[١] بأسطول من صقلية ، فنزلوا فى قرطاجنّة ثم زحفوا على برقة فى جموع عظيمة ، وعلم زهير بتلك المفاجأة ، فارتد للدفاع عن برقة ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون ، وقتل زهير ومعظم ضباطه ، وذهب المغرب من قبضة المسلمين مرة خرى .

وكان وقع هذا الخطب شديداً فى حكومة دمشق ، وكانت تشغل يومئذ بمحاربة ابن الزبير وصحبه الخوارج عليها ، فمضت أعوام أخرى قبل أن تتمكن من العناية بشئون إفريقية ، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير ، وجه عبد الملك عنايته إلى استعادة إفريقية ، فولى عليها حسان بن النعمان الغسانى سنة ٧٣ هـ[٢] (٦٩٢ م) وسيره إليها فى جيش ضخم كان أعظم قوة سيرتها الخلافة إلى إفريقية ، فاخترق حسان برقة وقصد قرطاجنة عاصمة إفريقية الرومانية ، وكانت لاتزال فى يد الروم ولم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر ، وقربها من صقلية حيث كانت ترسل إليها الأمداد بسرعة ، فحاصرها بشدة ثم اقتحمها واستولى عليها ، ولكن الإمبراطور سير إليها جيشاً بقيادة حاكمها يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة من القوط أرسلها ملك اسبانيا القوطى الذى أزعجه اقتراب العرب من بلاده ، فانسحب العرب وارتدوا إلى القيروان ، حتى إذا جاءتهم الأمداد أعادوا الكرة على قرطاجنة ، وهزموا الروم والقوط هزيمة شديدة ، ففروا إلى سفنهم ، وخربت قرطاجنة وهدمت حصونها القوية . ثم سار حسان غرباً وهزم الروم والبربر فى عدة مواقع ، واستعاد الإسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط[٣] .

وعاد حسان إلى القيروان لينظم جيشه . وكان البربر والقبائل الجبلية قد

---

(١) كان إمبراطور قسطنطينية فى ذلك الحين يوستنيان الثانى ، ٦٨٥ — ٦٩٥ م .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٠٠ ؛ ولكن ابن الأثير يضع تاريخ توليته فى سنة ٧٤ هـ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٣ ، ومعجم ياقوت تحت كلمة قرطاجنة ، وكذلك : Gibbon : ibid., Chap. L.

اجتمعوا منذ مقتل زعيمهم كسيلة ، فى مفاوز المغرب الأقصى ، تحت لواء امرأة من قبيلة جراوة يعتقدون فيها السحر والكهانة وتعرف بالكاهنة[١] ، وكانت تقيم ملكها فى جبل أوراس . فسار حسان لقتالها وخرجت إليه بجموعها، فالتقيا عند نهر نينى ، ونشبت بينهما موقعة هائلة هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وقتل منهم جمع كبير ، وارتد حسان إلى برقة . وسارت الكاهنة شرقاً حتى قابس واستولت على كثير من البلاد والحصون ، وبسطت سلطانها على معظم إفريقية مدى خمسة أعوام . ولبث حسان فى برقة حتى أمده عبد الملك بالجند ، فزحف على المغرب ثانية سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) ، ولم تر الكاهنة وسيلة لوقفه إلا أن تحول البلاد إلى خراب بلقع ، فهدمت جميع المدن والحصون ، وأحرقت جميع القرى والضياع الواقعة فى طريق المسلمين ، ولكن ذلك لم يثن حساناً عن عزمه ، فتابع سيره حتى أقاصى المغرب فى وهاد ومفاوز صعبة . وكان البربر قد سئموا نير الكاهنة وعسفها ، فهرع الكثير منهم إلى حسان يطلبون حمايته ، وتفرقت جموع الكاهنة ، وأدركها المسلمون بجبل أوراس فمزقت جموعها وقتلت . واستأمن البربر على الإسلام والطاعة ، وأن يمدوا المسلمين باثنى عشر ألف مقاتل . وولى حسان جبل أوراس ابنَ الكاهنة بعد أن استوثق من طاعته ، ثم عاد إلى القيروان بعد أن سحق كل مقاومة وقضى على كل نزعة إلى الخروج والثورة[٢] .

ولبث حسان بن النعمان بإفريقية حيناً ، ينظم شؤونها العسكرية والإدارية والمالية ، وينشئ الدواوين ويرتب الخراج والجزية ، ويوطد سلطان الحكم الجديد فى الثغور والنواحى . ثم جدد مدينة القيروان وأنشأ بها المسجد الجامع[٣] ، ولبث

---

(١) ويسميها ابن خلدون دهيا بنت ماتية بن تيفان (ج ٦ ص ١٠٩) ويسميها بعض المؤرخين الأوربيين داميا ؛ راجع **Aschbach : Geschicchte der Omaijaden in Spanien. B. 1.21**

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ . وفى روايته من حيث التاريخ شىء من التناقض ، فهو يؤرخ غزوة حسان الأولى وفتح قرطاجنة بسنة ٧٩ هـ ثم يؤرخ حرب الكاهنة المرة الثانية بعد أن يذكر أنها لبثت تحكم إفريقية خمسة أعوام بسنة ٧٤ هـ — ولعل هذا تحريف فى النقل أو الطبع ، إذ يقتضى ان يكون هذا التاريخ طبقاً لرواية ابن خلدون هو سنة ٨٤ هـ . ولكن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواية وثيقة يؤرخ غزوة حسان الأولى بسنة ٧٣ هـ ويؤرخها ابن الأثير بسنة ٧٤ هـ — وينقض رواية ابن عبد الحكم عن مقتل الكاهنة تاريخ هذه الواقعة (ص ٢٠١) .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ ، وابن عبد الحكم ص ٢٠١ .

فى منصبه حتى توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) فخلفه ابنه الوليد بعهد منه ، وولى عمه عبد الله بن مروان على مصر ، فعزل حساناً عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير اللخمى ، وكانت إفريقية تابعة لمصر فى شؤون الحكم والولاية كما بينا . وكانت ولاية موسى بن نصير لإفريقية سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

ويجب قبل أن نمضى فى الكلام عن حوادث إفريقية ، أن نقول كلمة عن الرجل الذى قدر أن يجوز الإسلام على يديه لأول مرة إلى القارة الأوربية ، وأن يكتب فيها صفحة من أمجد صفحاته . كان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب . ومع أن الرواية الإسلامية تتبع حياته بإفاضة منذ ولايته لحكم إفريقية ، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية ، شأنها نحو كثير من زعماء الإسلام فى القرن الأول من الهجرة . بيد أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين ، وأنه ولد سنة ١٩ هـ فى خلافة أمير المؤمنين عمر ، فى قرية من قرى الجزيرة ، أو بوادى القرى فى شمالى الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبته ، فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر بن وائل ، وان أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد فى موقعة عين التمر (سنة ١٢ هـ)[١] . وقيل إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بنى لخم ، وان أباه نصيراً كان على حرس معاوية بن أبى سفيان ؛ ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه[٢] .

وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب فى بعض المناصب الحربية والإدارية الهامة ، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية ، وأنه قاد بعض الحملات البحرية فى عصر معاوية بن أبى سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة[٣] . وفى بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حيناً ولى أخاه بشراً على البصرة فى سنة ٧٣ هـ ، وكان يتولى قيادة الجند

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٢ ، و «أخبار مجموعة فى فتح الأندلس» ص ٣ ، وأبو المحاسن فى النجوم الزاهرة (مصر) ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٧٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٠٩ ، والبلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٥ .

بمصر ، ندب موسى بن نصير لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر فى خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة . فلما وُلّى الحجاج حكم العراق فى سنة ٧٥ هـ ، اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل عبد العزيز ابن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به . ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبث بها يتبوأ لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكماً لإفريقية[1] .

وتختلف الرواية فى تاريخ ولاية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بيناً ، فالبعض يقول إنها كانت فى سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ فى عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت فى سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ فى عهد ابنه الوليد[2] ؛ ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثانى لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث فى إفريقية ، ولأن معظم الروايات تجمع على أن حسان بن النعمان والى إفريقية لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك ، وقد توفى عبد الملك فى شوال سنة ٨٦ هـ . وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد توفى قبل ذلك سنة ٨٥ هـ ، وندب عبد الملك ولده عبدالله أميراً

---

(١) وردت هذه التفاصيل فى كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك ، فإن الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والتفاصيل المفيدة عن رجالات الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية (راجع الكتاب المشار إليه – طبع مصر – ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها) . وقد اعتبره المستشرق الإسبانى جاينجوس **Gayangos** قديماً وصحيحاً ، وإن كان يشك فى نسبته لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة ؛ وانتفع به المستشرق الألمانى ڤايل **Weil** ، والمستشرق الإيطالى أمارى **Amari** . ويرى دوزى أن الكتاب غير قديم وغير صحيح ، وأنه يحتوى على أخطاء تاريخية وروايات خيالية غير معقولة ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون ابن قتيبة صاحب هذا التصنيف الضعيف ؛ ويرى المستشرق هاماكر ويوافقه دوزى أن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التاريخية الحماسية (مثل الكتب التى نسبت للواقدى) ، قد ألفت أيام الحروب الصليبية لبث الحماس فى نفوس المسلمين ، وتذكيرهم بمجد أسلافهم وبطولاتهم الخارقة . راجع دوزى :

Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne au moyen âge ; V.I. p. 21

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (ص ٢٠٣) ، ويتبعه صاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٦٢) ، وابن الأبار فى الحلة السيراء (ليدن ص ٧٠) ، والحميدى فى جذوة المقتبس (مصر ص ٣١٧) ، والنجوم الزاهرة (ج ١ ص ١٨٨) ، ويقول بالثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ١٤٤ و ٢٠٩) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٧٦) . وابن عذارى فى البيان المغرب (ج ١ ص ٢٣)

على مصر ، فدخلها في جمادى الآخرة سنة ٨٦هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل . وعزل عبد الله ، حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير . وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال فى سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز ابن مروان فى سنة ٨٤ هـ إلى برقة ، فافتتح درنة وسبى من أهلها جموعاً غفيرة . وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم ، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت . فما كاد موسى يلى الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير فى الحكم ، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سحقت الثورة فى كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار ، ولم يكن غزاها العرب بعد ، فافتتحها ، وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد الليثى ، وأثخن فى مفاوز المغرب الأقصى ، وطهرها من العصاة والمتآمرين ، وأحرز فى تلك الغزوات من الغنائم والسبى ما لا يحصى ، واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد فى جيشه آلافاً من البربر المسلمين ، واهتم بنشر الإسلام بين البربر اهتماماً عظيماً ، فأقبلوا على اعتناقه وذاع بينهم ذيوعاً كبيراً ، وهبت ريح من الأمن والسكينة على البلاد المفتوحة .

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا فى الحرب البرية ، ويئسوا من استرداد إفريقية ، قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها ، فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة (بناء السفن) على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولا ضخماً لحماية الثغور . وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى فى تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ابنه عبد الله فى السفن إلى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطى ، وافتتح مَيُورقة ومِنُورقة (٧١٠ م) ولكنه لم يكن فتحاً مستقراً[1] . وسارت

---

(١) تعرف هذه الغزوة بغزوة الأشراف لكثرة من اشترك فيها من أكابر المسلمين . وورد فى كتاب « الإمامة والسياسة » أن هذه الغزوة التى قادها عبد الله بن موسى كانت خاصة بصقلية لا بميورقة (ج ٢ ص ٧٣) .

حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت فى ثغورها ، وعادت مثقلة بالسبي والغنائم . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمالى إفريقية كله فى البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة(١) الواقع فى نهاية البحر الأبيض المتوسط شرقى طنجة ، وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ويحكمها زعيم من القوط أو الفرنج يدعى الكونت يوليان . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها ، أن ترد هجمات العرب ، رغم مجاورتهم لها من الجنوب والغرب ، وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين . على أن مشاريعه فى الفتح لم تكن تقف عند سبتة بل كانت تجاوزها إلى ما وراء ذلك البحر الشاسع ، الذى عرف العرب كثيراً عن شواطئه الشرقية والجنوبية ، ولكنهم لم يعرفوا بعد شيئاً أو لم يعرفوا سوى القليل عن شواطئه الشمالية والغربية : أجل ، كان موسى يتوق إلى افتتاح ما وراء ذلك البحر من الممالك والأمم المجهولة .

---

(١) ومقابلها الإفرنجى هو **Ceuta**

الفصل الثانى

إسبانيا قبل الفتح الإسلامى

أصل القوط . نزوحهم من الشمال إلى الجنوب . عبورهم نهر الدانوب . يهزمون الإمبراطور ديسيوس . هزيمتهم على يد الإمبراطور قسطنطين ثم الإمبراطور ڤالنس . زحف الهون على القوط . دخولهم فى طاعة الإمبراطور . ثورة القوط فى عهد هونوريوس . زعيم القوط ألاريك . عقدهم الصلح مع الإمبراطور واندماجهم فى الجيش الرومانى . استقرارهم فى غاليس . ڤاليا أول ملوكهم . تيودريك الأول يعاون الدولة فى محاربة آتيلا . تيودريك الثانى يفتتح إسبانيا من يد الوندال . قيام مملكة القوط فى اسبانيا . اعتناقهم للنصرانية . اسبانيا وقت الفتح الإسلامى . المجتمع الإسبانى . استئثار القوط بالسيادة والثراء . نفوذ رجال الدين . بؤس الشعب وانحلال الجيش . ركون القوط إلى الرفاهة والدعة . يهود إسبانيا . اضطهاد الكنيسة لهم وإرغامهم على التنصير . محاولتهم للثورة والمبالغة فى إرهاقهم . ملك القوط وتيزا والخوارج عليه . تفرق المملكة ونشوب الثورة . مقدم العرب إلى شواطىء الجزيرة . محاصرة العرب لسبتة . زعيم الثورة ردريك . الحرب بينه وبين وتيزا . مقتل وتيزا واستيلاء ردريك على الملك . الكونت يوليان حاكم سبتة والخلاف فى شأنه . الاتفاق بينه وبين وتيزا على الاستنجاد بالعرب . قصة فلورندا إبنة الكونت يوليان . أقوال الرواية الإسلامية فى شأنها . إنكار الرواية الإسبانية لصحتها . ما يرجحها فى نظ التاريخ .

كانت اسبانيا(١) فى الوقت الذى امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطىء القريبة منها ، وإلى الجزر المجاورة لها ، خاضعة لنير القوط . وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية ، ولاية رومانية تخضع لسلطان رومة . فلما اضمحل سلطان رومة ، وغزتها القبائل البربرية الجرمانية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ،

---

(١) لا يستعمل العرب اسم « اسبانيا » للإشارة إلى شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم ، وإنما يطلق العرب اسم « الأندلس » على شبه الجزيرة كلها (راجع الروض المعطار – مصر – ص ١) . وفى بعض الروايات العربية أن التسمية نسبة لملك من الرومان اسمه إشبان بن طيطش غلب الأفارقة على ملك الأندلس ، وباسمه سميت إشبانية . وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فحرف وأنه هو الذى بنى إشبيلية ، وأن « اشبانية » كانت تطلق على إشبيلية التى كان ينزلها إشبان هذا . ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله ، فالعجم يسمونه إشبانية (نفح الطيب عن الرازى ج ١ ص ٦٧) ؛ وذكر ابن حيان أن الإشبانيين ينسبون إلى إشبان وفسر منشأهم بخرافة دينية (نفح الطيب ج ١ ص ٦٩) . ولم تنفرد الرواية الإسلامية بذكر « إشبان Espan » هذا ولكن تذكره أيضاً رواية ألفونسو العاشر القشتالية ، فتقول لنا انه ابن أخ للملك هرقل ، وأنه هو الذى عمر جزيرة قادس واتخذها مقراً له . راجع : Primera Crónica General de Espana (Ed. Pidal) Vol, I. p. 10

اقتسمت هذه القبائل أملاك رومة الغربية ، واستولت على إيطاليا وفرنسا واسبانيا وكانت اسبانيا من نصيب القوط .

والقوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية . التى هبطت من شمال أوربا ، وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية . وتقول الأساطير القديمة إنهم نزحوا من اسكندناوة ، وهى رواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد . ويذكر المؤرخ تاسيتوس أنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن الثانى ، يسكنون شواطىء البلطيق الجنوبية ، وأن قبائل عديدة من الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر «أودَر» . وهنالك من المشابهات بين القوط والوندال ، فى الدين والعادات والأخلاق والتقاليد ، ما يدل على أنهما يرجعان فى الأصل إلى شعب أو جنس عظيم واحد . وفى عهد الإمبراطور اسكندر سيفروس (٢٢٢ — ٢٣٥ م) ظهرت طلائع القوط فى ولاية «داسيا»[1] الرومانية ، وأغارت على بعض مدنها ، وكان هذا نزوحهم الثانى حيث استقروا عندئذ فى إقليم « اليوكرين » . وفى عهد الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب وخربوا ولاية ميزيا[2] الرومانية ، ثم تقدموا إلى قلب البلقان ، فسار ديسيوس لقتالهم ولكنه هزم ومزق جيشه (٢٥٠ م) وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها وخربوها . ولم ينقطع عيثهم حتى نشط الإمبراطور قسطنطين الكبير لقتالهم ورد عدوانهم ، فحاربهم فى عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة ، وردهم إلى أقاصى داسيا (سنة ٣٢٢ م) وفرض عليهم شروطاً فادحة . ثم حاربهم الإمبراطور ڤالينس قيصر قسطنطينية وهزمهم فى سنة ٣٦٩ م . وفى سنة ٣٧٥ م زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم ، ففروا إلى ضفاف الدانوب واستغاثوا بالإمبراطور وطلبوا الدخول فى طاعته ، فأجابهم إلى ذلك ، واستقروا حيناً فى ولاية تراقية ، ولكنهم ثاروا مراراً من جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم[3] .

وفى عهد الإمبراطور هونوريوس ، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثراً بقيادة زعيمهم « ألاريك » ، وخربوا تراقية واليونان ، ثم عبروا إلى إيطاليا

---

(١) كانت ولاية داسيا تقع فى شرق حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر .

(٢) كانت ولاية ميزيا تقع فى وسط البلقان وتشغل مكان بلغاريا الحديثة .

(٣) Gibbon, ibid. Chap X, XIV & XXV

وافتتحوا رومة ونهبوها (سنة ٤١٠م) . ولكن زعيمهم ألاريك توفى فى نفس هذا العام فارتدوا إلى الشمال . ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور، واندمجوا فى الجيش الإمبراطورى ، وقاموا بقمع الثورات المحلية فى غاليا أو غاليس[1] (جنوبى فرنسا) وشمالى إسبانيا ، ثم استقروا فى أواسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهرى اللوار والجارون ، واتخذوا تولوز (تولوشة) عاصمة لهم . وأقطع الإمبراطور ملكهم « ڤاليا » حكم هذا القطر ، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية . وعاون القوط الدولة على محاربة الوندال والآلان والسوابيين[2] ، وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ولد ألاريك ، على هزيمة آتيلا التترى وبرابرته الهون فى موقعة شالون (سنة ٤٥١ م) . ثم عبر خلفه وأخوه تيودريك الثانى إلى اسبانيا ، لانتزاعها من الوندال والسوابيين المتغلبين عليها ، مشترطاً على الدولة أن يحتفظ بما يفتتحه من اسبانيا لنفسه ولعقبه . وحارب الوندال والسوابيين وهزمهم (سنة ٤٥٦ م) ، وافتتح اسبانيا ما عدا ركنها الشمالى الغربى (جليقية) ، الذى استعصم به الوندال حيناً . ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه الجزيرة كلها ، وامتد ملكهم من اللوار إلى شاطىء اسبانيا الجنوبى . ولكن الفرنج غزوهم من الشمال ، وأجلوهم عن فرنسا فى أعوام قلائل ، فاستقروا فى اسبانيا ، واتخذوا طليطلة دار ملكهم ، ووضعوا لمملكتهم الجديدة نظماً وقوانين خاصة ، تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية ؛ وكانوا أيضاً قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع ، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية ، التى تقاسمت تراث رومة وأملاكها . ولبث القوط زهاء قرنين سادة لإسبانيا حتى الفتح الإسلامى[3] .

---

(١) هكذا يسميها ابن الأثير . ويسميها البكرى ، « بلاد غاليش » وهو اسمها الرومانى : La Gaule

(٢) ويبدى ابن خلدون دقة فى تسمية هؤلاء البربر ، فيسميهم « القندلس والآبيون والشوابيون » (ج ٢ ص ٢٣٥) .

(٣) يقدم المؤرخون المسلمون عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى روايات غامضة أكثرها خرافى . ولكن بعضها يقترب من التاريخ . فابن الأثير مثلا يشير فى روايته عن القوط إلى غزوهم لمقدونية ومحاربة قسطنطين الأكبر لهم . ثم يذكر زعيمهم « ألريق » (ألاريك) وكيف غزا رومة ، وكيف استقر القوط أولا فى غاليس (أى غاليا) ثم انتقلوا إلى اسبانيا . غير أنه يذكر ثبت ملوكهم —

ولنعرض بعد ذلك إلى حالة اسبانيا وقت الفتح . كانت المملكة القوطية تجوز دور انحلالها قبل ذلك بأمد طويل ، وكان المجتمع الإسبانى يعانى صنوف الشقاء والبؤس ، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار . ولم يكن القوط فى الحقيقة أمة بمعنى الكلمة ، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة ، ذلك الامتزاج الذى يجعل الغالب والمغلوب ، والحاكم والمحكوم ، أمة واحدة . بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة ، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة ، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف. أما سواد الشعب الأعظم ، فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال ، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضياع ، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت . وإلى جانب السادة والأشراف ، يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ ؛ ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم ، وكان للأحبار عليهم أيما تأثير ، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم ، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية ، وفقاً لمثل الكنيسة وغاياتها . ثم استغلوا هذا النفوذ فى إحراز الضياع وتكديس الثروات ، واقتناء الزراع والأرقاء . وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع فى أيدى فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين ، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة ، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار .

أما الشعب فقد كان فى حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس ، يعانى أمر ضروب الظلم والعسف والإرهاق ، ويُخص وحده دون الطبقات الممتازة ، بأعباء المغارم والضرائب الفادحة ، ومشاق العمل ، والسخرة فى ضياع الأشراف والأحبار ، وتسلبه فروض العبودية والرق ، كل شعور بالعزة والكرامة . ولم يكن الشعب كما قدمنا سوى كتلة مهيضة من طبقة فقيرة وسطى ، ومن جمهرة من الزراع شبه الأرقاء والأرقاء ، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض والمغارم

= فى كثير من التحريف والخلط (ج ٤ ص ٢١٢ و٢١٣) . وقال ابن حيان بعد أن ذكر أصل اسم اسبانيا « وغلب على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات (الوندال) وملكهم طلويش بن بيطة وذلك من بعث المسيح . ثم دخلت عليهم أمة القوط » (نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٦٩) . وأقرب الروايات إلى الصحة هى رواية ابن خلدون ، فهو يقول متفقاً مع الرواية اللاتينية : « إن القوط قد امتلكوا القطر الأندلسى لمئين من السنين قبل الإسلام . بعد حروب كانت لهم مع اللطنيين ، حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط إلى الأندلس» (ج ٤ ص ١١٦) .

القادحة ، عبء الحرب والدفاع عن الوطن . وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام ، قد فقدت وحدتها وروحها القومى وقوتها المعنوية ، لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة ، فكذلك كان الجيش الإسبانى منذ العهد الرومانى ، قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود . فلما حل القوط فى اسبانيا وذاقوا نعم السلم ، بعد مشاق التجوال والغزو ، وتبوأوا مراكز الغلبة والسيادة ، اعتمدوا فى الدفاع عن ملكهم الجديد على هذا الجيش ، الذى تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة على سادتها . « ولاريب أن شبه الأرقاء كانوا فى الجيش أكثر بكثير من الأحرار ، وهذا ما يعنى أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى أولئك الذين يؤثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالميهم »(١) . أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ بعيد خلالهم الحربية القوية ، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة ، وفتت فى عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش ، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة ، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط ، « بل كان خلفاء ألاريك يحتجبون بصخور البرنيه غارقين فى سبات السلم ، لا يعنون بتحصين مدينة ، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف »(٢) .

وكان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة ، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل ، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد . وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود ، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة . ففى عصر الملك سيزبوت(٣) فرض التنصر على اليهود أو النفى أو المصادرة ، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ م) . ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والمحن ، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة ، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون . ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤م) . وكان ذلك فى عهد الملك إجيكا ؛ فقرر أن يشتد فى معاقبتهم ، واجتمع مؤتمر الأحبار فى طليطلة للنظر فى ذلك ، وأجاب الملك إلى ما طلبه ، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يأتمرون بسلامتها ، ولأنهم ارتدوا

---

(١) Dozy: Histoire des Musulmans de L'Espagne (1932) Vol. I. p. 269

(٢) Gibbon, ibid, Chap. L1.

(٣) ويسميه ابن الأثير ، سيسفوط (ج ٤ ص ٢١٣) .

عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل ؛ وقرر أن ينزع أملاكهم فى سائر الولايات الإسبانية ، وأن تحول إلى جانب العرش ، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدى للنصارى ، وأن يهبهم الملك عبيداً لمن شاء ، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية ، وأن يحرر أرقاؤهم من النصارى ويمنحون بعض أملاكهم ، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية ، وألا يتزوج عبد يهودى إلا بجارية نصرانية ، ولا تتزوج يهودية إلا بنصرانى[1] . وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف ، فكانوا قبيل الفتح الإسلامى ضحية ظلم لا يطاق ، وكانوا كباقى طوائف الشعب المهيضة يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر ، ويرون فى أولئك الفاتحين الذين يتركون لهم حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين[2] .

هكذا كانت حال اسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطىء الأندلس . وكان على عرش اسبانيا يومئذ الملك وتيزا[3] خلف الملك إچيكا وولده . وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعباً أضناه العسف . وتحمل بعض الروايات الإسبانية القديمة على وتيزا ، وتصفه بأنه كان ملكاً خليعاً فاجراً ، مغرقاً فى شهواته ، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضيع الخلال . ويقول البعض الآخر إنه كان بالعكس ملكاً فاضلاحسن السيرة ، وافر الحكمة والعدالة ، وإنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل[4] . والمرجح المتداول ، أنه أحسن السيرة فى بداية عهده ، ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم ، ولكنه حاول أن يحد من سلطة الأشراف والأحبار ، وأن يجمع السلطة فى يد العرش ، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين ، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة ؛ ولكنه أخمدها

---

(١) راجع كتاب « تاريخ لانجدوك » **Histoire de Languedoc** ، تأليف الراهب **Dom Vissette** (الطبعة الجديدة ج ١ ص ٧٥٠ و ٧٥١) ، وهذا المؤلف موسوعة ضخمة من ستة عشر مجلدا ، ويشتمل على وثائق وتفاصيل هامة عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى ، وغزوات العرب الأولى لإسبانيا وفرنسا .

(٢) **Dozy : Hist. : V. I. p. 268**

(٣) ويسميه العرب « غيطشة » .

(٤) يقول بالرواية الأولى سبستيان الشلمنتى وردريك الطليطلى ، ويقول بالرواية الثانية إيزيدور الباجى ؛ ويوافقه فى هذا ابن عذارى المراكشى (البيان المغرب ج ٢ ص ٤) . وراجع : **Dozy : Recherches, V.1 p. 16.**

جميعاً ، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية لكى يحطم سلطان خصومه ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة ، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلا ظمأً إلى الخروج والثورة . وكان فى مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوق تيودوفريد الذى نفاه أبوه الملك إچيكا إلى قرطبة ، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة فى النكاية به ، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس ولد فاڤيلا دوق كانتابريا ، ولكنه استطاع الفرار من نقمته(١) . وكان الشعب من جهة أخرى يرزح أبداً تحت نير الجور والإرهاق ، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط ؛ وتقول الرواية النصرانية إن الزعماء الناقمين انتهزوا فرصة اقتراب أسطول إسلامى من جنوب اسبانيا ورفعوا لواء الثورة ، وإن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول وإن تيودومير قائد الأسطول القوطى هزم المسلمين فى معركة بحرية كبيرة وذلك فى سنة ٧٠٨ م(٢) . وكان العرب كما قدمنا قد طوقوا أسوار سبتة معقل القوط فى الضفة المقابلة من البحر ، وأمد وتيزاً حاكمها الكونت يوليان بأشجع جنده ، فانتهز خصومه فرصة ضعفه فى الداخل ليدبروا الثورة مرة أخرى . وقاد الثورة عندئذ زعيم جرىء هو رُدريك ابن دوق تيودوفرد الذى سمل وتيزاً عينى أبيه ، فكان يحفزه باعث الانتقام أيضاً ، وكان يتزعم حزباً قوياً ، والتف حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية ، فجمع جيشاً كبيراً ونادى بنفسه ملكاً . ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة . وهنا تختلف الرواية فيقال إن وتيزا قتل فى هذا النضال وخلص الملك لمنافسه ، وفى رواية أخرى أن ردريك ظفر به وسمل عينيه انتقاماً لأبيه ، ويقال أيضاً إنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته . ويختلف المؤرخون كذلك فى تاريخ ولاية ردريك الملك ، فيقول البعض ، ومنهم ردريك الطليطلى ، إنه تولى سنة ٧١١ م ، وحكم مع وتيزا قسما من اسبانيا ، وإنه لما توفى وتيزا فى سنة ٧١٣م ، استأثر بالحكم مدى

---

(١) Dom Vissette : ibid, V. 1. p. 756

(٢) أورد هذه الرواية إيزيدور الباجى **Isidorus Pacensis** ونقلها المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ فى كتابه **Geschichte der Omajaden in Spanien** (ج ١ ص٢٦) . والظاهر أن المقصود هنا هو الحملة البحرية التى جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبد الله سنة ٨٩ هـ (٧٠٨م) وهى المعرفة بغزوة الأشراف . ولكن المسلمين لم يهزموا عندئذ فى أية موقعة بحرية ، وقد غزوا جزائر البليار كما قدمنا .

عام آخر حتى فتح اسبانيا ، ويقول إيزيدور الباجى ، إن ردريك ظفر بالعرش فى أواخر سنة ٧١١ م وإنه لم يحكم قبل الفتح سوى عام واحد[١] ؛ وفى الروايتين تحريف ظاهر ، ولا بد أن ردريك ولى الملك قبل سنة ٧١١ ، إذ كان فتح العرب لاسبانيا فى صيف هذا العام نفسه . وعلى أى حال فإن المعركة استمرت مدى حين بين ردريك وولدى وتيزا ، وهما إيقا وسيزبوت يعاونهما عمهما أوباس[٢] أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة ، والتفت حولها رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم . وكان ردريك قوى الجانب وافر الشجاعة والعزم ، فاستطاع أن يخمد الثورة فى كل ناحية ، واستتب له الأمر حيناً ، ومع ذلك فقد بقى عرش القوط مضطرباً يهتز فى يد القدر ، وكان الخطر يجثم فى ناحية أخرى :

ذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة . وكان الكونت يوليان حاكم سبتة والمضيق ، محط أنظارهم ومساعيهم . وقد اختلف فى أمر الكونت يوليان اختلافاً بيناً ، فالروايات العربية القديمة كلها تشيد بذكره ، وبالدور العظيم الذى أداه فى الفتح ، وينكر وجوده بعض أكابر المؤرخين الإسبان مثل ماسدى وغيره ، لأن ذكره لم يرد لأول مرة إلا فى روايات القرن الثانى عشر. على أنه مما يعزز إجماع الرواية العربية ، إشارة إيزيدور الباجى ، صاحب أقدم رواية إسبانية عن الفتح ، إلى شريف نصرانى كان يصحب موسى فى كل غزواته . كذلك تختلف الرواية فى صفة الكونت ، فيقال إنه لم يكن تابعاً لملك القوط ، وإن سبتة كانت فى ذلك الحين ما تزال تابعة لقيصر الدولة الشرقية ، ولكن حاكمها الكونت رأى لبعدها وعزلتها أن يستظل بحماية اسبانيا[٣]. على أنه يبدو من أقوال الرواية العربية ، وهى فى نظرنا أقوى وأرجح ، أن الكونت يوليان كان قوطياً إسبانياً ، وأنه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة . وتؤيد الرواية العربية

---

(١) Dom Visette : ibid, V. 1. p. 756 وذلك نقلا عن Rodericus Tolétanus Chronicon و Isidorus Pacensis

(٢) يسمى ابن القوطية أولاد وتيزا كما يأتى : المند . ورملة . ثم أرطباس . ولعل أرطباس هو أوباس . ولكن صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » أصح وأدق فهو يسميهما شبشرت وأبة باعتبار أنهما اثنان فقط (ص ٨) .

(٣) Dozy : Recherches : V. 1. p. 60-65, Hiet : V. 1. p. 270

بعض التواريخ النصرانية المتأخرة ، فيقول لنا ردريك الطليطلى ، ولوقا التطيلى ، إن الكونت يوليان كان حاكماً لسبتة ، وهى يومئذ من أملاك العرش القوطى ، وإنه كان رجلا شجاعاً ، ولكنه كان مغامراً منتقماً ، وإنه كان من أقارب الملك ڤامبا[١] . ويقول لنا ألفونسو العاشر فى تاريخه العام إن الكونت يوليان كان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط ، وإنه كان قريباً للملك وتيزا[٢]. ولما نشب الخلاف الداخلى حول العرش ، انضم الكونت إلى أنصار الحكم القديم وأنصار الملك وتيزا . وكان غنياً شديد البأس ، كثير الأتباع والجند ، يعتصم بالبحر ، بعيداً عن سلطة العرش ، ويقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبتة والمضيق . وكان من خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه . فاتصل به إبنا وتيزا وباقى الزعماء الخوارج ، واستقر الرأى على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت ، وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين يوليان وموسى ابن نصير وانتهى بفتح العرب لإسبانيا . ولكن الرواية — والرواية الإسلامية بنوع خاص — تقدم إلينا تعليلا آخر ، فتقول لنا إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى أيضاً . فقد كانت له إبنة رائعة الحسن تدعى فلورندا أوكابا ، أرسلها إلى بلاط طليطلة جرياً على رسوم ذلك العصر ، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ، فاستهوى جمالها الفتان قلب ردريك فاغتصبها وانتهك عفافها . وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام ، ونزع ردريك ذلك العرش الذى اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه ، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم ير خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا .

والرواية الإسلامية تجمع على قبول هذه القصة والأخذ بها ، مع أخذها فى الوقت نفسه بالعوامل السياسية التى ذكرناها[٣]. ولكن الرواية النصرانية تتردد

---

(١) Camille Julian : Histoie de la Gaule p. 727

(٢) Pr. Crónica General (Ed. Pidal) Vol. I. p. 307

(٣) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فنراها فى رواية ابن عبد الحكم الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر وفتوحها ص ٢٠٥) . وذكرها ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩) ، وابن القوطية القوطى فى « افتتاح الأندلس » (ص ٨) — وهو يصف يوليان بأنه كان تاجراً من تجار العجم لا حاكما لسبتة ، ويعلل=

فى قبولها ، وتنكرها معظم الروايات الإسبانية الحديثة ، وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغانى والقصص القديمة . وهكذا نجد ماريانا وماسدى أعظم مؤرخى اسبانيا فى مقدمة المنكرين لصحتها . ويذهب البعض الآخر مثل مونتيخار وغيره إلى أبعد من ذلك ، فينكر شخصية الكونت يوليان ذاته ، ويعتبرها شخصية خيالية ، ويعتبر القصة كلها خرافة وأسطورة فقط[١] . ويقول كوندى إن اسم كابا (فلورندا) ووصيفتها أليفا وكل أشخاص هذه الرواية تدل على أن القصة كلها إنما هى خرافة موريسكية[٢] اشتقت من الأساطير والأغانى العامية التى كانت ذائعة بين المسلمين والنصارى[٣] .

وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول ظاهر الحكمة ، فهى تأبى الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء اسبانيا الأوائل ، وهى خيانة كان من أثرها أن افتتح العرب اسبانيا وحكمها الإسلام قروناً طويلة . على أننا لا نجد فى القصة ما يبعث إلى إنكارها ، فوقوعها ممكن معقول فى مثل الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ ، من خلاف فى الرأى ، وتنازع على السلطة ، وانحلال أخلاقى واجتماعى . ولسنا من جهة أخرى نلمس فى الرواية الإسلامية أثر الاختراع . فليس ثمة ما يدعو إليه . وليس من المعقول أن تخترع الرواية الإسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا فى فتح اسبانيا معاونة لم يتوقعوها ، وأن هذه المعاونة سهلت لهم سبل الفتح ، ولعلهم لم يقدموا بدونها على الاضطلاع به ، أو لعلهم كانوا يتعرضون للإخفاق والفشل . هذا إلى أن بعض الروايات الإسبانية القديمة ، ومنها ما هو قريب من الفتح ، يشترك مع الرواية العربية فى سرد قصة فلورندا والأخذ بها .

= وقوع الفتح بخروج أولاد وتيزا وخيانتهم . وكذا صاحب أخبار مجموعة (ص ٥) . وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) . وابن خلدون (ج ٢ ص ٢٣٦ وج ٤ ص ١١٧) . وعبد الواحد المراكشى فى « المعجب » (ص ٦) . وابن عذارى المراكشى فى « البيان المغرب » (ج ٢ ص ٨) . وصاحب الروض المعطار فى « وصف جزيزة الأندلس » المنشور بالقاهرة ١٩٣٧ (ص ٧) .

(١) راجع الهامش فى : **Aschbach : ibid, I. p. 28**

(٢) نسبة إلى الموريسكيين **Moriscos** أو العرب المتنصرين ، وهم بقية الأمة الأندلسية المغلوبة بعد سقوط غرناطة (١٤٩٢ م) وانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس .

(٣) **Historia de la Dominación de los Arabes en Espana**

فمن ذلك ما ورد فى رواية إيزيدور الباجى الذى عاش فى أوائل القرن الثامن ، وما ذكره ردريك الطليطلى فى روايته ، من أن الكونت يوليان ثار لاعتداء ردريك على ابنته أو زوجه ، واعتزم أن ينتقم لنفسه بدعوة العرب إلى فتح اسبانيا ، وهى قصة يرددها أيضاً التاريخ العام الذى وضع بأمر الملك ألفونسو العالم فى أواخر القرن الثالث عشر(١). ففى هذه الروايات الإسبانية النصرانية كلها تأييد لهذه القصة الشهيرة . كذلك يختلف النقد الأوربى الحديث فى أمر هذه القصة ، فيرى البعض أنها أسطورة لا يصح الأخذ بها ، ويرى البعض الآخر أنها معقولة لا أثر للاختراع فيها(٢) . ونحن مع هذا الفريق نرى قصة فلورندا حادثاً طبيعياً معقولا ، ونرى فى إجماع الرواية الإسلامية على تدوينها دليلا آخر على صحتها . ومهما كان من أمر يوليان ، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على مليكه ، فقد كان تدخله أكبر عامل فى تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الإسبانية ، والقضاء على مملكة القوط .

---

(١) — Pr. Crónica General ; Vol. I. p. 307, C. Julian, ibid, p. 757 Gibbon, ibid. Chap. LI (Note)

(٢) قال الفيلسوف جيبون فى تعليقه على تلك القصة : « طالما كانت أهواء الملوك يطبعها الجموح والعبث . ولكن هذه القصة المعروفة ، وإن كانت روائية فى ذاتها ، لم تؤيدها الأدلة الكافية ، وتاريخ اسبانيا يقدم من بواعث المصلحة والسياسة ما هو أليق بتفكير السياسى القديم (يريد الكونت يوليان) Gibbon, ibid, LI . ويسخر ڤولتير فى تاريخه العام من القصة ويقول : « إن الاغتصاب صعب التنفيذ صعب التدليل ، فهل يتحالف الأحبار من أجل فتاة » . ولكن المؤرخ المستشرق دوز يروى القصة ويأخذ بها فى شرح حوادث الفتح Dozy : Histoire V.I.p.271 وكذا يرويها ويأخذ بها المستشرق كاردون فى كتابه : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne p. 65.

الفصل الثالث

فتح اسـبانيا

المفاوضة بين موسى بن نصير والكونت يوليان . استئذان موسى للوليد فى الفتح . فكرة يوليان وأصحابه فى استدعاء العرب . حملة تمهيدية إلى الجزيرة الخضراء . حملة الفتح . طارق بن زياد . عبوره إلى الأندلس واختراقه للجزيرة الخضراء . تأهب ردريك ملك القوط لملاقاة العرب . مكان اللقاء بينهما . موقعة شذونة أو وادى لكة . تفرق الجيش القوطى . هزيمة القوط ومقتل ردريك . الخطاب الذى ينسب إلى طارق والشك فى صحته . هل أحرق طارق سفن الحملة . اللقاء الثانى بين القوط والعرب فى إستجة . هزيمة القوط الثانية . زحف طارق على طليطلة . إفتتاح قرطبة وغرناطة ومالقة . معاونة اليهود للمسلمين . افتتاح تدمير وعقد الصلح مع أميرها . طارق يخترق الأندلس . كلمة أندلس وأصلها . استيلاء طارق على طليطلة . اختراقه قشتالة وليون وجبال أستورية . عوده إلى طليطلة . موسى وموقفه من الفتح . أوامره لطارق . يقود حملة جديدة إلى اسانيا . استيلاؤه على شذونة وقرمونة وإشبيلية . حصاره لماردة وافتتاحها . غضبه على طارق ثم عفوه عنه . مسيرهما إلى الشمال وافتتاحهما لسرقسطة وطركونة وبرشلونة . مسير طارق إلى جليقية . موسى يخترق البرنيه ويغزو سبتمانيا . إفتتاحه لأربونة وقرقشونة ووادى الرون . مشروعه فى اختراق الأمم النصرانية شرقاً إلى مقر الخلافة . إعتراض حكومة دمشق . مسيره لإخضاع جليقية . استدعاؤه وطارق إلى دمشق . بواعث هذا الاستدعاء . افتتاح عبد العزيز بن موسى لبلنسية ولبلة . معاهدته مع تيودمير . إشبيلية عاصمة الأندلس . إستخلاف موسى لولده عبد العزيز . سفره وطارق إلى المشرق . ما أصاب المسلمون من غنائم الأندلس . مصير موسى واختلاف الرواية فى شأنه . وفاته وخلاله . مصير طارق . مصير الكونت يوليان والأمراء المحالفين للعرب . سارة القوطية وحفيدها المؤرخ .

فى الوقت الذى كانت شبه الجزيرة الإسبانية تجوز فيه هذه الحوادث والأزمات الخطيرة ، كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى ، واستولوا على ثغر طنجة ، وأشرفوا على شواطىء الأندلس من الضفة الأخرى من البحر ، ولم يبق لإتمام فتح إفريقيه سوى ثغر سبتة الذى يقع مقابل طنجة فى الطرف الآخر من اللسان المغربى . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان ، أن تحبط كل محاولة لأخذها . وكان موسى بن نصير يتوق إلى افتتاح هذا الثغر المنيع ، وتطهير إفريقية من البقية الباقية من العدو . وبينا هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية ، إذ جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها

تسليم معقله ، ويدعوه إلى فتح اسبانيا ، وجرت بينهما المفاوضة فى هذا المشروع الخطير . وتختلف الرواية فى أمر هذا الاتصال ، فيقال إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية ، وإن الكونت استدعى موسى إلى سبتة ، وهنالك وقعت المفاوضة بينهما . وقيل أخيراً إنهما اجتمعا فى سفينة فى البحر[1] . وعلى أى حال فقد استجاب موسى لدعوة الكونت ، واهتم بمشروعه أعظم اهتمام ، وكان قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها ، واستطاع أن يقدر أهمية مثل هذا الفتح ، وجليل مغانمه ومزاياه ، فلما علم من يوليان وحلفائه ما تعانيه اسبانيا من الخلاف والشقاق ، وما يسودها من الانحلال والضعف ، ورأى مما يعرضه يوليان من تسليم سبتة وباقى معاقله ، وتقديم سفنه لنقل المسلمين فى البحر ، ومعاونته بجنده وإرشاده ، أن الفوز ميسور محقق ، كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ، فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا ، أعنى بالحملات الصغيرة بادىء بدء ، وألا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر ، بيد أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمر المعارك البحرية فى هذه المياه ، وغزوا صقلية وسردانية ، ثم غزوا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) كما قدمنا ، وكان البحر الذى يفصل بين إفريقية والأندلس مجازاً ضيقاً سهل العبور .

ولبث موسى حيناً بطنجة يهيئ عُدة الفتح . والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بدعوة موسى أن يمتلك العرب اسبانيا ، وأن يحكموها ، بل كان مشروعهم أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب وإسقاطه ، واستخلاص الملك لأنفسهم . وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم ، قفلوا إلى إفريقية . وهو فرض معقول يؤيده سير الحوادث فى اسبانيا ، فقد كان الخوارج على ردريك يقصدون إلى انتزاع الملك من يده . وتحقيق أطماعهم بالحلول مكانه . أما الفرض الآخر — وهو أنهم كانوا يقصدون بالفعل تسليم وطنهم إلى العرب — فمعناه أنهم كانوا يعملون للقضاء بأنفسهم على مشاريعهم وأطماعهم ، وهو مما يصعب قبوله وتعليله[2] ، والظاهر أن موسى بن نصير كان من جانبه

---

(١) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦ .

(٢) قدم ابن الأثير فى روايته ما يفيد صحة الفرض الأول (ج ٤ ص ٢١٤) . وكذا صاحب =

يؤكد ليوليان أنه لايقصد بالغزو سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة فيما وراء البحر . ونزل موسى على نصح الخليفة فى اختبار الفتح الجديد بالسرايا ، وبدأ مشروعه بمحاولة صغيرة ، فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها يوليان ، إلى البقعة المقابلة التى سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة ، وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليه سنة ٧١٠ م) ، وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان ، فأصابت كثيراً من الغنائم ، وقوبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، ثم عادت فى أمن وسلام ، وقص قائدها على موسى نتائج رحلته ، فاستبشر بالفوز ، وجد فى أهبة الفتح .

وفى شهر رجب سنة اثنتين وتسعين (إبريل سنة ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى ، وكان يومئذ حاكماً لطنجة كما قدمنا[1] . ومن الغريب أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن فاتح الأندلس بشىء قبل ولايته لطنجة ، بل إنها لتختلف فى أصله ونسبته ، فقيل هو فارسى من همذان ، كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه من سبى البربر ، وقيل أخيراً إنه بربرى من بطن من بطون نفزة ، وهذه فيما يظن أرجح رواية ، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب ، بإيراد نسبة طارق مفصلة ؛ ويبدو منها أن طارقاً تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله ، وهو أول اسم عربى إسلامى فى نسبته ، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهى إلى نفزة ، وهى القبيلة التى ينتمى إليها[2] .

= « أخبار مجموعة » (ص ٨) ، والمقرى (ج ١ ص ١٢٠) . ومن جهة أخرى فإن البحث الحديث يؤيده ويرجحه . راجع دوزى : **Dozy : Hist, V. I. p. 272** ، وأيضاً جيبون حيث يقول : « يظهر أن الكونت لا يستحق وصمات الخيانة والخسة والغدر مطلقة ، فإن التاريخ لم يثبت أنه كان يريد تسليم بلاده للعرب . وإنما كان مشروعه أن يستعين بهم على قلب الحكومة وإسقاط ردريك حتى يكون له فى حكومة هو منشؤها مكانة أسمى » **Gibbon : ibid. Chap. LI. (note)**

(١) يقول صاحب البيان المغرب إن ولاية طارق لطنجة كانت فى سنة ٨٥ هـ (ج ٢ ص ٢٨) ، ولكن الظاهر أنه وليها بعد ذلك ببضعة أعوام .

(٢) راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦) وفيه ترد نسبة طارق هكذا : — طارق بن زياد ابن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطوفت بن نفزا ؛ وراجع أيضاً نزهة =

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية التى يسوقها إلينا صاحب كتاب « الإمامة والسياسة » وصفاً لشخص طارق خلاصته أنه كان « رجلا طويلا أشقر ، بعينيه قبل أى حول وبيده شلل »[١] . فإذا صحت هذه الرواية ، فإنها يمكن أن تقدم إلينا دليلا آخر على انتماء طارق إلى الجنس البربرى . فالبربر حسبما شهدنا من التجوال فى بعض ربوعهم بالمغرب ، يكثر بينهم الطول والشقرة .

وكان طارق جندياً عظيماً ظهر فى غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته ، وقدر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها ، وهى يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطرباً ، ثم اختاره لفتح الأندلس . فعبر البحر من سبتة بجيشه تباعاً فى سفن يوليان القليلة ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التى ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق ، وذلك فى يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ (٢٧ إبريل سنة ٧١١ م)[٢] . واخترق طارق المنطقة المجاورة غرباً بمعاونة يوليان وإرشاده ، وزحف على ولاية الجزيرة التى كان يحكمها تيودومير القوطى عامل ردريك واحتل قلاعها ، بعد أن هزم شراذم من القوط تصدت لوقفه . وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم . وكان ردريك يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج فى الولايات الشمالية ، فهرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر المحيق بعرشه وأمته ، وبعث قائده إديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته . ولكن طارقاً هزمه ثم اخترق بسائط « الفرنتيره »[٣] معتزماً السير صوب عاصمة القوط .

وكان رُدريك أو رذريق أو لذريق كما يسميه العرب[٤] أميراً شجاعاً وافر المقدرة والعزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء

= المشتاق للشريف الإدريسى حيث يقول إنه بربرى من زناته (طبع رومة ص ١٧٩) ، وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١١٧) ، والمقرى (نفح الطيب ج ١ ص ١١٩) .

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٤ . ونقل إلينا المقرى ما يفيد أن طارقا كان ضخم الهامة ، وفى كتفه الأيسر شامة (ج ١ ص ١٠٧) .

(٢) المقرى (ج ١ ص ١١٩) ، والبيان المغرب ؛ وهناك خلاف على الشهر الذى عبر فيه طارق .

(٣) الفرنتيره La Frontera ، هى المنطقة الوسطى والغربية فى المثلث الإسبانى .

(٤) ويسميه الواقدى باسم آخر هو « الأدرينوق » ؛ راجع الطبر ج ٨ ص ٨٢ .

والسخط(١) . وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف ، وكانت إسبانيا قد مزقت شيعاً وأحزاباً ، يتطلع كل منها إلى انتزاع السلطان والملك ، وكان أهم هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذى يلتف حول ولدى وتيزا (غيطشة) . ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد ، واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف(٢) ، ويقدره مؤرخ أندلسى متأخر بتسعين ألف(٣) . وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين ، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة ، فكتب إلى موسى يستنجد به ، فأمده بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ المسلمون اثنى عشر ألفاً ، وانضم إليهم يوليان فى قوة صغيرة من صحبه وأتباعه .

كان القوط أضعاف المسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون فى أرض العدو فى هضاب ومفاوز شاقة ، ولكن قائدهم الجرىء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم . فكان اللقاء بين الجيشين فى سهل الفرنتيره Frontera على ضفاف نهر وادى لكُّه أو وادى بكه . وقد اختلف البحث الحديث فى تحديد المكان والنهر الذى يحمل هذا الاسم الذى تورده الرواية العربية . فذكر البعض أنه هو نهر «جواداليتى» Guadalete (وادى لكه) الذى يصب فى خليج قادس على مقربة من مدينة شريش ، وأن اللقاء حدث على ضفته الجنوبية شمالى مدينة شذونة . وذكر البعض الآخر ، وهى الرواية الراجحة فيما يرى البحث الحديث ، أن اللقاء قد حدث جنوبى بحيرة «خَنْدة» Janda الصغيرة المتصلة بنهر بارباتى Barbate الصغير

---

(١) Cardonne : ibid. p. 62

(٢) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٢٠ . ويقدره فى مكان آخر بسبعين ألف (ص ١١٢) . ويأخذ جيبون بهذه الرواية فيقدر جيش القوط بتسعين ألف أو مائة ألف (الفصل الحادى والخمسون) . ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين ألف فقط ، وهو فى نظرنا أقرب إلى المعقول (ج ٤ ص ١١٧) .

(٣) هذه هى رواية على بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب كتاب «تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس» وهو من كتاب القرن الرابع عشر الميلادى (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٥٢ دير نبورـ لوحة ٤٨) وهو مؤلف فريد فى بابه يتحدث عن الجهاد والمغازى والصوائف والفروسية وأحوالها وشروطها . وبه نبذ تاريخية مفيدة . وقد نشره المستشرق مرسييه .

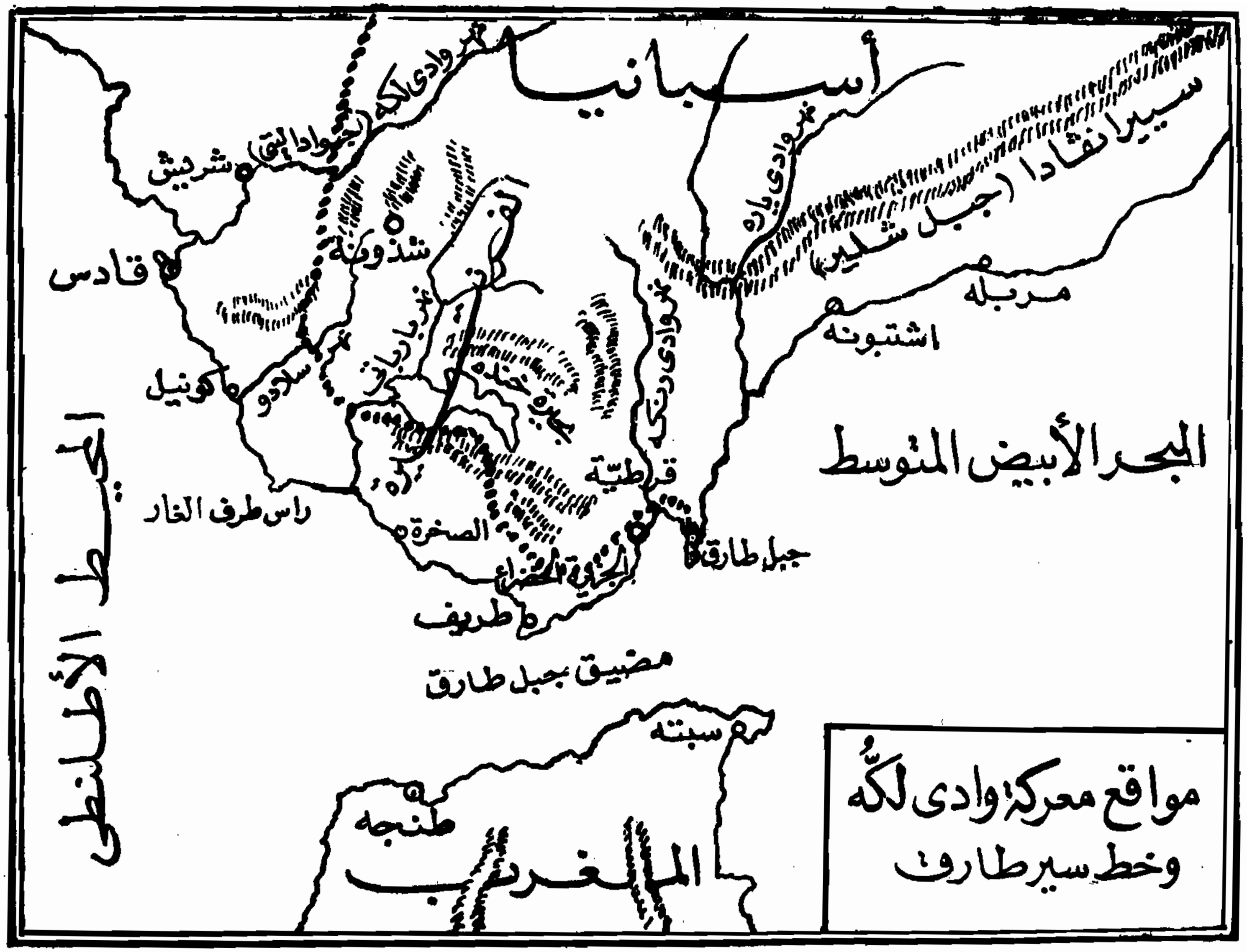

مواقع معركة وادي لكُّه
وخط سير طارق

الذى يصب فى المحيط على مقربة من رأس « طرف الغاز »[١] وأن الرواية العربية تقصد هذا النهر بما تورده من إسم وادى لكه أو وادى بكه . فى هذا السهل الصغير الذى تحده من الجنوب سلسلة من التلال العالية ، وعلى ضفاف بحيرة خنده ونهر «بارباتى» تلاقى العرب والقوط ، والإسلام والنصرانية ، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ (١٧ يوليه سنة ٧١١ م)[٢] . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة . وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة . وظهر ردريك وسط الميدان فى حلل ملوكية فوق عرش تجره الخيل المطهمة ، وهو منظر يثير سخرية الفيلسوف جيبون ولاذع تهكمه إذ يقول : « ولقد يخجل ألاريك (مؤسس دولة القوط) عند رؤية خلفه (ردريك) متوجاً باللآلىء ، متشحاً بالحرير والذهب ، مضجعاً فى هودج من العاج »[٣] . واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة ، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام[٤] . ولكن الجيش القوطى كان رغم كثرته مختل النظام منحل العرى ، وكان يقود جناحيه إيفا وسيزبوت خصما ردريك[٥] ،

---

(١) يقول دوزى إن هذا النهر يحمل اليوم اسم سلادو **Salado** (ج ١ ص ٢٧٣ هامش) وهو خطأ لأن هذا الإسم يطلق على نهر آخر يقع شمالى نهر بارباتى . ويسميه ابن القوطية « وادى بكه » (ص ٧) . وراجع : الأستاذ ليڤى بروفنسال : **Histoire de l'Espagne Musulmane (1944) p. 15 & 16.** والهوامش .

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن الموقعة كانت فى ذلك التاريخ . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول إنها كانت فى السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ (المقرى عن ابن حيان ج ص ١١٦) ولعله ينفرد بهذا الخلاف .

(٣) تشير معظم الروايات الإسلامية إلى هذا المنظر ؛ فيقول الطبرى نقلا عن الواقدى : « فزحف الأدرينوق فى سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلة التى كان يلبسها الملوك » (ج ٨ ص ٨٢) ، والمقرى (ج ١ ص ١١٢) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٢) ، وابن عذارى (ج ٢ ص ٩) .

(٤) قال الرازى : « كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال . ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم ، ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس » (المقرى ج ١ ص ١٢١) .

(٥) أخبار مجموعة (ص ٨) .

وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين ، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر ، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب(١) ، فكانت الخيانة تمزق جيش القوط شر ممزق . واستمال يوليان والأسقف أوپاس وهما فى صف المسلمين كثيراً من جند القوط ، وبثا بدعايتهما فى الصفوف الموالية لردريك كثيراً من عوامل الشقاق والتفرق ، فأخذ كل أمير يسعى فى سلامة نفسه . وتمكن الجيش الإسلامى على ضآلة عدده ، بجلده وثباته واتحاد كلمته ، من جيش القوط ، فلم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق وجنده ، وهزم القوط شر هزيمة ، وشتتوا ألوفاً فى كل صوب .

أما ردريك آخر ملوك القوط ، فقد اختفى عقب الموقعة ، ولم يعثر له بأثر . ويقول إيزويدور الباجى إنه بقى فى ميدان الحرب حتى قتل مدافعاً عن عرشه وأمته . وتقول بعض الروايات النصرانية الأخرى إنه فر عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنه غرق فى مياه النهر . وتميل التواريخ الإسلامية إلى تأييد هذه الرواية ، وتقول لنا إن ملك القوط مات غريقاً ، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبى ، ولم يعثر إنسان بجثته . وتزعم بعض الروايات النصرانية أيضاً أن ردريك استطاع أن يلوذ بالفرار ، ولكنه قتل بعد ذلك ، أو أنه فر إلى بعض الأديار فى البرتغال وترهب ، وعاش متنكراً حيناً من الدهر . وينفرد صاحب كتاب الإمامة والسياسة بين المشارقة برواية أخرى ، وهى أن طارقاً ظفر بجثة ردريك ، فاحتز رأسه وبعث بها إلى موسى بن نصير ، وبعث بها موسى إلى الخليفة ، ويتابعه فى هذه الرواية كاتب أندلسى هو صاحب كتاب تحفة الأنفس الذى تقدم ذكره(٢) . هذا إلى روايات كثيرة أخرى . ولكن المرجح فى هذه الروايات كلها هو أن ردريك فقد حياته فى الموقعة التى فقد فيها ملكه ، وأنه مات قتيلا أو غريقاً على الأثر(٣) .

---

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤) والمقرى (ج ١ ص ١٢١) ودوزى (ج ١ ص ٢٧٢) .

(٢) راجع كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٥ و ٧٦ . ووردت هذه الرواية فى كتاب تحفة الأنفس فى المخطوط المتقدم ذكره (لوحة ٤٨) .

(٣) راجع فى مصير ردريك **C. Julian: Histoire de la Gaule p.750-Gibbon, ibid, Chap.LI. & notes** ، وراجع من المصادر الإسلامية : ابن الأثير حيث يقول إنه غرق فى نهاية الموقعة (ج ٤ ص ٢١٤) . والمقرى حيث يقول إنه رمى بنفسه مختارا إلى النهر ، وقد ثقلته الجراح (نفح الطيب =

هكذا كانت موقعة شذونة التي دالت فيها دولة القوط ، بعد أن لبثت زهاء ثلاثمائة عام منذ قيامها فى غاليس ، وغنم الإسلام فيها ملك إسبانيا . وتحيط الرواية الإسلامية حوادث الفتح بطائفة كبيرة من الأساطير والقصص التى لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها[1] . بيد أنه يجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر ما تعرضه الرواية من أن طارقاً خطب جنده قبيل نشوب المعركة الحاسمة ؛ كما أنه يجدر بنا أن نورد نص هذا الخطاب الشهير الذى ينسب لفاتح الأندلس ، والذى يعتبر نموذجاً بديعاً من الفصاحة والحماسة الحربية وهو :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان .

= ج ١ ص ١٢١) . وقال ابن الأبار فى الحلة السيراء إنهم عثروا على جواد ردريك وسرجه من ذهب وزبرجد وإحدى نعليه وغاب شخصه ، فما وجد حياً ولا ميتاً (ليدن ص ٣١) . وهذه هى أيضاً رواية صاحب « أخبار مجموعة » (ص ٦) . وقال ابن عذارى إن ردريك اختفى ولم يعرف له موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا إنه غرق وقالوا إنه قتل (ج ٢ ص ١٠) ؛ وتردد بعض التواريخ الغربية هذه الرواية (كامى جوليان فى تاريخ « غاليس » ص ٧٥٨) . وتقول بعض الروايات الإسبانية إنه فر إلى مغار ناسك ، والبعض الآخر إنه ألقى حياً إلى بئر ملأى بالأفاعى حيث صاح : « وإنها تلتهم الجزء الذى ثقلته بالخطايا » (جيبون الهامش فى الفصل الحادى والخمسين) .

(١) راجع رواية ابن عبد الحكم عن فتح الأندلس (ص ٣٠٤ وما بعدها) فقد تخللها بعض هذه الأساطير ، ولكن المقرى يستوعب الكثير منها نقلا عن مختلف الروايات (نفح الطيب ج ١ ص ١١٤ وما بعدها) .

والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهــذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولىُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين . أيها الناس : ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال ، وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا ، والله معكم ومفيدكم ، تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين ، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى »[1] .

ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق فى قوله : « لما التقى العرب والقوط ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم فى الشهادة ، وبسط فى آمالهم » ، ثم يورد نص الخطبة[2] .

ثم تنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر فعال فى إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم وثقتهم ، ودفعهم إلى طريق النصر والظفر .

على أنه يسوغ لنا أن نرتاب فى نسبة هذه الخطبة إلى طارق ؛ فإن معظم المؤرخين المسلمين ، ولاسيما المتقدمين منهم لا يشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم

---

(١) هذا ، ومما ينسب لطارق أيضاً من قصيدة قالها فى الفتح :

ركبنا سفيناً بالمجاز قصيرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالا وأهلا بجنة ... إذا ما اشتهينا الشىء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

(٢) كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس ، المخطوط المتقدم ذكره لوحة ٤٨ .

ولا البلاذرى ، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية ؛ ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى ، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه ؛ وهى على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى ، كانوا يخطبون جندهم فى الميدان ؛ ولكن فى لغة هذه الخطبة ، وروعة أسلوبها وعباراتها ، ما يحمل على الشك فى نسبتها إلى طارق ، وهو بربرى لم يكن عريقاً فى الإسلام والعروبة . والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين ، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان .

وتشير الرواية الإسلامية فى هذا الموطن إلى واقعة أخرى جديرة بالتأمل والبحث ؛ وهى واقعة قد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا فى ثوب التاريخ الحق ؛ تلك هى واقعة إحراق السفن التى نقل عليها طارق جيشه من الشاطىء الإفريقى إلى شاطىء الأندلس . ونحن نعرف مما تقدم أن الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التى ركبها العرب إلى الأندلس فى بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق . وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطئ الأندلسى ، حتى أمر بإحراق السفن التى عبر عليها جيشه ، وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت ، أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير فى التخاذل والارتداد. فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الإسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد ؛ فقد ذكر الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس[1] ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال إن فى الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ،

---

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (المختصر) ، طبع رومة ، ص ١٧٨ .

فطارق يستهله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » ، وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكنا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية ، كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب . ولو صح أن طارقاً ألقى فى جنده مثل ذلك الخطاب ، فقد نجد تفسيراً لأقوال طارق فى أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان ، وفى أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة فى جميع الأوقات .

ومع ذلك كله فإن رواية الشريف الإدريسى عن واقعة إحراق طارق للسفن ليست من الأمور المستحيلة ؛ وهى عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ؛ على أنها تبقى عرضة لكثير من الريب ، فقد دونت لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى . أعنى بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون ، ولم تؤيدها أية رواية إسلامية أخرى[1] .

وعلى أثر الموقعة الحاسمة التى غلب فيها الجيش القوطى ومزق ، ساد الرعب على القوط ، فامتنعوا بالحصون والجبال ، وقصدوا إلى الهضاب والسهول . وذاعت أنباء النصر فى طنجة وسبتة وما جاورهما من أراضى العدوة ، فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر . وزحف طارق بجيشه شمالا . وكانت بقية الجيش القوطى قد اجتمعت عند إستجة لتحاول رد الجيش الفاتح ، فالتقى الجيشان هناك ثانية ، وهزم القوط مرة أخرى ، ولم يبق إلا أن يستولى الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأخرى .

وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين ، يعاونهم بالنصح والإرشاد كما قدمنا ، ففى إستجة وضعت خطة السير ، وتقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة عاصمة المملكة القوطية ؛ وأرسل طارق مغيثاً الرومى مولى الوليد بن

---

(١) يقدم لنا التاريخ الحديث مثلا بديعا للفاتح الذى يحرق السفن التى عبر عليها جيشه لكى يقطع على جنده كل تفكير فى الرجعة والارتداد ، هو مثل المكتشف الإسبانى هرناندو كورتيث فاتح المكسيك . فقد أمر هذا الفاتح الشهير ، حينما أشرف على شواطىء المكسيك مستكشفا فاتحا فى سنة ١٥١٩ م . بإحراق سفنه التى قدم عليها جيشه من اسبانيا . ومن الغريب أن يكون بطل هذا الحادث إسبانيا ، وهو ما يحملنا على الظن بأنه قد تأثر فى عمله بالمثل الذى ينسب لطارق فاتح الأندلس .

عبد الملك إلى قرطبة فى سبعمائة فارس ، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقة ، فافتتحت مالقة وفر سكانها إلى الجبال ، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى إلبيرة وغرناطة ، فحوصرت غرناطة قليلا وفتحت ، ثم فتحت إلبيرة . وكان اليهود يعاونون المسلمين فى كل هذه الفتوح ، فكان المسلمون يضمون إليهم فى كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها . ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقاً نحو ولاية مرسية ، وكانت تسمى يومئذ تيودمير (أو تدمير) باسم أميرها ، وقاعدتها مدينة أوريولة ؛ وكان تيودمير جندياً كبيراً ، وافر العزم والبأس ، فالتقى بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة هلك فيها معظم رجاله ، فارتد إلى أوريولة ، وامتنع بها ، وعرض النساء ، حسبما تقول الرواية ، على الأسوار فى اثواب الرجال إيهاماً بكثرة جنده ، واستطاع بثباته وجلده ، أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبى والجزية[1] .

وسار طارق فى بقية الجيش إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس[2] وجبال

---

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) . والبيان المغرب (ج ٢ ص ١٣) . وسنورد فيما بعد نص هذه المعاهدة .

(٢) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة « الأندلس » على شبه جزيرة إيبيريا المكونة من اسبانيا والبرتغال (ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة لأندلس . والروض المعطار ص١) . وتطلق فى الرواية العربية أيضاً على اسبانيا المسلمة ، التى كانت عقب الفتح تشمل كل إسبانيا ما عدا جليقية وولايات جبال البرنيه . ولكن « الأندلس » تطلق فى العصور المتأخرة وفى الجغرافية الحديثة على ولايات الأندلس الواقعة فى جنوبى إسبانيا بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وبين ولاية مرسيه وإشبيلية ؛ وما زالت « الأندلس » **Andalucia** تحتل فى تقسيم اسبانيا الإدارى الحاضر نفس هذه المنطقة . والرواية العربية تعلل هذه التسمية بصور مختلفة فتقول مثلا إنها سميت أندلس باسم أول من سكنها من قديم الزمان وهم قوم من الأعاجم يقال لهم أندلوش (نفح الطيب ج ١ ص ٦٧) . ويقول ابن الأثير إن النصارى يسمون الأندلس إشبانة باسم اشبانس أحد ملوكها ، وهذا هو اسمها عند بطليموس (ج ٤ ص ٢١٢) . ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليقاً أدق فيقول إنها سميت «الأندلس» باسم « قندلس» ولعله قندلس ، ومن الواضح أنه يقصد القندال أى الوندال (ج ٢ ص ٢٣٥ فى تاريخ القوط) . ويقدم لنا البكرى خلاصة دقيقة لهذه المسميات الجغرافية التاريخية فيقول فى وصفه لجزيرة الأندلس ، « إن اسمها فى القديم إباريه **Iberia** من وادى إبره ، ثم سميت بعد ذلك باطقة **Baetica** ، من وادى بيطى وهو نهر قرطبة . ثم سميت إشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه إشبان . وقيل سميت بالإشبان سكنوه فى أول الزمان على جرية النهر وما والاه . وقال قوم إن اسمها هو فى الحقيقة إشبارية **Hisperia** :

سيرّا مورينا (جبل الشارّات) التى تفصل بين الأندلس وقشتالة ، بإرشاد يوليان وأصحابه . وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم . ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى ، فاستولى طارق عليها ، وأبقى على من بقى من سكانها ، وترك لأهلها عدة كنائس ، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية ، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم ، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا . وتابع طارق زحفه شمالا ، فاخترق قشتالة ثم ليون فى وهاد ومفاوز صعبة ، وطارد فلول القوط حتى أسترقة ؛ فلجأت إلى قاصية جلّيقية واعتصمت بجبالها الشامخة . وعبر طارق جبال أشتوريش (أستورياس)[1] واستمر فى سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته ، ورده عباب المحيط عن التقدم فعاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى اسبانيا .

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث التى حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح ؛ فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه ، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه ، تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة ، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ، فكتب إليه ألا يتقدم

من إشبرش وهو الكوكب المعروف بالأحمر . وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش من الذين = سكنوها » . والأندليش هم الوندال **Vandals** . (أبو عبيد البكرى فى جغرافية بلاد افريقية والمغرب طبعة دى سلان) . وهذا هو التعليل الذى يأخذ به دانفيل **Danville** إذ يقول إن الاشتقاق مأخوذ من كلمة ڤاندالوسيا **Vandalusia** أى بلد الوندال ، (نقله جيبون عن كتابه ممالك أوربا فى هامش الفصل الحادى والخمسين) . وهذا ما يقرره الغزيرى أيضاً فى معجم مخطوطات الإسكوريال **(Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis II, p. 237)**

(١) وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقاً انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال أستوريه فاستولى على مائدة سليمان بن دا د ، وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها ثلثمائة وخمسة وستون. ويقال إن هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق أو بيت المقدس فى بعض غزواتهم ثم نقلوها إلى رومة ، فغنمها القوط حين افتتحوا رومة ، ثم أحرزها العرب عند فتح اسبانيا . وذكر ابن الأثير أن أحد ملوك اسبانيا فى عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة (ج ٤ ص ٢١٢) . وذكر صاحب الروض المعطار ، كما ذكر بعض مؤرخى الإفرنج ، أن هذه المائدة هى من نفائس ملوك القوط ، وأن العرب عثروا بها فى كنيسة طليطلة وهو أقرب إلى المعقول . (الروض المعطار ص ٥) .

حتى يلحق به ، ويتوعده بالعقاب إذ توغل بعد بغير إذنه[١] . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به ، بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط[٢] . وهذا تعليل حسن يتفق وما أثر عن موسى من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً فى نفس موسى وفى تصرفه . وعلى أى حال فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ، فى سفن صنعها خصيصاً لذلك ، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك فى رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيه سنة ٧١٢ م) ؛ وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شَذُونة[٣] ، ثم سار إلى قَرْمونة وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس ، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه . وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس . فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً . ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين فى كمين دبره النصارى . وانتهت بالتسليم فى رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين ، على أن تكون أموال الغائبين والكنائس ، غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله ؛ فأنبه وبالغ فى إهانته ، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ، وقيل بل هم بقتله أيضاً[٤] . ولكنه ما لبث أن عفا عنه ورده إلى منصبه[٥] ؛

---

(١) نفذه فى رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٧) ، وصاحب أخبار مجموعة (ص ١٥) ؛ وابن القوطية (ص ٩) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٧) ؛ وابن حيان مؤرخ الأندلس (نفح الطيب ج ١ ص ١٢٦) ، وبغية الملتمس للضبى (ص ١١) ؛ والحميدى فى جذوة المقتبس (طبع مصر) ص ٥ .

(٢) البيان المغرب (ج ٢ ص ١٥ و ١٨) .

(٣) **Medina Sedonia** ، ويسميها ابن الأثير مدينة السليم (ج ٤ ص ٢١٥) . ولكن شدونة أو شذونة تسمية أكثر ذيوعاً .

(٤) ابن عبد الحكم (ص ٢٠٨) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، والمقرى فى نفح الطيب (ج ١ ص ١٢٧) ، والحميدى فى جذوة المقتبس (ص ٦) .

(٥) ينفرد ابن عبد الحكم برواية عن إطلاق سراح طارق ، هى أن طارقاً استجار بمغيث الرومى وكان عائداً من الأندلس إلى المشرق ، ووعده بمائة عبد إذا هو أبلغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك ، فقام مغيث بالرسالة وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء إليه . =

ووضع الإثنان خطة لافتتاح ما بقى من إسبانيا : ثم زحفا نحو الشمال الشرقى واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وافتتحا سرقسطة وطرّكونة وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعاقل . ثم افترق الفاتحان ، فسار طارق نحو الغرب ليغزو جلّيقية ، وليتم القضاء على فلول القوط . وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه (جبال البرت أو البرتات أو الممرات)[1] ، وغزا ولاية لانجدوك أو سبتمانيا التى كانت تابعة إذ ذاك لملوك القوط ، واستولى على قرقشونة (كاركاسون) وأربونة (ناربون) . ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادى الرون (رذونة) حتى مدينة لوطون أو لوذون (ليون) ، فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا فى الأهبة لرد الغزاة ؛ ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت فى تلك السهول على مقربة من أربونة[2] .

وهنا فكر القائد الجرىء فى أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازياً فاتحاً ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتتح فى طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها . وهو ما يجمله ابن خلدون فى تلك العبارة القوية : « وجمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة »[3]. وكان موسى يقدر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرنيه ، يؤيده من البحر أسطول قوى ، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد[4] فى شمالى إيطاليا ، فيخترقها فاتحاً إلى رومة قاعدة النصرانية، فيفتتحها ويقضى فيها على كرسى النصرانية . ويتابع سيره بعدئذ شرقاً إلى سهول الدانواب ،

= وحمل مغيث هذا الكتاب إلى الأندلس ، فأفرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه (ص ٢١٠) . وذكر الطبرى أن طارقاً ترضى موسى فرضى عنه وقبل منه عذره (ج ٨ ص ٩٠) .

(١) البرت أو البرتات محرفة عن الاسبانية Puerta ، ومعناها الباب . وسميت الجبال بهذا الاسم لأنها تحتوى على خمسة أبواب أو ممرات طويلة كانت تستعمل للعبور والغزو . وسنعود إلى تفصيل ذلك . أما تسميتها بجبال البرانس فهو خطأ جغرافى حسبما نوضح بعد .

(٢) ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨) ، والبيان المغرب (ج ٢ ص ١٤) . ومعظم الروايات على أن موسى وقف فى زحفه عند أربونة .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ .

(٤) فى الجغرافية العربية بلاد اللنبرد أو أنكبردية .

مثخناً فى القبائل الجرمانية التى تسيطر على ضفافه ، ثم يخترق أراضى الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولى عليها ، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصداً إلى دمشق فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال ، كما اتصلت من طريق الجنوب[1] .

ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم ؛ فقد كان الإسلام يومئذ فى ذروة الفتوة والقوة والبأس ، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت . وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها الضعف والانحلال ، وكانت مملكة الفرنج وهى أضخمها وأقواها تمزقها الخلاف والتفرق ، وقد بدأ العرب غزوها بالفعل . ولم تستطع النصرانية أن توحد جهودها لرد الإسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها فى جهة دفاعية موحدة . ولم تكن أوربا فى ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة ، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة . فكان الإسلام يستطيع غزوها وفتحها . ولم يكن حلماً وإغراقاً ما تصوره موسى بن نصير واعتزمه . ولكن سياسة الإحجام والتردد التى اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية ، والتى كادت تحول دون فتح اسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين فى دروب مجهولة ، ويأمره بالعود ، فارتد موسى مرغماً آسفاً ؛ ولكنه تمهل فى العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التى اعتصمت بها فلول القوط ، ويطهر اسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة ، فاخترق جليقية واستولى على معظم معاقلها ، ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو ، ولجأت إلى قاصية جليقية ؛ وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها ، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً ، ويأمرهما بتعجيل العود . ولعل أقوى البواعث التى حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمى إليه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهى هذا الخلاف ، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم فى تلك الأقطار

---

(١) **Cardonne : ibid. V.I.p. 96—97** . ويقول الفيلسوف جيبون تعليقاً على هذا المشروع إنه تمكن مقارنته بخطة مثراديتيس ليفتتح ما بين القرم ورومة ، أو خطة قيصر ليفتتح المشرق ثم يعود من طريق الشمال . ويفوق هذه المشاريع جميعاً مشروع هانيبال الذى نفذ بنجاح عظيم (الفصل الحادى والخمسون) .

الجديدة المجهولة التى افتتحوها[1] . أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه ، فى الاستقلال بذلك الملك الجديد النائى ، وهو أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجحه . وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والتحف التى اغتنمت من الأندلس ، وخوفه أن تمتد إليها يد التبديد . ومهما كانت العوامل التى دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحى الأندلس ، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام فى اسبانيا . ذلك أن هذه الشراذم النصرانية الصغيرة التى نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية ، لم تلبث أن نمت وقويت ، وكانت منشأ المملكة النصرانية التى قامت فى الشمال ، ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام فى اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفى ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخمد الثورة فى إشبيلية وباجة ، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والتسامح ، والاعتدال فى تطبيق الأحكام وفرض الضرائب . ولنا فى معاهدته مع تيودمير خير شاهد باعتدال السياسة الإسلامية ولينها وتسامحها . وإليك نص هذه المعاهدة ، حسبما نقله إلينا الغزيرى فى معجمه ، نورده نموذجاً للوثائق السياسية الإسلامية فى عصر الفتح :

« نسخة كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير عبدوش — بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه . وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ونصح ، وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن ، أوريوالة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرّة وأنة ولورقة . وأنه لا يأوى لنا عدواً ، ولا يخون لنا أمناً ولا يكتم خبراً علمه . وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً

---

(١) لم توضح الرواية الإسلامية أسباب هذا الاستدعاء . ولكن الغزيرى نقل فى معجمه عن بعض أوراق مخطوطة فى الإسكوريال فى سبب الاستدعاء هذه الفقرة : « ولما علم الوليد بن عبد الملك ما حدث لطارق بن زياد وموسى بن نصير من الخلاف بعث فيهما فانصرفا إلى المشرق » . ويعتقد الغزيرى أن الأوراق التى عثر بها ونقل منها هذه الفقرة إنما هى من تاريخ الرازى لقرائن ذكرها . راجع Casiri : ibid ; V. II p. 323

كل سنة ، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب فى أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة . شهد على ذلك ... الخ »[1] .

واتخذ موسى بن نصير أهبته للعود إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة . فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع ، وجعل حاضرتها إشبيلية[2] لاتصالها بالبحر وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبدالعزيز ، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، كما استخلف على إفريقية عبد الله أكبر أولاده . وفى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس ٧١٥ م) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه ، وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ، ومن أشراف السبي عدد عظيم[3] .

---

(١) نقل الغزيرى هذا النص فى معجمه عن بعض مخطوطات الإسكوريال ، وقرنه بترجمة لاتينية **(Casiri : ibid. V II. p. 105)**

هذا وقد أورد لنا العذرى نصا آخر لهذا الأمان فى كتابه « ترصيع الأخبار وتنويع الآثار » ؛ دلى نفس المدن السبعة ، جاءت شروطه على النحو الآتى : « ألا يقدم ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ، ولا يكرهون على دينهم ؛ وأنه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحل ما انعقد ، ويصحح الذ فرضناه عليه ، وألزمناه أمره ، ولا يكتمنا خبراً علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حر دينار .. الخ » ثم يلى ذلك شهود هذا الأمان » (راجع « نصوص عن الأندلس » وهى عبارة عن أوراق منقولة من كتاب « ترصيع الأخبار » ومنشو ة بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، وصادر ة عن معهد الدراسات الإسلامية بمدريد — ص ٤ و ٥) .

(٢) اقتبس العرب اسم « إشبيلية » من اسمها اللاتينى « هسبالى » **Hispali** ، ثم حرف الإسبان هذا الاسم إلى « سڤيليا » **Sevilla** ، وهو الذ يطلق عليها فى الجغرافية الحديثة .

(٣) تفيض الرواية الإسلامية فى وصف ما أصابه المسلمون فى الأندلس من الغنائم الجليلة والسبى الذى لا يحصى . وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر ؛ منها مائدة سليمان السالفة الذكر ؛ وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفاً ، بينهم مئات من أشراف القوط والـ صفاء المختارين ، من ذو الشباب الغض والجمال الباهر ذكوراً وإناثاً . وذكر ابن القوطية أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك والعجم أربعمائة ، على رؤسهم تيجان الذهب وفى أوساطهم مناطق الذهب (ص ١٠) . ونقل المقرى عن بعض المؤرخين أن العرب وجدوا فى طليطلة حين فتحوها من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكى ، ومن الدر والياقوت أكيال ، ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف (نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ و ١٣٥ و ١٣٦) .

وقد اختلفت الرواية العربية فى مصير موسى بن نصير ، واختلف الرواة فى أمر لقائه بالخليفة ؛ فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك ، وقدم إليه الأخماس والغنائم ، فأكرمه وأحسن إجازته ، وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك أخيه عرش الخلافة ، وأن سليمان غضب عليه ونكبه[1] . على أنه يمكن التوفيق بين القولين أعنى وفود موسى على الوليد ابن عبد الملك ثم نكبته على يد سليمان . وهنالك ما يرجح لدينا أنه لحق بالوليد قبيل وفاته ، فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس ، يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة الفسطاط فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين فى طريقه إلى دمشق[2]. وقد توفى الوليد فى منتصف جمادى الآخرة من هذا العام أعنى بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف . ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تتجاوز فى هذا العصر بضعة أسابيع ، فإن الوقت كان يكفى لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته بأسابيع . على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ونكبه . ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد فى مرض موته ، فكتب إليه سليمان ولى العهد أن يتمهل فى السير ، رجاء أن يموت الوليد بسرعة ، فيقدم عليه فى صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم الكثيرة ، فأبى موسى وجد فى السير حتى قدم والوليد حى فسلم إليه الأخماس والغنائم . ثم توفى الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً أخاه سليمان على كرسى الخلافة . فغضب سليمان على موسى ، وزاد فى حقده عليه ، ما قدمه فى حقه طارق ومغيث من مختلف التهم[3] . وفى الحال أمر ، بعزله واتهمه وبنيه باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف ، وقضى عليه بردها ، وبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ثم ألقاه إلى ظلام السجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ عنده ، فيروى أن يزيداً

---

(١) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١١) ، وصاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١) . ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والحميدى فى جذوة المقتبس (ص ٦) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٨) .

(٢) فتوح مصر ص ٢١١ .

(٣) أخبا مجموعة ص ٢٩ .

قال له : « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا . فقل لى كيف حصلت فى يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار ، وتيقنت بعد المرام واستصعابه ، واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها ، وحصل فى يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك فى يد من لا يرحمك . ثم إنك علمت أن سليمان ولى عهد وأنه الولى بعد أخيه . وقد أشرف على الهلاك لامحالة ، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحقدت مالكك ومملوكك » . وما زال يزيد بسليمان حتى عفا عن موسى ، وأعفاه من الغرامة الفادحة التى قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ، ولم يعفه من الغرامة ، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه ، وإن سليمان عفا عنه بعد ذلك[1] ، وأقر ابنه عبد الله على إفريقية وابنه عبد العزيز على الأندلس . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه ، حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفى فى منتهى البؤس والذلة بوادى القرى فى شمال الحجاز حيث ينسب مولده ، وذلك سنة سبع وتسعين[2] .

بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة . والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى ، وأقاله من محنته ؛ وتوفى موسى بعد ذلك بقليل فى سنة سبع وتسعين (وقيل فى سنة تسع وتسعين) وهو فى طريقه إلى الحج مع سليمان ، وقد جاوز الثمانين من عمره .

---

(١) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١٣) . وهى رواية يؤيدها البلاذرى (فتوح البلدان ص ٢٣٠) .

(٢) يراجع فى مصير موسى بن نصير : فتوح مصر (ص ٢١١) ، وأخبار مجموعة (ص ٢٩ و ٣٠) ، وابن القوطية (ص ١٠ — ١١) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والمقرى عن ابن حيان وابن يشكوال والحجارى ، (نفح الطيب ج ١ ص ١٣٤ و ١٣٥) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١) ، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٩ و ٩٣ ، ٩٦) . هذا ويبدى المستشرق دوزى ريبه فى صحة الروايات والقصص التى قيلت عن مصير موسى بن نصير ، ويقول إنه لا يوجد ثمة ما يبررها ، لأن موسى كان يتمتع بحماية يزيد بن المهلب صديق سليمان وصاحب النفوذ لديه ، ويستشهد برواية البلاذرى التى أشرنا إليها ، وأيضاً برواية مؤرخ نصرانى معاصر هو إيزيدور الباجى (Dozy, Hist. V. I. p. 134—135)

هذا ما تردده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر ، فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنها لم تقدر البطولة فى هذا الموطن قدرها ، ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته على يد رجلها وقائدها .

وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين فى القرن الأول للهجرة . وقد ظهرت براعته الإدارية فى جميع المناصب التى تقلدها ، كما ظهرت براعته الحربية فى جميع الحملات البرية والبحرية التى قادها . على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص فى حكمه لإفريقية ، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديد المراس ، يضطرم بعوامل الانتقاض والفتنة ، وإذا كان موسى قد أبدى فى معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة ، فقد أبدى فى الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب ، وبراعة فى سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية ، غزير العلم والأدب ، متمكنا من الحديث والفقه ، عالماً بالفلك ، مجيداً للنثر والنظم . غير أن هذه المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش ، وشهوة الحقد والحسد[١] .

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول فى عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها ، بعد أن اخفقت محاولته فى العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية . ومع أن سيل الفتح الإسلامى رد غير بعيد فى سهول بلاط الشهداء ، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر فى إسبانيا قروناً ، يبهر بضوء مدنيته الزاهرة جميع الأمم الأوربية فى العصور الوسطى .

* * *

هذا ما كان من شأن موسى ومصيره ، فماذا كان مصير طارق ؟ هذا ما تمر عليه الرواية الإسلامية بالصمت . وكل ما هنالك أنها تشير إلى ما كان من نية سليمان بن عبد الملك فى تعيينه والياً للأندلس مكان موسى ، وكيف عدل عن ذلك حينما وقف من مغيث الرومى فاتح قرطبة ، على ما كان يتمتع به طارق فى الأندلس من عظيم الهيبة والنفوذ ، وذلك توجساً مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع نحو ذلك

---

(١) نفح الطيب (ج ١ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

القطر النائى من أقطار الخلافة(١) ؛ وقد كان مغيث يحقد على موسى وطارق منذ الفتح ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما ، وكان لوقيعته ومساعيه ضدهما أكبر الأثر فى استدعائهما إلى دمشق . وإذا كانت هذه الرواية لا تلقى ضوءاً كافياً على مصير طارق ، فإنها قد تسمح لنا مع ذلك أن نعتقد أن طارقاً لم يلق مثل المصير المحزن الذى لقيه موسى ، وأنه بالعكس قد استقبل فى بلاط دمشق استقبالا حسناً ، وربما أحسن الخليفة فوق ذلك إثابته ، بدليل أنه فكر فى تعيينه والياً للقطر الذى ساهم فى افتتاحه بأعظم قسط .

ولكن الرواية الإسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشىء ، ولا تذكر لنا أين ومتى توفى ، بل تسدل على نهايته حجاباً عميقاً من الصمت(٢) ؛

وليس فى وسعنا إزاء هذا الغموض الذى يحيط بسيرة طارق أن نتحدث عن صفاته وخلاله ، وكل ما نستطيعه فى هذا الموطن هو أن ننوه بخلاله العسكرية الباهرة ، التى ظهرت بوضوح فى حروب المغرب وفتح الأندلس ، وهو بهذه الخلال يتبوأ مكانته بين أعظم الفاتحين المسلمين .

أما مصير الكونت يوليان الذى مهد لفتح الأندلس ، فلم تشر إليه الرواية الإسلامية ؛ وفى بعض الروايات أنه عاد بعد الفتح إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأراضى ، وقُلِّد إمارتها جزاء خدماته . ولكنه بقى نصرانياً هو وبنوه الأقربون ، ثم دخل عقبه فى الإسلام بعد ذلك . وتقول الرواية الكنسية الإسبانية إنه قتل بيد مواطنيه فى معركة نشبت بينه وبينهم ، أو أنه قتل بعد ذلك بأعوام فى ولاية الحر الثقفى بيد العرب لريبة فى ولائه . وتقول هذه الرواية أيضاً إن العرب أعدموا ابنى وتيزا وأفراد أسرته لمثل هذا السبب(٣) . وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية وتؤكد عكسه . فالمصادر الإسلامية تجمع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة إيقا (أو إيبا) وسيزبوت ابنى وتيزا وعمهما أوباس ؛ فأما أوباس فقد عين كما تقدم مطراناً لطليطلة ، وأقطع إيقا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضياع ؛

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) ولا نعرف مصدراً لما يقوله السيد أمير على من أن طارقاً لقى نفس المصير التعس الذى قيل إن موسى لقيه وأنه مات فى فقر وضعة : **History of the Saracens p. 122**

(٣) — **Crónica General ; Vol. II. p. 324. Cardonne : ibid.. V. I. p. 85**
Gibbon, ibid. Ch. LI — Scott : Moorish Empire, V. I. p. 259

ثم توفى إيقا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن إبنة تدعى سارة وولدين صغيرين ، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه ، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق ، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها ، وبعث بذلك إلى والى الأندلس أبى الخطار الكلبى . وتزوجت سارة فى دمشق من سيد عربى يدعى عيسى بن مزاحم ، ورزقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق . ثم عادت مع زوجها إلى الأندلس ، وأحرز ولداها مكانة ممتازة . وإليها ينتمى نسب ابن القوطية القرطبى المؤرخ ، نسبة إلى لقبها العربى وهو سارة « القوطية »[1] .

---

(١) تضطرب معظم الروايات العربية فى ذكر ابناء وتيزا ، فتقول إنه ترك ثلاثة بنين وتسميهم إلمند ورملة وارطباس . والظاهر أن الخطأ فى اعتبارها أوباس (ولعله هو أرطباس) ابنا لوتيزا . والمند هو إيقا ورملة هو سيزبوت . (راجع فتح الأندلس لابن القوطية ص ٥ و ٦) . والمقرى (ج ١ ص ١٢٥) ، ولكن صاحب « أخبار مجموعة » يقرر أنهما اثنان . ويسميهما ششبرت وأبة ، وهو تعريب حسن للاسمين (ص ٨) ، وكذا ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) .

الفصل الرابع

إسبانيا بعد الفتح الإسلامى

(١) آثار الفتح الإسلامى . سياسة العدل والتسامح . أقوال النقد الغربى الحديث فى ذلك . الحرية الدينية . المجتمع الإسلامى الجديد . عناصر الضعف فيه . العرب والبربر والمولدون . الخصومة بين اليمنية والمضرية . أسباب هذه الخصومة . رأى ابن خلدون فى تعليلها . الخصومة بين العرب والبربر . أثر دعوة الخوارج فى إذكائها . (٢) الأقاليم الأندلسية الجديدة . تفرق القبائل فى المدن المختلفة . منازل البربر فى شبه الجزيرة . ولاية عبد العزيز بن موسى . تنظيمه للحكومة الجديدة . زواجه بأرملة ردريك . التوجس من سياسته . مقتله . بواعث هذه الجريمة . ولاية أيوب ابن حبيب اللخمى . نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة . ولاية الحر الثقفى . قمعه للمنازعات والفتن . غزوه لسبتمانيا وافتتاحه لقواعدها . محاربته لثوار الشمال . الإضطراب فى قرطبة . ولاية السمح بن مالك . فصل حكومة الأندلس عن إفريقية . فكرة عمر بن عبد العزيز فى جلاء المسلمين عن الأندلس . إصلاحات السمح ومنشآته . غزوه لسبتمانيا . زحفه على تولوشة .

— ١ —

كان فتح الإسلام لاسبانيا فاتحة عصر جديد ، وبدأ تطور عظيم فى حياتها العامة وفى نظمها الاجتماعية . وقد كانت لعهد الفتح كما رأينا ترزح فى غمر مرهقة من الجور والعسف ، وكانت أقلية باغية من الأمراء والنبلاء تسود شعباً بأسره وتستغله أشنع استغلال ، وتفرض عليه رسوم الرق والعبودية ، وتستبيح منه كل الحريات والحرم . فجاء الإسلام ليقضى على ذلك كله ، وليحمل نعم العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعاً ، وليعطى كل ذى حق حقه ، وليقمع البغى والظلم . وبالرغم من أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد وتوسيعه ، فإنهم استطاعوا فى أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى ، وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبثوا فى الجزيرة روحاً جديداً من العزم والأمل ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بعد ركودها ، وهبت ريح من الرخاء والدعة ، على مجتمع أضناه العسف والفاقة مدى عصور .

قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، فتنفس الشعب الصعداء ، وخف عن كاهله ما كان ينوء به من الأعباء والمغارم . وفرض المسلمون الضرائب

بالمساواة والاعتدال والعدل ، بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم . وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضائهم وقضاتهم ، واختاروا فى معظم الأحوال لهم حكاماً من أبناء جنسهم ، يعهد إليهم بسن الضرائب المطلوبة ، والإشراف على النظام والسكينة . أما فى شأن الدين وحرية العقائد والضمائر ، فقد كانت السياسة الإسلامية مثلا أعلى للتسامح . فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين أو الاعتقاد ، وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على الذميين من النصارى أو اليهود ، لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية عقائدهم وشعائرهم ، ومن دخل الإسلام منهم سقطت عنه الجزية ، وأصبح كالمسلم سواء بسواء فى جميع الحقوق والواجبات . ونرى فى هذا الموطن أن نقدم طائفة من الأقوال والآراء التى يعلق بها المؤرخون والنقدة الغربيون ، على سياسة الفتح الإسلامى وآثاره فى اسبانيا . يقول العلامة المستشرق رينهارت دوزى :

« لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح . فلم يرهقوا أحداً فى شئون الدين . ولم تكن الحكومة — إذا لم تكن مغرقة فى الدين — لتشجع إسلام النصارى ، إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيراً . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج ، وانقضى القرن الثامن كله فى سكينة ، وقلما نشبت فيه ثورة . كذلك لم يبد رجال الدين فى العصور الأولى كثيراً من التذمر ، وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك . وهذا ما تؤيده روح الرواية اللاتينية التى كتبت سنة ٧٥٤ فى قرطبة ، والتى تنسب لإيزيدور الباجى ، فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين ، يبدى نحو المسلمين من العطف ، ما لم يبده أى كاتب إسبانى آخر قبل القرن الرابع عشر » . ويقول دوزى عن آثار الفتح الإجتماعية : « كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا . فقد أحدث فيها ثورة إجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد منذ قرون .. وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى ، ووزعت الأراضى توزيعاً كبيراً ، فكان ذلك حسنة سابغة ، وعاملا فى ازدهار الزراعة إبان الحكم العربى . ثم كان الفتح عاملا فى تحسين أحوال الطبقات المستعبدة ،

إذ كان الإسلام أكثر تعضيداً لتحرير الرقيق من النصرانية ، كما فهمها أحبار المملكة القوطية . وكذا حسنت أحوال أرقاء الضياع ، إذ غدوا من الزراع تقريباً ، وتمتعوا بشيء من الإستقلال والحرية » (١).

ويقول الأستاذ لاين پول : « أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى ، بينما كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل ، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية » .

« ما كان المسلمون كالبرابرة من القوط أو الوندال ، يتركون وراءهم الخراب والموت . حاشا ، فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصلح من حكمهم . ومن الصعب أن نقول أنى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشئون الإدارية ، فقد خرجوا من الصحراء إلى الغزو ، ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه إدارة الأمم المفتوحة »(٢) .

ويقول المستشرق الإسبانى جاينجوس : « لقد سطعت فى اسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية ، التى نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية . وفى مدارس قرطبة وطليطلة العربية ، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء ، وحفظت بعناية . وإلى حكمة العرب ، وذكائهم ، ونشاطهم ، يرجع الفضل فى كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها »(٣) .

وقال المؤرخ الأمريكى سكوت : « فى أقل من أربعة عشر شهراً ، قضى

---

(١) Dozy : Histoire, V.II, p. 277—278 . ويذكر دوز من جهة أخر أن الفتح أعقبته فترة من الفوضى نهب فيها المسلمون عدة أماكن ، وأحرقوا عدة مدن وشنقوا بعض الأشراف ، وقتلوا الأطفال بالخناجر ، ولكن الحكومة العربية قمعت فى الحال هذه الفظائع (ج ٢ ص ٢٧٥) . ويندد من جهة أخرى بقضاء العرب على حرية الكنيسة ، واستئثارهم بتكوين المجالس الدينية ، وتعيين الأساقفة وعزلهم . ثم يقول إن العرب بعد أن توطد سلطانهم ، كانوا أقل احتراماً للمعاهدات المعقودة (ج ٢ ص٢٨١) . ونقول نحن إن دوزى لم يعتمد فى سرد هذه الفظائع إلا على الرواية النصرانية وهى متحاملة مغرضة تحمل طابع المبالغة ، خصوصاً فيما يتعلق بقتل الأطفال . أما تنديده بقضاء العرب على سلطة الكنيسة فليس مما يمكن تبريره ، لأن سياسة الفتح المستنيرة ، وبواعث توطيد دعائم الدولة الجديدة ، تقضى بأن يأخذ الغالب بزمام كل السلطات فى البلد المفتوح .

(٢) Lane - Poole : The Moors in Spain, Ch. I

(٣) P. Gayangos : History of the Mohammedan Dynasties in Spain V. I. p. VII & VIII

على مملكة القوط قضاء تاماً ، وفى عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه . ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت فى هذا الفتح... وقد كان المظنون فى البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائماً . فلما استقرت الجماعات المستعمرة ، وفتحت الثغور لتجارة المشرق ، وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذى نزل بهم . ولكن اعتدال حكامهم الجدد خفف من ألم الهزيمة . وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة ، والأحبار يزاولون شئونهم فى سلام : أما أقوال الكتاب النصارى التى ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب ، فهى محض مبالغة أو افتراء »[1] .

أجل ، لم يك ثمة ما يدعو لأن يعتبر الفتح الإسلامى لاسبانيا كارثة قومية يفزع لها الشعب ويأسو ، بل كان كل ما هنالك بالعكس يدعو إلى اعتباره نذير الخلاص والأمل . ألم يكن شعار الفاتحين التسامح والعدل والمساواة ؟ لقد كان تسامح الإسلام نبراساً يشع بضوئه المنقذ فى هاتيك المجتمعات التى أضناها الإرهاق الدينى ، ولم ير الإسلام بأساً من أن يستقبل النصارى واليهود إلى جانب المسلمين فى مجتمع واحد ، يسوى فيه بينهم فى جميع الحقوق والواجبات ، ولم ير بأساً من أن تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد ، ألم يكن ذلك أبدع وأروع ما فى سياسة الفتح الإسلامى ؟ لقد كانت حرية الضمائر والعقائد والفكر ، وما زالت منذ أقدم العصور ، أثمن ما تحرص عليه الشعوب الكريمة وتذود عنه .

فإذا ذكرنا أن هذا التسامح الذى أبداه الإسلام نحو الأمم المغلوبة ، وهذا الاحترام لضمائر الناس وعقائدهم ، وهذه الحرية التى تركها لهم فى إقامة شعائرهم ، إنما جاءت بعد عصور طويلة من الاضطهاد الدينى ، اتخذت فيها مطاردة الضمائر والعقائد أشنع الأساليب والصور ؛ استطعنا أن نقدر ما كان لذلك الانقلاب من

---

(١) Scott : ibid., V. I. p. 260 & 264 . وينوه باحث أمريكى حديث آخر هو الدكتور لى Lea بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى ، وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وبغض الأجناس أو التفرقة بينها . راجع : History of the Inquisition in Spain V. I. p. 356

أثر عميق فى نفسية الشعوب المغلوبة وعواطفها ، وما كانت تحبو به حكم الإسلام من التأييد والرضى .

ويبدى كثير من العلماء الإسبان أنفسهم مثل هذا التقدير ، والإشادة باعتدال السياسية الإسلامية وآثار مسلكها المستنير . ذلك أن العرب تركوا الشعب المغلوب دون مضايقة ، يحيا حياته الخاصة فى نظمه وتقاليده . وهذا ما يسلم به المستشرق سيمونيت ، بالرغم من كونه من أشد العلماء الإسبان تحاملا ، فهو يقول لنا « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية ، فإن النصارى الإسبان احتفظوا فى ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ؛ وفيما يتعلق بالتشريع ، فإنهم قد احتفظوا فى باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة ، واحتفظوا فى الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون التقاضى "Fuero Juzgo" ، يخضعون لها فى كل ما له علاقة بحكومتهم . وهى حكومة بلدية محلية ، وما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية »[١] .

وفيما يتعلق بالناحية النظامية يقول العلامة ألتاميرا ، إن أغلبية الشعب الإسبانى الرومانى والقوطى بقيت فى ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها (وهم الأقماط أو الكونتات Condes) وقضائها وأساقفتها وكنائسها ، وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل . وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى المحكومين الضرائب الشرعية »[٢] .

ويقول المستشرق كارديناس : « إن الفضل يرجع إلى تسامح الولاة والأمراء الأوائل ، فى أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامى ، كان الشعبان — المسلمون والمستعربون (النصارى) — يعيشان جنباً إلى جنب عيشة حرة » .

« واستطاع المستعربون فى ظل الحكم الإسلامى أن يحتفظوا باستقلالهم ، ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم ، وأحياناً بأساقفتهم وكونتاتهم ، وأن يسهروا على صيانة الفنون القوطية التى كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها »[٣] .

---

(١) D. Francisco J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) V. I. p. 106.

(٢) R. Altamira y Crevea : Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola (Barcelona 1900) T. I. p. 217.

(٣) O. Almagro y Cardenas: La Cultura Arabigo—Sevillana (Sevilla 1894) p. 10.

ونكتفى بما تقدم من أقوال المؤرخين والمفكرين الغربيين فى الإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وتسامحها . وفى أقوالهم أبلغ رد على ما ينسبه بعض الأحبار والعلماء المتعصبين لحكم المسلمين ، من ضروب التعصب والطغيان المدنى والدينى .

غير أن هذه الدولة الجديدة التى أنشأها الإسلام فى اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف الخطر . وكان هذا المجتمع الجديد الذى جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره ، يجيش بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ماتزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، يبغضون قادتهم ورؤساءهم العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، واحتلالهم لمعظم القواعد والوديان الخصبة ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الإسبان وهم « المولدون أو البلديون »[1] محدثين فى الإسلام ، يشعرون دائماً بأنهم رغم إسلامهم ، أحط من الوجهة الاجتماعية ، من سادتهم العرب . ذلك أن العرب رغم كون الإسلام يسوى بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون فى ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ، هذا إلى أن العربى فى الأقطار القاصية التى افتتحها بالسيف ، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس ، التى كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الإنكليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة[2] . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر ما فى هذا المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ، فقد كانت عصبية القبائل والبطون ، ما تزال قوية حية فى الصدور ، وكان التنافس على السلطان والرياسة بين الزعماء والقادة ، يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها فى نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار ذلك الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع إلى ماقبل الإسلام . منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الإسلام فى حمير وتبع ، أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضر بدواً متأخرين يخضعون لحمير ويؤدون

---

(١) ابن القوطية – افتتاح الأندلس – ص ٣٠ .

(٢) Ameer Ali : Ibid., p. 118

الجزية لهم . وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ، إذ كانت حمير تعمل للاحتفاظ برياستها وسلطانها، وتجاهد مضر في سبيل استقلالها وحريتها . ولنا في « أيام » العرب ووقائعها المشهورة ، أمثلة رائعة من هذا النضال . قال ابن خلدون : « واستمرت الرياسة والملك في هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً ، بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم في بني المنذر ، وبالشام لغسان في بني جفنة ، ويثرب كذلك في الأوس والخزرج . وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية وأحياء ناجعة . وكانت في بعضهم رياسة بدوية وراجعة في الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك ، وظهرت قريش على مكة ونواحي الحجاز ، أزمنة عرفت فيها منهم ودانت الدول بتعظيمهم . ثم صبغ الإسلام أهل هذا الجيل ، فاستحالت صبغة الملك إليهم وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الله بالنبوة بهم ، فكانت فيهم الدول الإسلامية كلها ، إلا بعضاً من دولها قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة »[1]. وهكذا أسفر النضال لظهور الإسلام عن تحول في الرياسة ، إذ انتهت إلى قريش زعيمة المضرية ، بعد أن لبثت عصوراً طويلة في اليمنية ، وانقلبت الآية ، فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تجاهد في انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير ، كان أصل اللغة العربية التي اعتنقتها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبي القرشي المضري ، فكانت اللغة من مفاخر مضر ، تغار عليها وتحافظ على سلامتها ونقائها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وتميم . وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وأياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم »[2] . أضف إلى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ .
(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ٤٨٧ .

فى الطبائع والخلال ، مما كان يذكى بينها أسباب النفور والتباعد . وقد كان الإسلام مدى حين عاملا قوياً فى جمع الكلمة ، وتوطيد الصفوف ، وتلطيف أسباب الخصومة ، ولاسيما فى شبه الجزيرة العربية . ولكن ما كاد ينقضى العصر الأول ، حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها ، وعادت تعصف بوحدة المجتمع الإسلامى ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد فى الأقطار القاصية التى افتتحها الإسلام ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة ، التى تعمل معاً تحت لوائه ، مجالا واسعاً للتنافس والتطاحن . وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الإسلامى المضطرم المتنافر ، الذى قام عقب الفتح فى اسبانيا .

وكانت إفريقية وهى أقرب قطر إسلامى لإسبانيا ، وتتبعها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية ، تفيض أيضاً بعناصر اضطراب خطرة . فقد نزح إليها الدعاة الخوارج منذ أواخر القرن الأول ، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر بسرعة ، لحداثة عهدهم بالإسلام ، وتعددت نحلهم وطوائفهم ، واشتد الخلاف والجدل فيما بينهم ، وفسد من جهة أخرى مابينهم وبين العرب من علائق الإخاء والمودة ، وكثر نزوعهم إلى الثورة . وهذا مايصفه ابن خلدون فى قوله : « ثم نبضت فيهم (أى البربر) عروق الخارجية ، فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية . وفشت هذه البدعة ، وعقدها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلفوا فى كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب »[1] . واشتد تحريض الخوارج على حكومة الأمويين فى إفريقية ، بعد أن أخفقوا فى مقاومتها فى العراق ، وتوالت الثورات والحروب الأهلية حيناً . وكان لذلك كله صداه فى اسبانيا ، وخصوصاً بين البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، فاضطرب أمر الحكم والنظام فى الأندلس ، وذكا الخلاف بين الزعماء والقادة على نحو ما قدمنا ، ولبثت حكومة اسبانيا العسكرية مدى حين عرضة للخروج والثورة ، وذهب ضحية الفتنة جماعة من الحكام والزعماء كما نفصل بعد ؛

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

— ٢ —

عنى الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شئون الحكم والإدارة ، فقسمت اسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط ، فى المبدأ ، إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم محلى يعينه الحاكم العام ، ويُسئل أمامه مباشرة عن أعماله وشئون إدارته . أما حاكم الأندلس أو واليها العام ، فكان تعيينه فى المبدأ راجعاً إلى حاكم إفريقية يختاره بموافقة الخليفة .

وكانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس ، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادى الكبير ، وما يلى هذا النهر حتى نهر وادى أنة أو وادى يانة ، وأشهر مدنها قرطبة ، وإشبيلية ، ومالقة ، وإستجة ، وجيان . وتشمل الثانية جميع اسبانيا الوسطى ، من البحر المتوسط شرقاً إلى حدود البرتغال غرباً (لوزيتانيا) ، ثم إلى نهر دويره (دورو) شمالا ، وأشهر قواعدها طليطلة ، على نهر تاجُه ، وقونقة وشقوبية ، وبلنسية ، ودانية ، ولقنت ، وقرطاجنة ، ومرسية ، ولورقة ، وبسطة . وتشمل الثالثة جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) ، وأشهر قواعدها ماردة ، ويابرة ، وباجة ، وأشبونة ، وقلمرية ، ولك ، وأسترقة ، وشلمنقة وغيرها . وتمتد الرابعة من نهر دويره إلى جبال البرنيه (جبال البرت أو الممرات) على ضفتى نهر إبره (إيبرو) ، وغرباً إلى جليقية . وأشهر قواعدها سرقسطة ، وطرطوشة ، وطركونة ، وبرشلونة ، وأرقلة (أرجل) ، وبلد الوليد ، ووشقة ، وببشتر وغيرها . ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالا ، أنشئت ولاية خامسة شمالى جبال البرنيه شاملة لأربونة ، ونيمة (أونومشو) ، وقرقشونة ، وبزييه ، وأجده ، وماجويلون (أومقلون) ، ولوديف[1] .

ففى هذه الولايات والقواعد الجديدة تفرقت القبائل والعشائر المختلفة ، فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة ، وحمص بإشبيلية ولبلة وأنحائهما ، وقنسرين بجيان وأنحائها ، وفلسطين بشذونة والجزيرة وريُّه ومالقة وأنحائها ، وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها ، ونزل الفرس بشريش وأحوازها ، والعراقيون ، بكورة إلبيرة (غرناطة) ؛

(١) يقدم لنا أبو عبيدة البكرى فى وصفه للأندلس تفصيلا لهذا التقسيم ، ويسميه تقسيم قسطنطين . وهو يقوم على تقسيم اسبانيا إلى ست وحدات إدارية ، تقترب فى أوضاعها مما ذكر . (راجع الروض المعطار — الترجمة الفرنسية ص ٢٤٦) .

والمصريون بتدمير وماردة وأشبونة وأراضيها ، واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية[1] :

وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية فى نواحى ماردة وبطليوس وأراضى البرتغال ، ونواحى الثغر الأوسط شمالى طليطلة فيما وراء نهر التاجُه ، وفى بعض أنحاء الثغر الأعلى ، وفى قطاع قونقة والسهلة ، ونزلت أقليات منهم بين القبائل العربية ، بنواحى شاطبة ولقنت ، وفى أحواز شذونة وأراضى الفرنتيرة[2].

ويلاحظ من الناحية الإقليمية ، أن القبائل العربية قد احتلت معظم البقاع والوديان الخصبة فى شبه الجزيرة ، وأن البربر نزلوا أو بعبارة أخرى أنزلوا بالعكس فى معظم الأقاليم والهضاب القاحلة ، ولم يحتلوا من البقاع الخصبة سوى القليل . وقد كان هذا التقسيم المجحف للأقاليم المفتوحة عاملا آخر فى ازدياد الشقاق بين العنصرين الفاتحين — العرب والبربر — . وسنرى فيما بعد كيف كان استقرار البربر فى تلك الأطراف الوعرة النائية ، من العوامل التى شجعتهم على تحدى السلطة المركزية ، ورفع لواء الثورة من آن لآخر :

وقد ذكرنا أن موسى بن نصير قبل رحيله إلى المشرق فى شهر ذى الحجة سنة ٩٥ ، اختار ولده عبد العزيز لولاية الأندلس ، فكان أول ولاتها من المسلمين ، وأنه استخلف ولده عبدالله فى ولاية إفريقية ، وأن سليمان بن عبد الملك أقر هذا الاختيار . فقضى عبد العزيز بن موسى فى ولايته زهاء عامين عنى فيهما بتحصين الثغور ، وقمع الخروج والعصيان ، وافتتح عدة أماكن وحصون ، وأبدى همة فى تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها ، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها ، لتوافق مشارب الرعايا الجدد ، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل ، وشجع الزواج بين العرب والإسبان ، وتزوج هو بالملكة إيجلونا[3] أرملة ردريك ملك القوط ، واختار فى إشبيلية عاصمة ، الأندلس

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

(٢) يقدم لنا ابن حزم فى كتاب « الجمهرة » بياناً مفصلا عن القبائل والبطون البربرية التى نزلت فى شبه الجزيرة ، والنواحى التى نزلت بها . راجع « جمهرة أنساب العرب » (القاهرة) ص ٤٦٤ ، ٤٩٥ .

(٣) ويسميها العرب « إيلة » أو أم عاصم . وقال الواقدى ، ونقله ابن عبد الحكم ، إنها كانت ابنة ردريك لا زوجته (أخبار مصر ص ٢١٢) ، وكذا ورد فى البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٢) .

الجديدة ، دير « سانتا روفينا » ليكون مقاماً له ولزوجه ، وفيه أجريت أول تعديلات على الطراز العربى ، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشأم والعراق وفارس ، فأحيوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة . ولكنه لم يستطع أن يوفق بين مختلف القبائل ، ولا أن يهدئ من فورة الجند . هذا إلى ما ثار من ريب حول مقاصده ونياته ، بانقياده إلى زوجه ، واتخاذه نوعاً من رسوم الملك ، حتى قيل إنه تنصر ، وقيل إنه كان يبغى الملك ويسعى إليه بتحريض زوجه ، ويعمل للاستقلال بإسبانيا[١] .

وهذا ما يراه المستشرق سيمونيت ، إذ يقول إن عبد العزيز بن موسى كان يدبر مشروعاً يرمى إلى الاستقلال بإسبانيا ، وإلى أن يؤسس مملكة أو إمارة مستقلة فوق أنقاض المملكة القوطية ، وقد كان مما يدفعه إلى هذا العزم ، فضلا عن طموحه الشخصى ، تحريض زوجه إيجلونا ، التى كانت تضطرم رغبة فى استرداد تاجها القديم ، وأسباب أخرى تتعلق بالسياسة العليا . ولم يكن يخفى عليه أن سلطان خلفاء المشرق ، غدا قاصراً عن أن يسيطر على هذا القطر الغربى ، الذى كان سكانه الوطنيون أقل انحطاطاً من الأمم الأخرى التى فتحها المسلمون ، والذى كان يقدم إلى الفاتحين بعدده وحضارته مزية عظيمة[٢] . وبالرغم من أنه ليست لدينا أدلة حاسمة على مشروع عبد العزيز بن موسى فى الاستقلال باسبانيا ، فإنه يبدو ممكناً ومعقولا فى الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ . وعلى أى حال ، فإن خصومه شنوا عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية انتهت بالثورة ، فوثب به جماعه من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبى عبدة الفهرى ، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية ، وذلك فى رجب سنة ٩٧ (يناير ٧١٦م) ، وبعثوا برأسه إلى دمشق . ومن المرجح أن يد الخلافة لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة ، وأن سليمان بن عبد الملك هو روحها والمحرض عليها ، فمن المعقول أن يتوجس سليمان ريبة من عبد العزيز ومقاصده ، بعد الذى أنزله بأبيه موسى ، وأن يرى التخلص منه وسيلة لتأمين الخلافة على سلطانها فى ذلك القطر الجديد . وفى اهتمام

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٨ . وراجع C. Julian : ibid, p. 778

(٢) F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana, Vol. I, p. 147

الجناة بإرسال رأس القتيل إلى دمشق اتهام واضح للخليفة . وقد عزل سليمان ، عبد الله بن موسى بن نصير عن إفريقية ، فى نفس الوقت الذى قتل فيه عبد العزيز ، وهو ما يؤيد هذا الفرض أيضاً . والواقع أن أكثر من رواية إسلامية وثيقة يلقى تبعة هذه الجريمة على سليمان ، ويتهمه البعض صراحة بأنه مدبرها ، بل لقد ذهب بعضهم إلى القول بأن سليمان لم يكتف بأن حمل الجناة إليه رأس عبد العزيز ، وأنه عرضها على أبيه موسى زيادة فى إيلامه والتشفى منه[1] ، على أن سليمان لم يعدم من الرواة من يبرئه من ارتكاب هذه الجريمة ، فقد ذكر لنا صاحب « أخبار مجموعة » أن سليمان أسف لمقتل عبد العزيز ، أو بعبارة أخرى أنه برىء من تبعة مقتله ، وهى الرواية الوحيدة من نوعها ، وهى رواية ظاهرة الضعف[2] .

وعلى أثر مقتل عبد العزيز ، اتفق الزعماء فى إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمى ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، وكان عاقلا صالحاً ، فهدأت الخواطر نوعاً ، ولبث فى ولايته ستة أشهر نقلت خلالها قاعدة الحكم من إشبيلية إلى قرطبة باتفاق الجماعة[3] . ثم أقاله محمد بن يزيد الذى خلف عبد الله بن موسى فى ولاية إفريقية ، وعين لولاية الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، فقدمها فى ذى الحجة سنة ٩٧ فى جماعة كبيرة من وجوه إفريقية . وأنفق الحر صدر ولايته فى قمع الفتن والمنازعات التى كانت قائمة بين العرب والبربر ، وإصلاح الجيش ، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند ، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن ، وكان صارماً جائراً شديد الوطأة . ثم سار نحو الشمال فى جيش ضخم ليستعيد المدن والحصون الشمالية التى غزاها المسلمون من قبل ، فعبر جبال البرنيه واخترق ولاية سبتمانيا[4] أو لانجدوك فى ربيع سنة ٧١٨ (٩٩هـ) ، وكانت مدن سبتمانيا قرقشونة

---

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٢ و ٢١٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٢ و ٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٨ ، وابن القوطية (ص ٤١) وهو صريح فى أن سليمان هو الذى دبر الجريمة وعهد بتنفيذها إلى جماعة معينة من الجند ، وابن خلدون وهو صريح أيضاً فى أن الجريمة تمت بتحريض سليمان (ج ٤ ص ١١٨) .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٣) وهناك رواية أخرى فى أن الذى نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة هو الحر الثقفى . راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ و ٢٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٤) سميت كذلك لاحتوائها على المدن السبعة أربونة وقرقشونة وأجدة وبزييه ولوديف وقيمة وماجويلون .

وأربونة وبزييه ونيمة تابعة لمملكة القوط ، وكانت تخلفت عن الطاعة بعد أن غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير على نحو ما قدمنا . فافتتحها الحر واستولى عليها ، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون . ولكنه اضطر أن يعود أدراجه ، إذ علم أن النصارى فى منطقة ناڤار الجبلية (نبّره أو بلاد البشكنس) ، قد نظموا حركة مقاومة خطيرة ، وأن الأمور قد اضطربت فى قرطبة . وكان النظام قد اختل ، وعادت المنازعات والدسائس تعمل عملها ، فى تقويض الأمن والسكينة ، فأنفق الحر حيناً آخر فى قمع الفتنة ، حتى عزله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فى منتصف سنة مائة لقسوته وصرامته ، واضطراب النظام فى عهده ، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر ، سادت فيها القلاقل والفتن .

واختار عمر بن عبدالعزيز لولاية الأندلس السَّمْح بن مالك الخولانى . وقرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة مباشرة ، لما رآه من أهميتها واتساع شئونها ، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لعامل إفريقية وإليه تعيين ولاتها . ويقال إن عمر بن عبد العزيز فكر فى إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها ، لانقطاعهم بها ، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقى أقطار الخلافة ، فقيل له إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا ، فعدل عن مشروعه . « قالوا وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلا أن يستنقذهم الله برحمته »(1) . وقدم السمح إلى الأندلس فى رمضان سنة مائة (إبريل سنة ٧١٩) مزوداً بنصح الخليفة فى أن يتبع الرفق والعدل ، وأن يقيم كلمة الحق والدين . وكان السمح حاكماً وافر الخبرة والحكمة والعقل . فقبض على زمام الأمور بحزم وهمة ، وبادر بقمع المنازعات والفتن ، وإصلاح الإدارة والجيش . وخمس جميع أراضى الأندلس التى فتحت عنوة ، أعنى مسحها وقرر عليها الخراج بنسبة الخمس .

ويقول لنا العلامة ألتاميرا ، فيما يتعلق بتوزيع أراضى الأندلس ما يأتى :

« وقد ترك الفاتحون للإسبان الذين أسلموا أو خضعوا ، سواء أكانوا جنداً

---

(١) أورد هذه الرواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥) ، ونقلها المقرى عن ابن حيان مؤرخ الأندلس (ج ٢ ص ٥٦) ، وأشار إليها ابن الأثير أيضاً (ج ٥ ص ١٨٢) .

أم نبلاء — حقوقهم فى ملكية أملاكهم كلها أو بعضها ، مع فرض ضريبة عقارية عليهم مشابهة للخراج هى (الجزية) ، على الأراضى المزروعة والأشجار المثمرة ، واتبعت هذه القاعدة نحو بعض الأديار ، كما حدث فى الامتياز الذى منح لمدينة « قُلُمرية » ، وأبيح لهؤلاء الملاك فوق ذلك حرية التصرف فى أملاكهم ، وهو حق كان وفقاً للقوانين الرومانية القديمة مقيداً أيام القوط . وأما مازاد عن الخمس فى الأراضى التى استولى عليها الفاتحون ، فقد وزع بين الرؤساء والجند ، وبين القبائل التى يتألف منها الجيش .

« وقد روعى فى توزيع الأراضى أن تخصص الولايات الشمالية ، وهى جلّيقية وليون والأسترياس للبربر ، وأن تخصص الولايات الجنوبية ، أعنى الأندلس للقبائل العربية . وكان يفرض على العمال الملازمين siervos من القوط ، الذين يشتغلون بزرع الأرض ، أن يدفعوا للسيد أو القبيلة المالكة ثلثى أو ثلاثة أخماس المحصول . وكان من أثر ذلك أن تحسنت أحوال المزارعين ، كما أنه أدى فى نفس الوقت إلى تقسيم الملكية وتمزيق الملكيات الكبيرة . كذلك تحسنت حال العبيد ، لأن المسلمين كانوا يعاملونهم بأفضل مما كان الإسبان الرومان والقوط ، ولأنه كان يكفى أن يدخل العبد فى الإسلام ليغدو حراً »(١) .

وأنشأ السمح قنطرة قرطبة الشهيرة ، على نهر الوادى الكبير ، تحقيقاً لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وأبدى فى جميع أعماله حزماً ورفقاً وعدلا ، فالتف الزعماء حوله ، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر ، واستقر النظام والأمن .

وكان السمح فوق كفايته الإدارية جندياً جريئاً وقائداً عظيماً . فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح ، تأهب لاستئناف الغزو ، وتوطيد سلطان الخلافة فى الولايات الجبلية ، والقواعد الشمالية ، التى لم يستطع أن يتمم إخضاعها الحر الثقفى . فزحف على لانجدوك (سبتمانيا) فى أواخر سنة ٧١٩ م فى جيش ضخم ، وفى جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة ، واخترق جبال البرنيه من الشرق من ناحية روسيون ، واستعاد أربونة وقرقشونة ومعظم قواعد سبتمانيا وحصونها ، وعاث فى تلك الأنحاء ، وشتت كل قوة تصدت لمقاومته . ووقعت هذه الغزوة

---

(١) R. Altamira. Historia de Espana. V. I. p. 217—218

الشاملة فى سنة ٧٢٠ م (١٠١ هـ) . ويقول إيزيدور الباجى إن العرب اجتاحوا يومئذ غاليس القوطية كلها وجميع قواعد سبتمانيا[1] . ثم اتجه السمح بعد ذلك نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية أو أكوتين ، وزحف تواً على قاعدتها تولوشة (تولوز)[2] ، وبدأ بذلك النضال بين العرب والفرنج فى بسائط غاليس قوياً رائعاً .

---

(١) Dom Vissette : ibid. V. I. p. 781

(٢) ويسميها ابن عذارى طرسونة (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥) وهو تحريف ظاهر لأن طرسونة كانت من أعمال تطيلة فى شمال شرق الأندلس (راجع معجم ياقوت) .

الفصل الخامس

غاليس بين العرب والفرنج

(١) مملكة الفرنج . نزوحهم من الشمال إلى فرنسا . كلوڤيس أول ملوكهم . كلوتير الثانى . داجوبرت . نمو مملكة الفرنج . ضعف سلطان العرش . الزعماء المحليون . محافظ القصر . الأسرة الكارلية . نفوذها وتقدمها فى الرياسة . المعارك الأهلية . قيام إمارة أكوتين . ببين دى هرشتال محافظ القصر . حفيده تودڤالد يخلفه . ولده كارل مارتل ينتزع السلطة لنفسه . الدوق أودو أمير أكوتين . السمح يغزو إمارته . موقعة تولوشة ومقتل السمح . (٢) انتخاب عبد الرحمن الغافقى للرياسة . إخماده للفتنة فى الشمال . ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى . رد الأندلس إلى حكومة إفريقية . سير عنبسة إلى الشمال . غزوه لسبتمانيا . استيلاؤه على قرقشونة . غزوه لوادى الرون . تفاهم أودو مع المسلمين . أقوال إيزيدور الباجى . كمين الفرنج لعنبسة ومقتله . تتابع الولاة على الأندلس . عزرة بن عبد الله الفهرى . يحيى بن سلمة الكلبى . عثمان بن أبى نسعة الخثعمى . حذيفة بن الأحوص القيسى . الهيثم ابن عبيد الكلابى . اضطراب شؤون الأندلس . غزو الفرنج لمواقع المسلمين . اجتماع فلول القوط فى جليقية . إصلاحات الهيثم . عبوره إلى سبتمانيا . غزوه لوادى الرون وبرجونية . ولاية محمد ابن عبد الله الأشجعى . ولاية عبد الرحمن الغافقى الثانية . مواهبه وخلاله . بوادر الثورة فى الشمال . منوسة حاكم الولايات الشمالية . غموض شخصيته . أطماعه ومشاريعه . تفاهمه مع أودو دوق اكوتين وتحالفه معه . اقترانه بلامبيجيا ابنة الدوق . ارتياب عبد الرحمن فى موقفه وتصرفاته . إرساله جيشاً إلى الشمال . فرار منوسة ومقتله وأسر زوجه . مخاوف أودو . تأهب عبد الرحمن للغزوة الكبرى . سيره إلى الشمال . زحفه على مدينة آرل واستيلاؤه عليها . اختراقه لأكوتين . موقعة الدردون وهزيمة الفرنج . استيلاء عبد الرحمن على بوردو . سيره ثانية إلى وادى الرون . استيلاؤه على ليون وبيزانصون وصانص . زحفه غرباً نحو اللوار . أقوال الفيلسوف جيبون .

— ١ —

يجدر بنا قبل أن نمضى فى تتبع الغزوات الإسلامية لتلك الأنحاء ، أن نقول كلمة عن مملكة الفرنج تمهيداً لما سيجيء من لقاء العرب والفرنج وتطور العلائق بينهما . كان الفرنج (أو الفرنك) شعبة من القبائل الجرمانية استقرت منذ أواخر القرن الخامس للميلاد ، بين نهر الرّين والبحر فى إقليم فلاندر وما إليه (البلچيك الحديثة) ، ثم على ضفاف الرين الوسطى والموزل . وفى نهاية القرن الخامس كان زعيم هذه القبائل أمير شجاع مقدام يدعى كلوڤيس بدأ حكمه فى مدينة «تورنى» .

وفى سنة ٤٨٦ م غزا شمال فرنسا وانتزعه من يد الحاكم الرومانى سباجريوس ، وكان قد أقام به دولة مستقلة ، ثم حارب قبائل « الألمانى » القاطنة شرق نهر الرين ، وافتتح أراضيها حتى باڤاريا . وفى سنة ٥٠٧ م حارب كلوڤيس القوط ، وكانوا قد استقروا كما قدمنا فى القسم الجنوبى من فرنسا المسمى بغاليا (أوغاليس) وقتل ملكهم ألاريك ، واستولى على الأراضى الواقعة ما بين اللوار والبرنيه ، عدا ولاية سبتمانيا (لانجدوك) التى بقيت فى يد القوط . واعتنق كلوڤيس النصرانية وأذاعها بين قبائله الوثنية ، وجعل باريس مقر ملكه الشاسع ، وبذا قامت مملكة الفرنج القوية أصل فرنسا الحديثة . وتابع أبناء كلوڤيس وخلفاؤه من بعده سياسة الفتح ، وافتتحوا برجونية وأواسط ألمانيا وشمالى إيطاليا . ثم وقعت الحرب الأهلية حيناً بين أمراء الفرنج الذين اقتسموا تراث كلوڤيس ، حتى جاء كلوتير الثانى سنة ٦١٣ م فبسط سلطانه على غاليس كلها (فرنسا) [١]، واستأنف الفتح لإخضاع باقى الإمارات الفرنجية الواقعة شرقى الرين . وسار ولده داجوبيرت فى أثره ، وجمع كلمة الفرنج تحت لواء واحد ، وغلبت سلطة الفرنج على ألمانيا الغربية ثانية ، وهذبت النصرانية التى جاهد فى إذاعتها الفرنج بين هذه القبائل المتوحشة ، كثيراً من خشونتها ، وقضت على كثير من رسومها الوثنية .

ولكن داجوبيرت كان آخر ملك من الفرنج الميروڤنجيـــة — أسرة كلوڤيس[٢] — استطاع أن يقبض على زمام السلطة المركزية بيد قوية . ذلك أن نظام الإقطاع والعشائر ، كان يسود هذه المملكة الشاسعة ، وكانت جمهرة من الأمراء والدوقات والكونتات تتقاسم السلطة فى مختلف الولايات والأنحاء ، وكلما ضعف سلطان العرش اشتد نفوذ أولئك الزعماء المحليين .

وكان أولئك الزعماء قد استطاعوا خلال العصور المتعاقبة ، أن يحدوا تباعاً من سلطة العرش ، وأن يحرزوا لأنفسهم كثيراً من الامتيازات والسلطات ، فلما جاء كلوڤيس استطاع بعزمه وصرامته ، أن يقبض على السلطة المركزية بيد قوية ، وأن يبسط على مملكة الفرنج كلها سلطاناً مطلقاً ، واستطاع بعض خلفائه

---

(١) تطلق كلمة غاليس فى الرواية الإسلامية على جنوبى فرنسا ، وهى تعريب حسن لكلمة La Gaule أو Gaulia (راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣) . وتسمى فرنسا أيضاً فى الجغرافية العربية بالأرض الكبيرة .

(٢) The Merovingians ، نسبة إلى مؤسس أسرتهم الملك مرڤيج جد كلوڤيس .

حتى داجوبيرت أن يبسطوا مثل هذا السلطان حيناً . ولكن خلفاء داجوبيرت كانوا رجالاً ضعاف الخلال والعزائم ، ينغمسون فى نعماء الترف والملاذ ، فضعف سلطان العرش ، وانهارت السلطة المركزية القوية التى كان يقبض عليها ، واسترد الأشراف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم . هذا إلى أن ما استطاع العرش أن يحتفظ به من السلطات ، امتدت إليه سلطة جديدة فى القصر ذاته ، هى سلطة محافظ القصر. وكان هذا المنصب فى المبدأ متواضعاً ، ليست له أية صفة سياسية أو إدارية ، تقتصر مهامه على النظر فى شئون القصر المنزلية ، ولكنه غدا منذ أوائل القرن السابع ، أعنى منذ أخذت سلطة العرش فى الضعف ، منصباً هاماً ، يتولاه رجال أقوياء يتطلعون إلى السلطان ، وتؤازرهم عصبية الأسرة والثروة ، وأصبح بمضى الزمن أهم مناصب الدولة السياسية والإدارية ، يستأثر صاحبه بكل السلطات الحقيقية ، وإليه منتهى الأمر فى أخطر شئون الدولة ، يباشرها باسم العرش ومن ورائه ، ولا يباشر الملك إلى جانبه غير رسوم الملك الإسمية ، ويلتف حوله الزعماء والأكابر ، ويباشر فى معظم الأحيان سلطة الملك الحقيقية ، خصوصاً إذا كان الملك طفلا قاصراً ، فهو عندئذ يغدو الملك الحقيقى باسم الوصى أو النائب.

وكانت الأسرة الكارلية[1] القوية قد اختصت بهذا المنصب الخطير ، منذ عهد الملك داجوبيرت ، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية الملكية . وكانت أقوى بطون الفرنج فى أوستراسيا (مملكة الفرنج الغربية) ، تملك ضياعاً شاسعة ما بين نهرى الرين والموز وتتزعم جماعة النبلاء ، وترعاها الكنيسة لنفوذها وسلطانها ، ويمنح زعيمها محافظ القصر لقب « دوق الفرنج » ، تنويهاً برياسته وسلطانه ، الذى أصبح فوق سلطان العرش . وكان انحلال الأسرة الميروفنجية وانهيار سلطانها على هذا النحو ، سبباً فى تفرق كلمة الفرنج وانحلال الإمبراطورية الفرنجية الشاسعة ، وتطلع الزعماء إلى الاستقلال والرياسة ، أسوة بما انتهى إليه محافظ القصر ؛ فاضطرمت الحرب الأهلية حيناً بين الفرنج فى أوستراسيا والفرنج فى نوستريا (الفرنج الشرقية) ، وأسفر هذا الصراع عن استقلال ولاية أكوتين فى غاليا الجنوبية ، وكذا استقلال معظم الولايات الألمانية ، برياسة طائفة من

---

(١) Carlovingians أو Carolingians ، نسبة إلى أعظم ملوكها كارل الأكبر أو الإمبراطور شارلمان .

الأمراء الأقوياء . ثم آل منصب المحافظ فى أواخر القرن السابع إلى أمير مقدام جرىء من الأسرة الكارلية ، هو بيبن دى هرشتال ، فحارب الفرنج الخوارج فى فريزيا وسكسونيا وباڤاريا وأخضعهم ، ولبث محافظاً للقصر يحكم مملكة الفرنج فى الشرق والغرب بقوة وعزم ، مدى سبعة وعشرين عاماً ، ثم توفى سنة ٧١٥ م موصياً بمنصبه لحفيده الطفل تودڤالد ، ولد ابنه جريمولد الذى قتل قبل وفاته . وكان لبيبن ولد آخر من زوجته « ألفايده » ابنة راتبود زعيم فريزيا الوثنى ، هو كارل (أو شارل) مارتل ، تركه أبوه فتى قوياً فى نحو الثلاثين من عمره ، وكان من الطبيعى أن يكون هو محافظ القصر بعد وفاة أخويه الكبيرين جريمولد ودروجو . ولكن بيبن تأثر بتحريض زوجه الأولى « بلكترود » وأوصى بالمنصب لحفيده ، فكان محافظ القصر طفلا هو تودڤالد ، يحكم مكان الملك الميروڤنجى وهو طفل أيضاً ، بواسطة بلكترود التى عينت وصية على حفيدها . وكان أول ما فعلت بلكترود أن قبضت على كارل مارتل ، وزجته إلى السجن لتأمن شره ومنافسته . ولكن أشراف أوستريا ساءهم أن تتولى الحكم امرأة . فثاروا ونادوا بأحد زعمائهم « راجنفرد » محافظاً للقصر ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وهزم حزب بلكترود ، فارتدت مع حفيدها إلى كلونية ، وقبض راجنفرد على زمام الحكم .

وفى تلك الأثناء فر كارل مارتل من سجنه ، والتف حوله جماعة من أنصار أبيه ، وحارب النوستريين ، فاستغاث راجنفرد بالدوق أودو أمير أكوتين القوى ، فلم يغنه ذلك شيئاً ، وانتهى كارل بأن هزمه ومزق قواته ، واضطره إلى التسليم والصلح . أما بلكترود فقد عقدت الصلح أيضاً ، ونزلت عن كل حقوقها . وغدا كارل منذ سنة ٧٢٠ م محافظاً للقصر لا ينازعه منازع ، يحكم جميع الفرنج فى أوستراسيا ونوستريا[١] .

هكذا كانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون إلى غاليا أو غاليس (فرنسا) لثالث مرة بقيادة السمح بن مالك ، وغزوا ولاية سبتمانيا القوطية ، واستولوا على قواعدها ، وزحفوا على مدينة تولوشة (تولوز) عاصمة أكوتين . وكان أودو

---

(١) راجع فى تاريخ مملكة الفرنج ونشأتها وعصر الأسرتين الميروڤنجية والكارلية :
Hodgkin : Charles the Great, وكذلك **Zeller : Histoire de l'Allemagne Ch. VII Ch. II & III**

دوق أكوتين أحد أعضاء الأسرة الميروفنجية ، أقوى أمراء الفرنج فى غاليا وأشدهم بأساً . وكان أثناء الاضطراب الذى ساد مملكة الفرنج ، قد استقل بأكوتين وبسط حكمه على جميع غاليس الجنوبية ، من اللوار إلى البرنيه ، والتف حوله القوط والبشكنس (الناڤاريون) ، وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج أو ملك أسرته ، ويعد العدة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه . ولكنه اضطر أن يشتغل عن مشروعه برد خطر العرب الداهم .

استولى السّمح على سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية ، ووزع الأراضى بين العرب والسكان ، وفرض الجزية على النصارى ، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم ، ثم زحف نحو الغرب ليغزو أكوتين كما قدمنا ، فقاومه البشكنس والنسقونيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة . ولكنه مزق جموعهم وقصد إلى تولوشة . وكان الدوق أودو قد جمع فى تلك الأثناء جيشاً ضخماً وسار لرد العرب ، وعلم السمح بذلك فارتد عن مهاجمة تولوشة ليلقى جيش الدوق رغم تفوقه على جيشه فى العدد . والتقى الفريقان بظاهر تولوشة ، ونشبت بينهما معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وكثر القتل فى الجيشين ، وأبدى المسلمون رغم قلتهم شجاعة خارقة ، وتراوح النصر حيناً بين الفريقين . ولكن السمح سقط قتيلا من فوق جواده ، فاختل نظام الفرسان المسلمين ، ووقع الاضطراب فى الجيش كله ، وارتد المسلمون إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم ، وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر ، وذلك فى التاسع من ذى الحجة سنة اثنتين ومائة (٩ يونيه سنة ٧٢١ م)[١] .

وعلى أثر مقتل السمح اختار الجيش أحد زعمائه ، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى للقيادة العامة ، فارتد عبد الرحمن إلى الجنوب تواً ، وأقرته « الجماعة » والياً للأندلس ، حتى يأتى الحاكم الجديد . فلبث فى منصبه فترة وجيزة ، ولكنه استطاع خلالها أن يخمد بوادر الخروج التى ظهرت فى الولايات الجبلية الشمالية ،

---

(١) يضع كوند وهو ينقل عن مصادر عربية إسبانية لم يبينها ، تاريخ الموقعة فى سنة ١٠٣ هـ (Conde : ibid. I. p. 79) . ولكن المصادر العربية التى بين أيدينا تجمع كلها على أن الموقعة كانت سنة ١٠٢ هـ (نفح الطيب عن ابن بشكوال وابن حيان ج ٢ ص ٥٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٨) . ومعظم المصادر الفرنجية على أن الموقعة كانت سنة ٧٢١ م (١٠٢ هـ) متفقة بذلك مع الرواية الإسلامية . راجع Dom Vissette : ibid ; I. p. 781 & 784

وأن يستبقى الجزية على أربونة وغيرها من قواعد سبتمانيا . ولبث يخمد الفتن ، ويصلح الأمور حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبي ، الذى اختاره بشر بن صفوان الكلبي والى إفريقية ، والياً للأندلس . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل الأندلس ولاية مستقلة كما قدمنا ، تتبع الخلافة مباشرة . ولكن خلفه يزيد بن عبد الملك لم يقر هذا التعديل ، فعادت الأندلس تابعة فى إدارتها لإفريقية كما كانت .
وقدم عنبسة بن سحيم الكلبي إلى الأندلس فى صفر سنة ١٠٣ . وأنفق حيناً فى تنظيم الإدارة ، وضبط النواحى ، وإصلاح الجيش ، وإعداده لغزوات جديدة . وفى أوخر سنة ١٠٥ هـ (أوائل سنة ٧٢٤ م) سار عنبسة فى الجيش إلى الشمال غازياً ، وعبر جبال البرنيه[1] مرة أخرى ، وغزا سبتمانيا التى فقد المسلمون كثيراً من معاقلها ، منذ هزيمة تولوشة ، واستولى على قرقشونة ونيمة وما بينهما من القواعد ، وارتد القوط عن محالفة الفرنج إلى محالفته . وتابع زحفه شمالا فى وادى الرون ونفذ إلى برجونية حتى مدينة أوتون فغزاها وخربها (أغسطس سنة ٧٢٥ م) ، ثم غزا مدينة صانص . وخشى أودوق أكوتين أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى ، فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم . وبسط المسلمون سلطانهم قوياً فى شرق جنوبى فرنسا . وفى ذلك يقول إيزيدور الباجى : « كان نجاح عنبسة راجعاً إلى الجرأة والبراعة ، أكثر منه إلى القوة والكثرة . وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان ، عاملا فى تقوية سلطان الإسلام فى جنوبى فرنسا » . ولكن قضى نكد الطالع أن ينكب المسلمون مرة أخرى . فإن عنبسة حين عوده إلى الجنوب ، داهمته قبل أن يجتمع إليه جميع جيشه ، جموع كبيرة من الفرنج ، فأصيب أثناء الموقعة التى نشبت بجراح بالغة توفى على أثرها ، وذلك فى شعبان سنة ١٠٧ هـ (ديسمبر سنة ٧٢٥) ، فارتد الجيش إلى الداخل ، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة مرة أخرى .

---

(١) يحسن بنا أن نشير هنا إلى أن بعض الكتاب والباحثين يسمون جبال البرنيه خطأً بجبال « البرانس » . ذلك لأن جبال البرنيه تسمى فى الجغرافية العربية حسبما قدمنا بجبال البرت أو البرتات . أما جبال « البرانس » فهى سلسلة أخرى من الجبال الإسبانية ، تقع شرقى ماردة ، وجنوبى طليطلة ، وهى التى تعرف فى الجغرافية الحديثة بجبال المعدن **Sierra de Almaden** ، لوقوعها على مقربة من مدينة « المعدن » . وسميت فى الجغرافية العربية « بالبرانس » نسبة لقبيلة البرانس البربرية ، التى كان منزلها فى الأندلس على مقربة من هذه الجبال (راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٦٣ حيث يشير إلى الحملات التى جردت لمقاتلة الثوار فى منطقة جبال البرانس) .

وتوالى على الأندلس مدى الأعوام الخمسة التى تلت وفاة عنبسة ، ستة ولاة أولهم عزرة بن عبد الله الفهرى[1] ، الذى تولى قيادة الجيش عقب وفاة عنبسة ، فلبث فى منصبه شهرين فقط . ثم يحيى بن سلمة الكلبى ، ولاه بشر بن صفوان عامل إفريقية ، فقدم الأندلس فى شوال سنة ١٠٧ ، وامتد حكمه عامين ونصف لم تقع فيهما حوادث أو غزوات تذكر . ثم توفى بشر بن صفوان ، وخلفه فى ولاية إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، فولى على الأندلس عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، فقدمها فى شعبان سنة ١١٠ ، ولبث فى منصبه ستة أشهر فقط ثم عزل ، وخلفه حذيفة بن الأحوص القيسى فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضاً ، فخلفه الهيثم ابن عبيد الكلابى أو الكنانى ، ولاه أيضاً عبيدة السلمى عامل إفريقية ، فقدم الأندلس فى المحرم سنة ١١١ هـ . وكان تتابع الولاة على هذا النحو سبباً فى تفاقم الخلل والاضطراب فى شئون الجزيرة ، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل . وكان تخلف المسلمين عن الغزو من جهة أخرى مشجعاً للفرنج على مهاجمة القواعد الشمالية ، مشجعاً للخوارج من القوط والبشكنس على تنظيم قواتهم . وكان أخطر أولئك الخوارج شراذم القوط التى لجأت كما أسلفنا إلى قاصية جليقية ، واجتمعت هناك حول زعيم يدعى بلايو أو بلاى ، ولم يعن الولاة بتتبعها والقضاء عليها ، إما احتقاراً لشأنها أو لوعورة الجبال التى امتنعت بها ، ففى أثناء اضطراب الشئون وانشغال الولاة ، كانت هذه الشراذم تنمو وتشتد داخل هضابها النائية ، وكانت هى نواة هذه المملكة النصرانية القوية التى نشأت سراعاً ، واشتد ساعدها ، حتى غدت قبل قرن تنافس الإسلام وتنازعه سيادة اسبانيا .

فلما ولى الهيثم حاول أن يقمع الفوضى ، وأن يرد النظام . وكان الهيثم حازماً قوى العزم ، ولكن صارماً شديد الوطأة ، فطارد الشغب والفوضى بشدة ، واضطهد معظم الزعماء والمخالفين له فى الرأى ، وبالأخص اليمنية ، وتتبع كثيرين منهم بالسجن والمطاردة ، وقاد حملة ضد « منوسة » وهو حسبما نوضح بعد زعيم بربرى غامض الشخصية ، كان حاكماً لمنطقة الأسترياس وظهرت منه أعراض التمرد ، ولكنه لم يوفق إلى القضاء عليه . ثم سار فى الجيش إلى الشمال ليقمع

(١) يرى بعض المؤرخين أن عزرة لم يكن من ولاة الأندلس ، أو أن ولايته كانت غير رسمية (المقرى عن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦) .

أعراض الثورة التى بدأت فى الولايات الجبلية ، وليستأنف الغزو ؛ فعبر البرنيه ، واخترق سبتمانيا إلى وادى الرون وغزا ليون (لوذون) وماسون[١] وشالون الواقعة على نهر الساؤون ، واستولى على أوتون وبون ، وعاث فى أراضى برجونية الجنوبية . ولكن هذا الفتح الكبير لم يكن ثابت الأثر ، فقد أدى اختلاف القبائل وتمرد البربر إلى تفكك الجيش الفاتح ، وإلى تخلف المدن المفتوحة عن قبضة الفاتحين. فعاد الهيثم إلى الجنوب ، ولم يلبث أن توفى بعد أن حكم الأندلس مدى عامين ، فاختارت « الجماعة » مكانه محمد بن عبد الله الأشجعى حتى يعين الوالى الجديد[٢] ، فلبث فى منصبه شهرين ، حتى عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى والياً للأندلس ، عينه عبيدة بن عبد الرحمن السلمى والى إفريقية بمصادقة الخليفة هشام بن عبد الملك فى صفر سنة ١١٣ هـ (إبريل سنة ٧٣١)[٣] فكانت ولايته الثانية . وكانت ولايته الأولى سنة ١٠٣ هـ على أثر مقتل السمح كما قدمنا . وكان عبد الرحمن جندياً عظيماً ظهرت مواهبه الحربية فى غزوات غاليا ، وحاكماً قديراً بارعاً فى شئون الحكم والإدارة ، ومصلحاً كبيراً يضطرم رغبة فى الإصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً . وتجمع الرواية الإسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله ، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه[٤] . فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه

---

(١) لعل ماسون هى التى يسميها ابن عذارى منوسه (راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧) .

(٢) يقدم كوندى رواية أخرى عن مصير الهيثم ، فيقول إن أمر عسفه وجوره نمى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فانتدب محمد بن عبد الله الأشجعى للتحقيق معه . فلما تحقق صحة التهم المنسوبة إليه عزله وسجنه وصادر أمواله ، وأطلق الذين اعتقلهم ظلماً . ويقول كوندى أيضاً إن الأشجعى هو الذى اختار عبدالرحمن الغافقى لولاية الأندلس ، لما تحقق من شجاعته وحزمه بتفويض لديه من الخليفة Conde. ibid. V.I.p.81) . ويأخذ دوزى بهذه الرواية (Hist.V.I.p.137) . وكوندى يستقى روايته من بعض المصادر العربية الإسبانية ، ولكنه لا يعين هذه المصادر . على أن المصادر العربية التى أمامنا تجمع على أن ولاية الهيثم اختتمت بوفاته ، وأن الأشجعى خلفه باختيار الجماعة (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ عن ابن بشكوال ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩) .

(٣) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ ولاية عبد الرحمن ، فيقول الضبى إن تعيينه كان فى حدود سنة ١١٠ هـ (بغية الملتمس رقم ١٠٢١) ، وكذا ابن بشكوال (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦) . ويقول ابن عذارى إنه كان فى صفر سنة ١١٢ (ج ٢ ص ٢٨) ، وابن حيان إنه كان فى صفر سنة ١١٣ (نفح ج ٢ ص ٥٦) . وهى أرجح رواية فيما نعتقد وبها أخذنا لاتفاقها مع سير تواريخ الولاة المتقدمين .

(٤) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٦ ، ٢١٧ و وبغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، والحميدى فى جذوة المقتبس ص ٦ و ٢٥٥ .

وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيبته كلمة القبائل ، فتراضت مضر وحمير ، وعاد الوئام نوعاً فى الإدارة والجيش ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً.

وبدأ عبدالرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شئونها ، وعهد بإدارتها إلى ذوى الكفاية والعدل ، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايتة فى إصلاح الإدارة ، ومعالجة ماسرى إليها فى عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل . وعنى بإصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً قوية مختارة من فرسان البربر ، بإشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية ، وتأهب لإخماد كل نزعة إلى الخروج والثورة[١] .

وكانت الثورة فى الواقع توشك أن تنقض فى الشمال ، وبطلها فى تلك المرة زعيم مسلم هو حاكم الولايات الشمالية . فمن هو ذلك الزعيم الثائر ؟ إن الرواية الإسلامة تلزم الصمت إزاء شخصية هذا الزعيم ، وإزاء الحوادث التى اقترنت باسمه . وكل ما هنالك أن صاحب البيان المغرب يقول لنا فى حديثه عن ولاية الهيثم بن عبيد الكنانى « وهو الذى غزا منوسة »[٢]. ثم يردد المقرى هذه العبارة فى قوله مشيراً أيضاً إلى الهيثم « وغزا أرض منوسة فافتتحها »[٣] . ويبدو لأول وهله من استقراء هاتين الإشارتين القصيرتين ، أن « منوسة » تنصرف فيما يرجع إلى المكان ، ومنوسة قد تكون مدينة « ماسون » وهى التى غزاها الهيثم ضمن غزواته فى أرض فرنسا . ولكن معظم الروايات النصرانية والفرنجية المعاصرة ، تحدثنا فى نفس الوقت عن شخصية زعيم مسلم يدعى Munuza « منوزا » أو Munez « مونز » ، وهو كما يبدو مطابق لاسم « منوسة » ، وتسرد لنا سلسلة من الحوادث الهامة التى اقترنت باسمه . وفى موطن واحد فقط تقول الرواية النصرانية إن منوسة كان زعيماً نصرانياً من زعماء منطقة الأسترياس ، وأنه كان حاكماً لمدينة خيخون[٤] . ولنسلم نحن بهذه المطابقة بين الإسمين ،

(١) Conde ; ibid V. I. p. 82 & 83

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) Crónica General : Vol. I. p. 319 & V. II. p. 324

فنقول إن منوسة ، كان وفقاً لأقوال هذه الروايات النصرانية والفرنجية ، زعيماً مسلماً يحكم بعض ولايات البرنيه الغربية وسبتمانيا فيما وراء البرنيه باسم حكومة الأندلس ، وذلك حوالى سنة ٧٢٥ إلى سنة ٧٣٠ م[١] . وكان الدوق أودو أمير أكوتين منذ اجتاح المسلمون أراضيه ، ورأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين والتقرب من حكومة الأندلس ، ويحاول فى نفس الوقت أن يجمع الحلفاء من حوله لمقاومتها إذا اقتضى الأمر . فلما تولى منوسة حكم الولايات الشمالية . وهى تجاور أكوتين من الشرق والجنوب ، سعى الدوق إلى التفاهم معه . وكان منوسه كما تصفه الرواية النصرانية المعاصرة ، زعيماً قوى المراس ، كثير الأطماع ، نافذ الهيبة فى هاتيك الوهاد ، ولم يكن على اتفاق مع حكومة الأندلس . ذلك أنه كان من أقطاب البربر الذين عبروا الأندلس مع طارق بن زياد[٢] ؛ وقد سبق أن شرحنا عوامل الخلاف بين العرب والبربر ، وكيف حقد البربر على العرب لاستئثارهم بمغانم الفتح والرياسة . وعلى ضوء هذه التفاصيل ، نعود فنتساءل من يكون « منوسة » ؟ هل يكون هو عثمان بن أبى نسعة الخثعمى الذى ولى إمارة الأندلس قبل ذلك بثلاثة أعوام حسبما قدمنا ، ولم يطل أمد ولايته سوى أشهر قلائل ؟ وهل يكون اسم « منوسة » **Munuza** تحريفاً نصرانياً للقب « نسعة » العربى ؟ إذا صح أن منوسة كان زعيماً بربرياً كما تصفه الروايات النصرانية المعاصرة ، وهى وحدها مصدر التعريف عنه ، فيكون من المشكوك فيه إذن أن يكون منوسة ، هو عثمان ابن أبى نسعة الخثعمى والى الأندلس[٣] . ذلك أن عثمان بن أبى نسعة كان زعيماً

---

(١) ويقول ألتاميرا إن « منوسه » **Munuza** هو الحاكم البربرى الذى تركه موسى ابن نصير فى خيخون فى منطقة الأستورياس وكان حاكماً لمدينة أوفيدو ، وأنه أى منوسة قد اضطر عقب فشله فى القضاء على بلايو الزعيم القوطى ، وهزيمته فى موقعة كوفادونجا أن يخلى منطقة الأستورياس . راجع : **Altamira : ibid, T. I. p. 221—223**

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وقد نقلتها بعض الروايات النصرانية المتأخرة ؛ راجع **Dozy:Histoire,V.I.p. 160 et notes** و **Dom Viseette : ibid, V.I. p. 794 & II. p.129**

(٣) كنت من قبل أعتقد كبعض الباحثين أن « منوزا » (منوسة) هو تحريف لاسم ابن أبى نسعة ؛ وأنهما اسمان لشخص واحد . وهذا ما يقوله فى الواقع يوسف كوندى **(V, I. p. 80)** . ولكنى أصبحت بعد الذى قرأته من مختلف التفاصيل والتعليقات التى أوردتها الروايات النصرانية المعاصرة ، وبعد مقارنتها بأقوال الرواية الإسلامية عن ابن أبى نسعة ، أشك فى صواب هذا الرأى . والمرجح كما يبدو من مختلف الشروح المتقدمة أن منوسة كان فعلا من زعماء البربر المتمردين على حكومة قرطبة .

عربياً ينتسب إلى خثعم إحدى البطون العربية العريقة[١]، ولم يفز بإمارة الأندلس فى تلك الفترة سوى زعماء العرب ، ولم تسند إلى أحد من البربر . هذا إلى أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن مصير عثمان بن أبى نسعة رواية أخرى غير التى تقدمها إلينا الرواية النصرانية عن مصير «منوسة» ، فهى تقول لنا ان أبن ابى نسعة ولى الأندلس فى شعبان سنة ١١٠ هـ (٧٢٨م) واستمرت ولايته خمسة أشهر أو ستة ثم عزل ، وانصرف إلى القيروان فمات بها[٢].. أما « منوسة » فقد مات محارباً ، ومات قتيلا كما سنرى .

وعلى أى حال فقد تفاهم دوق أكوتين ومنوسة ، وقوت المصاهرة بينهما أواصر الصداقة والتحالف. ذلك أنه كانت للدوق ابنة رائعة الحسن تدعى لامبجيا (أو منينا أو نوميرانا على قول بعض الروايات) فرآها منوسة أثناء بعض رحلاته فى أكوتين أو أنه أسرها فى بعض غاراته عليها . تقول الرواية : « وكانت لامبجيا أجمل امرأة فى عصرها ، كما كان منوسة أقبح رجل فى عصره ، وكانت نصرانية متعصبة ، ولكن أطماع الوالد غلبت على كل شيء ، فارتضى مصاهرة الزعيم المسلم » .

وكما يحيط الغموض بشخصية منوسة ، فكذلك يحيط بشخصية لامبجيا وظروف زواجها من الزعيم المسلم ، فتقول الرواية مثلا ، إن منوسة بعد أن أسر لامبجيا ، وشغف بها حبا وتزوج بها ، حمل بتأثيرها ونفوذها على محالفة أبيها الدوق ومناوأة حكومة الأندلس ، وتقول أيضاً إن ابنة الدوق أكوتين التى تزوجها منوسة لم تكن لامبجيا التى اشتهرت بفائق حسنها ، بل كانت أختها « منينا » التى كانت من قبل زوجة لفرويلا القوطى أمير أستورية ، كما تورد لنا غير ذلك من الأنباء والتفاصيل التى يقع معظمها فى حد الأساطير[٣].

وهكذا اجتمعت عوامل الحب والسياسة لتوثيق عرى التحالف بين الزعيم المسلم وبين الدوق أودو . وكان أودو ، فضلا عما يهدده من خطر الغزو الإسلامى ، يخشى بأس خصمه القوى كارل مارتل زعيم الفرنج ، وكذا كان كارل مارتل

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع خلاصة الروايات النصرانية والفرنجية فى موسوعة **Bayle V. IV.** والتعليقات .

ينقم على أودو نفوذه واستقلاله بالجنوب ، وقد غزا بالفعل أكوتين غير مرة وهزم أميرها . فكان أودو فى الواقع بين نارين ، يخشى الفرنج من الشمال ، والعرب من الجنوب . وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث فى أرضه (سنة ٧٣١) فى نفس الوقت الذى سعى فيه منوسة إلى محالفته ، والاستعانة به على تنفيذ مشروعه فى الخروج على حكومة الأندلس ، والاستقلال بحكم الولايات الشمالية . وقد رأى منوسة اكتساباً للوقت وكتماناً لحقيقة مشروعه ، أن يسبغ على محالفته مع الدوق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج ، ولكن عبد الرحمن أمير الأندلس ارتاب فى أمر الثائر ونياته ، وأبى إقرار الهدنة التى عقدها . وعندئذ كشف منوسة القناع ، وأعلن الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إلى الشمال حملة قوية بقيادة ابن زيان لتأديب الزعيم الثائر ، والتحوط لسلامة الولايات الشمالية ، فاستعصم منوسة بمواقعه الجبلية ، وتحصن فى عاصمة إقليمه « مدينة الباب »[١] ، الواقعة على منحدر جبال البرنيه ، وكان يظن أنه يستطيع أن يتحدى الجيش الإسلامى ، وأن يعتصم بالصخر ، كما اعتصم به الزعيم القوطى « بلاجيوس » (بلايو) ولكنه كان مخطئاً فى تقديره ، فقد نفذ ابن زيان بجيشه إلى مدينة الباب ، وحاصر الثائر فى عاصمته ، ففر منها إلى شعب الجبال الداخلية ، فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة ، حتى أخذ وقتل مدافعاً عن نفسه ، وتحطمت أطماعه ومشاريعه (١١٣ هـ — ٧٣١ م)[٢] ، وأسرت زوجه الحسناء لامبجيا ، وأرسلت إلى بلاط دمشق ، فاستقبلها الخليفة (هشام بن عبد الملك) بحفاوة وإكرام ، وزوجت هنالك من أمير مسلم لا تذكر لنا الرواية اسمه[٣] .

---

(١) واسمها بالقشتالية **Ciudad de la Puerta** ، وقد كانت تقع على أحد ممرات البرنيه وتسمى أحياناً « بويكاردا » .

(٢) تمر الرواية الإسلامية على هذه الحوادث كلها بالصمت كما قدمنا ، ولا تذكر لنا أى تفصيل أو لمحة تلقى الضياء على شخصية منوسة ؛ ويوافق دوزى على أن منوسة **Munuza** هو اسم للزعيم البربرى المتقدم الذكر . راجع : **Dozy : Histoire V.II. p. 129 & note,** ؛ وكذلك **Lévy-Provençal : Hist. de l'Espagne Musulmane (1944) p.43 & note.**

(٣) **Dom Vissette : ibid, I. p. 764** . وتحيط الرواية سيرة لامبجيا وزوجها بكثير من القصص الخيالية الشائقة ، التى اتخذت فيما بعد مستقى لخيال بعض الشعراء والكتاب . غير أن معظم هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير .

هذا ، وهناك فى شأن «منوسة» وزوجه رواية أخرى ، أوردها الحبر ماريانا كبير مؤرخى إسبانيا ، فقد ذكر أن منوسة كان زعيماً نصرانياً اختاره المسلمون لحكم المنطقة الواقعة غربى البرنيه ، ولكنه كان صارماً يشتد فى معاملة النصارى ، وأنه كانت للدون بلاجيوس زعيم جليقية القوطى أخت بارعة الحسن ، شغف بها منوسة حباً ، ولكن بلاجيوس لم يوافق على زواجها منه ، فاحتال منوسة ، وبعثه فى مهمة إلى قرطبة ، وأسر الأميرة أثناء غيبته وتزوج بها قسراً ، فأسر بلاجيوس وأخته هذه الإهانة ، ولبثا يرقبان الفرص حتى استطاعت الأميرة فراراً من أسرها وسارت مع أخيها إلى جبال جليقية حيث اعتصم بلاجيوس مع أنصاره ، وأعلن الخروج والثورة ، فأخطر منوسة حكومة قرطبة ، فأرسلت حملة لتأديب الثائر بقيادة « علقمة » . ولكن بلاجيوس استطاع مع أنصاره القلائل ، أن يعتصم بشعب الجبال ، فارتد المسلمون منهزمين ، وقتل علقمة ، وارتاع منوسة لفوز خصمه ، وخشى انتقام مواطنيه ، فحاول الفرار إلى الجنوب ، ولكنه وقع فى يد شرذمة من الفلاحين النصارى فقتلوه ، ويضع ماريانا تاريخ هذه الحوادث فى سنة ٧١٨ م[1] .

ولكن رواية ماريانا هذه ظاهرة الضعف ، أولا لأنه ليس بمعقول أن تعهد حكومة الأندلس المسلمة بحكم ولاية من ولاياتها إلى زعيم نصرانى . وثانياً لأن هذه الرواية تخالف فى مجموع تفاصيلها كل ما كتبته الروايات المعاصرة عن شخصية منوسة ، وعن مصاهرته لأمير أكوتين . وثالثاً لأن تاريخ هذه الحوادث متأخر عن التاريخ الذى يعينه ماريانا بأكثر من عشرة أعوام .

ولما قتل منوسة ، وانهارت مشاريعه ، ورأى أودو ما حل بحليفه ، واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته ، وبدأ الفرنج والقوط فى الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسمين عند أسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها . فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية ، لم ير بدا من السير إلى الشمال ، قبل أن يستكمل كل أهبته . على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره

(١) Mariana فى تاريخ إسبانيا العام — الترجمة الفرنسية ج ٣ ص ٥ وما بعدها .

المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح . وفى أوائل سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقاً ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وناڤار (بلاد البشكس) وعبر البرنية من طريق بنبلونة ، ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م ، وزحف تواً على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون ، لتخلفها عن أداء الجزية ، واستولى عليها بعد معركة عنيفة ، نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو . ثم زحف غرباً وعبر نهر الجارون ، وانقض المسلمون كالسيل على ولاية أكوتين[1]، يثخنون فى مدنها وبسائطها ، فحاول أودو أن يقف زحفهم ، والتقى الفريقان على ضفاف نهر الدردون ، فهزم الدوق هزيمة فادحة ، ومزق جيشه شر ممزق . قال إيزيدور الباجى : « والله وحده يعلم كم قتل فى تلك الموقعة من النصارى » . وطارد عبد الرحمن جيش الدوق حتى عاصمته بوردو (بردال) . واستولى عليها بعد حصار قصير[2] ، وفر الدوق فى نفر من صحبه إلى الشمال ، وسقطت أكوتين كلها فى يد المسلمين . ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة أخرى واخترق الجيش الإسلامى برجونية واستولى على ليون وبزانصون[3]، ووصلت سرياته حتى صانص ، التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج[4].

---

(١) كانت إمارة أكوتين فى ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقاً وخليج غسقونية (بسكونية) غرباً ، وبين نهر اللوار شمالا ونهر الجارون جنوباً ، وتشمل من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونج وبواتو وڤنده وجزءاً من أنجو .

(٢) Dom Vissette : ibid, I. p. 795

(٣) وهى مسقط رأس الشاعر الفرنسى الأشهر ڤكتور هوجو .

(٤) يقدم المستشرق كاردون شرحاً آخر لسير عبد الرحمن ، فيقول إنه زحف أولا على آرل وحاصرها فبادر الكونت إلى إنجادها ، فلقيه عبد الرحمن وهزمه وألجأه إلى الفرار ، ثم عبر عبد الرحمن نهر الجارون واستولى على بوردو . وكان الكونت قد جمع جيشاً جديداً وحاول رده فهزم مرة أخرى ، ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وسانتونج وبواتو وهو يثخن فى تلك الأنحاء حتى انتهى إلى تور Cardonne : Hist. de L'Afrique et de L'Espagne -I-129 ولكن عبد الرحمن اقتحم وادى الرون أيضاً كما بينا ، وقد شرحنا سيره طبقاً لجميع الروايات مجتمعة ، وطبقاً للمواقع الجغرافية التى تتعلق بهذه الغزوة . وقد يكون أن عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالا نحو برجونية ، ولكن الجيش الإسلامى اقتحم هذه الأنحاء بلا ريب .

وتم هذا السير ، وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب ، في بضعة أشهر فقط . قال إدوارد جيبون : « وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى اسكتلندا . فليس الرّين بأمنع من النيل أو الفرات ، ولعل أسطولا عربياً كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن في معاهد أكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة» .

Gibbon : ibid, Ch-LII (١)

الفصل السادس

بلاط الشهـــداء

معركة الإسلام والنصرانية . تحول هذه المعركة إلى سهول فرنسا . العرب والفرنج على أطلال الدولة الرومانية . حلول الفرنج فى فرنسا . خواص المجتمع الفرنجى . انحلال عصبيته بالاستقرار . تفككه وتنافره . خطر القبائل الجرمانية الوثنية . الدولة الإسلامية . انتظامها وتماسكها . تفرق الفرنج . سيل الفتح الإسلامى . عبد الرحمن الغافقى وجيشه . كيف يصوره الشاعر سوذى . اختراق عبد الرحمن لفرنسا . موقف الدوق أودو . كارل مارتل محافظ القصر . تمهله فى لقاء العرب . ما تقوله الرواية فى ذلك . التجاء أودو إلى كارل . مسير كارل للقاء العرب . اجتياح العرب لأكوتين . أين التقى العرب والفرنج . هجوم المسلمين على مدينة تور . وصول الفرنج إلى اللوار . ارتداد عبد الرحمن إلى ما وراء النهر . حالة الجيش الإسلامى . وفرة غنائمه وخطرها على نظامه . بدء القتال . المعارك المحلية . المعركة العامة . مهاجمة الفرنج لمعسكر الغنائم . ارتداد الفرسان المسلمين لحمايته . اختلال نظام المسلمين. مقتل عبد الرحمن الغافقى . الذعر فى الجيش الإسلامى . رجحان كفة الفرنج . افتراق الجيشين . الخلاف فى القيادة الإسلامية . تقرير الانسحاب . ارتداد المسلمين إلى الجنوب . توجس كارل مارتل . أقوال الرواية الكنسية . مبالغتها فى التقدير والتصوير . وصفها لحوادث اللقاء الحاسم . صمت الرواية الأندلسية . وصفها لحوادث الغزوة الإسلامية . وصفها للجيش الإسلامى . حديثها عن الموقعة الحاسمة . أقوال المستشرق كاردون . تحفظ الرواية الإسلامية ومغزى هذا التحفظ . بلاط الشهداء . لون الموقعة الدينى . أقوال المؤرخين المسلمين عنها . موقف الرواية النصرانية . مبالغتها فى تصوير هزيمة المسلمين وتقدير خسائرهم . ما يدحض هذا الإغراق . إحجام الفرنج عن مطاردة العرب . خسارة المسلمين بمقتل عبد الرحمن . النقد الحديث وبلاط الشهداء . كيف ينوه بأهميتها فى خلاص النصرانية من سلطان الإسلام . تأملات .

أجل ، كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب على وشك الوقوع . وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً ، فإنه لم يمض على وفاة النبى العربى نصف قرن ، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة ، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية ، من الشام إلى أقاصى المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، وامتدت شمالا حتى أواسط آسيا الصغرى . وكانت سياسة الفتح الإسلامى منذ توطدت دولة الإسلام ، ترمى إلى غاية أبعد من امتلاك الأقطار ، وبسطة السلطان والملك . فقد كان الإسلام يواجه فى الأقطار التى افتتحها من العالم القديم أنظمة

راسخة مدنية واجتماعية ، تقوم على أصول وثنية أو نصرانية . وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع . فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم ، وأن تقيم فوق أنقاضه فى الأمم المفتوحة ، نظماً جديدة تستمد روحها من الإسلام ، وأن تذلل النصرانية لصولة الإسلام ، سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة ، أو بإخضاعها من الوجهتين المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه . وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد فى الشام ومصر وإفريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه ، وقامت فيها مجتمعات إسلامية قوية شاملة ، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة . ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصى الأناضول من المشرق ، وجازت إلى اسبانيا من المغرب . فأما فى المشرق فقد حاول الإسلام أن يعبر إلى الغرب عن طريق قسطنطينية ، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مرتين ، الأولى فى عهد معاوية بن أبى سفيان فى سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) والثانية فى عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) ، وكانت قوى الخلافة فى كل مرة تبدى فى محاصرة قسطنطينية ، غاية الإصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت فى المرتين ، وارتدت عن أسوار قسطنطينية منهوكة خائرة ، وأخفق مشروع الخلافة فى افتتاح الغرب من تلك الناحية ، ولقى الإسلام هزيمته الحاسمة فى المشرق أمام أسوار بيزنطية ، وقامت الدولة الشرقية فى وجه الإسلام حصناً منيعاً يحمى النصرانية من غزوه وسلطانه . ولكن جيوش الإسلام جازت إلى الغرب عن طريق اسبانيا ، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقى أمم أوربا النصرانية ، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء ، لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه فى اختراق أوربا من الغرب إلى المشرق ، والوصول إلى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية يومئذ ضربتها القاضية ، وأن يسود الإسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب ، ولكن الفكرة غاضت فى مهدها لتوجس الخلافة وترددها .

على أن الفتوح التى قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك فى جنوبى فرنسا ، كانت طوراً آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية . فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ ، وكانت تقوم فى الغرب بحماية النصرانية ،

على نحو ما كانت الدولة الرومانية فى الشرق ، بل كانت مهمتها فى هذه الحماية أشق وأصعب ، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب ، كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق . وكانت الغزوات الإسلامية تقف فى المبدأ عند سبتمانيا ومدنها ، ولكنها امتدت بعدئذ إلى أكوتين وضفاف الجارون ، ثم امتدت إلى شمال الرون وولاية برجونية ، وشملت نصف فرنسا الجنوبى كله ، وهكذا بدا الخطر الإسلامى على مصير الفرنج والنصرانية قوياً ساطعاً ، وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم ، الذى يجب أن تتأهب لخوضه أمم الفرنج والنصرانية كلها .

كانت المعركة فى سهول فرنسا إذاً بين الإسلام والنصرانية ، بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية ، والمتنافسين فى اجتناء تراثها . كانت بين العرب الذين اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية فى المشرق والجنوب . وبين الفرنج الذين حلوا فى ألمانيا وغاليس (فرنسا) . والفرنج هم شعبة من القبائل البربرية التى غزت رومة وتقاسمت تراثها ، من وندال وقوط وآلان وشوابيين . فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا ، أكثر من نزاع محلى على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع فى الواقع أبعد ما يكون مدى وأثراً ، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع ، الذى فاز العرب منه بأكبر غنم ، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقى منه بأيدى منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال .

وكانت هذه السهول الشمالية ، التى قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية ، تضم مجتمعاً متنافراً ، لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة . ذلك أن القبائل الجرمانية التى عبرت نهر الرين وقضت على سلطان رومة فى الأراضى المفتوحة ، كانت مزيجاً مضطرماً من الغزاة الظمأى إلى تراث رومة من الثروة والنعماء . وكان القوط قد اجتاحوا شمالى إيطاليا منذ القرن الخامس ، وحلوا فى جنوبى غاليس واسبانيا . ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا ، وانتزعوا نصفها الشمالى من يد حاكمه الرومانى المستقل بأمره ، وانتزعوا نصفها الجنوبى من القوط ، وحلت فى غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد . وكان الغزاة فى كل

مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة فى نوع من الإقطاع ، فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم فى القطر المفتوح عدة إمارات محلية ، ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة ، ولم يعنوا بالأخص بأن يندمجوا برعاياهم الجدد . فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين ، الذين لبثوا قروناً يخضعون لسلطان رومة ، ماتزال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها ، ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة ، وتكون وحدها مجتمعاً منعزلا ، لبثت تسوده الخشونة والبداوة أحقاباً ، قبل أن يتأثر بمدنية رومة وتراثها الفكرى والاجتماعى . وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عهد كلوڤيس ، أكبر عامل فى تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين فى الأرض المفتوحة ، وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء ، بعد طول المغامرة والتجوال ، وشظف العيش ، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية فى انحلال عصبيتها الحربية وفتور شغفها بالغزو ، وإذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانية التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت فى غاليس ، قد تطورت فى أوائل القرن الثامن ، إلى مجتمع مستقر متماسك نوعاً . ولم تكن غاليس قد استحالت عندئذ إلى فرنسا ، ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت ، وهيئت الأسباب والعوامل لنشوء الأمة الفرنسية . بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك ، كان وقت أن نفذ العرب إلى فرنسا ، فريسة الانحلال والتفكك ، وكان الخلاف يمزقه كما قدمنا . وكانت أكوتين وباقى فرنسا الجنوبية ، فى يد جماعة من الأمراء والزعماء المحليين ، الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية ، فاستقلوا بما فى أيديهم من الأقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية ، فيما وراء الرين من جهة أخرى ، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر ، وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ، ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملا قوياً فى هذا النضال الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر ، سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها(١) .

---

(١) راجع Creasy : Deelsive Battles of the World, Ch. VII (الفصل السابع)=

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجى فى أوائل القرن الثامن ، أعنى حينما انساب تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا إلى جنوبى فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبى العربى ، إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢م)، مائة عام فقط . ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن ، قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، واكتسحوا العالم القديم ، فى فيض مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية ، من الشأم إلى أقاصى المغرب واسبانيا ، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا ، هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية ، أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ، ومحاولة الاستقرار فيها . وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ، ومجتمعات إسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، إذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ، ما يزال إذا استثنينا مملكة الفرنج ، على حاله من البداوة والتجوال والتفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع ، الذى نشب فى سهول فرنسا ، وآذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م . وكان سيل الفتح الإسلامى ، ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً ، أعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا ، ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون وأكوتين غير مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية ، وتقتتل حول السلطان والرياسة ، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وأنفق أعواماً أخرى فى توطيد سلطانه ، بينما كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين ، يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الإسلامى ، وانساب نحو الشمال حتى برجونية ، فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا ونوستريا لتذود عن سلطانها وكيانها .

وكان الخطر داهماً حقيقياً فى تلك المرة ، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى أكبر جيش حشد ، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الإسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والمقدرة هو عبد الرحمن الغافقى ، وهو أعظم

= ففيه استعراض حسن لأحوال المجتمع الجرمانى فى هذا العصر ، وعرض شائق لحوادث موقعة تور .
وراجع أيضاً Zeller : Hist. de l'Allemagne, p. 67.

جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر ببراعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة ، حيث استطاع إنقاذ الجيش الإسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح ، والارتداد إلى سبتمانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبد الرحمن وأهبته ، فتقدره بأربعمائة ألف مقاتل ، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة . وهو قول ظاهر المبالغة . وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل ، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول . وقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة ، وهذا الجيش الضخم ، خيال الشاعر الأوربى الحديث ، فنرى الشاعر الإنجليزى سوذى يقول فى منظومته عن ردريك آخر ملوك القوط .

« جمع لا يحصى .
« من شأم وبربر وعرب ، وروم خوارج .
« وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة :
« يجمعها إيمان ، هائم راسخ الفتوة :
« وحمية مضطرمة ، وأخوة مروعة :
« ولم يك الزعماء ،
« أقل ثقة بالنصر ، وقد شمخوا بطول ظفر
« يتيهون بتلك القوة الخارقة ،
« التى أيقنوا أنها كما اندفعت ،
« حيثما كانوا بلا منازع ، ستندفع ظافرة إلى الأمام ،
« حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق ،
« يطأطئ الرأس إجلالا لاسم محمد ،
« وينهض الحاج من أقاصى المنجمد ،
« ليطأ بأقدام الإيمان ، الرمال المحرقة ،
« المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضى مكة الصلدة »[1] .

ونفذ عبد الرحمن فى جيشه الزاخر إلى فرنسا ، فى ربيع سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) ، واقتحم وادى الرون وولاية أكوتين ، وشتت قوى الدوق أودو ، وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف نهر اللوار . وتقول بعض الروايات

---

(١) Southy: Roderic the last of the Goths

الكنسية ، إن أودو هو الذى استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا ، ليعاونه على محاربة خصمه كارل مارتل[١]. ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة ، لما قدمنا من أن أودو هو الذى بادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده، وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع ، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقى ، يستأثر بكل سلطة حقيقية ، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمته . وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهبته ويحشد قواه . ولكن عبد الرحمن سار إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه . وترد الرواية الإسلامية هذا التمهل إلى خطة مرسومة مقصودة . فتقول فى هذا الموطن : « فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة وهذه سمة لملوكهم ، فقالت له ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب . كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر »[٢]. ونستطيع أيضاً أن نفسر تمهل كارل مارتل بأنه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة ، حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه ، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته . وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوبى فرنسا كله ، حينما تأهب كارل مارتل للسير إلى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه ، وتمزيق

---

(١) موسوعة **Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France,** رواية القديس دنى **Vol. III. p, 310** . وراجع أيضاً موسوعة : **Bayle : Dictionnaire Historique et Critique** تحت كلمة **Abderame**

(٢) المقرى عن الحجارى فى المسهب (نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩) . ويورد الحجارى هذه الرواية بمناسبة عبور موسى بن نصير إلى فرنسا . ولكن ظاهر من اسم قارلة (كارل) أن الأمر يتعلق بالغزوة الكبيرة التى نتحدث عنها ؛ وإليها ترجعها الرواية الكنسية اللاتينية . راجع : **Gibbon : ibid, Ch. LII** حيث يورد نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور .

قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم أعنى كارل مارتل[1]. وكان كارل قد حشدجيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة ، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين ، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجله جند غير نظاميين ، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة ، فوق أكتافهم العارية . وسار زعيم الفرنجة فى هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب فى حمى الهضاب والربى ، حتى يفاجئ العدو فى مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده . وكان الجيش الإسلامى قد اجتاح عندئذ جميع أراضى أكوتين ، التى تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو ، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية ، حيثما يلتقى بثلاثة من فروعه هى « الكريز » و « القيين » و « الكلين » .

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق ، مكان ذلك اللقاء الحاسم فى تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية . ولكن المتفق عليه أنه السهل الواقع بين مدينتى بواتييه وتور ، حول نهرى كلين وقيين فرعى اللوار ، على مقربة من مدينة تور . والرواية الإسلامية مقلة موجزة فى الكلام عن تلك الموقعة العظيمة ، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل ، وإنما وردت تفاصيل للرواية الإسلامية عن الموقعة ، نقلها إلينا المؤرخ الإسبانى كوندى سنعود إليها بعد . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس فى حوادث الموقعة ، وتقدم إلينا عنها تفاصيل شائقة ، ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية . وقد رأينا أن نحاول وصف الموقعة أولا مما لدينا من أقوال الروايتين ، ثم نعود بعد ذلك إلى ذكر كل منهما

انتهى الجيش الإسلامى فى زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتى بواتييه وتور كما قدمنا ، واستولى المسلمون على بواتييه ، ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة . ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى ، واستولوا عليها وخربوا كنيستها أيضاً . وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار ، دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادئ بدء ، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته . فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار ، لملاقاة العدو على ضفته اليمنى ، فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة . وألفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه فى

(١) Dom: Visstte, ibid, V.I. p. 795

الكثرة ، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتييه . وعبر كارل اللوار غربى تور ، وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامى بأميال قليلة ، بين نهرى كلين وفيين فرعى اللوار .

وكان الجيش الإسلامى فى حال تدعو إلى القلق والتوجس ، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة . وكان المسلمون فى الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية ، وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى ، من الذخائر والغنائم والسبى ، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع . وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته ، وخشى مما تثيره فى نفوس الجند من الحرص والانشغال ، وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك شىء منها . ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد . وكان المسلمون من جهة أخرى ، قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة ، مذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم ، فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة . ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة .

وبدأ القتال فى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك محلية مدى سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ فيها كل بمراكزه . وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة ، فاقتتلا بشدة وتعادل ، حتى دخول الليل . واستأنفا القتال فى اليوم التالى ، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الإعياء على الفرنج ، ولاح النصر فى جانب المسلمين . ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامى ، وخشى عليه من السقوط فى أيديهم ، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول فى المراكز الإسلامية ، بأن معسكر الغنائم سوف يقع فى يد العدو . فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم ، فدب الخلل إلى صفوف المسلمين . وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند ، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها ، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى

بحياته ، فسقط قتيلا من فوق جواده ، وعم الذعر والاضطراب فى الجيش الإسلامى ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل فى صفوفهم . ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل . وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ)[١].

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامى ، واختلف الرأى وهاجت الخواطر ، وسرى التوجس والفزع . ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض ، فقرروا الانسحاب على الأثر . وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم ، وارتدوا فى جوف الليل وتحت جنح الظلام ، جنوباً صوب قواعدهم فى سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنماً للعدو . وفى فجر الغد ، لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية ، فتقدما منها بحذر وإحجام ، فألفياها خاوية خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر . وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو ، ولم يجرؤ على مطاردته ، وآثر العود بجيشه إلى الشمال .

هذه هى أصدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة ، طبقاً لمختلف الروايات . والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية .

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب ، وهى تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب ، فى صور مثيرة محزنة ، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداها : « لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله ، وأنه لا يستطيع الانتقام ، إذا لم يتلق النجدة من إحدى النواحى ، تحالف مع عرب اسبانيا ، ودعاهم إلى معاونته ضد الأمير شارل وضد النصرانية ، وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن ، من

---

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت فى أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وهذا التاريخ يوافق بالهجرية شعبان سنة ١١٤ . بيد أن الرواية الإسلامية تختلف فى تحديد هذا التاريخ ؛ فالبعض يقول إنها كانت سنة ١١٥ هـ (ابن عبد الحكم ص ٣١٧ ، والضبى فى بغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ج ١ ص ٣٧ ؛ ولكنه يعود فيذكر أن الموقعة كانت سنة ١١٤ هـ — ج ٢ ص ٢٨) . ولكن ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٤) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٩) والمقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٠٩ وج ٢ ص ٥٦) متفقون على أنها كانت سنة ١١٤ هـ ؛ ويقول الأخيران إنها كانت فى رمضان سنة ١١٤ هـ ، وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية .

اسبانيا ، مع جميع نسائهم وأولادهم وعددهم وأقواتهم ، فى جموع لا تحصى ولا تقدر ، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر ، كأنما عولوا على البقاء فى أرض فرنسا ، ثم اخترقوا مقاطعة چيروند ، واقتحموا بوردو ، وقتلوا الناس ، ونهبوا الكنائس ، وخربوا كل البسائط ، وساروا حتى پواتيو... »[١].

وتقول أخرى : « ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه ، اقتحم الجبال ، ووطئ السهول بسيطها ووعرها ، وتوغل مثخناً فى بلاد الفرنج ، وسحق بسيفه كل شيء ، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزماً أمامه ، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده ، ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو ، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها ، التقى بكارل أمير فرنج أوستراسيا ، وهو رجل حرب منذ فتوته ، وكان أودو قد بادر بإخطاره . وهناك قضى الفريقان أسبوعاً فى التأهب ، واصطفا أخيراً للقتال ، ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع ، أو منطقة من الثلج لاتخترق ، وأثخنت فى العرب بحد السيف » .

« ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) ، بقوة أطرافهم الضخمة ، وبأيديهم الحديدية ، التى ترسل من الصدر تواً ضرباتها القوية ، أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو ، التقوا أخيراً بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته . ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين ، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقاراً للعدو . فلما استيقظوا فى فجر الغد ، ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم ، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها . ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم ، ألفوا جموع المسلمين ، قد فرت صامتة تحت جنح الليل ، مولية شطر بلادها . على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى ، فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين . ولكن الغزاة كانوا قد فروا ، وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام ، عادوا مغتبطين إلى ديارهم »[٢] .

---

(١) هذه هى رواية القديس دنى **Saint Denis** – وردت فى موسوعة **Bouquet** . ووردت فى هذه الموسوعة أيضاً أقوال آخرين من الرواة الأحبار .

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وهو معاصر للموقعة . راجع **Creasy : ibid , Ch. VII** و **Hodgkin , Charles the Great ; Ch. III** ، وكذلك **Gibbon : ibid , Ch. LII** نفيها تنقل هذه التفاصيل أو تلخص .

وأما الرواية الإسلامية فهى ضنينة فى هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا . ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة ، بالصمت أو الإشارة الموجزة كما سنرى . غير أن المؤرخ الإسبانى كوندى يقدم إلينا خلاصة من أقوال ينسبها إلى الرواية الأندلسية المسلمة[١]، عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ؛ ونحن ننقلها مترجمة فيما يلى :

« لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبى نسعة ، وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامى الذى سير إليهم ، استعدوا للدفاع جهدهم ، وكتبوا إلى جيرانهم يلتمسون الغوث . وجمع الكونت وسيد هذه الأنحاء (يريد أودو) قواته وسار للقاء العرب ، ووقت بينهم معارك سجال . ولكن النصر كان إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام ، فاستولى تباعاً على كل مدن الكونت . وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر ، فلم يكونوا يرغبون إلا فى خوض المعارك ، واثقين كل الثقة فى شجاعة قائدهم وبراعته .

« وعبر المسلمون نهر الجارون ، وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه ، وخربوا جميع الضياع ، وسبوا جموعاً لاتحصى ، وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة المخربة فاجتاحها ، وأذكى اضطرام الجند ، نجاح غزواتهم ، واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم .

« ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء ، ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته . فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها ، وسحقوا بسيوفهم الماحقة كل شىء . ومات الكونت مدافعاً عن مدينته ، واحتز الغزاة رأسه[٢]. ثم ساروا مثقلين بالغنائم فى طلب انتصارات أخرى ، وارتجت بلاد

---

(١) لم نقف فى أى المصادر العربية التى بين أيدينا ، على أصل هذه التفاصيل التى يقول كوندى إنه اقتبسها من الرواية العربية ، ولم يذكر هو مصدر اقتباسه . ولعله نقلها عن بعض مخطوطات الإسكوريال أو المجموعات الخاصة وقد فقدت آثارها اليوم ، كما فقدت مخطوطات كثيرة من المجموعة الأندلسية بالإسكوريال . ولعله أيضاً نقل شيئاً منها من شذور لابن حيان وابن بشكوال كانت موجودة فى عصره ولم تصل إلينا . ويلوح لنا أن الحجارى فى كتابه « المسهب » قد تناول هذه الحوادث بالتفصيل حيث نقل المقرى عنه شذرة تفيد ذلك . (نفح ج ١ ص ١٣٩) ، ولعل كوندى وقف على شىء منها . على أننا لم نعثر خلال بحوثنا فى مجموعة الإسكوريال على أثر لمثل هذه المخطوطات أو الأوراق . راجع حديث كوندى عن مصادرة : Conde : ibid., V.I. Prologo, p. 20 & 21.

(٢) هذا خطأ بين ، لأن الكونت أودو لم يقتل عندئذ ، بل فر إلى الشمال ، وعاد لقتال عبد الرحمن فى تور كما قدمنا .

الفرنج كلها رعباً لاقتراب جموع المسلمين ، وهرع الفرنج إلى ملكهم قلدوس فى طلب الغوث ، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك ، وكأنهم فى كل مكان ، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال[١] وقتلوا الكونت . فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل . وفى سنة ١١٤ ﻫ سار على رأس جموع لاتحصى للقاء المسلمين . وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ من مدينة تور ، وهنالك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذى سيلاقى . وكان جيشه قد دب إليه الخلل ، لأنه كان مثقلا بالغنائم من كل ضرب . ورأى عبد الرحمن وأولوا الحزم من زملائه ، أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال ، والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ، ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند ، واستسلموا لرأى الواثقين المستهترين . واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن طالعه المستمر . ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش . نعم إن الجند بحملهم ظمأ الغنم ، قد أتوا جهوداً لم يسمع بها ، فطوقوا مدينة تور ، وقاتلوا حصونها بشدة رائعة ، حتى سقطت فى أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها ، وانقض المسلمون على أهلها كالضوارى المفترسة ، وأمعنوا القتل فيهم . قالوا ، ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام ، وكأن طالعهم قد ولى .

« وعلى ضفاف نهر « الأوار » (اللوار) اصطف رجال اللغتين ، والتقى المسلمون والنصارى ، وكلاهما جزع من الآخر ، وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره المستمر ، هو البادئ بالهجوم ، فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة ، وقابله الفرنج بالمثل . ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل . وفرق بين الجيشين . وفى اليوم التالى استؤنف القتال منذ الفجر بشدة ، وشق بعض مقدمى المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها . ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة فى أوج اضطرامها ، أن جماعة كبيرة من فرسانه ، غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكدسة فى المعسكر العربى ، لأن العدو أخذ يهددها . فأحدثت هذه الحركة خللا فى صفوف المسلمين ، وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب ، فأخذ يثب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال ، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم ، فارتد يحارب مع أشجع جنده حيثما استقرت المعركة ،

---

(١) مدينة بوردو .

حتى سقط قتيلا مع جواده وقد أثخن طعاناً . وهنا ساد الخلل فى الجيش الإسلامى وارتد المسلمون فى كل ناحية ، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل .

« وانتهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المنهزمة أياماً عديدة ، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحتملوا عدة هجمات ، واستمر الصراع بين مناظر مروعة حتى أربونة .

« وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين ، وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ . ثم أن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة ، ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة فائقة ، حتى أرغم على رفع الحصار ، وارتد إلى داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة »[١] .

وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى فى كلامه عن الموقعة ، فقرة ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها : « لما استولى العرب على قرقشونة خشى قارله (كارل) أن يتوغلوا فى الفتح ، فسار لقتالهم فى الأرض الكبيرة (فرنسا) فى جيش ضخم ، وعلم العرب بقدومه وهم فى لوذون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة ، فعولوا على الارتداد . وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقى أحداً إذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوق هذه الجبال دون أن يدرى العرب ، ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم ، وفر الباقون إلى أربونة . فحاصر قارلة أربونة مدة ، ولم يستطيع فتحها فارتد إلى أراضيه ، وأنشأ قلعة وادى رذونة (الرون) ، ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب »[٢] .

ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية فنقول إن المؤرخين المسلمين يمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة . ويجب أن نذكر بادىء بدء أن موقعة تور ، تعرف فى التاريخ الإسلامى بواقعة البلاط أو بلاط

---

(١) Conde : ibid , Vol. I, p. 86-88

(٢) راجع : Cardonne : ibid, V.I. p.129-131 . وقد بحثنا طويلا فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان فى مظان وجود هذه التفاصيل فلم نعثر بها . ولعل كاردون وقد كتب فى أواسط القرن الثامن عشر ، واستعان بمخطوطات عربية فى المكتبة الملكية فى باريس ، قد نقل عن نسخة لابن خلكان فيها زيادات عن النسخة التى بين أيدينا . ولسنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان مؤلفاً تاريخياً آخر يمكن أن يحتوى مثل هذه التفاصيل .

الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين . وفى هذه التسمية ذاتها ، وفى تحفظ الرواية الإسلامية ، وفى لهجة العبارات القليلة التى ذكرت بها الموقعة ، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين ، يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، ويقدرون فداحة الخطب الذى نزل بالإسلام فى سهول تور . ويدل على لون الموقعة الدينى ما تردده الأسطورة الإسلامية ، من أن الأذان لبث عصوراً طويلة يسمع فى بلاط الشهداء[1] . ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين فى هذا المقام ، على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول فى مصاب جلل نزل بالإسلام ، ولا أن يفيضوا فى تفاصيله المؤلمة ، فاكتفوا بالإشارة الموجزة ، ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضاً ، ولا التحدث عن نتائج خطب ، لاريب أنه كان ضربة للإسلام ولمطامع الخلافة ومشاريعها . وإذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية التى كتبت عن الموقعة فى عصر متأخر ، والتى نقلناها فيما تقدم ، فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً فى هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم ، وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتى : « وكان عبيدة (يريد والى إفريقية) قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكى على الأندلس ، وكان رجلا صالحاً فغزا عبد الرحمن إفرنجة ، وهم أقاصى عدو الأندلس ، فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . . . ثم خرج إليهم غازياً فاستشهد وعامة أصحابه ، وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث فى سنة خمسة عشر ومائة »[2]. ولم يذكر الواقدى والبلاذرى والطبرى وهم أيضاً من أقدم رواة الفتوح شيئاً عن الموقعة . وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ثلاث عشرة ومائة مردداً لرواية ابن عبد الحكم . « ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله ، فغزا إفرنجة وتوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة . ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج فى هذه السنة (أعنى ١١٣ هـ) ، وقيل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح ، فقتل هو ومن معه شهداء »[3]. وينسب ابن خلدون الموقعة خطأ لابن الحبحاب والى مصر وإفريقية فيقول : « وقدم بعده (أى بعد الهيثم) محمد

---

(١) المقرى عن ابن حيان (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦) .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ٢١٦ ٢١٧ .

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ .

ابن عبد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة ، وغزا إفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين »[١]. ولدينا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب « أخبار مجموعة » عند ذكر ولاة الأندلس وهو : « ثم (أى وليها) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء ، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن »[٢]. ونقل الضبى فى ترجمة عبد الرحمن ما ذكر ابن عبد الحكم عن الموقعة[٣]. وقال الحميدى وهو من مؤرخى الأندلس فى حديثه عن عبد الرحمن : « وعبد الرحمن الغافقى هذا من التابعين ... استشهد فى قتال الروم بالأندلس سنة خمس عشرة ومائة »[٤]. وقال ابن عذارى المراكشى : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ ، بموضع يعرف ببلاط الشهداء »[٥] وقال فى موضع آخر : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن هذا (أى الغافقى) ثانية وكان جلوسه لها فى صفر سنة ١١٢ فأقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر ، واستشهد فى أرض العدو فى رمضان سنة ١١٤ »[٦]. وقال المقرى فيما نقل : « ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة »[٧]. ونقل فى موضع آخر : « وذكر أنه قتل (والإشارة هنا خطأ إلى السمح بن مالك) فى الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان ،

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ ؛ وفى نسبته الموقعة لمحمد بن الحبحاب خطأ بين لأن ابن الحبحاب كان عامل مصر ، ولم يندب لولاية إفريقية سوى سنة ست عشرة ومائة . ولم يل هو أو ولده الأندلس قط (راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧) .

(٢) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٢٥ .

(٣) بغية الملتمس رقم ١٠٢١ .

(٤) جذوة المقتبس (طبع القاهرة) ص ٢٥٦ .

(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

(٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن » . ونقل عن ابن حيان : « قاله دخل الأندلس (أى عبد الرحمن) حين وليها ولايته الثانية من قبل ابن الحبحاب فى صفر سنة ثلاث عشرة ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره فى موضع يعرف ببلاط الشهداء . قال ابن بشكوال وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط »(١) .

هذه الفقرات والإشارات الموجزة ، التى تكاد تتفق جميعاً فى اللفظ والمعنى ، هى ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا فى هذا المقام ، وإن كان فى تحفظها ذاته ما ينم عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره . وإذا كان صمت الرواية الإسلامية تمليه فداحة الخطب الذى أصاب الإسلام فى سهول تور ، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس فى تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة ، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامى ، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين . وتذهب الرواية النصرانية ، ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين ، فى تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق ، فتزعم أن القتلى من المسلمين فى الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً ، فى حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى ألف وخمسمائة . ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جريجورى الثانى ، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه ، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة ، كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها . بيد أنها ليست سوى محض خرافة ، فإن الجيش الإسلامى كله ، لم يبلغ حين دخوله فرنسا على أقصى تقدير ، أكثر من مائة ألف(٢). والجيش الإسلامى لم يهزم فى تور ولم يسحق ، بالمعنى الذى تفهم به الهزيمة الساحقة ، ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة ، يقاتل حتى المساء محتفظاً بمراكزه أمام العدو ، ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم . ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع فى جيش يحافظ على ثباته ومواقعه ، إلى هذه النسبة الخيالية . ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فادحة فى مثل هذه المعارك الهائلة ، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية . ولكن مثل هذه

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) وهذا التقدير يأخذ به بعض المؤرخين الغربيين أيضاً ، مثال ذلك المؤرخ الفرنسى **Mezeral** . راجع التعليقات فى موسوعة **Bayle** ، تحت كلمة **Abderame** .

الخسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف فى جيش لم يزد على مائة ألف . وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة ، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية ، فلو أن الجيش الإسلامى انتهى إلى أنقاض ممزقة ، لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه . ولكنه كان مايزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده[1] . على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة فى نوعها ، تتمثل فى مقتل عبد الرحمن وجمع كبير من زعماء الجيش وقادته . بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما فى هذه الخسارة ، فقد كان خير ولاة الأندلس ، وكان أعظم قائد عرفه الإسلام فى الغرب ، وكان الرجل الوحيد الذى استطاع بهيبته وقوة خلاله ، أن يجمع كلمة الإسلام فى اسبانيا ، فكان لمقتله فى هذا المأزق العصيب ، ضربة شديدة لمثل الإسلام ومشاريع الخلافة فى افتتاح الغرب[2].

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى ، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها فى تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب ، ومن ثم فى تغيير تاريخ العالم كله . وإليك طائفة مما يقوله أكبر مؤرخى الغرب ومفكريه فى هذا المقام :

قال إدوارد جيبون ، إن حوادث هذه الموقعة « أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطينيه ، وشدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والفشل »[3]. ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة « إحدى هاته المواقف

---

(١) قال ادوار جيبون تعليقاً على مزاعم الرواية الفرنجية « ولكن تلك القصة الخرافية يمكن ردها بحذر القائد الفرنسى (كارل مارتل) إذ توجس من شراك المطاردة ومفاجآتها ورد حلفاءه الألمان إلى أوطانهم . ان سكون الفاتح ينم عن فقد الدماء والقوة ، وأن أشنع تمزيق للعدو لا يقع حين التحام الصفوف ، وإنما حين الانسحاب وتولية الأدبار » .

(٢) راجع موسوعة **Bayle** تحت كلمة **Abderame** ، ففيها أيضاً إنكار للرواية الفرنجية عن خسائر العرب . وفى هذه الموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين تجمع كلها على التنديد بمبالغة الرواية الفرنجية . وراجع أيضاً **Dom Vissette: ibid, V.I. p. 797** حيث يدحض مزاعم الروايات النصرانية .

(٣) **Roman Empire - Ch. LII.**

الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون »[١] . ويقول السير إدوار كريزى : « إن النصر العظيم الذى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حداً حاسماً لفتوح العرب فى غرب أوربا ، وأنقذ النصرانية من الإسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة ، وبذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوربية على الأمم السامية »[٢]. ويقول فون شليجل فى كلامه عن الإسلام والإمبراطورية العربية : « ما كاد العرب يتمون فتح إسبانيا حتى تطلعوا إلى فتح غاليا وبرجونية . ولكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتييه وضع لتقدمهم حداً ، وسقط قائدهم عبد الرحمن فى الميدان مع زهرة جنده . وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتاكة ، الهدامة إلى الذروة »[٣] ، ويقول رانكه : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرين . فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها إلى بلاد جديدة »[٤] . ويقول زيلر : «كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية . وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه ، لا فى غاليا وحدها ولكن فى جرمانيا التى أشركها فى نصره »[٥]. على أن هناك فريقاً من مؤرخى الغرب لايذهب إلى هذا الحد فى تقدير نتائج الموقعة وآثارها . ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه ، فهما لايعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول جورج فنلى : «إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج ، فى حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث (إمبراطور قسطنطينية) وعزمه ، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ، ولم يكد يجلس على

---

(١) History of the Roman Commonwealth

(٢) Decisive Battles of the World

(٣) Philosophie der Geschichte

(٤) History of the Reformation

(٥) Histoire de L'Allemagne

العرش حتى أحبط خطط الفتح ، التى أنفق الوليد وسليمان طويلا فى تدبيرها »(١)
ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار ، ونرى أنها كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، ففى سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصائر العالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية ، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية ، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، واخضاع النصرانية لصولة الإسلام . ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى ، لينفذ إلى قلب أوربا فى مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم مسيره إلى بلاط الشهداء . ولكنه أصيب غير بعيد بتفرق الكلمة ، وبينما شغلت إسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية ، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الإسلام فى الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ .

---

(١) Byzantine Empire

الفصل السابع

الأندلس بين المد والجزر

صدى بلاط الشهداء . اهتمام الخلافة بحوادث الأندلس . تعيين عبد الملك بن قطن والياً للأندلس . مسير ابن قطن إلى الشمال . محاربته للثوار فى الثغر الأعلى وبسكونية . غزوه لأكوتين . هزيمته أثناء العودة . صرامته وعزله . ولاية عقبة بن الحجاج . حزم عقبة وإصلاحاته . غزوه بجليقية . تحصينه لقواعد الثغر . غزواته فى غاليس . حوادث أكوتين . عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس يغزو آرل . تحالف مورنتوس دوق بروفانس مع العرب . غزو القوات المتحدة لبرجونية . مهاجمة الفرنج لافنيون واستيلاؤهم عليها . حصار كارل مارتل لأربونة . موقعة بين العرب والفرنج . هزيمة العرب . رفع الحصار عن أربونة . استيلاء كارل على مدن سبتمانيا وتخريبها . عوده إلى الشمال . مسير عقبة إلى سبتمانيا . استرداده لآرل . غزو الفرنج واللومبارد لبروفانس . قدوم كارل مارتل . ارتداد المسلمين . هزيمة مورنتوس وتمزيق قواته . مهاجمة البشكنس لعقبة حين عبوره الجبال . وفاة عقبة . ولاية عبد الملك ابن قطن الثانية . حوادث إفريقية . سخط البربر على العرب . ذيوع الدعوة الخارجية بين البربر . موقف البربر فى اسبانيا . أقوال ابن خلدون فى ذلك . أقوال دوزى . اضطرام البربر بعوامل الثورة . إخماد الثورة فى المغرب الأقصى . ولاية إسماعيل بن عبيد الله للمغرب . عودة الثورة بزعامة ميسرة المدغرى . استيلاء الثوار على طنجة . الحرب بين العرب والبربر . مصرع ميسرة . موقعة الأشراف . ولاية كلثوم بن عياض لإفريقية . الخلاف بين زعماء العرب . مسير كلثوم إلى المغرب . استئناف الحرب بين العرب والبربر . هزيمة العرب ومقتل كلثوم . امتناع الشاميين بسبتة . ولاية حنظلة بن صفوان لإفريقية . الثورة فى إفريقية الوسطى . قتال حنظلة للثوار . هزيمة البربر ومصرع زعمائهم .

كان للخطب الجلل الذى أصاب الإسلام فى بلاط الشهداء وقع عظيم فى بلاط دمشق ، وفى جميع أرجاء العالم الإسلامى ، وكان ارتداد الإسلام أمام أسوار قسطنطينية قد وقع للمرة الثانية قبل ذلك بأربعة عشر عاماً فقط ، فكانت نكبة البلاط تتمة الفشل المؤلم ، الذى أصاب مشاريع الخلافة فى افتتاح أمم الغرب . على أنها لم تكن خاتمة الفتوح الإسلامية فى فرنسا .

وأثار هذا الخطب فى نفس هشام بن عبد الملك ، أيما اهتمام بشئون الأندلس ومصير الإسلام فى الغرب ، فاختار عبد الملك بن قطن الفهرى والياً للأندلس ، وأمره أن يعمل على حماية شبه الجزيرة ، وتوطيد هيبة الإسلام فى تلك الأقطار

الثانية . فعبر عبد الملك إلى اسبانيا ، فى جيش منتخب من جند إفريقية ، فى أواخر سنة ١١٤ هـ[١]. وكان ثوار المقاطعات الشمالية قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن وانحلال جيشه ، وحاولوا أن ينزعوا عنهم نير الإسلام ، فسار عبد الملك إلى الثغر الأعلى (أراجون) وهزم الثوار فى عدة مواقع . ثم عبر البرنيه إلى بسكونية (بلاد البشكنس)[٢] سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) ، وكانت دائماً أشد المقاطعات الجبلية مراساً ، وأكثرها خروجاً وانتقاضاً ، فعاث فيها وشتت جندها وألجأهم إلى طلب الصلح[٣] . ثم سار إلى لانجدوك ، وكان الفرنج منذ موقعة البلاط ، يتطلعون إلى استردادها ، ويكثرون من الإغارة عليها ، فنظم حامياتها ، وحصن قواعدها . ثم أغار على أراضى أكوتين وعاث فيها ، فاعترضه الدوق أودو ورده ، ولم يخاطر عبد الملك بالتوغل فى أرض الفرنج لصغر جيشه ، فارتد إلى الجنوب ، ولكنه أثناء عبوره جبال البرنيه ، هاجمته العصابات الجبلية البسكونية ، وأصابته فى قتالها خسارة كبيرة ، فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من إخضاعها .

ولم يطل عهد عبد الملك بعد عوده ، فقد كان صارماً ، شديد الوطأة ، كثير الظلم والبطش[٤]. فسخط عليه الزعماء وأولو الرأى ، ودب الخلاف بين القبائل ، وبدت بوادر الفتنة . هذا إلى أنه لم يوفق إلى إخماد الثورة فى الولايات الشمالية ، وتوطيد سلطان الإسلام فيها ، فعزل فى رمضان سنة ١١٦ لسنتين من ولايته . واختار عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية ، مكانه لولاية الأندلس ، عقبة بن الحجاج السلولى . فدخلها فى شوال سنة ١١٦ (أواخر سنة ٧٣٤ م) . وكان عقبة من طراز عبد الرحمن الغافقى جندياً عظيماً ، نافذ العزم والهيبة ، محمود الخلال والسيرة ، كثير العدل والتقوى[٥] ، فأقام النظام والعدل ، ورد المظالم ، وقمع الرشوة

---

(١) المقر ج ٢ ص ٥٨ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ . ولكن ابن عبد الحكم يقول إن ولاية ابن قطن كانت سنة ١١٥هـ (ص٢١٧) . وهذا يرجع إلى أنه يقول كما قدمنا بوقوع بلاط الشهداء سنة ١١٥ .

(٢) بسكونية أو بسكونس أو بلاد البشكنس بالعربية هى **Vasconia** القديمة ، وقد كانت تشمل الرقعة الممتدة فى غرب البرنيه بحذاء الشاطىء إلى شرق الأسترياس ، وكانت أهم أجزائها فى ذلك العصر ولاية نافار التى يسميها العرب أحياناً نبره ، وكانت عندئذ إمارة مستقلة يحكمها على الأرجح زعيم أو أمير قوطى ، وتشمل من مقاطعات اسبانيا الحديثة نافار وبسكاية **Vizcaya** .

(٣) المقرى ج ٢ ص ٥٨ .

(٤) المقرى ج ١ ص ١١٠ ؛ وعن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٨ .

(٥) المقر ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

والاختلاس ، وعزل الحكام الظلمة وألقاهم فى غيابة السجن ، وأقام مكانهم جماعة من ذوى الحزم والنزاهة ، وأنشأ كثيراً من المدارس والمساجد . فاستقرت الأحوال وخبت الفتنة ، وتراضت القبائل . واعتزم عقبة فى الوقت نفسه أن يعيد عهد الجهاد والفتوح العظيمة ، وأن يوطد سلطان الإسلام فى الولايات الشمالية ، وفى غاليس (فرنسا) . فنظم الجيش وزاد فى قواته وأهبته ، وغزا جليقية وتوغل فيها ، واستولى على كثير من مواقعها ، ولكنه لم يستطع أن يسحق بقية النصارى التى اجتمعت حول الزعيم القوطى بلاى (أوبلايو) ، وما زالت معتصمة بأقاصى الجبال فى شعب عرفت لمنعتها « بالصخرة » ، متحدية كل أمير وقائد مسلم[١] . وحصن عقبة جميع المواقع الإسلامية على ضفاف نهر الرون ، واتخذ ثغر أربونة قاعدة للجهاد والغزو ، فحصنها وبعث إليها بالجند والمؤن والذخائر . وتقول الرواية الإسلامية إن عقبة لبث طوال حكمه الذى امتد خمسة أعوام مثابراً على الجهاد والغزو ، وأنه كان يخرج للغزو كل عام ، حتى عاد نهر الرون رباط المسلمين أو معقل فتوحاتهم[٢] ، بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما بيد المسلمين فى تلك الأنحاء . ولا تفصل الرواية الإسلامية حوادث هذه الغزوات ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة تلقى عليها شيئاً من الضياء ، وإليك ملخص الغزوات الإسلامية فى غاليس فى تلك الفترة حسبما تقصه علينا تلك الروايات :

رأى الفرنج على أثر ما أصاب المسلمين فى بلاط الشهداء ، أن الفرصة قد سنحت لإخراجهم من فرنسا . ولكن كارل مارتل شغل حيناً بمحاربة القبائل الوثنية فيما وراء الرين ، فى فريزيا وسكسونية ، وشغل أودو برد العرب حينما غزوا أكوتين مرة أخرى بقيادة ابن قطن . ثم توفى أودو فى العام التالى (سنة ٧٣٥م) ، وتخلص كارل مارتل بذلك من منافسه القوى ، وبادر إلى غزو أكوتين ودخل بوردو عاصمتها ، وأقام هونالد ولد أودو دوقاً مكان أبيه ، على أن تكون أكوتين تابعة للمملكة الفرنجية . وفى تلك الأثناء ولى الأندلس عقبة بن الحجاج ، وأخذ ينظم الأهبة لاسترداد الثغور الإسلامية الشمالية . وفى سنة ٧٣٥م (١١٧ هـ) غزا العرب مدينة آرل للمرة الثانية ، بقيادة عبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المقرى ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

أربونة ، الموصوف بأنه « فارس الأندلس فى عصره » تنويهاً بشجاعته الفائقة[١] واستولوا عليها . وكانت الولايات المجاورة لسبتمانيا الواقعة حول ضفاف الرون . وكلها مزيج من القوط والبرجونيين . تنزع إلى الخروج على كارل مارتل . وتحاول التخلص من نير الفرنج . وكان الدوق مورنتوس أو مورنت أمير بروفانس أقوى زعماء هذه المنطقة ، يحكم ما بين نهر الرون وجبال الألب ، ويسعى إلى توطيد استقلاله ، وتوسيع ملكه على نحو ما كان يفعل أودو فى أكوتين . فاتصل بالعرب وتحالف معهم . وفى سنة ٧٣٦ م عبر الدوق وعبد الرحمن اللخمى الرون فى جيش مشترك ، واستوليا على مدينة أڤنيون رغم حصانتها[٢] . واخترق العرب بعد ذلك إقليم دوفينه ، واستولوا على أوسيز وڤڤييه وڤالانس وڤيين وليون وغيرها ، وغزوا برجونية وحصلوا على غنائم لا تحصى[٣] . وعلم كارل مارتل بذلك أثناء انشغاله بالحرب فى سكسونية . فبعث أخاه شلدبراند فى جيش ضخم ليصد العرب ، ثم لحق به جيش آخر . وزحف الفرنج على أڤنيون فى كثرة وهاجموها بشدة حتى سقطت فى أيديهم . وقتلوا حاميتها المسلمة . وتحصن العرب فى أربونة ، فسار إليها كارل مارتل . وحاصرها فقاومه المسلمون أشد مقاومة . وردوا كل هجماته . وأرسل عقبة فى الحال جيشاً لإنقاذ المدينة . فقصدها من جهة البحر ، وجاز إلى الشاطئ قبل أن يشعر به الفرنج حتى صار على مقربة من أربونة . فلما علم كارل بمقدم هذا الجيش الجديد ، بادر إلى لقائه ونشبت بينه وبين العرب موقعة هائلة ، فيما بين البحر وأربونة ، هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وطاردهم الفرنج حتى الشاطئ ، فلم ينج منهم سوى شراذم قليلة لجأت إلى السفن ، وذلك فى ربيع سنة ٧٣٧م (١١٩هـ) . ومع ذلك فلم تسلم أربونة ولم يهن عزمها . فاضطر عندئذ كارل مارتل إلى رفع الحصار عنها ، وارتد إلى مهاجمة المواقع الإسلامية الأخرى ، فاستولى على بزييه وأجده وماجلونة وخرب قلاعها ومعاهدها ، وأحرق نيمة وآثارها الرومانية الفخمة ، فغدت جميعاً أطلالا دارسة ، بعد أن كانت أيام المسلمين زاهرة باسمة . وحول السهل الواقع غرب سبتمانيا وشمالها إلى قفر بلقع ليحول دون تقدم المسلمين . وهنا وصلته الأنباء بوفاة تيودريك الرابع

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٢ .

(٢) وهى فى الرواية العربية « صخرة أبنيون » (راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨) .

(٣) **Dom Vissette : ibid. V.I. p. 803**

ملك الفرنج الميروفنجى (سبتمبر سنة ٧٣٧) ، فارتد مسرعاً إلى عاصمة ملكه ليتقى تدابير خصومه ، ولم يقم ملكاً جديداً على العرش رغم وجود أعضاء من الأسرة الميروفنجية ، بل آثر أن يترك العرش خالياً ، حتى تمهد الظروف له أو لبنيه اعتلاءه ، وتتويج سلطان محافظ القصر الفعلى بألقاب الملك .

وفى ذلك الحين كان عقبة بن الحجاج يتأهب لاستئناف الغزو ، واسترداد ما انتزعه كارل مارتل من قواعد سبتمانيا . فى ربيع سنة ٧٣٨ م (١٢٠ هـ) عبر عقبة جبال البرنيه فى جيش ضخم ونفذ إلى سبتمانيا ، وعبر الرون واسترد مدينة آرل للمرة الثالثة أو الرابعة . ثم استولى بمعاونة الدوق مورنتوس على أفنيون وعدة معاقل أخرى فى بروفانس . وكان كارل فى ذلك الحين قد عاد إلى محاربة السكسونيين ، فبعث لقتال العرب جيشاً بقيادة أخيه شلدبراند ، واستغاث بصهره وحليفه لوتبراند ملك اللومبارد[1] ، فغزا بروفانس من جهة الشرق ليضيق على قوات الدوق ، ثم أسرع كارل إلى الرون بجيش ثالث ، وزحفت الجيوش المتحدة على مواقع المسلمين ، فاضطر عقبة إلى إخلاء بروفانس والارتداد إلى ما وراء الرون ، واستولى الفرنج أيضاً على معظم سبتمانيا ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة ، ورقعة ضيقة من الأرض على الشاطئ بين أربونة والبرنيه ، ومزقت قوى الدوق مورنتوس ، وطارده الفرنج فى شعب الجبال ، ففر ناجياً بحياته ، واستولى الفرنج على أراضيه ، واصطدم عقبة حين عبوره البرنيه إلى الأندلس بعصابات قوية من البسكونيين والقوط ، حاولت بتحريض الفرنج أن تسد دونه ممرات الجبال ، فتكبد فى تمزيقها بعض الخسائر ، ولكنه ارتد بجيشه سالماً إلى قرطبة . وكان هذا اللقاء الأخير بين العرب والفرنج فى سهول الرون فى سنة ٧٣٩ م (١٢١ هـ)[1] .

ثم توفى عقبة بن الحجاج بعد ذلك بقليل ، وقدمت الجماعة مكانه عبد الملك ابن قَطَن ، فولى الأندلس للمرة الثانية . وقيل بل ثار ابن قطن على عقبة فى جمع

---

(١) يسمى العرب لومبارديا أنكبردة ، واللومبارد بالأنكبرد ، محرفة عن التسمية القديمة (لانجوبارد) **Langobard** (راجع معجم ياقوت الجغرافى ج ١ ص ٢٦٢) ،

(٢) رجعنا فى تفصيل هذه الغزوات والوقائع إلى ما ورد فى موسوعة **Bouquet** من أقوال الرواة والمؤرخين المعاصرين من الأحبار وغيرهم . وراجع أيضاً : **Dom Vissette: ibid , V.I. p. 807 & 809**

كبير من أنصاره ، وكان عقبة قد ولاه على أثر عزله ، قيادة الجيش فى الشمال ، فلبث يتحين الفرص للخروج والثورة . فأسر عقبة وقتل ، أو أسر حتى توفى ، وانتزع ابن قطن ولاية الأندلس لنفسه ، ووقع هذا الانقلاب سنة ١٢٢ هـ[١] ، وقيل بل سنة ١٢٣ . قال الرازى : « ثار أهل الأندلس بأميرهم عقبة فى صفر سنة ثلاث وعشرين ، فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية ، وكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفى بقرمونة فى صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الأمر لعبد الملك »[٢]. وعلى أى حال فقد كان هذا الانقلاب بالنسبة للأندلس فاتحة عهد من الاضطراب والفتن والحرب الأهلية المتصلة كما سنرى .

ويجب لكى نعرف عوامل هذا الاضطراب ، أن نعود إلى حوادث إفريقية قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة . فى سنة ١١٦ هـ عين عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر والياً لإفريقية ، وقد بينا فيما سلف كيف كان البربر يضطرمون سخطاً على سادتهم العرب ، وشرحنا طرفاً من عوامل هذا السخط ، وبينا كيف أن دعوة الخوارج ذاعت بين البربر منذ أواخر القرن الأول ، فأقبلوا على اعتناقها لما تضمنت من مبادئ الحرية والديمقراطية ، والحث على مقاتلة الغاصبين للرياسة والحكم . كذلك رأينا كيف استبسل البربر فى الدفاع عن حرياتهم ، وانقضوا على الفاتحين غير مرة ، وحطموا سلطانهم ، وفتكوا بقادتهم وجيوشهم ، ولم يخضعوا لنير العرب إلا بعد كفاح رائع ، استطال زهاء نصف قرن . ومع أن الأمر استتب للعرب آخر الأمر ، واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم ودينهم على البربر ، وأن يتخذوهم جنداً لجيوش الخلافة فى الغرب ، فإن البربر لبثوا يعتبرون العرب أجانب غاصبين لحرياتهم ، ولبثت القبائل البربرية القاصية ، تضطرم دائماً بنزعات الخروج والثورة . وكانت مثل هذه العواطف تحفز البربر فى اسبانيا ، إلى مخاصمة العرب والسخط عليهم والتربص بهم ، وخصوصاً لأنهم رغم قيامهم بمعظم أعباء الفتح ، لم يفوزوا بكثير من مغانمه ، واستأثر العرب دونهم بالسلطان والحكم . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ثم نبضت فيهم (أى البربر) عروق الخارجية

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المقرى عن الرازى (نفح الطيب ج ١ ص ١١٠) . راجع أيضاً عن مصير عقبة ، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية . وفشت هذه البدعة وعقدها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلوا فى كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب »(١) .

ويصف دوزى موقف البربر من العرب فيما يأتى : « اعتنق البربر سكان الأكواخ الحقيرة ، كل التعاليم بحماسة لا توصف . ولا ريب أنهم لجهالتهم وسذاجتهم ، لم يدركوا شيئاً من تضارب المذاهب ودقائقها ، مما تدركه وتسيغه أذهان مستنيرة ، فمن العبث إذاً أن نبحث عن أى الفرق كانوا يفضلون الانضمام إليها ، وعما إذا كانوا من الحرورية أو الصفرية أو الإباضية ، فقد اختلف الرواة فى ذلك . ولكنهم كانوا يفقهون من المبادئ ما يسمح لهم باعتناق المبادئ الثورية والديمقراطية ، ومشاطرة الآمال الخيالية التى يذيعها فقهاؤهم فى المساواة العامة ، وما يقنعهم بأن ظالميهم كانوا آثمين نصيبهم النار . ولما كان الخلفاء منذ عثمان جميعاً غاصبين غير مؤمنين ، فلم يكن جريمة أن يثوروا على الظالم الذى يسلبهم أراضيهم ونساءهم ، فقد كان هذا حقاً بل كان واجباً . ولما كان العرب قد أبعدوهم عن السلطة ، ولم يتركوا لهم إلا ما عجزوا عن أخذه منهم ، أعنى حكم القبائل ، فقد اعتقدوا بسهولة أن نظرية سيادة الشعب ، وهى نظرية يعتنقونها فى ظل استقلالهم الوحشى منذ غابر العصور ، إنما هى نظرية عريقة فى الإسلام عريقة فى الإيمان ، وأن أقل بربرى يمكن رفعه إلى العرش برأى الجماعة . وهكذا كان هذا الشعب الذى بولغ فى ظلمه ، يثيره متعصبون أنصاف فقهاء وأنصاف جند ، وينزع إلى رفع هذا النير باسم الله وباسم النبى ، وباسم هذا الكتاب المقدس (القرآن) الذى اعتمد عليه آخرون فى إقامة الطغيان الرائع »(٢) .

فلما ولى عبيد الله بن الحبحاب إفريقية ، كانت القبائل البربرية تضطرم بعوامل الثورة ولا سيما فى المغرب الأقصى ، فسير عبيد الله إلى مواطن الثورة فى قاصية المغرب جيشاً بقيادة حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ، فأثخن فى هاتيك الأنحاء ومزق

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٢) Dozy : Hist. V.I. p. 149 — 150

جموع الثائرين ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى ، وسادت السكينة حيناً فى المغرب الأقصى . وسير ابن الحبحاب حبيباً فى معظم قواته فى غزوة بحرية إلى سردانية وصقلية ، وعين ولده إسماعيل والياً للمغرب الأقصى . ولكن هذه السكينة كانت ظاهراً خلباً فقط ، فقد كان البربر يتوقون إلى الانتقام ويرقبون الفرص . وكان إسماعيل يحفزهم ويثيرهم بعسفه وسوء تصرفه ، وذاع فوق ذلك أنه ينوى أن يعتبر مسلمى البربر كالنصارى فيئاً وغنيمة ، وأن يفرض الأخماس عليهم . فذكا الهياج واستفحل ، وانتهز البربر فرصة غياب الجيش والقادة فى صقلية ، فأعلنوا الثورة والتفوا حول داعية من الخوارج الصفرية ، وهو سقاء يدعى ميسرة المدغرى ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، وقتلوا قائدهم عمر بن عبد الله ، واستولوا عليها ودعوا لميسرة بالخلافة . ثم زحفوا على السوس وهزموا إسماعيل بن عبيد الله وقتلوه ، فقويت جموعهم واستفحل شأنهم ، وذاعت الدعوة الخارجية فى قفار المغرب ذيوعاً كبيراً ، واضطرب سلطان العرب فى معظم النواحى . فسير ابن الحبحاب فى الحال جيشاً إلى المغرب الأقصى بقيادة خالد بن حبيب ، واستدعى حبيب بن أبى عبيدة وجيشه من صقلية ، ووقعت بين خالد والبربر بقيادة ميسرة معارك شديدة غير حاسمة فى ظاهر طنجة ، ثم ارتد ميسرة إلى طنجة حيناً ، واغتاله بعض أنصاره لأمور نقموها منه ، وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتى ، وهو من بطون زناتة . فبرز لقتال العرب ثانية ، ونشبت بين الفريقين فى مكان يعرف بوادى سلف ، معارك هائلة هزم فيها العرب ، وقتل خالد بن حبيب وجماعة كبيرة من الزعماء والقادة ، وسميت الموقعة لذلك بغزوة الأشراف (أوائل سنة ١٢٣ هـ)[١].

فلما رأى هشام بن عبد الملك عجز ابن الحبحاب عن ضبط الأمور ، استدعاه وأقاله ، واعتزم أن يخمد ثورة البربر بأى الوسائل ، فعين لولاية إفريقية كلثوم ابن عياض القشيرى[٢]، وسيره إليها فى جيش ضخم من عرب الشام ، بقيادة ابن أخيه بلْج بن بشر القشيرى (جمادى الثانية سنة ١٢٣) واجتمعت إليه أثناء

---

(١) ابن عبد الحكم ص٢١٧ و ٢١٨ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٧٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ١١٠

(٢) هكذا يسميه ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) ، وابن خلدون (ج ٦ ص ١١١) ، والمقرى (ج ٢ ص ٥٨) ولكن ابن عبد الحكم يسميه كلثوم بن عياض القيسى (ص ٢١٨) . وكذا بشر ابن بلج فيسميه القيسى بدلا من القشيرى (ص ٢١٩) .

مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس ، حتى بلغ جيشه زهاء سبعين ألفاً[1]،
وكان حبيب بن أبي عبيدة قد وقف بجيشه فى منتصف الطريق ، متردداً لما رآه
من استفحال أمر البربر ، فاستوقفه كلثوم حتى يصل إليه . وكان حبيب وزعماء
العرب فى إفريقية ، يتوجسون شراً من غلبة الشاميين ، فاستقبلوا كلثوماً وبلْجاً
بفتور ، وأبدى بلج بالأخص جفاء وخشونة فى معاملة أهل القيروان ، وثارت
بينه وبين حبيب مناقشات عاصفة ، وكاد الخلاف يضطرم بين الفريقين ، ويرتد
العرب لقتال بعضهم بعضاً لولا أن غلبت الحكمة إزاء الخطر الداهم[2] . فسارت
القوات المتحدة لقتال البربر ، وسار البربر لقتالهم من طنجة فى جموع زاخرة
بقيادة خالد بن حميد الزناتى ، ونشبت بين الفريقين على مقربة من طنجة فى مكان
يعرف بوادى سبسر ، معارك هائلة كان النصر فيها حليف البربر ، فمزق العرب
للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم وحبيب وكثير من الزعماء والقادة[3]. وارتدت فلول
العرب إلى القيروان ، وفر بلج بن بشر ونفر من الزعماء ، منهم ثعلبة بن سلامة
الجذامى وعبد الرحمن بن حبيب فى بقية من جند الشام إلى سبتة ، فامتنعوا بها
واستغاثوا بوالى الأندلس عبد الملك بن قطن ، ووقعت هذه النكبة فى أواخر
سنة ١٢٣ أو أوائل سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) .

عندئذ سير هشام بن عبد الملك والى مصر ، حنظلة بن صفوان الكلبي والياً
لإفريقية ، فقدمها فى ربيع الثانى سنة ١٢٤ . وكانت دعوة الخوارج قد سرت
أيضاً إلى إفريقية الوسطى ، بعد أن خرج المغرب الأقصى من قبضة الخلافة ،
وثار البربر فى كثير من النواحى . وخرج منهم فى ناحية قابس زعيم يدعى عكاشة
الفزارى . وخرج فى غرب القيروان زعيم آخر هو عبد الواحد بن يزيد الهوارى ؛
فحشد حنظلة كل قواته ، ولقى الفزارى أولا ، وهزمه بعد معركة عنيفة ومزق
جموعه . ثم التقى بجيش عبد الواحد على مقربة من القيروان بمكان يعرف بالأصنام،

---

(١) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٨

(٢) ابن عبد الحكم (ص ٢١٩) ، وابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) وراجع أيضاً دوزى :
Hist, V.I. p. 245

(٣) يتفق ابن عبد الحكم (ص ٢٢٠) وابن الأثير (ج ٥ ص ٧١) وابن خلدون (ج ٦
ص ١١١) ، على أن كلثوم بن عياض قتل فى الموقعة ، ولكن المقرى يقول نقلا عن ابن حيان إنه
فر مع بلج إلى سبتة ، وعبر إلى الأندلس حيث توفى (ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩) .

ويقال إن جموع البربر بلغت يومئذ ثلاثمائة ألف ، وبلغ العرب أربعين ألفاً فقط[١]. ونشب بين الفريقين قتال رائع ثبت فيه العرب ، ومزق البربر وقتلت منهم جموع عظيمة ، وقتل عبد الواحد وأسر الفزارى وقتل بأمر حنظلة . وكانت هذه الموقعة الشهيرة سنة ١٢٥ هـ (٨٤٢ م) .

وليس من موضوعنا أن نتتبع ما تلا من الحوادث فى إفريقية[٢] ، ويكفى أن نقول إن ثورة الخوارج لبثت على اضطرامها ، وظهر الثوار والمتغلبون فى كل ناحية ، ولبثت إفريقية عصراً آخر فريسة الاضطراب والفوضى ، واضمحلت سيادة العرب ، ثم زالت غير بعيد لتحل مكانها سيادة المستعربين من البربر والموالى .

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٧١ .

(٢) يفصل ابن خلدون هذه الحوادث فى ج ٦ ص ١١١ وما بعدها ، وكذلك ابن عبد الحكم فى أخبار مصر وفتوحها ص ٢٣٣ وما بعدها .

الفصل الثامن

الحرب الأهليـــة

صدى حوادث إفريقية في الأندلس . استغاثة الشاميين بابن قطن . إعراضه عن دعوتهم . ثورة البربر في الأندلس . مفاوضة ابن قطن لبلج زعيم الشاميين واستقدامهم . سير القوات المتحدة لمحاربة البربر . هزيمة البربر في شذونة وقرطبة . سحق ثورتهم . مطالبة ابن قطن للشاميين بالجلاء . ثورة بلج بن بشر وادعاؤه ولاية الأندلس . مقتل ابن قطن وولاية بلج . ثورة أمية وقطن ابني عبد الملك . الخصومة بين الشاميين والعرب المحليين . لقاء الفريقين في ظاهر قرطبة . مصرع بلج وانتصار الشاميين . ولاية ثعلبة بن سلامة . ضعف حكومة قرطبة . خروج الزعماء في مختلف النواحي . استئناف الحرب بين الشاميين وخصومهم . هزيمة ثعلبة ثم فوزه . مقدم أبي الخطار الوالي الجديد . قبضه على زمام السلطة . تفرقته للشاميين . ضمه لولاية تدمير إلى الأندلس . مطاردته للزعماء الخوارج . سكون الفتنة . تعصب أبي الخطار لليمنية . الصميل بن حاتم زعيم المضرية . ثورة المضرية والجذامية . الحرب بين الفريقين . هزيمة أبي الخطار . ولاية ثوابة بن سلامة . ثورة أبي الخطار . زحفه على قرطبة . فشله وهزيمته . الخلاف بين اليمنية والمضرية . ولاية عبد الرحمن اللخمي لشئون الحكم . الاتفاق على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري .

كان لهذه الفتنة التي اضطرمت في إفريقية بين العرب والبربر . وما اقترن بها من الأحداث الخطيرة ، صداها في شئون الأندلس . وكانت الأندلس تتبع يومئذ إفريقية من الوجهة الإدارية ، فكان لاضطراب الحكم في إفريقية أثره في اضطراب الحكم في الأندلس ، كما كان لثورة البربر في المغرب . أثرها في تحريك البربر في الضفة الأخرى من البحر . وقد سبق أن بينا كيف كان البربر في شبه الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطاً على العرب . لما استأثروا به دونهم من مغانم السيادة والحكم . وكيف كانت عصبية القبيل تمزق وحدة العرب أنفسهم ، وكيف كانت عوامل التنافس والتنازع ، تضطرم باستمرار بين اليمنية والمضرية . وسنرى الآن كيف كان صدى هذه العوامل المختلفة قوياً بارزاً في حوادث الأندلس ، وفي اضطراب شئونها ، وتمزيق وحدتها . وكيف انحدرت الأندلس من جرائها ، إلى معترك خطر من الفتن ، والحروب الأهلية الطاحنة ، والفوضى .

تولى عبد الملك بن قطن الفهري إمارة الأندلس للمرة الثانية على أثر وفاة عقبة بن الحجاج سنة ١٢٢ أو ١٢٣ هـ ، وثورة البربر يومئذ على أشدها في المغرب

الأقصى . فلما هزم الجيش العربى فى مفاوز طنجة للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم ابن عياض والى إفريقية ومعظم قواده ، فر بَلْج بن بشر فى بقية من جند الشام إلى سبتة ، وامتنع بها حسبما أسلفنا ، فطاردهم البربر وشددوا الحصار عليهم حتى جهدوا وأشرفوا على الهلاك . واستغاث بلج وزملاؤه بعبد الملك بن قطن ورجوه أن يعاونهم على العبور إلى الأندلس . وكان عبد الملك مضرياً شهد موقعة الحَرَّة(١) قبل ذلك بستين عاماً ، وشهد ما ارتكبه جند يزيد فى المدينة من رائع السفك والإثم ، فكان يبغض الشاميين أشد البغض ، وكان فوق ذلك يخشى مطامعهم ومنافستهم ، فأبى إغاثتهم بادئ ذى بدء ، وعاقب بالجلد والقتل زعيما من بنى لخم ، أمدهم ببعض المؤن ، ولكنه من جهة أخرى خشى عاقبة تصرفه ، وأن يتهمه الخليفة بالعمل على إهلاك جنده . ولم يمض قليل حتى اضطرته الحوادث نفسها إلى استدعاء بَلْج وأصحابه . ذلك أن ثورة البربر كان لها فى الأندلس أكبر صدى . فتحرك البربر فى معظم الأقاليم الشمالية ، وعصفت بالأندلس ريح ثورة بربرية دينية سياسية ، كتلك التى عصفت بإفريقية ، وإن كانت دونها شدة ، واضطرمت الثورة بالأخص فى جليقية وماردة وقورية وطَلَبيرة . وحشد الثوار جموعهم واختاروا لهم إماماً ، واعتزموا الزحف على طليطلة وقرطبة ثم الجزيرة . ليمهدوا لبربر العدوة سبيل القدوم إلى اسبانيا . ومعاونتهم على سحق العرب . واستطاع البربر ، وهم فى عنفوان ثورتهم . أن يهزموا كل الحملات . التى وجهها ابن قطن لإخضاعهم . وهنا ارتاع ابن قطن ، وفكر فى الحال أن يستعين بجند الشام المحصورين فى سبتة ، وهم زهاء عشرة آلاف ، فكتب إلى بلج يدعوه إلى معاونته ، واشترط عليه للعبور إلى الأندلس . أن يغادرها متى صلحت حال جنده ، وانتهت الثورة . فقبل بَلْج وقدم الرهائن من أصحابه لتنفيذ هذا الميثاق . وعبر بَلْج وأصحابه إلى الأندلس (سنة ١٢٣ هـ) ، وقدمت إليهم المؤن والثياب . وانضموا إلى قوات ابن قطن بقيادة ولديه أمية وقطن . والتقت القوات المتحدة بالبربر أولا فى شَذُونة (مدينا سدونيا) فهزم البربر ، وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة . ثم وقع القتال فى ظاهر قرطبة مع جموع البربر الزاحفة عليها . فهزموا أيضاً بعد مقاومة

(١) هى ضاحية المدينة الشرقية وتعرف بحرة واقم . وكانت موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ ؛ وفيها هاجم جند يزيد بن معاوية المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، واستباحوها وقتلوا من أهلها جموعاً كبيرة ، ونهبوا الأموال ، وسبوا الذرية ، وهتكوا الأعراض ؛ وكانت من أشنع الوقائع .

شديدة ، ثم هزم البربر للمرة الثالثة ، فى وادى سليط على مقربة من طليطلة ، وكانوا قد بدأوا حصارها ، وبذلك سحقت الثورة ، ومزق البربر وطوردوا فى كل مكان ، وانتعش بلج وأصحابه وقويت نفوسهم واشتدت شوكتهم(١) .

وعندئذ طالب ابن قَطَن بتنفيذ الميثاق وجلاء الشاميين عن الأندلس متوجساً من بقائهم . ولكن بَلْجا كانت تحدوه أطماع أخرى ، فماطل فى الجلاء وسوّف ، ثم كشف القناع فجأة ، وادعى أنه أمير الأندلس الشرعى بعهد من عمه كلثوم ، وأيده فى ذلك ثعلبة بن سلامة وغيره من الزعماء . ثم نادى الشاميون بخلع ابن قطن وتولية بلج ، وانحازت إليه اليمانية ، ووثب بلج وأصحابه على ابن قطن وهو فى قلة من جنده ، فقبضوا عليه بقصره بقرطبة ، وكان شيخاً قد أشرف على التسعين فلم يرحموا شيخوخته بل قتلوه وصلبوه ومثلوا بجثته ، فتم الأمر بذلك لبلج بن بشر القشيرى ، وتولى إمارة الأندلس فى أوائل ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ (سبتمبر سنة ٧٤١ م) (٢) .

ولكن الفتنة لم تنته بعد . فإن أمية وقَطَن ابنى عبد الملك فرا إلى الشمال ، وحشدا جموعهما فى سرقسطة ، وآزرهما البلديون (العرب المحليون) والبربر ، وانضم إليهما جماعة من الزعماء ، الذين أنكروا فعلة بلج بعبد الملك ، مثل عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى كبير الجند ، وكان من أنصار بلج قبل الانقلاب ، وعبد الرحمن ابن علقمة اللخمى ، حاكم أربونة « فارس الأندلس فى عصره » ، وكان قوى البأس كثير الأتباع . وانقسمت الأندلس بذلك إلى معسكرين كبيرين ، معسكر الشاميين(٣) المتغلبين على الحكم ، ومعسكر العرب والبربر المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء غاصبين ، فعظمت الفتنة واشتد الاضطراب ، وسار أمية وقطن وأنصارهما إلى قرطبة لقتال الشاميين فى جيش قيل إنه بلغ نحو مائة ألف ، وتأهب بلج وأنصاره للدفاع فى نحو عشرين ألفاً ، والتقى الفريقان على مقربة من قرطبة فى شوال سنة ١٢٤ (أغسطس سنة ٧٤٢ م) ونشبت بينهما معارك

---

(١) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ و ٣١ ، وراجع أيضاً : Dozy : Hist. V. I. p. 163

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ .

(٣) ويعرف هؤلاء الجند الشاميون أيضاً « بالطالعة البلجية » نسبة إلى زعيمهم بلج (ابن الأبار فى الحلة السيراء — ليدن — (ص ٥١) .

شديدة . وأبدى الشاميون شجاعة وجلداً . ولكن عبد الرحمن اللخمى صمم على قتل بلج ، فحمل بجند أربونة على الشاميين ، وشق بينهم طريقاً إلى مكان بلج ، وأثخنه طعاناً توفى منها بعد أيام . ومع ذلك فقد انتصر الشاميون على البلديين انتصاراً باهراً فارتدوا منهزمين ، وعاد الشاميون ظافرين إلى قرطبة ، وقدموا عليهم ثعلبة بن سلامة العاملى ، وكان من أصحاب بلج الذين عبروا معه إلى الأندلس كما قدمنا . فتولى إمارة الأندلس ، وقيل فى إمارته ما قيل فى إمارة بلج ، من أنه وليها بعهد من الخليفة ، أو من كلثوم والى إفريقية يليها بعد بلج ، وكانت ولايته فى شوال سنة ١٢٤[١] . فقبض ثعلبة على زمام الأمور بحزم ، وحاول أن يضبط النظام والأمن ، وأبدى كثيراً من اللين والاعتدال ، ولكن سلطان الحكومة المركزية كان قد تضعضع ، وانقسمت الأندلس إلى مناطق عديدة للنفوذ ، ولبثت الغلبة فى الأقاليم الوسطى والشمالية ، لجماعة من الزعماء الخارجين على حكومة قرطبة ، مثل أمية وقطن ابنى عبد الملك ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وعبد الرحمن اللخمى حاكم أربونة ، واستمر يؤازر هذا الفريق سواد العرب المحليين والبربر . ولم تمض أشهر قلائل حتى اضطرمت الحرب مرة أخرى بين الفريقين المتنازعين ، ونشبت بينهما مواقع عديدة على مقربة من ماردة ، فهزم الشاميون أولا واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة ، ولكنه عاد فكر على خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر وسبى منهم جموعاً كبيرة ، وعاد ظافراً إلى قرطبة ، وقرر إعدام الأسرى ليلقى على خصومه درساً قاسياً . ولكنه قبل أن يتمكن من تنفيذ عزمه ، قدم إلى قرطبة حاكم جديد للأندلس ، هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى ، بعثه حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، إجابة لجماعة من زعماء الأندلس ، خشوا عواقب الفتنة ، وما قد تؤدى إليه من استظهار نصارى الشمال . وإغارتهم على الأراضى الإسلامية[٢] ، وقيل إن الذى اختار أبا الخطار لولاية الأندلس ، هو هشام بن عبد الملك[٣] ، اختاره قبيل وفاته بقليل ، إذ توفى فى ربيع الثانى سنة ١٢٥ . وقدم أبو الخطار إلى الأندلس

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢ و ٣٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢١ ؛ وأخبار مجموعة ص ٤٥ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٦ ؛ وكذلك Dozy: Hist , V. I. p. 168

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٠٠ ؛ وابن الأبار ص ٤٨ .

فى رجب ، ولم يكن مضى على ولاية ثعلبة سوى عشرة أشهر . فقبض فى الحال على زمام السلطة . وأفرج عن جموع الأسرى والسبايا . التى اعتزم أن يزهقها وينكل بها ثعلبة . واهتم برد السكينة والنظام . وإخماد شوكة الزعماء الخارجين . ففرق الشاميين فى مختلف الكور تمزيقاً لعصبتهم . وأنزل جند الشام بإلبيرة (غرناطة) ، وجند حمص بإشبيلية ولَبْلة . وجند فلسطين بشذونة والجزيرة . وجند الأردن برَيُّه . وجند قنسرين بجيان . وجند مصر بعضهم فى أكشُونبة وباجة والبعض فى تدمير . ونذكر أن ولاية تدمير (مرسية) كانت قد تركت عند الفتح لصاحبها تيودمير ، وفقاً للمعاهدة التى عقدت بينه وبين عبد العزيز بن موسى[١] . ولكن تيودمير كان قد توفى . وخلفه فى حكم الولاية ولده أتاناجلد . واعتبر أبو الخطار أن نص المعاهدة . كان قاصراً على تيودمير ، وأنه لا يسرى على خلفائه . وطالب أتاناجلد بتأدية الجزية لحكومة قرطبة . وأنزل جند مصر قسراً بقواعد تدمير . وأقطعهم أراضيها . وبذلك فقد القوط آخر معاقلهم الحرة فى الجنوب ، وضمت تدمير إلى باقى ولايات الأندلس . تحت سلطان الحكومة المركزية[٢] . وتتبع أبو الخطار الزعماء الخارجين . فقبض على ثعلبة ونفاه إلى إفريقية مع نفر من زملائه . وأعلن أمية وقَطَن ابنا عبد الملك الطاعة . وتفاهما مع أبى الخطار . فولاهما الحكم فى بعض الولايات الشمالية . أما عبد الرحمن بن حبيب فاستطاع أن يتقى المطاردة وفر إلى تونس . وهنالك أقام حيناً يرقب الحوادث ، حتى سنحت له فرصة الوثوب وانتزاع إمارة إفريقية من حنظلة ابن صفوان على ما سيجىء . وأما عبد الرحمن اللخمى فلبث مستقلا برباط الثغر فى أربونة وما جاورها .

وسلك أبو الخطار فى البداية سبيل الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل فى المعاملة ، فرضى الجميع واجتمعت الكلمة على تأييده وطاعته ، وسكنت الفتنة واستقر النظام حيناً . ولكن نزعة العصبية ما لبثت أن حملته كما حملت أسلافه من قبل ، فمال إلى قومه اليمانية ، وتنكر لخصومهم من المضرية ، واضطرمت الأحقاد

---

(١) أوردنا نص هذه المعاهدة فى ص ٥٥ و ٥٦ من هذا الكتاب . وراجع فى توزيع القبائل على الكور ، ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٦ . وكذلك : **Conde : ibid, V.I. p. 112**

(٢) **Conde:ibid, quot Isodorus, V.I. p. 112 (note)** وكذلك **Aschbach: ibid. V. I. p. 92**

والمنافسات القديمة . وحدث أن اعتدى أبو الخطار على زعيم من زعماء المضرية بالإهانة والضرب لأنه تدخل لحماية رجل من بنى قومه . وهذا الزعيم هو الصُمَيل ابن حاتم بن شمر الكلابى ، وجده شمر بن ذى الجوشن من أشراف الكوفة . وكان قد اشترك فى قتل الحسين بن على فى كربلاء . ثم نزح بأسرته إلى الشام خيفة الانتقام ، فلما ولى كلثوم بن عياض القشيرى حكم إفريقية . كان الصميل بين أشراف الشام الذين انتظموا فى جيش بلج القشيرى ، ثم جازوا معه إلى الأندلس[1] . وكان الصميل فارساً شجاعاً وزعيماً ذا نجدة . يلتف حوله المضرية وبعض اليمنية ، من خصوم أبى الخطار ومنافسيه مثل جذام ولخم . فلما اعتدى أبو الخطار عليه بعث إلى قومه فى مختلف الأنحاء . وأيدته المضرية وحلفاؤهم فى الخروج . وتفاهم مع باقى الزعماء الناقمين على أبى الخطار ، ومنهم ثوابة بن سلامة الجذامى زعيم جذام ، وكان يمنياً ولكنه كان يحقد على أبى الخطار . لأنه عزله عن ولاية إشبيلية . وتكفل ثوابة بمحاربة أبى الخطار ، وقدّمته المضرية ، وزحف بجموعه على قرطبة ، فلقيه أبو الخطار بقواته فى شذونة على ضفاف وادى لكه فى رجب سنة ١٢٧ ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهت بهزيمة أبى الخطار وأسره . ودخل ثوابة قرطبة وارتضته المضرية أميراً للأندلس مكان أبى الخطار . ووافق عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أمير إفريقية على هذا الاختيار . وكان قد استطاع فى تلك الفترة أن ينتزع ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان . ولكن أبا الخطار استطاع أن يفر من سجنه بمعونة نفر من أصدقائه . فذهب إلى باجة وحشد جموعه ، وقصد إلى قرطبة ، فلقيه الصميل فى المضرية وثوابة فى أنصاره من اليمنية . ووقعت بينهما معركة غير حاسمة . وعندئذ دعا بعض اليمنية من فريق ثوابة إلى وقف القتال ، ونعى على أنصار أبى الخطار أنهم يقاتلون ثوابة ، مع أنه يمنى منهم ، وقد عفا عن أبى الخطار وعف عن دمه حين كان فى قبضته . فأحدثت هذه الدعوة أثرها ، وانفض عن أبى الخطار جنده . واضطر أن يعود إلى باجة وهنالك لبث ينتظر مجرى الحوادث[2] .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى ثوابة فى أوائل سنة تسع وعشرين ومائة .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٩ ؛ والمقرى عن ابن حيان فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) المقرى ج ٢ ص ٦٠ و ٦١ ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٢٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ .

بعد أن حكم الأندلس زهاء عام ونصف . وهنا نشب الخلاف بين الزعماء والقبائل كرة أخرى ، وأصرت اليمنية على أن يكون الأمير منهم خلفاً لأميرهم المتوفى ، وأصر الصميل أن يكون الأمير من المضرية ، واشتد النزاع بين الفريقين ، ووقعت بينهما مصادمات ومعارك عديدة ، ولبثت الأندلس بضعة أشهر دون أمير رسمى ، وتولى الأحكام فيها عندئذ عبد الرحمن بن كثير اللخمى باتفاق الفريقين . ولما تفاقم الخلاف ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تولية يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى أحد زعماء المضرية ، فولى إمارة الأندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ (يناير ٧٤٧ م) دون مصادقة أو مراجعة من دمشق أو إفريقية . وكانت حكومة دمشق قد اضطربت يومئذ شئونها ، وأخذت نذر السوء تبدو فى الأفق ، وشغلت الخلافة الأموية بما يهددها من خطر داهم على سلطانها ، وضعف إشراف الحكومة المركزية على الولايات النائية ؛ فاستقلت إفريقية والأندلس كل بشئونها ، حتى يستبين المصير ، وتستقر الأمور .

الفصل التاسع

خاتمة عصر الولاة

أصل يوسف الفهرى . عبد الرحمن بن حبيب واستيلاؤه على إفريقية . استئثار يوسف بالسلطة . تحرك اليمنية . خروج أبى الخطار وابن حريث . التقاء المضرية واليمنية فى شقندة . هزيمة اليمنية ومقتل زعمائها . استقرار الأمر ليوسف والصميل . ولاية الصميل لسرقسطة . إصلاحات يوسف الإدارية والمالية . تقسيم اسبانيا الجديد . إصلاحه للجيش . إرساله جيشاً إلى الشمال . ثورة البشكنس والقوط . استيلاء الفرنج على المواقع الإسلامية فى سبتمانيا . اضطراب أمر الخلافة فى المشرق . سخط الزعماء على يوسف والصميل . عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس . محاولته الخروج ومصرعه . الثورة فى إشبيلية وسحقها . ثورة عروة بن الوليد فى باجة . استيلاؤه على إشبيلية . هزيمته ومصرعه . ثورة المضرية واليمنية بقيادة عامر العبدرى . فراره إلى الشمال وتحالفه مع الحباب الزهرى وتميم الفهرى . محاصرة الثوار للصميل فى سرقسطة . هزيمة الصميل واستيلاء الثوار على سرقسطة . إدعاء عامر لولاية الأندلس . ولاية الصميل لطليطلة . مسير يوسف إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . أسر زعماء الثورة ومصرعهم . اجتماع يوسف والصميل فى طليطلة . الإخطار بمقدم عبد الرحمن الأموى . مسيرهما إلى قرطبة . ببين ملك الفرنج وأنزيموند أمير القوط بحاصران أربونة . القتال بين ببين وأمير آكوتين . مصرع أنزيموند . خيانة النصارى فى أربونة . سقوطها فى يد الفرنج . انتهاء سيادة الإسلام فيما وراء البرنيه . نصارى الشمال . امتناعهم بهضاب جليقية . إغارتهم على الأراضى الإسلامية . نمو المملكة النصرانية .

ويجب أن نقف قليلا عند شخصية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى هذا ، الذى اختارته « الجماعة » والياً للأندلس ، واستقل بولايتها زهاء عشرة أعوام ، وكان آخر هذا الثبت من أمرائها ، وعلى يده انتقلت إلى عهد جديد ، ودولة جديدة . فمعظم الروايات على أنه ولد عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فاتح إفريقية . ويؤيد هذا القول من مؤرخى الأندلس ابن القوطية ، وابن حزم ، والرازى ، وابن الفرضى . ولكن ابن حيان يرتاب فى هذه النسبة ويقول لنا إنه لم يقف على ما يؤيد بنوة يوسف لعبد الرحمن بن حبيب ، أو صلته بهذا الفرع (1) . بيد أن اتفاق معظم مؤرخى الأندلس ، ولا سيما المتقدمين منهم

(1) نقل ابن الأبار فى الحلة السيراء أقوال ابن القوطية وابن حيان وابن حزم فى هذه النقطة – الحلة السيراء ص ٥٣ و ٥٤ – وراجع أقوال ابن الفرضى والرازى فى نفح الطيب ج ٢ =

على صحة هذه النسبة يجعلها فى نظرنا أقوى وأرجح . وإذن فيوسف بن عبد الرحمن خاتمة ولاة الأندلس هو ولد عبد الرحمن بن حبيب ، الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم خلال الحروب الأهلية ، التى اضطرمت منذ قدوم بلْج القشيرى إلى شبه الجزيرة . وقد أسلفنا أنه فر إلى تونس اتقاء لنقمة أبى الخطار ، وهنالك لبث يرقب الحوادث مدى حين ، فلما جاءت الأخبار إلى إفريقية بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦) ، رأى عبد الرحمن الفرصة سانحة للعمل ، فدعا أنصاره وحشد جموعه لقتال حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، وزحف على القيروان ، وخشى حنظلة عاقبة الفتنة ، فانسحب مع أصحابه إلى الشام دون قتال ، ودخل عبد الرحمن القيروان (سنة ١٢٧ هـ) وأعلن ولايته لإفريقية ، وأيدته المضرية ، وبعث إلى الثغور عمالا من أقاربه وأنصاره . ولم يختر يزيد بن الوليد ، الذى ولى الخلافة عقب مقتل أبيه ، والياً لإفريقية نزولا على حكم الواقع . فلما خلفه مروان بن محمد بعد ذلك بأشهر ، كاتبه عبد الرحمن وهاداه وأظهر له الطاعة فأقره على ولايته[1]. ولبث عبد الرحمن مستقلا بحكم إفريقية أكثر من عشرة أعوام ، وفى عهده وقعت بإفريقية ثورات وقلاقل كثيرة ، فأخمدها جميعاً وغزا صقلية وسردانية . ولما دالت دولة بنى أمية أعلن الطاعة لبنى العباس ، ودعا لهم بإفريقية . ولكنه لم يلبث أن قتل غيلة فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٨ (٧٥٥ م) . وأما ابنه يوسف فقد فر منه مغضباً لأمور نقمها عليه ، ودخل الأندلس يبحث وراء طالعه فى حوادثها ، وكان مثل أبيه فارساً هماماً وخطيباً مفوهاً[2]. فلم يلبث أن ظهر بين أنجاد المضرية وسادتهم ، ولازم الصميل وصادقه حتى عظم نفوذه ، وانتهى بأن ظفر بإمارة الأندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ ، وهو يومئذ فى السابعة والخمسين من عمره .

وكانت مصاير الخلافة الأموية تهتز يومئذ فى يد القدر ، وقد شغلت بما يواجهها من خطر الفناء الداهم عن حوادث الأندلس ، فلم تحاول تدخلا أو اعتراضاً على ما يحدث فى ذلك القطر النائى ، ولم يكن يوسف بحاجة إلى مصادقة أو مراجعة .

= ص ٦١ . ويقر ابن عذارى هذه النسبة أيضاً (البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧) وكذلك صاحب أخبار مجموعة (ص ٢١) .

(١) البلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٣ .

(٢) نفح الطيب (عن الرازى) ج ٢ ص ٦١ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٥ .

وكان المتفق عليه بين اليمنية والمضرية أن يتعاقبا فى الولاية فيمكث يوسف عاماً فقط ثم يُرد الأمر إلى اليمنية[1] . ولكن المضرية وعلى رأسهم الصميل مرجع الزعامة والأمر يومئذ، لم يفكروا بلاريب فى تمكين اليمنية من الرياسة بأى الصور ، وكذلك لا ريب فى أن يوسف بن عبد الرحمن لم يفكر بعد أن ظفر بالإمارة أن ينزل عنها طائعاً مختاراً ، بل بادر منذ البداية إلى استخلاص جميع السلطات لنفسه ، فنزع ولاية ريُّه من يحي بن حريث الجذامى أحد الزعماء اليمنية ، وكان ينافسه ويعارض إمارته ، فأقطع ريه ثمناً لموافقته . فلما نزعت منه ريه ثار قومه من اليمنية والتفوا حوله . وهنا أيضاً ظهر أبو الخطار الأمير المعزول على مسرح الحوادث ، وكان يقيم كما قدمنا فى باجة ، بغرب الأندلس . فلما علم بتولية يوسف وخروج ابن حريث ، تحرك للعمل ، وفاوضه ابن حريث ولكنهما لم يتفقا ، إذ أصر كل منهما على ترشيح نفسه للإمارة ، بيد أنهما اجتمعا على قتال يوسف ابن عبد الرحمن ، وحشد كل منهما جموعه من الفريق الذى يؤازره ، وزحفا على قرطبة . وحشد يوسف والصميل جموع المضرية ، وبالغ كل فريق فى الأهبة ، والتقيا أخيراً فى شقندة بالقرب من قرطبة (سنة ١٣٠ هـ — ٧٤٧ م) ونشبت بينهما موقعة هائلة تبالغ فى روعتها الرواية الأندلسية ، إذ تقول لنا : « إنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب ، حرب أصدق منها جلاداً ولا أصبر رجالا ، طال صبر بعضهم على بعض إلى أن فنى السلاح ، وتجاذبوا بالشعور ، وتلاطموا بالأيدى ، وكل بعضهم عن بعض »[2] . واستمر القتال حيناً سجالا بين الفريقين ، ثم داهمت المضرية ذات يوم جموع اليمنية على غرة ، فأوقعت بها ، وأسر أبو الخطار وابن حريث وكثير من أصحابهما ، وقتلوا جميعاً بأمر الصميل ، وجردت اليمنية من زعمائها ، واستقر الأمر ليوسف ، ولكنه كان يخشى الصميل ، لأنه كان بنفوذه وكثرة عصبته ، يقبض على ناصية الموقف ، فرأى أن يبعده عن قرطبة ، وأقطعه ولاية سرقسطة وأعمالها ، فسار الصميل إلى سرقسطة واستقل يوسف بالأمر .

ونشط يوسف إلى ضبط النظام ، وإصلاح الشئون فى ظروف صعبة . وكانت السلطة المركزية قد اضمحلت ، وهبت ريح الفتنة من كل صوب .

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٣ .

(٢) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦١ .

واستقل كثير من العمال بالنواحي ، وتحرك النصارى فى الولايات الشمالية ، وعصف القحط فوق ذلك بالأندلس سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ، واستطال زهاء عامين ، فأجدبت السهول والوديان ، وأمحلت الزراعة ، وفتك الجوع بالمدن والقرى ، وهبطت عندئذ على شواطئ الأندلس عصابات بحرية ناهبة كثيرة من أمم الشمال ، وعاثت فى الشواطىء والثغور والمدن القريبة[1]. ولكن يوسف أبدى فى مغالبة هذه الصعاب والمحن همة فائقة ، فطاف بالأقاليم وعزل الحكام العابثين ، وقمع المظالم والفوضى ما استطاع ، وأصلح الطرق الحربية ، لتكون ممهدة لحملاته حينما اضطر إلى الحرب ، وعدل نظام الضرائب فاقتضى ثلث الدخل من كل ولاية ، ولكنه أمر بمراجعة السجلات القديمة ، واستبعاد الأموات منها ، وكانت الضرائب ما تزال تجبى طبقاً للإحصاء القديم ، فكان فى ذلك إرهاق للسكان ، لأن عددهم تناقص منذ الفتح ، فقرر يوسف أن تجبى الضرائب عن الأحياء فقط ، وأسقطها عمن توفوا ، واكتسب بذلك عطف كثير من النصارى[2]. وأعاد يوسف أيضاً تنظيم الأقاليم الإدارى ، فقسم اسبانيا إلى خمس ولايات كما كانت أيام القوط ، وكما قسمت عند الفتح مع تعديل فى حدودها ، فأصبحت كما يأتى : ولاية الأندلس وهى ولاية « باطقة » Baetica القديمة ، وتقع بين نهر وادى يانة والبحر الأبيض المتوسط ، وأشهر قواعدها قرطبة ، وقرمونة ، وإستجة ، وإشبيلية ، وشَذُونة ، ولَبْلَة ، ومالقة ، وإلبيرة ، وجيّان . وولاية طليطلة ، وهى ولاية قرطاجنة القديمة ، وتمتد من جبال قرطبة فى شمال شرقى ولاية الأندلس حتى نهر دويره (الدورو) ، وجبال وادى الحجارة شمالا ، وأشهر قواعدها طُلَيطلة ، ومرسية ، ولورَقَة ، وأوريولة ، وشاطبة ، ودانية ، ولَقنت ، وبلنسية ، وشَقُوبية ، ووادى الحجارة ، وقُونْقَة . وولاية ماردة وهى ولاية لوجدانيا أو جلِّيقية القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر وادى يانة شرقاً حتى المحيط ، وأشهر قواعدها ماردة ، وباجة ، وأُشبُونة . وأسترقه ، وسمُّورة ، وشلمنقة . وولاية سَرَقُسطة ، وهى ولاية كانتبريا القديمة . وتمتد من منابع نهر التّاجُه شرقاً ، على ضفتى نهر إيبرو حتى

---

(١) إيزيدور الباجى . راجع : Aschbach : ibid,V.I.p. 102 ، وكذا البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨

(٢) Conde : ibid, V.I. p. 121 - Aschbach, quot. Isidorus, ibid.V.I. p. 101

جبال البرنيه وبلاد البشكنس، وأشهر قواعدها سرقسطة،وطرّكونة، وجيرندة، وبرشلونة ، وأرقلة ، ولاردة ، وطُرطُوشة ، ووشقة . ثم ولاية أربونة وهى ولاية الثغر، وتقع شمال شرقى جبال البرنيه حتى البحر، وتشمل مصب نهر الرون ، وأشهر قواعدها أربونة ، ونيمة ، وقَرْقَشونة ، وأجدة ، وبزييه ، وماجلونة[١].

وعنى يوسف بتنظيم الجيش وإصلاحه أشد عناية ، وحشد قوات جديدة ليستطيع قمع الثورة فى الداخل وحماية الحدود الشمالية ، وسير إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده محمد أبى الأسود ، وسليمان بن شهاب ، والحصين العقيلى . وكان النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلى ،وأغاروا على الأراضى الشمالية ، واستولوا على كثير من القلاع والحصون ، ووصلوا فى تقدمهم حتى ضفاف نهر دويره (الدورو) . وثار البشكنس والقوط فيما وراء البرنيه واستدعى أميرهم الكونت آنزيموند ، ملك الفرنج پيپن الملقب « بالقصير » لمحاربة المسلمين ، وكان آنزيموند هذا من نبلاء القوط ، فانتهز فرصة اضطراب الحوادث فى اسبانيا ، واستولى على قواعد سبتمانيا المسلمة ، وهى نيمة وأجدة وماجلونة وبزييه وما حولها ، وأنشأ منها مملكة صغيرة ، والتف حوله السكان النصارى ، واستطاع بمؤازرة الزعماء المحليين ، أن يقضى على سلطان المسلمين فى تلك الأنحاء . ولكنه رأى أنه لايستطيع الاحتفاظ بمملكته الصغيرة ، والعرب على مقربة منه فى أربونة أقوياء يخشى بأسهم ، وكذلك توجس شراً من جاره أمير أكوتين ، إذ كان يطمح إلى ضم هذه الأراضى إلى أملاكه ، فلم ير خيراً من الانضواء تحت لواء ملك الفرنج پيپن ، واستدعائه لمعاونته[٢] .

وكان پيپن قد خلف أباه كارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجى ، ولكنه لم يلبث أن قبض على مليكه شلدريك الثالث آخر الملوك الميروفنجية ، وزج به إلى ظلام الدير ، وانتزع العرش لنفسه (٧٥١ م) . فلما استدعاه آنزيموند ، استجاب لدعوته ، ورحب بتلك الفرصة ليتم ما بدأه أبوه من إجلاء المسلمين عن غاليس ، وغزا لانجدوك ، وهاجم المواقع الإسلامية مع حليفه آنزيموند ، وفتك بالمسلمين فى تلك الأنحاء (٧٥٣ م) . وقاومته الحاميات الإسلامية أشد مقاومة ، ولكنها لم تثبت طويلا لعزلتها ، وحرمانها من كل معاونة ومدد ، واستولى الفرنج على تلك

---

(١) سبق أن أشرنا إلى تقسيم اسبانيا الإدارى الذى أورده البكرى ، راجع الهامش فى ص ٧٠

(٢) Dom Vissette : ibid, V.I. p. 822

القواعد والمعاقل كلها خلا أربونة ، فإنها لبثت بيد المسلمين أعواماً أخرى . ولم يستطع الجيش الذى سيره يوسف إلى الشمال ، أن يحقق الغاية المنشودة ، بل رد بخسارة فادحة وقتل قائده سليمان بن شهاب ، ونجا الحصين العقيلي وفرسانه بصعوبة(١) . وترك الشمال لمصيره ، واستغرقت الثورات والحروب الداخلية اهتمام يوسف وكل نشاطه وموارده .

ذلك أن الأحقاد والمنافسات القديمة التى هدأت حيناً بتولية يوسف ، عادت فاضطرمت حين استأثر يوسف وحليفه الصميل بكل سلطة وولاية ، وكان المفهوم أن ولاية يوسف لإمارة الأندلس إنما هى حل موقت لحالة طارئة حتى يأتى الأمير الشرعى الذى يختاره الخليفة ، ولكن الخلافة الأموية لقيت مصرعها غير بعيد (١٣٢هـ — ٧٥٠م) ، وتفاقم الاضطراب الذى سرى إلى شئون إفريقية والأندلس قبل ذلك بأعوام ، وأصبح تراث الخلافة الأموية نهباً مباحاً لكل طامع ومتغلب . وكان بالأندلس عدة من الزعماء النابهين ذوى الجاه والعصبية ، ينقمون من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة ، ويرى كل منهم أنه أولى بها وأجدر ، وكان يوسف يعمل من جهة أخرى لتوطيد سلطانه فى ذلك القطر البعيد ، الذى رفعه القدر إلى ولايته ورياسته ، والذى يضارع بضخامته وأهميته ملكاً عظيماً . وكان أقوى أولئك الخصوم والزعماء المنافسين ليوسف ، عبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم ثغر أربونة الملقب «بفارس الأندلس» تنويهاً بفائق شجاعته(٢) . وكان قد اشترك فى الحرب الأهلية قبل ذلك بأعوام حسبما قدمنا . ثم ارتد بجنده إلى أربونة ، واستعصم بها يرقب الحوادث والفرص . فلما تولى يوسف إمارة الأندلس ، واضطربت شئون الشمال ، أخذ يدبر العدة لعبور البرنيه ومحاربة يوسف ، ولكن لم يلبث أن اغتاله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلى يوسف ، وتمت هذه الخيانة بوحى يوسف وتحريضه على الأرجح ، وانهارت تلك المحاولة فى مهدها(٣) . وخرج على يوسف فى إشبيلية يوسف بن عمرو بن يزيد الأزرق ، وكثر جمعه وقوى أمره ، فزحف إليه يوسف وقاتله حتى هزمه وقتله . وخرج عليه فى باجة عروة بن الوليد

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٨ . وكذا Aschbach: و Conde: ibid, V.I. p. 127 ibid,V.I. p.102 ويضع صاحب أخبار مجموعة تاريخ هذه الحملة بعد ذلك بنحو عامين ص ٧٦و٧٧ .

(٢) ابن القوطية ص ٤٣ .

(٣) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٩ .

المعروف بالذمّى لتحالفه مع أهل الذمة ، والتف حوله النصارى فضلا عن أنصاره من العرب والبربر ، وسار إلى إشبيلية فاستولى عليها ، واتسع نطاق الثورة فى تلك الأنحاء ، فوجه إليه يوسف جيشاً لقتاله فهزمه عروة ، فسار إليه يوسف بنفسه ، ووقعت بينهما معارك شديدة انتهت بهزيمة عروة وأسره ، ثم بقتله مع نفر من أصحابه . بيد أن ثورة أخطر وأوسع نطاقاً كانت تدبر عندئذ فى الشمال لخلع يوسف والصميل وسحق سلطانهما . وكان روح هذه الثورة ومدبرها زعيم مضرى شديد البأس والجاه ، هو عامر بن عمرو بن وهب العبدرى ، وكان عامر عريق الحسب والعصبية ، وافر الجاه والأتباع ، يتزعم مضر ويقودها خلال الحوادث ، وكان صديقاً ليوسف الفهرى قبل ظفره بالإمارة ، يتولى مثله قيادة الجيش ، فلما وُلّى يوسف نزعها منه ، وكان كباقى الزعماء ينقم من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة واستبدادهما بالشئون . فلما اضطرمت الأندلس بالفتن واتسع نطاق الثورة ، أخذ يدبر وسائل الخروج على يوسف ، وكان يبسط نفوذه على الجزيرة الخضراء ، ثم انتقل إلى قرطبة يرقب الحوادث ، وكاتب الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور ، وعرض عليه أن يدعو له بالأندلس ، وأن يحكمها باسمه ، إذا بعث إليه بمرسوم إمارتها . وكان يتودد فوق ذلك إلى اليمانية ، وينعى على يوسف والصميل إسرافهما فى سفك دمائهم يوم شَقُندة ، فالتفت حوله اليمنية والمضرية . ولم يكن يوسف يجهل حركاته وتدابيره ، فلما هم بمطاردته والقبض عليه ، فر إلى الشمال فى كثير من أتباعه . وكان ثمة زعيمان قرشيان آخران هما الحباب بن رواحة الزهرى من بنى كلاب ، وتميم بن معبد الفهرى ، قد رفعا لواء الثورة فى ولاية سرقسطة ، فتفاهم معهما عامر وتحالف ، واجتمع إليه جيش كبير من اليمنية والمضرية والبربر ، وزحف عامر والحباب الزهرى على سرقسطة ، حيث كان الصميل ، وضيقا عليه الحصار . فاستغاث الصميل بحليفه يوسف. ولكن يوسف لم يستطع أو لم يُرد إنجاده بغية القضاء على سلطانه[1]. فاضطر الصميل أن يلقى خصومه فى أنصاره وأتباعه القلائل . ونشبت بين الفريقين مدى أشهر معارك عديدة ، انتهت بهزيمة الصميل وانسحابه من سرقسطة فى فل أنصاره ، فدخلها عامر وحليفه ، واستوليا عليها (سنة ١٣٦ هـ — ٧٥٣ م) . وعمت الثورة كورة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ و ٤٣ .

سرقسطة وما إليها ، ودعا عامر لنفسه بولاية الأندلس ، بمرسوم زعم أنه تلقاه من أبي جعفر المنصور ، وخرج الشمال كله عن قبضة يوسف الفهرى .

أما الصميل فارتد إلى طليطلة التى أسند إليه يوسف ولايتها بدلا من سرقسطة ، وكان يوسف قد أنهكت قواه واستنفدت موارده تلك الحروب والثورات المتوالية ، فاضطر أن يلزم السكينة حيناً . وبسط عامر سلطانه زهاء عامين ، على كورة سرقسطة . وفى أواخر سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) سار يوسف إلى سرقسطة فى جيش كبير ، وحاصرها بشدة حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، ورأوا أن يتقوا مصائب الحصار ، بتسليم عامر وابنه وهب والحباب الزهرى إلى يوسف ، فحملهم يوسف معه فى الأصفاد ، وارتد صوب طليطلة ، ثم أمر بهم فقتلوا أثناء الطريق ، وتخلص يوسف بذلك من آخر الزعماء الخوارج عليه[1] . ولكنه لم يقدر أن خطراً آخر سيأتيه من خارج الجزيرة ، وينذر جميع مشاريعه وتدابيره بالانهيار . ذلك أنه ما كاد يجتمع بصديقه وحليفه الصميل فى ظاهر طليطلة ، حتى أقبل عليه رسول من قرطبة يحمل كتاباً من ولده عبد الرحمن ، خلاصته أن فتى من بنى أمية يدعى عبد الرحمن بن معاوية قد نزل بساحل الأندلس فى ثغر المُنكّب Almuñecar ، واجتمع إليه أشياع بنى أمية فى كورة إلبيرة (غرناطة) ، وانتشرت دعوته فى جنوب الأندلس بسرعة . وذاع الخبر فى جيش يوسف فأحدث فيه ذعراً واضطراباً ، وتفرق كثير من جنده . وقيل إن نبأ مقدم الأمير الأموى انتهى إلى يوسف أثناء سيره إلى الشمال ليقاتل نصارى جلّيقية ، بعد أن سحق الثوار فى سرقسطة[2] . وعلى أى حال فقد بادر يوسف والصميل فيمن بقى من الأشياع والجند بالسير إلى قرطبة ، ليدبرا الخطط لرد هذا الخطر الجديد ، وكان ذلك فى أواسط سنة ١٣٨ هـ (أواخر سنة ٧٥٥ م) .

وفى أثناء هذه الفتن والقلاقل المتواصلة ، استولى الفرنج كما قدمنا على جميع القواعد والأراضى الإسلامية فى سبتمانيا ولانجدوك ، وهى التى تكون ولاية الثغر أو رباط الثغر ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة . وكانت

---

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث ، ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٠ و ١٨٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤ ؛ وكذا فى Dozy:Hist : V.I.p.184 & 185 .

(٢) ابن القوطية ص ٢٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٤ .

أمنع قلاع المسلمين فيما وراء جبال البرنيه ، وقد استطاعت أن ترد غزوات الفرنج أيام كارل مارتل . فلما فقدت أربونة بطلها المدافع عنها أعنى عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس ، وسقطت أراضى الثغر كلها فى يد النصارى ، زحف پيپن ملك الفرنج ومعه حليفه الكونت آنزيموند القوطى أمير سبتمانيا على أربونة ، وطوقها بقوات كثيفة وضرب حولها الحصار الصارم (سنة ٧٥٥ م) . وكانت أربونة فى غاية المنعة والحصانة ، فاعتزم المسلمون الدفاع عنها لآخر نسمة ، واضطر پيپن خلال الحصار أيضاً ، أن يرتد عنها بقسم من جيشه لمحاربة أمير أكوتين حفيد الدوق أودو ، ورده عن الأراضى الفرنجية ، وترك آنزيموند لمتابعة الحصار . ولكن آنزيموند قتل أثناء ذلك غيلة تحت أسوار أربونة ، فعاد پيپن لاستئناف الحصار وهاجم المدينة المحصورة مراراً ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يقاوموا الفرنج ، وأن يردوا كل هجماتهم مدى أربعة أعوام ، رغم عزلتهم وانقطاع صلتهم بالأندلس ، وعدم تلقيهم أى مدد من أولى الأمر فى قرطبة ، لاشتغالهم بالحرب الأهلية . وكان اتصال المدينة بالبحر يسهل على المسلمين تلقى بعض المؤن ، وتحمل ويلات الحصار . فلما رأى پيپن أنه لا يستطيع أخذ المدينة بالحرب لجأ إلى الخديعة والخيانة ، وتفاهم مع أهلها القوط ، وقطع لهم عهوداً مؤكدة أنهم إذا عاونوه على أخذها ، فإنه يترك لهم حرية التمتع بقوانينهم ، ويمنحهم حقوقاً ومزايا كثيرة ، فعمل القوط على إضرام الثورة داخل المدينة ، ثم انقضوا ذات يوم على حراسها المسلمين وقتلوهم وفتحوا أبوابها ، فدخلها الفرنج وفتكوا بسكانها المسلمين إيما فتك ، وخربوا مساجدها ومعاهدها ودورها وذلك فى سنة ٧٥٩ م (١٤٢ هـ)[١]. وسقطت بذلك آخر المعاقل الإسلامية فى غاليس فى يد النصارى ، وانهارت سيادة الإسلام فيما وراء جبال البرنيه ، بعد أن استمرت هنالك زهاء نصف قرن ، وعادت قوى النصرانية ، فاحتشدت وراء تلك الآكام تتربص بالإسلام فى الأندلس ، بينما كانت قوى الإسلام داخل شبه الجزيرة يمزق بعضها بعضاً .

وحذا نصارى الشمال حذو الفرنج فى الاستفادة من تمزق الإسلام بالأندلس ، ونريد بنصارى الشمال تلك البقية الباقية من القوط الذين ارتدوا أمام الفتح الإسلامى

---

(١) Dom Vissette : ibid., V. I. p. 827

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الأول

عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن الحكم

١٣٨ – ٢٣٨ هـ : ٧٥٦ – ٨٥٢ م

الفصل الأول

مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

اضمحلال الدولة الأموية إبان فتوتها . عوامل هذا الاضمحلال . السياسة الأموية . ما أثارته وسائلها من السخط . إستغلال الشيعة لهذه العاطفة . إضطرام العصبية والخلافات القومية . خلاف العرب والبربر . خلاف العرب فيما بينهم . وهن دعائم الدولة الأموية . العوامل الخفية التى عملت على تقويضها . الخصومة بين بنى أمية وآل البيت . تقدم الدعوة الشيعية . ظهور الشيعة فى النواحى . أئمة الشيعة بعد الحسين . محمد بن على ولد العباس . أبو مسلم الخراسانى أعظم دعاة الشيعة . إضطرام الدعوة فى خراسان . إستنجاد أميرها نصر بن سيار بالخليفة . غزو أبى مسلم الخراسانى وفرار أميرها . استيلاء أبى مسلم على خراسان وفارس . وفاة إبراهيم الإمام والدعوة لأخيه عبد الله بن محمد . غزو الشيعة العراق . نزول أبى العباس عبد الله بن محمد بالكوفة . من هو السفاح . مسير مروان الثانى لقتال الشيعة . لقاء الأموية والشيعة على ضفاف الزاب . هزيمة مروان . فراره ومصرعه . ذهاب الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

كانت الدولة الأموية دولة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، فى ظلها امتدت الفتوح الإسلامية شرقاً إلى السند وغرباً إلى المحيط الأطلنطى وإسبانيا ، ووصلت الإمبراطورية الإسلامية إلى ذروة ضخامتها وقوتها ، متماسكة الأجزاء ، وثيقة العرى ، موحدة السلطان والإدارة . ولكن الدولة الأموية لم تنعم طويلا بطور فتوتها ومنعتها ووحدتها ، ولم تأت فاتحة القرن الثانى للهجرة حتى كانت هذه الدولة الشامخة التى لم تجز بعد طور الفتوة ، قد هرمت سراعاً وأدركها الانحلال والوهن ، وتصدع صرح وحدتها الباذخ . واختتم ثبت الخلفاء الأقوياء من بنى أمية ، بالوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان (٨٦–٩٩ ﻫ) ثم بأخيهما هشام . ومنذ عصر هشام بن عبد الملك ، نجد عوامل الانحلال والتفكك ، تعمل عملها فى هذا الصرح العظيم ، فلم يمض طويل حتى اضطرمت الأندلس بالفتن وخرجت من حظيرة الإمبراطورية ، ولم يبق للخلافة عليها سوى سلطة إسمية ، واستقل الزعماء المتغلبون بحكم إفريقية ، بعد أن خرجت أطرافها القصوى عن قبضة الخلافة ، واضطرب سلطان الخلافة فى الولايات الشرقية النائية مثل خراسان وفارس ، وأخذ ملك بنى أمية يهتز فوق بركان مضطرم من الدعوات الخصمية ، التى لبثت قبل

ذلك بنصف قرن تعمل فى الخفاء ، ثم لاح لها أن الفرصة قد آذنت بالانفجار .

ولهذا الانحلال الذى سرى إلى الدولة الأموية ، قبل أن تستكمل أطوار نموها وتوطدها ، أسباب خاصة ، ترجع إلى الظروف التى قامت فيها ، وإلى الآثار الدينية والمعنوية ، التى أثارتها السياسة الأموية فى الجزيرة العربية ، ثم إلى نتائج تلك المعركة الخالدة التى نشبت بين مختلف العناصر والقوى ، التى اشتركت فى بناء الإمبراطورية الإسلامية . فقد استطاع بنو أمية أن ينتزعوا الخلافة والملك ، خلال معركة اعتبرها فريق كبير من الأمة العربية ، خروجاً على آل البيت ذوى الحق الشرعى فى الخلافة ، وبوسائل لم تكن دائماً نزيهة ولا عادلة . وكان لما ارتكبه بنو أمية خلال هذه المعركة من الأحداث المثيرة ، أسوأ وقع فى نفوس الأمة العربية . فقد فتك بنو أمية بآل البيت وشيعتهم أشنع فتك ، وكان مقتل الحسين ابن على فى كربلاء (سنة ٦١ هـ)[١] ، ومقتل عدة من أبنائه وأخوته أشهر حوادث الفتك بآل البيت وأروعها . ومع أن مصرع الحسين وآله ، لم يكن سوى نتيجة للصراع السياسى الذى اضطرم بين آل البيت وبين بنى أمية منذ خلافة على ، فقد كان لهذا الحادث أعظم وقع فى العالم الإسلامى . ولم يمض عامان على تلك المأساة المؤلمة ، حتى أرسل يزيد بن معاوية (سنة ٦٣ هـ) جنده إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، لمعاقبة أهلها على خروجهم عن طاعة بنى أمية ، فاقتحم الجند الأمويون مدينة الرسول ، وعاثوا فيها واستباحوا الحرم المقدسة ، وارتكبوا أشنع صنوف الكبائر والإثم[٢] ، ثم ساروا بعد ذلك إلى مكة فحاصروها ، وضربوا البيت الحرام بالمنجنيق والنار . وكان لهذه الحوادث وأمثالها أثر عميق فى الأمة الإسلامية ، وألفى الشيعة صحب آل البيت ودعاتهم ، فى تلك الأحداث المثيرة ، غذاء للتشهير بالسياسة الأموية وأساليبها ، وأصيبت هيبة الخلافة الأموية من هذه الناحية ، بصدع لم تنهض من بعده ، وذكت عوامل السخط عليها .

---

(١) كان مقتل الحسين بن على فى كربلاء فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، وهو يوم « عاشوراء » الذى اتخذته الخلافة الفاطمية بمصر يوم حزن وأسى ؛ وكانت تقام فى ذلك اليوم بمدينة القاهرة طائفة من المراسم والاحتفالات المؤثرة . (راجع كتابى الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية — الطبعة الثانية — ص ٣٥٤) .

(٢) وتعرف هذه الموقعة الشهيرة بموقعة الحرة أو حرة واقم ، وهى ضاحية المدينة الشرقية ، وقد سبقت الإشارة إليها .

واستغل الشيعة هذه العاطفة لبثّ دعوتهم وتدعيم قضيتهم ، وحشد العناصر الناقمة فى صفوفهم . وكان اضطرام العصبية والخلافات القومية من جهة أخرى ، يعمل عمله لتمزيق روابط هذه الإمبراطورية الشاسعة . ففى إفريقية كانت ثورات البربر القومية ، تستنفد قوى الخلافة ومواردها بلا انقطاع ، وكان الخلاف بين العرب والبربر فى الأندلس ، يهدد مصير الإسلام والخلافة فى ذلك القطر النائى ، ويفت فى عضد الزعماء والقادة ، ويبعث الاضطراب والوهن إلى صفوف الغزاة . وكان العرب أنفسهم قدوة سيئة فى تفرق الرأى والكلمة . فكانت المعركة الخالدة بين مضر وحمير ، وبين مختلف القبائل والبطون ، تمزق أوصال الوحدة العربية ، وتقوض دعائم هذه العصبية القومية ، التى دفعت يوم اتحادها وتماسكها ، سيل الفتوح الإسلامية إلى أقاصى المشرق والمغرب .

كانت الخلافة الأموية تسيطر على دولة عظيمة مترامية الأطراف . ولكن سلطانها الحقيقى كان محدود المدى داخل هذه الإمبراطورية الشاسعة ، وكان فوق ذلك يقوم على دعائم مضطربة . وفى ذلك ما يفسر تلك الظاهرة التى يعرضها سقوط الدولة الأموية . فبينا هى تبدو فى أوج قوتها وفتوحها ، إذ بها تنهار فجأة ، وتبدو فى الحال مظاهر ضعفها وتفككها ، ويبدو ما كان يحيط بسلطانها الشاسع من عوامل مصطنعة ، وما كان يهدده من عوامل الهدم الخفية ، المعنوية والنفسية . وكانت هذه العوامل الخفية فى الواقع أخطر ما يهدد سلطان بنى أمية ، فإن تلك الأحقاد المرة التى أثارتها السياسة الأموية فى نفوس خصومها ، كانت تسرى وتجيش ، وتحيط ملك بنى أمية بسياج خطر من الحفيظة والبغض . وكانت هذه الخصومة الخطرة التى يغذيها ظمأ الانتقام ، هى عماد الدعوة الشيعية التى لبثت تشق طريقها منذ مقتل علىّ ، ثم مقتل بنيه من بعده . ثم تأثلت هذه الخصومة وتوطدت منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة . واستطاع الشيعة أن يظهروا فى النواحى ، ولاسيما فى العراق وخراسان ، وأن يدبروا عدة ثورات محلية خطرة . وقد أخمدت هذه الحركات الأولى فى سيل من الدماء . ولكن القمع كان يذكى النضال ، وإراقة الدم تذكى ظمأ الانتقام . ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة المادية ، فلم يك للشيعة جيوش منظمة أو موارد يعتد بها ، ولكن خطر المعركة كان يجثم فى نواحيها المعنوية . واشتد هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال فى

النواحى ، واتسع الأمر على الحكومة المركزية ، وانحل سلطانها فى الأنحاء النائية ، وأضحى عرضة للانتقاض والانهيار .

ولبث دعاة الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم ، ويضعون لها الأصول والقواعد ، ويحشدون لها الصحب والأنصار فى سائر النواحى ، وكانت كغيرها من الدعوات السرية الثورية ، تلقى فى الخفاء تأييداً كبيراً . وليس من موضوعنا أن نتحدث عن مبادئ الشيعة ورأيهم فى الإمامة ومساقها[1] . ويكفى أن نقول إن اختلاف الشيعة فيما بينهم ، على حق الإمامة ومساقها فى ولد على ، لم يحل دون إجماعهم على خصومة بنى أمية ، ولا دون استمرار الدعوة الشيعية وتقدمها . وكانت إمامة الشيعة قد انتقلت بعد مقتل الحسين إلى أخيه ، محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية[2]. فلما توفى سنة ٨١ هـ ، قام بها ولده أبو هاشم عبد الله بوصية منه . واستمر أبو هاشم أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان قائماً بأمر الشيعة ، يفدون عليه ويؤدون له الخراج . ثم توفى مسموماً سنة ٩٨ هـ بتحريض سليمان بن عبد الملك فيما يقال ، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه محمد ابن على بن عبدالله بن العباس كبير علماء الشيعة يومئذ . والعباس هو ابن عبدالمطلب عم النبى . وتقدمت الدعوة الشيعية على يد محمد بن على تقدماً كبيراً ، وظفرت فى ذلك الحين بأعظم دعاتها السياسيين ، ونعنى أبا مسلم الخراسانى . وقد كان أبو مسلم شخصية عظيمة ، وكان يتمتع بمقدرة ومواهب فائقة . ولكن الغموض يحيط مع ذلك بأصله ونشأته ، وتختلف الرواية فى أمره اختلافاً كبيراً ، حتى أنها لتختلف فيما إذا كان من الأحرار أو الموالى . فيقول البعض إنه حر ، يرجع إلى أصل فارسى رفيع المنبت ، وإنه ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة ، واسمه الحقيقى إبراهيم بن عثمان بن بشار . ويقول البعض إنه من الموالى ، وأصله من أصبهان ، واسمه إبراهيم . وقيل بل كان عبداً لبكير بن ماهان أحد عمال السند ، وإنه استصحبه إلى مكة فى زيارته لإبراهيم الإمام ، فأعجب إبراهيم بذكائه وفطنته واشتراه منه . وأما تسميته بأبى مسلم ، فيقال إنه سمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ،

---

(١) أ رد ابن خلدون فى مقدمته شرحاً حسناً لمبادئ الشيعة ومساق الإمامة عند مختلف فرقهم (المقدمة ص ١٦٤ — ١٦٨) . ويتناولها الشهرستانى فى « الملل والنحل » بشىء من التفصيل ؛ وكذلك عبد القاهر البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » .

(٢) وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط . ويعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت جعفر بن قيس المعروف بالحنفية .

واتخذ كنيته أبا مسلم ، وقيل إن إبراهيم الإمام هو الذى سماه بهذا الإسم . ولعل أرجح رواية فى شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فتى مغموراً ، ولد بمرو فى أسرة رقيقة الحال ، ونشأ بأصبهان ، واتصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة فى الكوفة ، فآنسوا فيه ذكاء خارقاً ، وحماسة تضطرم لآل البيت وقضيتهم ، وسار معهم إلى محمد بن على بن عبد الله بمكة ، فأعجب بذكائه وعزمه ، واختاره داعية للشيعة فى خراسان ، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه . ولما ظهر أبومسلم وقوى أمره ، وكثر أنصاره ، ادعى أنه من آل البيت من ولد سليط بن عبدالله بن عباس[1]. ولما توفى محمد بن على ، وخلفه فى الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه (سنة ١٢٦ هـ) استمر أبو مسلم فى مهمته ، يبث الدعوة ، ويحشد لها الأنصار . وكانت خراسان كما قدمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبعدها عن الحكومة المركزية ، وتعاقب الفتن فيها بين المضرية واليمنية . وكان أميرها من قبل بنى أمية نصر بن سيار فى مأزق صعب ، يستنجد عبثاً بحكومة دمشق ، ويشهد تفاقم الحوادث عاجزاً ، وحركة الشيعة تشتد ، وتجتاح خراسان بسرعة . ويروى أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ ، هذا الشعر الفياض بالنبوءة والنذير يستنجد به ، ويستحثه للدفاع عن عرشه وتراث أسرته :

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهم نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام
فقرى عن رحالك ثم قولى ... على الإسلام والعرب السلام[2]

وكان أبو مسلم رجل الموقف يدير الخطط بقوة وبراعة ، فلم يمض بعيد حتى ألفى الفرصة سانحة للعمل الحاسم ، فاعتزم أمره ووثب فى صحبه على نصر بن سيار

---

(١) راجع فى أصل أبى مسلم وسيرته ، ابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ — ٩٧ ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٤ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٠٠ و ١١٧ — ١٢٠ .

(٢) تروى هذه الأبيات بصورة أخر . راجع مروج الذهب للمسعودى (بولاق) ج ٢ ص ١٥٩

وقوات بنى أمية وهزمهم فى عدة معارك (سنة ١٢٩ — ١٣٠ هـ) ، واستولى على مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور ، وطرد منها عمال بنى أمية ، وفر نصر بن سيار إلى العراق . وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس ، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود ، ودعا لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على المعروف « بالسفاح » أخى إبراهيم الإمام وخلفه . وكان الخليفة الأموى مروان بن محمد ، قد هاله ما رأى من تغلغل الدعوة الشيعية فى النواحى ، فقبض على إبراهيم الإمام ، وهو يومئذ بإحدى قرى الشام ، وزجه إلى السجن حتى مات (سنة ١٣٢ هـ) ، وزعم أخوه عبد الله أبو العباس وأصحابه ، أنه أوصى إليه بالإمامة من بعده . فدعا له أبو مسلم فى خراسان وفارس حسبما تقدم . ثم سير أبو مسلم جيشاً إلى العراق فلقيه أميرها ابن هبيرة فى قواته ، ووقعت بين الفريقين على ضفاف الفرات معارك شديدة ، هزم فيها ابن هبيرة وفر إلى الشمال . واستولى الشيعة على العراق ، ودعوا لأبى العباس بالخلافة (ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ) ، ونزل أبو العباس عبد الله « السفاح » بالكوفة ، واستقر بها يرقب الحوادث .

وفى ذلك الحين كان مروان بن محمد أو مروان الثانى(١)، الذى ولى الخلافة سنة ١٢٧هـ ، يتأهب للدفاع عن ملك بنى أمية ، الذى تصدع صرحه سراعاً . فحشد جيشاً ضخماً ، وسار شرقاً حتى وصل إلى ضفاف نهر الزّاب ، وهو فرع من دجلة يتصل به فى الضفة الشرقية جنوب شرقى الموصل ، وسار للقائه قائد المسوّدة (الشيعة) فى الشمال ، أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدى ، وأمده أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه عبد الله بن على . وبلغت قوات الشيعة كلها زهاء عشرين ألفاً ، وبلغت القوات الأموية زهاء مائة وعشرين ألفاً . ولكن حماسة الشيعة كانت تغنى عن الكثرة ، وكان تعاقب الظفر يذكى عزائمهم ويضاعف قواهم ، وكان الجيش الأموى على ضخامته قد خبت عزائمه ، واختلت صفوفه وغاضت قواه المعنوية . والتقى الفريقان على ضفة الزاب اليسرى ونشبت بينهما معركة شديدة حاسمة ، انتهت بهزيمة الجيش الأموى وتمزيقه ، وذلك فى الحادى عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يناير ٧٥٠ م) ، وغرق فى النهر آلاف من جند الشام ، وعدة من زعمائه وقادته ، واستولى الشيعة على أسلابه ، وفر

(١) يعرف مروان بن محمد أيضاً بمروان الجعد ، وحمار الجزيرة ، أو مروان الحمار .

روان فى قل من صحبه إلى الشام ، فسار فى أثره عبد الله بن على ، وحاصر دمشق واقتحمها فى الخامس من رمضان من نفس العام . وفر مروان إلى فلسطين ثم إلى مصر . فبعث « السفاح » فى أثره جيشاً بقيادة عمه صالح بن على ، فلحق به فى مصر ، وظل يطارده من مكان إلى مكان ، حتى ظفر به فى قرية بوصير على مقربة من الجيزة . وهنالك مزقت البقية الباقية من أنصار بنى أمية ، وقتل مروان آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق ، وأرسل رأسه إلى «السفاح» وذلك فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ (٦ أغسطس سنة ٧٥٠ م) .

وهكذا انهارت دعائم الدولة الأموية بسرعة مدهشة ، وقامت على أنقاضها دولة بنى العباس . ولا ريب أن أكبر الفضل فى تحطيم ذلك الصرح الشامخ ، يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة ونعنى أبا مسلم الخراسانى . كان أبو مسلم إحدى هذه العبقريات الشاملة ، التى تتفتح فى معترك الإنقلابات الحاسمة ، وتقوم على سواعدها الدول العظيمة . وكانت دعوة الشيعة وإمامة آل البيت مبعث هذا الانقلاب وروحه . ولكن بنى العباس ما كادوا يتبوأون ذلك الملك الباذخ ، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة ، وألفوا فى أبى مسلم منافساً تخشى عواقبه ، وفى الدعوة الشيعية خطراً يجب القضاء عليه . فلم تمض أعوام قلائل حتى قتل أبو مسلم (شعبان سنة ١٣٧ هـ) ، قتله أبو جعفر المنصور أخو أبى العباس وخلفه . ثم تتبع زعماء الشيعة وولد على بن أبى طالب بالقبض والمطاردة ، حتى مزق شملهم وسحق دعوتهم . واستخلص بنو العباس تراث بنى أمية لأنفسهم . وقامت تلك الدولة العباسية الزاهرة ، تصل تاريخ الإسلام فى المشرق ، وتسير به إلى عصر جديد من العظمة والبهاء .

الفصل الثانى

بعث الدولة الأموية فى الأندلس

موقف الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . يوسف الفهرى حاكم بأمره . مطاردة بنى العباس لبنى أمية . المذبحة الرائعة . من هو السفاح . نجاة عبد الرحمن بن معاوية . فراره وظروفه المؤثرة . تجوله فى برقة وإفريقية . نجاته من قبضة عبد الرحمن بن حبيب . التجاؤه إلى المغرب الأقصى . إرساله لبدر مولاه إلى الأندلس . مفاوضة بدر للزعماء . سعى أبى عثمان وعبد الله بن خالد لتأييد عبد الرحمن . موقف الصميل بن حاتم . عبور عبد الرحمن إلى الأندلس . توجس يوسف الفهرى واختلال جيشه . تقدم الدعوة الأموية . الزعماء المؤيدون لعبد الرحمن . عود يوسف والصميل إلى قرطبة . عرض يوسف على عبد الرحمن وكتابه إليه . رفض عبد الرحمن لهذا العرض . مبايعة ريه وشذونة وإشبيلية لعبد الرحمن . زحفه على قرطبة . خروج يوسف والصميل لملاقاته . لقاء الفريقين فى موقعة المسارة . هزيمة يوسف والصميل . دخول عبد الرحمن قرطبة ومبايعته بالإمارة . الموقف بعد المسارة . مهمة عبد الرحمن الفادحة . معركة الدولة والإمارات المستقلة . الأخطار التى تحيق بالأندلس . الكفاح المستمر .

بينما كانت حوادث هذا الانقلاب الحاسم فى مصاير الإسلام تجرى فى المشرق ، كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب عظيم آخر فى مصاير الإسلام فى ذلك القطر النائى . وكانت الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة التى فصلنا أخبارها ، تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه ، وتعصف تباعاً بمنعة الإسلام فى الغرب ، وتشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية ، والتوغل فى الأراضى الإسلامية . وكان من عناية القدر أن تولى أمر الأندلس فى ذلك المأزق العصيب ، رجل قوى حازم هو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . ولكن ولاية يوسف لم تكن حلاً نهائياً للأزمة ، لأنه تولى دون مصادقة شرعية من السلطة العليا ، ولأن منافسيه من الزعماء والخوارج لم يقروا بولايته ، ولم يخلدوا إلى السكينة ، وأخيراً لأن السلطة العليا التى يرجع إليها أمر الأندلس ، ونعنى خلافة دمشق قد انهارت غير بعيد ، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان . والحقيقة أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى كان حاكماً بأمره فى الأندلس . وكانت الأندلس فى ذلك الحين إمارة أو دولة مستقلة ، يتوقف مصيرها ومصير السلطات فيها على سير الظروف والحوادث . وكان للانقلاب الذى وقع فى المشرق صداه

فى الأندلس ، إذ قام بعض الخوارج على يوسف يدعو لبنى العباس ، طمعاً فى الرياسة على نحو ما بينا ، ولكنه كان صدى ضعيفاً لم يحدث أثره ، واستمر يوسف ثابتاً فى مركزه ، يناهض الخارجين عليه بقوة وعزم . ولاريب أنه كان يحرص على ذلك السلطان الذى ألقى إليه به القدر ، بل لعله كان يعمل لغاية أتم وأبعد ، هى أن يؤسس بالأندلس مملكة مستقلة قوية ، يتبوأ عرشها ، وأسرة ملوكية جديدة من بنيه وعقبه ، يلقى إليها بهذا التراث الباذخ :

على أن حوادث المشرق كانت تتمخض عن عوامل ومفاجآت أخرى. ذلك أن بنى العباس بعد أن ظفروا بملك بنى أمية ومزقوا شمل أسرتهم ، أخذوا فى تتبع من بقى من أمرائهم وزعمائهم ، حتى لا تقوم لفلهم قائمة بعد . وعهد أبو العباس عبد الله « السفاح » ، إلى عمه عبد الله بن على وهو بالشام ، تنظيم هذه المطاردة الدموية[1]. فتتبع وجوه بنى أمية ومواليهم فى كل مكان ، وأمعن فى مطاردتهم وسفك دمائهم ، وقتل منهم جماعه كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم يبق حتى على النساء والأطفال ، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء ، زعم أن أبا العباس قد ندم على ما فرط منه فى حقهم ، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه ، فخدع كثيرون منهم بهذا الوعد ، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلا أخر . وكانت مأساة هائلة ارتكبت خلالها ضروب مروعة من القسوة ، ومثل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل ، وألقيت جثثهم للكلاب ، واستخرجت رفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبددت ، ولم تترك جريمة مثيرة ، أو لون من العقاب أو المهانة ، إلا كان فلّ بنى أمية لها فرائس وضحايا[2] .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل ، من هو « السفاح » ؟ أهو أبو العباس عبد الله ابن محمد أول خلفاء بنى العباس ؟ أم هو هو عمه عبدالله بن على ؟ هذا ما تختلف

---

(١) وقد أشار أحد الشعراء من دعاة بنى العباس وهو سديف بن ميمون إلى هذه المطاردة فى شعر أنشده بين يدى أبى العباس وفيه يقول :

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

(٢) راجع طرفاً من فظائع هذه المطاردة فى ابن خلدون ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ ؛ وابن الأثير ج ١ ص ١٦١ .

الرواية الإسلامية فى شأنه . ويتفق معظم المؤرخين المسلمين ، مثل الطبرى ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون[1] على أن « السفاح » إنما هو لقب أبى العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين . ويذكر لنا الطبرى وابن الأثير كيف أن أبا العباس ، هو الذى أطلق على نفسه هذا اللقب حينما ألقى خطابه الأول بمسجد الكوفة على أثر مبايعته بالخلافة ، إذ قال للناس فى ختام خطابه : «فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح »[2]. ولكن هناك روايات أخرى ومنها رواية قديمة هى رواية صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » تذكر لنا أن لقب «السفاح» لم يطلق على أبى العباس ولكنه أطلق على عمه عبد الله بن على[3]. ولهذه الرواية ظاهر من الوجاهة فيما ارتكبه عبد الله بن على من الفتك الذريع ببنى أمية ، وتتبعهم بالقتل فى سائر الأنحاء دون هوادة . ولكن من الذى يحمل فى الواقع تبعة هذه المطاردة الدموية المروعة ؟ إن الذى أوصى بمطاردة بنى أمية والفتك بهم هو أبو العباس ذاته ، وهو أول من اجتنى ثمار الجريمة ، وتلقى تراث القتلى ، ولم يكن عمه عبد الله بن على سوى منفذ لإرادته وأمره ، وعلى ذلك فهو أحق بأن يحمل ذلك اللقب الذى يتفق مع تبعاته ونتائج سياسته ، وهو لقب يخصه به جمهرة من الثقاة المؤرخين .

ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة ، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ فى أرض أخرى . وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وأخوته ، فى قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ؛ وفيها كان مولده قبل ذلك بنحو عشرين عاماً فى سنة ١١٣ من الهجرة (٧٣١ م) ؛ وقيل بل كان مولده بالعليا من أعمال تدمير . وتوفى أبوه معاوية شاباً فى أيام أبيه هشام بن

---

(١) راجع الطبرى ج ٩ ص ١٢٣ ؛ وابن خلكان فى الوفيات ج ١ ص ٣٥٤ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٥ و ١٥٥ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٢٨ و ١٣١ و ١٧٣ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٥٥ .

(٣) راجع « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » ص ٤٨ ؛ وراجع أيضاً كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٤٨ .

عبد الملك فى سنة ١١٨ هـ ، فكفله وأخوته جدهم هشام[1]. ولما انهار صرح الخلافة الأموية ، وأمعن الظافر فى مطاردة بنى أمية ، فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، وحل هناك ببعض القرى واختفى بها حيناً يدبر أمره ، ولكن جند المسوّدة ما لبثت أن حلت بتلك الجهة تستقصى آثار بنى أمية ، فبادر عبد الرحمن بالفرار . وتنقل إلينا الرواية على لسانه قصة مؤثرة عن حوادث فراره ، وتصف لنا كيف أدركته خيل المطاردين على ضفة النهر مع أخيه الصبى ، فوثبا إلى النهر واستطاع عبد الرحمن أن يقطعه سباحة إلى الضفة الأخرى ، ولكن الغلام عجز عن قطعه وعاد إلى الضفة الأولى ، حيث وعده المطاردون بالأمان ، ولكنه ما كاد يقع فى أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عينى أخيه ، وقلبه يتفطر روعة وأسى[2] . ولما أن أمن عبد الرحمن خطر مطارديه ، سار مختفياً إلى الجنوب ، قاصداً إلى المغرب . وتقول لنا الرواية أيضاً ، إن المغرب كان مقصده منذ الساعة الأولى ، وإن نفسه كانت تحدثه بما سيكون له فى الأندلس من شأن ، وإن بنى أمية كانوا قبل مصرعهم ، يهجسون بمثل هذه النبوءة ويرددونها[3] .

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر ، ولحق به مولياه بدر وسالم ، أنفذتهما إليه أخته أم الأصبغ بشىء من المال والجوهر ، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بنى نفزة ، وهم من برابرة طرابلس ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم طويلا يرقب الفرص . والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذلك الذهن الجرىء المغامر ، وقد كانت إفريقية فى الواقع منذ ربع قرن مطمح الخوارج والمتغلبين . وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى قد انتزعها لنفسه فى سنة ١٢٧ هـ ، ولما دالت دولة بنى أمية دعا لبنى العباس كما قدمنا ، ولكن الفتى الأموى لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل فى هذا السبيل . وكان عبد الرحمن ابن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بنى أمية فى إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، واعتقل آخرين وصادر أموالهم.

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) أورد هذه الرواية صاحب أخبار مجموعة (ص ٥١ – ٥٣) . وكذلك أوردها ابن حيان مؤرخ الأندلس ونقلها المقرى (نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥١ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢١ .

ولما شعر بظهورعبد الرحمن الأموىحاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصى ، وتجول حيناً فى تلك الأنحاء ، ولقى كثيراً من الصعاب والخطوب ، وكان يرى الموت والأسر ينذرانه فى كل خطوة . وأقام حيناً مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس ، كانت له فيما بعد لديه حظوة ، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطىء البحر ، ولحق حيناً بمليلة وغيرها ، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها ، ويرقب فرص العبور إليها .

وفى أواخر سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) لاحت له فرصة العمل ، وقوى أمله ما علمه من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمنية ؛ فبعث بدراً مولاه إلى الأندلس ليسبر غور شئونها ، وليحاول بث دعوته بين أنصار بنى أمية وأهل الشام ، فنزل بدر بساحل إلبيرة (كورة غرناطة) وكانت منزل جند الشام كما أسلفنا ، وفيها تجتمع عصبة بنى أمية . وكانت رياسة الأمويين (أو المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله ابن خالد . فاجتمع بدر بأبى عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن ، وناشده العمل لنصرته ، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته ، ولاسيما بين اليمنية ، وهم خصوم يوسف الفهرى ومنافسوه[1] . فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة ، وكانت بينه وبين الصميل مودة وصداقة ، ففكر فى التماس عونه فى ذلك المشروع ، وسار إليه مع عبد الله بن خالد فى طليطلة ، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزماً عن سرقسطة وفى نفسه مرارة من يوسف لأنه قصر فى غوثه وإنجاده ، ففاوضاه فى أمر عبد الرحمن وطلبا منه العون والتأييد . ولكن الصميل أبدى تردداً وفتوراً ، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف ، وأن ينزل آمناً فى ظله ، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة[2]. وكان الصميل يحرص فى الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف ،

---

(١) يروى لنا ابن حيان قصة اتصال بدر باليمانيين على النحو الآتى : قال لهم ، ما رأيكم فى رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم ، فيقيم أودكم ، ويدرككم آمالكم ؛ فقالوا : ومن لنا به فى هذه الديار . فقال بدر : ما أدناه منكم ، وأنا الكفيل لكم به . ثم ذكر لهم خبر عبد الرحمن ومكان وجوده ، وأنه يقدم نفسه إليهم ، فقالوا : فجئ به أهلا ، إنا سراع إلى طاعته ، وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه (راجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٤ ؛ وابن القوطية ص ٢٣ .

لأنه مستأثر فى ظله بالنفوذ والسلطان ، ويشاركه فى تدبير الأمر وحكم الأندلس . فعاد أبو عثمان وزميله إلى إلبيرة ونشطا إلى بث الدعوة فيها ، وحث اليمنية على القيام للأخذ بالثأر ، وبثا عمالهما فى أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبد الرحمن الأموى . وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة جهزها أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية ، وأفضى إليه بنتائج رحلته ، فاستبشر عبد الرحمن ، وعبر البحر معهم إلى الأندلس ، ونزل بساحل إلبيرة فى ثغر المُنكّب Almuñecar[١] ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه فى طُرُّش Torrox ، وهى قرية تقع غربى المنكب على مقربة من البحر ، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خططه[٢] .

وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أثناء ذلك فى الشمال يعسكر بجيشه تحت أسوار سرقسطة ، وقد استعصم بها عامر العبدرى والحباب الزهرى . فلما تم له الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما على نحو ما فصلنا ، ارتد بجيشه صوب طليطلة . وبينا هو فى الطريق على مقربة منها ، إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة ولده عبد الرحمن بن يوسف ، الذى استخلفه على قرطبة ، ومعه كتاب ينبئه فيه بمقدم عبد الرحمن الأموى ، وانتشار دعوته فى فى جنوب الأندلس ، فذعر يوسف ، وذاع النبأ فى الجيش ، فسرى إليه الخلل ، وتسللت العناصر الناقمة ، ولم يبق منه سوى فلول يسيرة . فهرول يوسف فى بقية جنده إلى طليطلة ، ليبحث مع الصميل فى خير الوسائل لرد هذا الخطر . وكانت الدعوة الأموية فى ذلك الحين قد اجتاحت جنوبى الأندلس ، والتف حول عبد الرحمن عدة من زعماء القبائل والجند ، منهم تمام بن علقمة اللخمى[٣] ، وقد أخذ له بيعة جند فلسطين ، ويوسف بن بخت وقد أخذ له بيعة جند الأردن ، وجدار بن عمرو المذحجى من زعماء ريُّه ، وحسان بن مالك الكلبى من زعماء

(١) وما تزال المنكب كما كانت ثغراً من ثغور الأندلس الجنوبية . وهى مدينة كبيرة بيضاء تقع على خليجين متجاورين كقوسين فى البحر ، وتحميها الجبال من الخلف . وربما كان موقعها الحصين من البر والبحر ، هو الذى حدا بعبد الرحمن إلى اختيارها للنزول فى شاطىء الأندلس . فضلا عن قربها لمركز دعوته .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٦ .

(٣) لعله أخ لعبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى أربونة ، المعروف بفارس الأندلس الذى فصلنا أخباره فيما تقدم .

إشبيلية ، وحشد أبو عثمان وعبد الله بن خالد حوله جموعاً كبيرة من الأموية وأهل الشام . وعاد يوسف والصميل إلى قرطبة ليدبرا الأمر معاً ، وأشار الصميل على يوسف بمصانعة عبد الرحمن وملاطفته وإغرائه بمصاهرته ، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرُّش وفداً يعرض عليه أن يزوجه ابنته ، ويقطعه كورة إلبيرة (غرناطه) أو كورة ريه أو يقطعه ما بينهما ، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال ، وكتاباً طويلا يرغبه فيه بمحالفته . وينقل إلينا منه صاحب البيان المغرب هذه الفقرة : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الأيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمضوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط . فإن كنت تريد المال وسعة الجناب . فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته بى ، ألا أغدرك ولا أمكن منك ابن عمى صاحب إفريقية ولا غيره ... » . ولكن عبد الرحمن لم يخدع بوعود يوسف وعهده ، فأبى عرضه ورد رسله ، وكان يسمو بأطماعه إلى أبعد من ذلك وأرفع ، وكان سلطان الأندلس كلها مطمح آماله[1]. وكان قد آنس عندئذ ذيوع دعوته وقوة أنصاره ، فسار فى صحبه من طرّش إلى ريُّه ، فبايعه عاملها عيسى بن مساور ، ثم إلى شذونة فبايعه عاملها علقمة بن غيات اللخمى ، ثم إلى إشبيليه ، فبايعه كبيرها أبو الصباح بن يحيى اليحصبى زعيم اليمنية ، وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الأنصار والجند ، واجتمع له فى إشبيلية زهاء ثلاثة آلاف فارس ، وذاعت دعوته فى غربى الأندلس كله ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب ، من المضرية واليمنية وأهل الشام . ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار فى قواته صوب قرطبة ، وكان ذلك فى فاتحة ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (أوائل سنة ٧٥٦ م) .

وفى ذلك الحين كان يوسف والصميل قد حشدا جموعهما ، ومعظمها من الفهرية والقيسية ، وكان جند يوسف قد وهن ، وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية ، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموى فزادته تفرقاً وضعفاً ؛

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٩ و ٨٠ .

وخرج يوسف بقواته إلى المسارّة فى ظاهر قرطبة من الغرب ، على ضفة نهر الوادى الكبير ، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية ، فى قرية مقابلة تسمى « بلّة نوبة » (ڤليا نويڤا Villanueva)[1] . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة ، وفى اليوم الرابع وهو يوم الخميس تاسع ذى الحجة ، هبط ماء النهر وانحسر فى بعض المواضع ، فتأهب الفريقان للحرب ، ولم تنجح محاولة يوسف فى سبيل عقد الصلح ، وصمم عبد الرحمن على القتال فى اليوم التالى أعنى يوم الجمعة ، وكان يوم الأضحى ، متيمنا فى ذلك بذكرى موقعة مرج راهط الشهيرة ، التى انتصر فيها جده مروان بن الحكم ، على قوات عبد الله ابن الزبير ، التى يقودها الضحاك بن قيس الفهرى ، وذلك فى يوم الأضحى — وقد كان الجمعة أيضاً — سنة ٦٤ﻫ . وفى اليوم التالى دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام النهر ، وكان أول من اقتحمه منهم جند بنى أمية ، وكان يوسف يتفوق على خصومه بكثرة فرسانه ، ولكن التفرق كان يسود جنده ، وكانت جموع عبد الرحمن تضطرم على قلتها عزماً وحماسة ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة ، فلم يأت الضحى حتى مزقت خيل يوسف ، وهزم جيشه هزيمة شديدة ، ونهبت أسلابه ، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية[2]. وفر يوسف صوب طليطلة ، حيث كان ولده عبد الرحمن ، وفر الصميل صوب جيان . ودخل عبد الرحمن الأموى وصحبه قرطبة دون معارضة ، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة ، وحمى أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من العيث ، وصلى الجمعة فى الجامع ، ثم نزل بالقصر ، وبويع فى الحال بالإمارة ، وذلك فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ ﻫ (١٣ مايو سنة ٧٥٦ م)[3].

كان يوم المسارّة بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته ، فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتتح عاصمتها ، وأن ينتزع إمارتها لنفسه ، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد . وكان ثمة بينه وبين مُلْك

(١) ابن القوطية ص ٢٦ .

(٢) ويبالغ البعض فى تقدير عدد القتلى فيقدره بسبعين ألفاً (ابن القوطية ص ٢٧) .

(٣) يفرد صاحب أخبار مجموعة فصلا مسهباً لهذه الموقعة ، وكيفية تقسيم الجيشين المتحاربين وأسماء القادة فى كل منها (ص ٨٦ — ٩٠) . وراجع أيضاً ابن القوطية ص ٢٦ — ٢٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ و ٤٩ .

الأندلس الحقيقى مراحل بعيدة ، وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة الأموية ، كما رأينا ، نهباً مشاعاً يتنازعه الزعماء والمتغلبون ، وكانت الفتن المتوالية قد عصفت بالسلطة العليا ، واقتصت من أطرافها ، واستقل الزعماء الأقوياء بكثير من النواحى ، وقضى يوسف الفهرى معظم ولايته فى إخماد الفتنة ، واستخلاص الرياسة ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج. فلما ظهر الفتى الأموى فى الميدان ، كان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه الواهنة ، وكان توطيده يتطلب كثيراً من العزم والعمل القوى .

وكان يوم المسارّة حاسما فى مصاير الأندلس ، وكان فاتحة عهد جديد فى تاريخها . ولكن المهمة كانت فادحة ، والمعركة شاقة مشعبة النواحى. وكما أن يوم المسارة كان فاتحة الظفر ، فقد كان فاتحة الكفاح أيضاً . ذلك أن الأندلس كانت يومئذ بسيطاً من الفتن المتأججة ، وكانت الثورة تجثم فى كل ناحية ، وانحلت عرى العصبية القديمة الشاملة ، وانتثرت فرقاً وشيعاً صغيرة ، فلم تبق الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية فقط ، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة . وكانت هذه القوى المنتثرة المستقلة برأيها وهواها ، تتمسك باستقلالها المحلى ، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة . وكان عبد الرحمن يرمى إلى إحياء دولة الإسلام فى الأندلس موحدة متماسكة ، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية ، فكانت المعركة فى الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة ، ومعركة السلطة المركزية والإقطاع المحلى : معركة الرياسة الشاملة ، والعصبية المتناثرة . وكان البربر عنصراً قوياً فى الفتنة ، يحتفظون دائماً ببغضهم القديم للعرب ، ويحرصون على ما انتزعوه منهم خلال الفتنة من النواحى والضياع . ثم كان هنالك ما هو أشد خطراً على دولة الإسلام فى الأندلس ، ونعنى اسبانيا النصرانية التى استطاعت أن تخرج سراعاً من غمر الهزيمة والفوضى ، وأن تنتظم إلى مملكة جديدة فى الشمال ، وكذلك مملكة الفرنج القوية التى استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضى الإسلامية فيما وراء البرنيه. وكان نصارى الشمال والفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس ، ويرون فى تفرقها وضعفها فرصة صالحة للعمل ، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج ، ويمدونهم بالنصح والعون ، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم فى تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها .

كان عبد الرحمن غداة ظفره الأول ، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها ، وكان عليه أن يقارعها جميعاً ، لكي يغنم رياسة الأندلس القوية المتحدة . ولكنّ ذلك الأمير الفتى الذى لم يكن يجاوز السادسة والعشرين يوم ظفره ، كان رجل الموقف ، قد شحذت من عزمه الخطوب والمحن ، وأعدته لحياة النضال والمغامرة . فقضى بقية عمره — اثنين وثلاثين عاماً — فى كفاح مستمر ، لاينتهى من معركة إلا ليخوض أخرى ، ولايقمع ثورة إلا تليها ثورة ، ولا يسحق خارجاً إلا ليعقبه خارج ، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه ، ولا قبيلة إلا نازعته فى الرياسة ، ولم تبق قوة خفية أو ظاهرة إلا عملت لسحقه . فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة . ولكنه صمد لتلك الخطوب كلها ، واستطاع بكثير من الذكاء والإقدام والعزم والجلد ، أن يغالب تلك الأخطار والقوى ، وأن يقبض على مصاير الأندلس بيده القوية ، وأن يحيي سلطان أسرته المندثر ، فى ذلك القطر النائى ، ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين . وكان تفرق خصومه أهم عامل فى ظفره ، فلم تك ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصميل ، يجتمع الخصوم حولها ، وكانت القوى الخصيمة منتثرة فى النواحي والمدن ، تعمل كل بمفردها حول زعيمها المحلى ، وكانت فوق ذلك يعارض بعضها بعضاً فى معظم الأحيان ، وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله ، فعمد إلى لقاء معارضيه فى الميدان فرادى ، واستطاع أن يخمد ثوراتهم ، وأن يحطم قواهم بالتعاقب ، وهو فى كل مرة يزداد قوة ومنعة ، ويزداد خصومه ضعفاً وتفرقاً ، حتى قضى عليهم جميعاً .

الفصل الثالث

ولاية عبد الرحمن الداخل

— ١ —

بدء المعارك الداخلية . القتال بين يوسف والصميل وبين عبد الرحمن . إذعانهما إلى طلب الصلح وعودهما إلى قرطبة . فرار يوسف وسجن الصميل . يوسف يستأنف الحرب . هزيمته وفراره . مصرعه فى طليطلة ومقتل ولده عبد الرحمن . فرار ولده محمد إلى طليطلة . هزيمته وأسره . مصرع الصميل . تأملات عن يوسف والصميل . ثورة القاسم بن يوسف فى الجزيرة الخضراء . استيلاؤه على إشبيلية . مهاجمة عبد الرحمن لإشبيلية . هزيمة القاسم وأسره . ثورة عبد الغافر اليمنى فى إشبيلية وإخمادها . استئنافها على يد حيوة بن ملامس . عبد الرحمن يقاتله ويهزمه . ثورة هشام بن عزرة الفهرى بطليطلة وامتناعه بها . ظهور العلاء بن مغيث واضطرام الثورة فى باجة . شهر الدعوة العباسية واتساع نطاق الثورة . مسير عبد الرحمن لمقاتلة العلاء وحلفائه . لقاؤهما فى قرمونة . هزيمة الثوار ومصرعهم . إرسال رؤوسهم إلى إفريقية ومكة . استئناف حصار طليطلة . تسليمها ومصرع زعمائها . ثورة المطرى بلبلة . هزيمته ومقتله . ثورة أبى الصباح فى إشبيلية . إستدراجه إلى قرطبة ومقتله . ظهور الفاطمى البربر ودعوته . ثورته فى غرب الأندلس . هزيمته لقوات عبد الرحمن . مسير عبد الرحمن لقتاله . التجاؤه إلى الجبال . خطة عبد الرحمن لتفريق جموعه . عود الثورة إلى إشبيلية ولبلة . مسير عبد الرحمن لقتال الثوار . تفرق الثوار وهزيمتهم . عود عبد الرحمن لقتال الفاطمى . التجاؤه إلى شنت برية . اغتياله وانهيار دعوته .

وكان أول ما عنى به عبد الرحمن من أدوار ذلك النضال بعد يوم المسارة ، هو أن يتعقب يوسف والصميل أقوى خصومه وأخطرهم . وكان يوسف قد فر عقب الموقعة صوب طليطلة ، وفر الصميل إلى جيان معقل قومه . وحشد يوسف فى طليطلة ونواحيها ما استطاع من أنصاره ، بمعاونة عامله عليها هشام بن عزرة الفهرى ، ووافاه الصميل بمن حشد من المضرية . ثم سارا فى قواتهما إلى جيان ثم إلى إلبيرة (غرناطة) ، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف ، ونزل يوسف بإلبيرة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن . ولكنه ما كان يستقر فى إلبيرة ، حتى بادر عبد الرحمن بالسير إليه ، وترك حماية قرطبة لحليفه وقائده أبى عثمان . ولما علم يوسف بمسيره إليه ، بعث ابنه عبد الرحمن فى بعض قواته إلى قرطبة ، فاقتحمها وأسر أبا عثمان ونفراً من أهل عبد الرحمن وحريمه ، ثم غادرها فى الحال خشية

المفاجأة . ولكن عبد الرحمن الأموى لم يلو فى طريقه على شىء ، وقصد إلى البيرة توا ، وحاصر يوسف والصميل . فلما شعرا بأن المقاومة عبث ، فاوضاه فى الصلح والتسليم بالأمر له ، ونبذ كل دعوى فى الولاية والسلطة ، على أن يؤمنهما فى النفس والمال والأهل ، وأن يُؤمن حلفاؤهم وأصدقاؤهم جميعاً ، وأن يُسمح لهما بسكنى قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح على ذلك ، وعلى أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمداً أبا الأسود رهينة لديه ، يعتقلهما فى قصر قرطبة برفق وإكرام ، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور ، وتم عقد الصلح بين الفريقين فى صفر سنة ١٣٩ هـ ، وأفرج عن أبى عثمان وباقى الأسرى الذين أسرهم ولد يوسف ، وتصافى الفريقان ، وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى قرطبة ، وانفض جندهما[١]. ونزل يوسف بشرقى قرطبة فى قصر الحر الثقفى أحد الولاة السابقين ، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) ، وأبدى عبد الرحمن نحوهما عطفاً وليناً ، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة ، ويحرص على تجريدهما من كل سلطة وقوة . وكان فى قرطبة فل من عصبة يوسف وأنصاره السابقين ، الذين نالوا على يديه جاهاً وحظوة ، يتطلعون إلى العهد السابق ، ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته ، ويحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه ، وكان يوسف من جهة أخرى يشعر أنه فى شبه اعتقال ، وأن عبد الرحمن يضيق الخناق عليه ، ويؤلب عليه صنائعه ، ينازعونه فى أملاكه وأمواله لدى القضاء ، والقضاء يميل إلى غبنه وإعناته ، حتى ذهب معظم أملاكه ، وهو يشعر أن عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد[٢]. عندئذ عول على الفرار ، وكاتب أنصاره فى ماردة وطليطلة ، ثم فر إلى ماردة ، وكان بها معظم أهله وأصهاره (سنة ١٤١ هـ) ، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر ، حتى اجتمع له زهاء عشرين ألفاً ، وتخلف الصميل ولم يوافقه ، فقبض عليه عبد الرحمن وألقاه فى غيابة السجن بتهمة التحريض والتآمر . وبينا كان عبد الرحمن يحشد جنوده ، سار يوسف بقواته إلى إشبيلية ، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمروانى ، فحاصره فى إشبيلية حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد ، ثم وقعت بينهما معارك شديدة

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وأخبار مجموعة ص ٩٣ و ٩٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) المقرى عن ابن حيان (نفح الطيب ح ٢ ص ٦٦) ، وأخبار مجموعة ص ٩٥ .

قتل فيها كثير من الفريقين ، وارتد يوسف منهزماً بفلوله . وكان عبد الرحمن الأموى يرابط عندئذ بقواته فى حصن المدوّر ، الواقع على مقربة من غربى قرطبة ، على نهر الوادى الكبير ، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره ، فتوقف عن مطاردته ، وسار يوسف إلى طليطلة ، ولبث يتردد فى أنحائها مدى أشهر ، وهو يحاول أن ينظم قواته مرة أخرى ، ولكن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه ائتمروا به ، واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة ، وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن فى قرطبة (سنة ١٤٢ هـ) . والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن بعيدة عن وحى عبد الرحمن . وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة ، وأمن عبد الرحمن شره وخطره ، وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه ، ورفع رأسيهما فوق الرماح أمام القصر ليلقى الرعب فى قلوب الخوارج والمخالفين [١]. أما ولد يوسف الآخر وهو محمد أبو الأسود ، فقد استطاع أن يفر من سجنه ، وقصد تواً إلى طليطلة معقل عصبة أبيه وتحصن بها ، فبعث عبد الرحمن فى أثره جيشاً بقيادة تمام بن علقمة وعينه والياً لطليطلة ، فحاصرها حتى سلمت ، وأسر محمد بن يوسف ثانية وجىء به إلى قرطبة ، واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة (ذى الحجة سنة ١٤٢) ، وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية . وزج محمد إلى السجن ثانية وادعى العمى حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة ، وعاد يرفع علم الثورة كما سيأتى . واستطاع أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متنكراً قبل سقوطها . وأما الصميل ، فلبث يوسف فى سجنه مدى أسابيع أخرى حتى دس عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقاً (أواخر سنة ١٤٢ هـ) [٢].

وهكذا انتهت بذهاب يوسف والصميل مرحلة خطيرة من الإضطراب والقلاقل . كان يوسف شخصية قوية وزعيماً ممتازاً ، وقد استطاع أن يحكم الأندلس زهاء عشرة أعوام فى ظروف عصيبة ، وأن يسهر على وحدتها وسلامتها بقوة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٠ . ولكن كوندى يورد عن مصرع عبد الرحمن بن يوسف رواية أخرى هى أنه كان عند مقتل أبيه حراً طليقاً ، وقتل فى معركة دموية نشبت بينه وبين جنود تمام بن علقمة والى طليطلة (Conde : ibid., V.I. p. 174) وهى رواية ظاهرة الضعف .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

وذكاء ، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج ، ولما فقد يوسف رياسة الأندلس فى يوم المسارة ، لبث مع ذلك أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموى وسلطانه ، ولبث روح الثورة والمعارضة مدى أعوام أخرى. وكان الصميل زعيماً قوى العصبية ، نافذ الرأى والكلمة ، وافر الدهاء والمكر ، يخشى بأسه ووحيه . فكان ذهابهما من الميدان فوزاً لعبد الرحمن ، وخطوة كبيرة فى سبيل استقرار رياسته وتوطدها .

وقطع عبد الرحمن أعوامه التالية فى كفاح مستمر ، يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب . وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع يوسف والصميل ، القاسم ابن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغسانى . وكان القاسم حينما فر من طليطلة كما قدمنا ، قد سار إلى الجزيرة الخضراء ، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه ، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرتزقة ، واستولى بمعونة حليفه على شذونة ، ثم سارا فى قواتهما إلى إشبيلية ، ولم تكن بها قوة تدافع عنها ، فاستوليا عليها دون مشقة ، فبادر عبد الرحمن الأموى فى قواته إلى إشبيلية ، ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة ، قتل فيها رزق بن النعمان ومزق جنده ، ودخل عبد الرحمن إشبيلية ظافراً ، وذلك فى أواخر سنة ١٤٣ هـ . أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة ، وبعث عبد الرحمن فى أثره تماماً والى طليطلة ، فطارده حتى أسره ومزق قواته[1] .

ولبث عبد الرحمن بإشبيلية بضعة أشهر ، ولكنه ما كاد يغادرها إلى قرطبة حتى نشبت فيها ثورة أخرى ، بقيادة عبد الغافر اليمانى زعيم اليمانية ، واستولى عبد الغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبة . فخرج عبد الرحمن لقتاله ، والتقيا بوادى قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر وانفض عنه جندهم ، واقتتل الفريقان فهزم عبد الغافر هزيمة شديدة ، وفر إلى لَقَنت ، وطارد عبد الرحمن جنده حتى قتل منهم ألوفاً عديدة (سنة ١٤٤ هـ) .

ورفع لواء الثورة من بعده فى إشبيلية أيضاً ، حيوة بن ملامس الحضرمى

---

(١) Conde : ibid., V. I. p. 178 ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

كبير زعمائها ، وتغلب على إشبيلية وإستجة وكثير من نواحي الغرب[١]، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره . فسار إليه عبد الرحمن ، ونشبت بينهما معارك عنيفة مدى أيام ، ودافع الثوار عن أنفسهم بمنتهى البسالة ، حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن ، ولكن التفرق دب أخيراً إلى صفوف الثوار ، ولحقهم الإعياء والملل ، فوقعت عليهم الهزيمة ، وفر زعيمهم حيوة ، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان (سنة ١٤٤ هـ — ٧٦١ م)[٢] .

وعلى أثر ذلك نشبت الثورة فى طليطلة . وكان عبد الرحمن قد اختار لولايتها تمام بن علقمة ، ثم عينه لحجابته فكان أول حجابه ، وخلفه فى ولاية طليطلة حبيب بن عبد الملك . وكانت المدينة ماتزال تضطرم بعناصر الثورة وفيها كثير من أنصار الفهرية ، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهرى ، ولد عزرة أمير الأندلس السابق ، وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة . فسار إليه عبد الرحمن وحاصره مدى أشهر ، حتى اضطر إلى طلب الصلح ، وقدم ولده رهينة بحسن طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وآثر أن يهادنه موقتاً . ولكنه ما كاد يصل إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة ، فارتد إليه عبد الرحمن ليعاقبه على نكثه ، وحاصره ثانية وقتل ابنه ، وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار ، ولكنه لم يظفر بحمل الثائر على التسليم ، فعاد إلى قرطبة ليضاعف أهباته ، بيد أنه لم يستطع أن يعود تواً إلى طليطلة ، إذ نمى إليه عندئذ خبر حادث داهم الخطر يتطلب كل جهوده وقواه .

ذلك أن داعية من خصوم بنى أمية هو العلاء بن مغيث اليحصبى[٣]، وكان من وجوه باجة وله بها رياسة وعصبة ، كاتب أبا جعفر المنصور ، واتصل برسله

---

(١) كورة « الغرب » كانت تقع غربى إشبيلية ، حتى جنوبى البرتغال ما بين لبلة وولبة والمحيط ، وقد حرفت فى الإفرنجية إلى كلمة **Algarve** .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣ ، والمقرى ج ٢ ص ٧٣ . ويذكر كوندى أن حيوة من ملامس كان بالعكس صديقاً حميماً لعبد الرحمن ، وبالغ فى الاحتفاء به يوم نزوله بإشبيلية ، وأنه توفى بعد ذلك بقليل فرثاه عبد الرحمن بأبيات مؤثرة **(Conde : ibid., V.I.p. 179)** ، ولكن كوندى يخلط هنا فى الوقائع . والحقيقة أن حيوة بن ملامس كان من أصدقاء عبد الرحمن لأول مقدمه وكانت له لديه منزلة ، وينقل إلينا ابن الأبار بيتين ينسب قولهما إلى عبد الرحمن فى امتداح حيوة وجوده ووفائه (الحلة السيراء ص ٣٣ و ٣٤) . ولكنه غدا بعد من ألد خصومه ومنافسيه . وله أخبار أخرى ستجىء .

(٣) وقيل الحضرمى (أخبار مجموعة ص ١٠٧) . والجذامى (البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣) .

فى إفريقية، واستصدر منه سجلا بولايته للأندلس ، ثم ارتد إلى الأندلس، وعاد إلى باجة فى قوة كبيرة ، ودعا لبنى العباس ، ورفع العلم الأسود ، وأعلن أنه قد عين أميراً للأندلس من قبل المنصور[1] (سنة ١٤٦هـ) . وكان الخليفة العباسى يحاول بهذه الدعوة ، أن يحطم مشاريع بنى أمية فيما وراء البحر ، وأن يبسط سلطانه الإسمى على الأندلس . وقد رأينا أن عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية ، دعا لبنى العباس حينما انهار سلطان بنى أمية ، وكاتب الخليفة العباسى فأقره على حكم إفريقية ، فكانت إفريقية تابعة لبنى العباس من الوجهة النظرية ؛ وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث ، فقد رأى أن يستظل فى ثورته بالدعوة العباسية ، لكى يسبغ عليها لوناً من الشرعية ، ولم يكن للخليفة العباسى اعتراض على محاولة لا يتحمل تبعتها من الوجهة المادية ، وإن كان يعضدها من الناحية المعنوية ، وقد أرسل بالفعل سجلا إلى الثائر بما طلب . وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف ابن عبد الرحمن ، قد استظلوا بالدعوة العباسية كما قدمنا . وسنرى كيف يشهر الخوارج على عبد الرحمن الأموى هذه الدعوة فى حوادث وخطوب أخرى[2] .

واضطرمت باجة وما حولها بنار الثورة ، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود ، ولاسيما الفهرية واليمنية وجند مصر ، واستفحل أمر العلاء وكثر جمعه ، وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه . وأعلن غياث ابن علقمة الثورة فى شذونة محالفاً للعلاء . فخرج عبد الرحمن من قرطبة فى جميع قواته ، وبعث بدراً مولاه فى بعضها إلى شذونة ، فحاصرها حتى أذعن غياث لطلب الصلح . وسار عبد الرحمن إلى قرمونة ما بين قرطبة وإشبيلية نظراً لمناعتها ، واتخذ موقف الدفاع ، فسار إليه العلاء فى جموعه ، وهاجم قرمونة مراراً ، وحاصرها مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده ، وعندئذ انقلب عبد الرحمن من الدفاع إلى الهجوم ، وداهم العلاء فى صفوة جنده ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى أيام ، حتى هزم العلاء ومزق جنده ، وقتل منهم آلاف عديدة ، وكان العلاء نفسه بين القتلى ؛ وأسر ابن قطن . وجمع عبد الرحمن رؤوس الزعماء والقادة من خصومه ورقمها بأسمائهم ، وحملها بعض رسله إلى القيروان ، فألقيت فى أسواقها سراً ، وأثارت هناك دهشة وارتياعاً ، ووضعت رأس العلاء فى سفط ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) راجع ابن القوطية ص ٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢١٣ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢

ومعها اللواء الأسود وسجل المنصور للعلاء ، وحمله بعض التجار الثقاة إلى مكة ، حيث كان المنصور يؤدى فريضة الحج فى العام التالى (سنة ١٤٧ هـ) . وألقى أمام سرادق المنصور ، وحمل إليه فارتاع لرؤيته ، وقال ما معناه : « ما فى هذا الشيطان مطمح ، فالحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر »[1] .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يسحق هذه الدعوة الخطرة ، وكان أخطر ما فيها أنها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة ، وإنما كانت دعوة عامة تدعمها الصبغة الشرعية ، ولم يك أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الأحزاب والقبائل تحت لواء واحد[2] . ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة كانت الثورة التى يثير ضرامها هشام الفهرى فى طليطلة ، قد استفحلت واتسع نطاقها . فأرسل عبد الرحمن قائديه بدراً وتمام بن علقمة فى جيش كبير إلى طليطلة ، فطوقها وشدد الحصار عليها حتى ضاق أهلها ذرعاً ، واضطروا إلى طلب الصلح ، على أن يسلموا الزعماء الثائرين ، وقبضوا على هشام وعدة من أصحابه ، فأخذوا إلى قرطبة مصفدين معذبين ، ثم صلبوا بأمر عبد الرحمن ، وتم بذلك سحق الثورة فى طليطلة إلى حين (سنة ١٤٧ هـ — ٧٦٤ م) .

وفى أوائل سنة ١٤٩ هـ — ٧٦٦م ، خرج سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى بمدينة لَبْلة ، مطالباً بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء ، فهرعت إليه اليمانية وقوى جمعه . ثم سار إلى إشبيلية فاستولى عليها ، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المروانى لقلة جنده ، ولبث ينتظر المدد . وكانت إشبيلية مطمح كل ثائر لقربها من قرطبة ، ولأنها لبثت مدى أعوام من أهم مراكز الثورة فى الأندلس . وخرج فى الوقت نفسه غياث بن علقمة اللخمى بمدينة شذونة ناكثاً لعهده . فسار عبد الرحمن أولا إلى إشبيلية ، وانقلب المطرى إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها ، فحاصره عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية أنصاره ، فلما ضاق الثائر بالحصار ذرعاً ، حاول الخروج ليشق له طريقاً بين الحشد المحاصر ، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها المطرى ، وارتدت فلوله إلى القلعة ، وقدموا عليهم خليفة بن مروان ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٥٦ وج ٢ ص ٦٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٢ و ١٠٣ ؛ وابن القوطية ص ٣٣ .

(٢) Dozy : Hist., V. I. p. 234

فاستمر عبد الرحمن فى محاصرة الخوارج ، حتى أذعنوا لطلب الصلح ، وسلموا إليه قائدهم فقتله ، واستولى على القلعة وهدمها ، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان .

وفى العام التالى عادت الثورة فاضطرمت فى إشبيلية ، ومدبرها وزعيمها فى تلك المرة أبو الصباح بن يحيى اليحصبى ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعيم اليمنية فى إشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس ، فكان فى طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته ، وقاتل معه يوم المسارّة ، وغدا إلى جانب أبى عثمان وعبد الله بن خالد ، من خاصة أعوانه وأركان دولته . ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه ، لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهرى ورد الأمر إلى اليمنية[1] . وكان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية ، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع الفتنة ، فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف ، واجتمع إليه أنصاره ، ورأى عبد الرحمن أن يأخذه بالحيلة والملاطفة ، فبعث إليه تمام بن علقمة يدعوه إلى قرطبة للتفاهم ، ويبذل له ما شاء من الوعود ، فسار أبو الصباح إلى قرطبة فى أربعمائة من رجاله ، واستقبله عبد الرحمن بالقصر ، وعاتبه على ما كان منه ، فأغلظ أبو الصباح فى الجواب ، ولامه على النكث بوعوده له ، فأمر الفتيان بقتله ، فقتل طعناً بالخناجر وانفض جمعه (سنة ١٥٠ هـ) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى نشبت فتنة خطيرة من نوع جديد ، شغلت عبد الرحمن مدى الأعوام التالية ، وكان نشوبها فى شمال شرقى الأندلس بين البربر ، وزعيمها ومثير ضرامها ، داعية بربرى خطر يدعى شقنا أو شقيا بن عبد الواحد ، وأصله من بربر مكناسة ، وكان فقيهاً يعلم الصبيان ، فزعم ذات يوم أنه سليل النبى ومن ولد فاطمة والحسين ، وتسمى بعبد الله بن محمد . فذاعت دعوته بين البربر فى تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها . والخصومة بين العرب والبربر قديمة مؤثلة كما بينا ، وقد كان البربر دائماً على قدم الأهبة للثورة ضد العرب . ولما آنس الدعى الفاطمى قوة جمعه ، سار إلى شَنت بريّة[2] . فاستولى عليها وجعلها مركزه

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وابن القوطية ص ٣٠ .

(٢) شنت برية وبالإسبانية **Santaver** من الكور الأندلسية القديمة التى اندثرت ، وكان موقعها يشغل مقاطعة قونقة اليوم ، وقاعدتها شنت برية تقع شرقى وادى الحجارة . وسميت كذلك عن اسمها القديم **Santebria** .

العام ، ثم سار فى جموعه غرباً واستولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهرى التاجُه ووادى يانة ، فقويت دعوته وعظم أمره ، واشتد بغيه وعيثه فى تلك الأنحاء ، وأخذت العناصر المخالفة لعبد الرحمن من العرب فى التحرك أيضاً . فعهد عبد الرحمن إلى والى طليطلة أن يقمع ثورة الدعى ، فبعث إلى شنت برية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان ، فخرج إليه الفاطمى فى قواته ، فهزمه هزيمة شديدة ، وأسر قائده سليمان وقتله ، وزاد هذا الظفر فى سلطانه وبغيه . فسار إليه عبد الرحمن بنفسه فى العام التالى (سنة ١٥٢ هـ) ، واقتحم منطقة الثورة ، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر ، وامتنع الثائر بالجبال ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى مطاردته . فارتد إلى قرطبة ، وبعث إلى شنت برية مولاه بدراً ليتابع القتال ، فاستمر الفاطمى ممتنعاً بصحبه فى الجبال ، محاذراً لقاء الجيش المهاجم . وعاد عبد الرحمن لقتاله بنفسه فى العام التالى (سنة ١٥٤ هـ) ، وشدد فى محاصرته ومطاردته ، ولكنه لم يفلح أيضاً فى حمله على مغادرة مواقعه ، ثم بعث لقتاله فى العام التالى مولاه عبيد الله بن عثمان ، فخرج الفاطمى للقائه واستمال جنده البربر ، وبث الخلاف إلى صفوفه ، فانحل عسكره وأثخن فيه الفاطمى ، ففر عبيد الله واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه ، وقتل جماعة كبيرة من وجهاء جنده (سنة ١٥٥ هـ)(١) .

وهكذا فشلت الحملات المتوالية لإخماد الثورة فى تلك المنطقة الوعرة ، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد إلى شنت برية ، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق شمل الثوار ، فاستقدم إليه كبير البربر فى شرقى الأندلس واسمه هلال الميديونى ، وأقره على ما بيده من الأنحاء ، وأصدر له عهداً بولاية الأنحاء التى غلب عليها الفاطمى ، وفوض إليه أمر استخلاصها منه ، وكان لتلك الحيلة أثرها فى بث الخلاف إلى صفوف البربر ، فانفض عن الفاطمى كثير من أنصاره ، واضطر أن ينسحب من شنت برية إلى الشمال ليعتصم بالجبال مرة أخرى ، وبينا عبد الرحمن يجد فى مطاردته ويقتحم معاقله وضياعه ، وينكل بأنصاره حيثما وجدوا ، إذ بلغه نشوب الثورة فى إشبيلية ولبلة وباجة ، وقوامها اليمنية من عصبة أبى الصباح

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ و ٥٧ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

وأنصاره . وكان على رأس الثورة فى إشبيلية زعيمها القديم حيوة بن ملامس الحضرمى ، وفى باجة عبد الغافر اليحصبى ، وفى لبلة عمر بن طالوت ، وهما من أبناء عمومة أبى الصباح ، وانضم إليهم كثير من البربر ، فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى قرطبة فى غيبة عبد الرحمن ، وكان قد استخلف عليها مولاه بدراً (١) . فعاد عبد الرحمن إلى قرطبة مسرعاً ، ثم غادرها تواً إلى لقاء الثوار ، فالتقى بهم فى وادى منبس على نهر «بمبيزار» أحد فروع الوادى الكبير ، ونشبت بين الفريقين فى المبدأ عدة معارك محلية . ثم لجأ عبد الرحمن إلى الحيلة والخديعة ، فعهد إلى جماعة من وجهاء البربر من جنده ، أن يتصلوا بزملائهم البربر من جند العدو ، وأن يقنعوهم بخطأ تصرفهم فى نصرة اليمنية ، وأنه إذا تغلب عليه العرب ، كانت العاقبة وبالا عليهم أيضاً ، فانسل الرسل إلى معسكر العدو تحت جنح الظلام ، وخاطبوا أبناء جنسهم بما تقدم ، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق . وفى اليوم التالى نشبت بين الفريقين موقعة عامة . فنكث البربر وتقاعدوا عن القتال ، فهزم الثوار شر هزيمة ، وكثر القتل فى جموعهم حتى قتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً (٢) . وهلك معظم الزعماء الثائرين ، وفر عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق ، وقرن عبد الرحمن ظفره باجراء دموى آخر ، إذ قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا فى جيشه وأمر بهم فأعدموا (سنة ١٥٧ — ١٥٨ ﻫ) .

وفى العام التالى عاد عبد الرحمن إلى مطاردة الفاطمى ، فالتجأ الثائر إلى الجبال كعادته ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى اللحاق به ، فغزا قورية وأثخن فى تلك الأنحاء ، وكان أمر الفاطمى قد ضعف خلال هذه الأعوام وتضاءل جمعه ، ولكنه لبث يسيطر على شنت برية وماردة ، ولبثت دعوته خطراً يهدد سلام الأندلس . فوجه عبد الرحمن لقتاله فى العام التالى حملة قوية أخرى بقيادة تمام ابن علقمة وعبيد الله بن عثمان ، فلقيهما الفاطمى ووقعت بينهما معارك شديدة ، رجحت فيها كفته ، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب شنت برية ، فحاصره تمام وعبيد الله مدى أشهر ، ولم يظفرا منه بطائل ، فعادا إلى قرطبة ، وخرج الفاطمى على أثر عودهما إلى شنت برية ، ونزل بقرية من أعمالها تسمى قرية العيون ،

---

(١) ويقول ابن الأثير إنه كان يستخلف عليها ولده سليمان (ج ٦ ص ٣) .

(٢) ابن القوطية ص ٣١ و ٣٢ .

وهنالك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد ، وانقضا عليه ذات يوم وقتلاه ، واحتزا رأسه وحملاها إلى عبد الرحمن فى قرطبة ، وبذلك انفضت جموعه ، وخبت ثورته ، بعد أن لبثت زهاء عشرة أعوام تحمل الدمار والسفك إلى شرقى الأندلس وغربها ، وتهدد سلطان عبد الرحمن بشر العواقب ، وحققت الخيانة فى لحظة واحدة ما لم تحققه الحملات والبعوث المتعاقبة فى أعوام طويلة . ولعل هذه الضربة الناجعة لم تكن بعيدة عن أصبع عبد الرحمن أو وحيه ، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته فى مقارعة خصومه ، وكانتا تحققان له فى بعض الأحيان من الظفر ما لا تحققه أى الوسائل . وكان مصرع الفاطمى وانتهاء ثورة سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م)[١] .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ـ ص ١٧ .

الفصل الرابع

موقعة رونسڤال أو باب شزروا

الثورة فى الشمال . تحالف ابن يقظان والى برشلونة والحسين الأنصارى والى سرقسطة . هزيمة جيش عبد الرحمن وأسر قائده . سعى ابن يقظان لدى ملك الفرنج واستدعاؤه لغزو اسبانيا . تلبية شارلمان للدعوة . اتصال الزعماء الخوارج بالفرنج . سياسة الفرنج فى تشجيع الثورة فى الأندلس . صلة الخلافة العباسية بهذه السياسة . الصراع بين الأندلس والفرنج . اللون الدينى لهذا الصراع . أقوال الروايات اللاتينية فى تأييد هذه الخاصة . مسير شارلمان إلى اسبانيا . اختراقه لنافار وحصاره لبنبلونة . مقاومة البشكنس . سقوط المدينة فى يد الفرنج . مقدم سليمان وتسليمه للرهائن . زحف شارلمان على سرقسطة . مقدم بقية الجيش الفرنجى . تطور الحوادث . تحول الحسين وامتناعه بسرقسطة . فشل شارلمان فى أخذها . اعتقاله لسليمان وارتداده . بواعث هذا الارتداد الفجائى . عود شارلمان إلى مهاجمة بنبلونة وتخريبها . بدء المسير للعود . عيشون ومطروح ولدا سليمان . تحالفهما مع الحسين الأنصار . سيرهما فى قواتهما فى أثر الفرنج . مسير شارلمان إلى البرنيه . أبواب البرنيه . رونسڤال أو باب شزروا . مفاجأة الجيش الفرنجى وفصل مؤخرته . من هم الذين هاجموه . المسلمون أم البشكنس . المسلمون هم الذين دبروا الهجوم . معاونة البشكنس . وصف الرواية اللاتينية للهجوم . تمزيق مؤخرة الجيش الفرنجى . مصرع الفرسان والسادة الفرنج . أنشودة رولان وبعدها عن التاريخ الحق . مكانتها فى أدب الفروسة . لماذا لم ينتقم شارلمان لهزيمته . مقارنة بين الروايتين العربية واللاتينية .

فى ذلك الحين كانت ثمة حوادث هامة أخرى تقع فى شمال الأندلس . وقد تتبعنا ثورة الفاطمى والبربر إلى نهايتها حرصاً على صلة الحديث . ونعود الآن بضع سنين إلى الوراء . فى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ثار سليمان بن يقظان الكلبى (أو الأعرابى) والى برشلونة (أوبرشنونة)[١]وجيرونة (جيرندة) ، والحسين ابن يحيي الأنصارى والى سرقسطة ، وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلعه . وكان استمرار الثورة فى الجنوب ، وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها ، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته ، مما يذكى عوامل الثورة فى الولايات الشمالية ، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج . وكان عبد الرحمن يشتغل يومئذ بمقاتلة الفاطمى ، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى ، فهزمه

---

(١) وهو تعريب مطابق لأصلها اللاتينى Barcenona

سليمان وأسره وتفرق جيشه (١٥٨ هـ — ٧٧٥ م) [١]. واستفحل أمر الثورة فى الشمال ، ولكن زعماء الثورة وعلى رأسهم سليمان بن يقظان لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه وروعة انتقامه ، ففكروا فى الاستنصار بملك الفرنج. وسار سليمان (وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابى) مع نفر من صحبه الخوارج ، إلى لقاء شارلمان أو كارل الأكبر فى ربيع سنة ٧٧٧م (١٦٠ هـ) ؛ وكان يومئذ يقيم بلاطه فى مدينة پادربورن من أعمال وستڤاليا (شمال غربى ألمانيا) ، ويعقد الجمعية الكبرى ، حيث كانت جموع السكسونيين المغلوبة تعمّد للنصرانية ، بعد أن شتت شارلمان شملهم وفر زعيمهم ڤيد وكنت ؛ فهنا وفد عليه سليمان وصحبه ، وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن ، واقترح عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية ، وتعهد بمعاونته ، وبأن يسلمه المدن التى يحكمها هو وصحبه من قبل أمير قرطبة ولاسيما سرقسطة ، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد . وتضيف الرواية اللاتينية إلى ذلك أنه كان مع ابن الأعرابى ولد ليوسف الفهرى حاكم الأندلس السابق جاء ومعه صهره ليسعيا كذلك إلى خلع عبد الرحمن ؛ وتقول الرواية الإسبانية النصرانية ، إن الذى دعا شارلمان إلى غزو اسبانيا هو ألفونسو أمير إمارة ليون النصرانية (جليقية) . ولكن الروايتين العربية والفرنجية (اللاتينية) كلتاهما صريحة فى أن الدعو جاءت من سليمان بن يقظان (الأعرابى) وحلفائه . والرواية العربية تقول لنا بمنتهى الوضوح ، إن سليمان استدعى قارله (كارل أو شارلمان) ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين ، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة[٢] . وتوافق الرواية اللاتينية على ذلك ، وتزيد أن سليمان

---

(١) ويقدم إلينا الرازى بعض تفاصيل عن ذلك . فيقول لنا إن سليمان بن يقظان الكلبى (وهو الأعرابى) كان من زعماء سرقسطة ، فلما ولى الثغر بدر مولى عبد الرحمن الداخل نقله إلى قرطبة ، فحرضه البعض على القيام بثأر قومه اليمانية فخرج من قرطبة إلى سرقسطة ودخلها . وخرج لمحاربة ثعلبة بن عبيد سنة أربع وستين ومائة ، ونزل مدينة طرسونة ، ووالى حربه ، واضطرب على باب سرقسطة بمعسكره ، فافترس سليمان بن يقظان غفلته ، وافتراق أهل الجيش ، فهجم عليه وأسر ثعلبة بن عبيد ، وبعث به إلى ملك الفرنج . وأهم مفارقة فى رواية الرازى هو التاريخ المتأخر الذى يقدمه إلينا عن هذه الموقعة ، وذلك حسبما يتضح بعد من سير الحوادث (وقد نقل إلينا هذه الرواية العذرى فى كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٢٥) .

(٢) أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وحلفاءه أعلنوا خضوعهم لملك الفرنج وانضواءهم تحت حمايته[١].

ولبى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم . وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، عنواناً للثقة والتحالف ، فسجن فى إحدى القلاع الفرنسية . وفى رواية أخرى أنه سلمه إليه عقب مقدمه إلى اسبانيا . وعلى أى حال فقد كان حصول هذا الأسير ، وهو من خاصة عبد الرحمن وأكابر وزرائه فى يد ملك الفرنج ، ضربة لعبد الرحمن ، ورهينة قيمة يمكن استغلالها . وكان سليمان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلا لنفسه ، ويرمى قبل كل شىء إلى تحطيم سيادة قرطبة ، وإلى الاستقلال بما فى يده تحت حماية ملك الفرنج . ولكن ملك الفرنج كانت له مشاريع أخرى . وكانت السياسة الفرنجية ترمى إلى تعضيد روح الثورة والخلاف فى إسبانيا المسلمة ، ولاسيما منذ انهارت سيادة الإسلام فى جنوبى فرنسا وارتد المسلمون إلى ما وراء البرنيه . وبدأ تطبيق هذه السياسة منذ عهد پپين أبى شارلمان . وكان سليمان بن يقظان زعيم الثورة فى الشمال يتصل بملك الفرنج منذ سنة ٧٦٠ م ، أعنى منذ استيلائه على أربونة واتصال الحدود الفرنجية بحدود اسبانيا المسلمة ، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله . وهكذا بدأت العلائق تنتظم بين الزعماء المسلمين ، الخوارج على حكومة قرطبة ، وبين الفرنج المتربصين بدولة الإسلام فى الأندلس ، فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية ، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم ، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات ، ويتخذونها ذريعة للتدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، وإذكاء روح التفرق فيها ، وسنرى كيف استطاع ملوك الفرنج تنفيذ هذه السياسة فى فرص عديدة متعاقبة . والظاهر أن الخلافة العباسية فى المشرق لم تكن بعيدة عن تأييد هذه السياسة فى المغرب ، والتوسل بذلك إلى مناوأة بنى أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائى من أقطار الخلافة ، ويقيموا فيه دولتهم الداهبة على دعائم جديدة ، فإن الرواية الفرنجية تحدثنا عن

---

(١) تراجع أقوال الرواية اللاتينية فى مؤلف العلامة الأستاذ پيدال : **Ramón Menendez Pidal: La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Espana-Calpe, Madrid 1959) p. 179 - 180** وهو مؤلف ضخم جامع، وأحدث ما أخرجه العلامة الإسبانى، وهو يتناول حوادث موقعة باب الشزرى بإفاضة شافية وتحليل ممتع . وراجع أيضاً موسوعة بوكيه **Bouquet. Vol. V. p. 14, 40 & 142** وكذلك **Reinaud : Invasions des Sarrazins, en France, p. 94**

علائق المنصور وپپین وتقول لنا ، إن پپین بعث فی سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد ، ورد المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج وفدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا حيناً فى البلاط الفرنجى فى مدينة متز[١]. وسار شارلمان ولد پپين على سياسة أبيه ، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة التى فصلتها الرواية الفرنجية أيضاً ، والتى نعود إليها فى مقامها المناسب . وسنرى فيما بعد ، أنه فى الوقت الذى كان فيه يعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال وبين ملك الفرنج ، كانت ثمة محاولات تبذل لنشر الدعوة العباسية فى الأندلس حيث نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى فى تدمير يدعو للخلافة العباسية على نحو ما نفصل بعد .

وكانت إسبانيا المسلمة تجوز إزاء هذا الخطر الأجنبى الذى يتربص بها ظرفاً من أدق ظروفها ، فقد كانت مصايرها تهتز فى يد القدر ، وكان الإسلام يجوز فيها معركة الحياة والموت ، بعد أن كان قبل ذلك بحقبة يسيرة يتدفق إلى ماوراء البرنيه بقوة ، ويسود معظم أنحاء فرنسا الجنوبية . وكانت مملكة الفرنج بالعكس قد توطدت دعائمها ، وانتزعت من الإسلام كل معاقله فى فرنسا ، بعد أن لبث مدى حين يزعجها ويهدد وجودها . وبينما اجتمعت كلمة الفرنج بزعامة الأسرة القارلية القوية ، إذا بالإسلام فى اسبانيا تعصف به ريح التفرق من كل صوب وتمزقه شر ممزق ، وإذا بالأندلس تغدو بركاناً من القلاقل والحروب الأهلية . وكان كارل الأكبر (شارلمان) مذ ولى العرش (سنة ٧٦٨ م) يشغل عن التدخل فى اسبانيا المسلمة ، بمحاربة القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء الرين ليرد خطر اعتدائها على مملكته ، وليخضعها إلى سلطانه . وكانت غزوات الأسرة القارلية تتخذ فيما وراء الرين منذ عهد كارل مارتل ، جد كارل الأكبر ، لوناً دينياً عميقاً كالذى تتخذه حروب الفرنج مع العرب فى غاليس . ذلك أن حروب الفرنج فيما وراء الرين كانت تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من خطر الوثنية المتدفق من المشرق ، وكانت حروبهم فى غاليس تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من وثبات الإسلام المتدفق من الجنوب . وكانت الكنيسة روح هذه المعارك توحى بها وتذكيها ، إلى جانب شهوة الظفر والفتح . فلما ظفر الفرنج برد تيار الإسلام إلى ما وراء البرنيه ، واستولوا

---

(١) Reinaud : ibid. p. 89 & 92.

على جميع ثغوره ومعاقله فى فرنسا ، وفترت تلك النزعة الدينية العميقة ، التى جعلت غاليس مدى نصف قرن مسرحاً لصراع العرب والفرنج ، بقيت الأطماع والبواعث السياسية ، تحفز الفرنج إلى قتال الإسلام ومطاردته ، وانتزاع اسبانيا أو على الأقل ولاياتها وثغورها الشمالية من قبضته ، لتكون معقلا لدرء فورانه ووثباته من الجنوب .

وتشير الروايات اللاتينية إلى غايات السياسة الفرنجية من التدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، وتحدثنا عن هذا المزج بين الغايات الدينية والدنيوية . فأما عن الناحية السياسية فإن إجنهارت مؤرخ شارلمان يقول لنا إن الحملة التى نظمها الملك الفرنجى إلى اسبانيا كان يقصد بها مهاجمة قرطبة . وإنه ليبدو من ضخامة الجيش الذى حشده شارلمان ، أن الأمر لم يكن متعلقاً فقط بالاستيلاء على المدن التى وعد سليمان بن يقظان بتسليمها ، وأن شارلمان كان يرمى بالعكس إلى السيطرة على اسبانيا كلها ، أو على الأقل نصفها الشمالى . ويقول لنا «أبـدَال» وهو مؤرخ حملة شارلمان الإسبانية ، إن الأمر لم يكن متعلقاً بغاية دينية قوامها تحطيم دولة «كافرة» ولكن الحملة كانت ترمى إلى غاية سياسية قوامها أن يوضع حد لأخطار الغزوات الإسلامية لفرنسا . ويرى الأستاذ پيدال أن شارلمان لم تكن له غاية دينية خالصة فى أية حملة من حملاته ، وأن الباعث كان دائماً سياسياً ، ولكنه يبطن فى ثنيته الغاية الدينية . ذلك لأن المشكل الوحيد لإخضاع شعب « كافر » هو حمله على اعتناق النصرانية ، وهذا ما وقع بالنسبة لحملات شارلمان ضد « الأقار »[١] ، وضد « السكسونيين » .

ومن ثم فقد كان مسير شارلمان إلى اسبانيا يبطن الغاية الدينية إلى جانب الغاية السياسية ، وهذا ما تؤيده الرواية اللاتينية **Anales Mettenses** ، التى كتبت فى حياة شارلمان ، وفيها «أن كارلوس قد هزته شكاوى النصارى الإسبان الذين نكل بهم المسلمون فسار بجيشه إلى هنالك» . ويضيف الأستاذ پيدال إلى ذلك «انه وإن كان الإسلام يتسم حقاً بالتسامح ، إلا أن النصارى واليهود فى اسبانيا كانوا يعانون ضغطاً وإرهاقاً فى ظل الحكومة الإسلامية ، ومن ثم فقد كان للنصارى المستعربين

---

(١) الأقار أو الأقاريين **Avars** هم مجموعة من القبائل القوية كانت تسكن حوض نهر الدانوب الأوسط . وقد حطمهم شارلمان وانتهى الأمر بتنصيرهم (٧٩١ — ٧٩٥ م) .

أن يستقبلوا شارلمان كمحرر لهم » . وتؤيد هذه النزعة الدينية للحملة ، روايات لاتينية كثيرة أخرى معاصرة ولاحقة . بيد أن أقطع دليل على روح الحملة الدينية هو أن شارلمان قد أبلغ البابا هادريان بأمرها قبل أن يضطلع بها ، وأن البابا بارك عزيمته ووعده بإقامة الصلوات ، لكى يعود ظافراً إلى مملكته[1].

وكان كارل حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو اسبانيا ، قد انتهى من الحرب فى سكسونية ، وهزم القبائل الوثنية الجرمانية ، وأخضع زعيمها القوى «ڤيدوكنت» وألجأه إلى الفرار ، فجاءت الدعوة إليه فى وقت ملائم . وانتظر كارل حتى مضى الشتاء ، ثم سار إلى الجنوب وقضى أعياد الفصح فى أكوتين على مقربة من بوردو . وفى فاتحة ربيع سنة ٧٧٨ م ، جمع قواته المؤلفة من فرنج نوستريا ومن الجرمان واللونبارد وفرق من بريتانيا وأكوتين ، واخترق ولاية أكوتين ، وقرر أن يفتتح الغزوة الإسبانية توا حتى لا يفاجئه الشتاء ، وقسم جيشه الضخم إلى قسمين ، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية ، وعبرها القسم الثانى بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية ، من الطريق الرومانى القديم فوق آكام «چان دى لاپور» الشاهقة التى تشرف على مفاوز رونسڤال الوعرة ، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو أمام سرقسطة حيث يلتقى شارلمان بحلفائه المسلمين . وكان عبوره لجبال البرنيه من « باب الشزرى » فى شهر أبريل على الأرجح . واخترق شارلمان بلاد البشكنس أوناڤار الحديثة ، وحاصر عاصمتها بنبلونة ، وهى قلعة الناڤاريين ، واستولى عليها بعد قليل . وقد كان أولئك الناڤاريون دائماً شعبة خاصة من « البشكنس » ، وكانت بنبلونة دائماً مدينة البشكنس منذ أيام سترابون[2]. وقد كان البشكنس دائماً يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط ، وكثيراً ما لجأوا فى سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان ، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة ؛ وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة ، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال ، ولا يودون الخضوع لأية جهة ، لا إلى الفرنج ، ولا إلى مملكة (جليقية) ، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية . ومن ثم فقد اضطر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف . وهنا تبرز هذه الحقيقة ، وهى

(١) راجع : R.M. Pidal : ibid., p. 181, 182, 183 & 184.

(٢) R. M. Pidal : ibid., p. 186

أن شارلمان بغزو بلاد البشكنس ، كان يحارب أمة من النصارى ، وهو فى ذلك لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح . ولم تكن النزعة الدينية خاصة بارزة فى تلك الغزوة . أما الجيش الفرنجى الذى اخترق شرقى البرنيه ، فقد كان يسير فى منطقة يسيطر عليها الفرنج ، مذ تقلص عنها سلطان المسلمين ، منذ أيام پپين والد شارلمان ، ومن ثم فقد كان يخترق بلاداً صديقة ، يرحب أهلها بمقدمه ، أملا فى عونه وحمايته .

وتقول لنا بعض الروايات اللاتينية[1] إن سليمان بن يقظان (ابن الأعرابى) ، كان يتردد عندئذ بانتظام على بنبلونة ، وإنه وفقاً لتعهداته سلم الرهائن إلى شارلمان ، وإنه قد وفد كذلك على بنبلونة أبو ثور بن قسى حاكم وشقه ، وقدم أخاه وولده رهينة ، وقد بقيت هذه الرهائن فى معسكر شارلمان حتى وقعت النكبة . بيد أنه توجد روايات أخرى مفادها أن الرهائن سلمت فيما بعد ، حين وفود شارلمان على سرقسطة . وعلى أى حال ، فقد سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة ومعه سليمان إلى سرقسطة[2] ، وهى معقد المشروع كله حسبما اتفق عليه فى پادربورن ؛ وكان القسم الآخر من الجيش ، قد اخترق فى تلك الآونة منطقة جيرندة (جيرونة) وبرشلونة ، واتجه غرباً إلى سرقسطة حيث انضم إلى القوات التى يقودها شارلمان ، وكان شارلمان ، يعتقد حينما سار إلى سرقسطة أنه سيلقى هناك حلفاءه المسلمين على أهبة لمعاونته وتحقيق رغباته فى الاستيلاء على المدينة الكبرى . ولكن الحوادث كانت تطورت عندئذ ، ودب الخلاف بين الخوارج المسلمين . وكان الحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة حليف سليمان منذ البداية ، وكان عضده فى مشروعه لاستدعاء الفرنج . وبالرغم من أنه لم يذهب إلى پادربورن ، ولا إلى بنبلونة ، فقد كان موافقاً على الحلف الذى عقده سليمان مع شارلمان ، وعلى العهود التى قطعها له . والظاهر أن الحسين نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذى اتشح به إزاء الفرنج ، فنشبت بينهما الخصومة ، أو أنه خشى عاقبة التورط فى حلف الفرنج . فعدل موقفه فى آخر لحظة حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته والظاهر أيضاً أنه لم يكن فى سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجى ؛ إذ تقول

---

(١) R. M. Pidal : Ibid., cit. Anales Breves. p. 187

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

لنا الرواية الإسلامية ، إنه سبق إليها سليمان ، وتحصن بها ، فلما أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقسطة ، رفض الحسين أن يستقبله ، وألفى المدينة محصنة متأهبة للدفاع والمقاومة ، فعبر نهر الإيبرو إلى الضفة الأخرى ، وقدم إليه سليمان رهائن عدة من الأعيان والأكابر ، وفى مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن وكان أسيراً لديه حسبما تقدم . ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لإقناع الحسين بفتح أبواب سرقسطة ، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها ، وردت المدينة المحصورة كل هجماته بشدة[١] ، وعجز سليمان أن يحقق شيئاً من وعوده فى تسليم المدن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة . ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض فى تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها ، وارتاب من جهة أخرى فى نية سليمان وموقفه ، فقبض عليه[٢] ، وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقى فى طريق العودة . وكان ذلك فى شهر يوليه سنة ٧٧٨ م (شوال سنة ١٦١ هـ) .

بيد أن هذه الوقائع ينقصها شىء من الوضوح . ذلك أنه لم تقع بين الفريقين معارك ذات شأن . فهل ارتد ملك الفرنج من تلقاء نفسه ، أم اضطر مرغماً إلى الارتداد لبواعث وأسباب لا نعلمها ؟ .

يقول الأستاذ پيدال « إن الانسحاب لا شك فيه . ولكن فشل حملة الملك الفرنجى لا تفسرها لنا هجمات المحصورين . إذ كيف يرتد هذان الجيشان الفرنجيان اللذان يضمان هذه الجموع من جند بريتانيا ونوستريا وباڤاريا ولومبارديا ؟ وكيف يرتد كارل وهو فى عنفوان قوته بهذه السهولة ؟ كيف يرتد هذا العاهل القوى وجيشه العظيم ما يزال سليما لم يمس ، دون أن يخضع الحسين ، ودون أن يفتتح أواسط إسبانيا ؟ »[٣] .

إن الروايات اللاتينية تحاول أن تلقى الضوء على ذلك الغموض : فيقول لنا «أبدال» السالف الذكر ، إن شارلمان قدر أنه قد يجد نفسه وحيداً فى قلب شعب معاد ، مع صعوبة التموين لجيشه العظيم . بيد أنه يوجد تعليل آخر أقوى وأوضح ، تقدمه إلينا رواية لاتينية أخرى فى نصها الآتى : « إن السكسون المارقين حينما

(١) أخبار مجموعة ص ١١٣ .
(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .
(٣) R.M. Pidal : Ibid. ; p 188

علموا أن الملك كارلوس فى منطقة سرقسطة، قد شقوا الطاعة ، وخربوا وأحرقوا الأراضى حتّى ضفاف الرين . ونمى ذلك إلى كارلوس وهو فى اسبانيا ، فلما وقف عليه عاد مسرعاً إلى فرنسا »(١) . وربما كان فى ذلك خير تفسير لانسحاب شارلمان ، وتركه سرقسطة لمصيرها .

ارتد شارلمان على رأس قواته المجتمعة وفى ركبه سليمان أسيره وعدد من الرهائن وسار شمالا نحو بلاد البشكنس . وكان الناڤاريون فى تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة ، خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجى ، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة، للتعاون فى دفع العدو المشترك ؛ ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف ، ولم تجد بسالة الناڤاريين وحلفائهم المسلمين شيئاً ، فتركوا المدينة ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء ؛ واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية ، وهدم حصونها وأسوارها حتّى لاتعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء ، ولكى يمهد لجيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا .

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً إلى جبال البرنيه من طريق هضاب رونسڤال المؤدية إلى باب الشزرى . فما الذى حدث عندئذ ؟ تقول الرواية العربية إن شارلمان « لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون إبنا سليمان فى أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة »(٢). وفى هذه الكلمات القليلة تشير الرواية العربية إلى النكبة الهائلة التى أصابت الجيش الفرنجى أمام باب الشزرى والتى تقدم إلينا الروايات اللاتينية اللاحقة تفاصيلها .

والظاهر أيضاً من الرواية العربية أن ولدى سليمان ، حينما قبض شارلمان على أبيهما ، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج ، وجمعا فى الحال قوات أبيهما وأتباعه، وسارا بجيشهما فى أثر ملك الفرنج يحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره . وكان شارلمان فى ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها متجهاً صوب جبال البرنيه ، ليعبرها كرة أخرى إلى فرنسا ، وكان عبوره من نفس الطريق التى أتى منها ، أعنى من مفاوز رونسڤال . ويقع ممر رونسڤال **Roncesvalles** ،

---

(١) **R. M. Pidal : ibid ; cit. Chronicon Moissiocense ; p. 189**

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

الذى يسمى بالعربية « باب شيزروا »[1]، أو باب الشزرى ، فى طرف البرنية الغربى شمال شرقى بنبلونة ، وعلى قيد عشرين كيلومتر منها ، وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أو الجنوب . وهى نفس الممرات أو الأبواب التى كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس[2] . وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون حاجزاً منيعاً يفصل بين شبه الجزيرة الإسبانية وبين غاليس ، ولا يتأتى للغزاة ، عبوره إلا خلال هذه الممرات الشهيرة . فنى مفاوز رونسفال الوعرة ، وتجاه ممر البرنيه المسمى بهذا الاسم أعنى باب شيزروا ، وقعت المفاجأة الهائلة . ذلك أن الجيش الفرنجى ما كاد يبدأ عبور الجبال ، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته ، وهاجموه بشدة رائعة ، وفصلوا عنه مؤخرته ، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى ، وفيهم سليمان بن يقظان . والرواية العربية صريحة فى أن المسلمين هم الذين دبروا هذا الهجوم الفجائى ، على مؤخرة الجيش الفرنسى ، ولكن بعض الروايات اللاتينية التى تتحدث عن الموقعة ، تقول لنا إن الذين

---

(١) هذه هى تسمية الشريف الإدريسى، وهى مشتقة من الاسم الرومانى القديم **Portus Ciserei** أو **Portus Sizarae**

(٢) يقدم لنا الشريف الإدريسى وصفاً دقيقاً لجبال البرنيه التى تسمى فى الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات كما قدمنا ، وللأبواب الرومانية التى كانت بها فيقول : « وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام ، وهو جبل عال جداً صعب الصعود ، وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس . وهذه الأبواب عراض لها مسافات وهى منحرفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى فى ناحية برشلونة ويسمى « برت جاقة » (جاكا) ؛ والباب الثانى الذى يليه يسمى « برت أشبرة » ؛ والباب الثالث منها يسمى « برت شيزروا » **Roncesvalles** وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا؛ والباب الرابع منها يسمى « برت بيونة » . ويتصل بكل برت منها مدن فى الجهتين، فما يلى برت شيزروا مدينة بنبلونة ؛ والباب المسمى جاقة عليه مدينة جاقة . (راجع نزهة المشتاق للشريف الإدريسى؛ وكذا وصف الإدريسى لجغرافية الأندلس ص ٦٥ من طبعة **Saavedra**) وظاهر أن كلمة برت تعنى الباب أو الممر ، وأصلها من الإسبانية **Puerta** ، وقد سميت جبال البرنيه بالعربية البرتات نسبة إلى الأبواب والممرات المذكورة . والجغرافية الحديثة لا تختلف كثيراً عما تقدم ، وفيها أن هذه الأبواب والممرات خمسة : (١) ممر بربنيان ، بين برشلونة وأربونة (٢) ممر بوكيردا الموصل إلى شرطانية (٣) الممر بين بنبلونة وسان جان دى بييدبور (ويسميها الإدريسى شنت جوان) وهو باب شيزروا (٤) ممر تولوز (طلوشة) إلى بيونة (٥) ممر جاكا . وكانت هذه الأبواب أو الممرات تستعمل لاختراق الجبال حين الغزو إلى فرنسا ومنها فى طريق العودة .

هاجموا مؤخرة شارلمان حين ارتداده ، هم البشكنس النصارى انتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العيث والتخريب . وإليك ما تقوله هذه الرواية : « إن شارلمان عاد من سرقسطة إلى بنبلونة ، وهدم أسوار هذه المدينة من أساسها لكي لا تستطيع الثورة عليه وقرر العودة ، وبدأ بجوز شعب البرنيه . وهنا ، وفي أرفع نقطة هجم البشكنس ، وقد كانوا يكمنون في المؤخرة ، وأوقعوا الخلل في الجيش كله ، فساده أيما اضطراب وجلبة ، وبالرغم من أن الفرنج أبدوا تفوقهم على البشكنس ، سواء في السلاح أو الروح المعنوية ، فقد بقوا هم الأضعف بسبب رداءة الموقع وعدم التكافؤ في وضع المعركة »(١) .

وهنا يحق لنا أن نتساءل إزاء هذا التناقض بين الروايتين ، من هم الذين دبروا هذا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجي ؛ أهم المسلمون وحدهم حسبما تقرر الرواية العربية ، أم هم البشكنس وحدهم حسبما تقرر الرواية الفرنجية ؟ يقول الأستاذ بيدال ، إنه لمن غير المعقول ، بل ومن المستحيل أن يقوم البشكنس وحدهم بمهاجمة مؤخرة جيش عظيم كجيش شارلمان ، والأكثر احتمالا هو أنهم يبحثون عن العون ضد المعتدى الخارجي ، وإنه لكذلك من غير المعقول أن يستطيع إبنا سليمان وحدهما انتزاع الأسرى من الجيش الفرنجي ، وذلك في الأرض المكشوفة ما بين سرقسطة وبنبلونة ، وإنه لا يمكن الاعتقاد بأي حال بأن يسمح جيش شارلمان لنفسه أن يُفاجأ مرتين في أيام قليلة ، وإذاً فلا بد أن البشكنس والمسلمين معاً قد فاجأوه في شعب البرنيه : البشكنس الذين أثارهم تخريب بنبلونة ، والمسلمون الذين يحاولون استنقاذ ابن الأعرابي والرهائن(٢) .

ثم يقول العلامة الإسباني « إنه باستعراض سائر الروايات يبدو أن هناك حقيقة تاريخية ، وهي أن المسلمين تعاونوا مع البشكنس في موقعة باب الشزرى ؛ وأن أنشودة رولان ، وهي مستمدة من أناشيد معاصرة للنكبة ، هي أصح من الرواية اللاتينية Anales Regios » . ونقول نحن إن هذا الاستعراض لمختلف الروايات يدلي بأن المسلين هم الذين دبروا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجي ، وإنه

---

(١) Anales Regios hasta 829; cit. por R.M. Pidal : ibid ; p. 191 & 192

(٢) R. M. Pidal : ibid ; p. 193&194 . وراجع أيضاً Conde : Ibid., V.I. p.201 و Dozy : Hist. V. I. p. 243 & notes . وهل أدل على أن العرب هم الذين مزقوا مؤخرة الفرنج من أنشودة رولان الشهيرة ، التي نتحدث عنها بعد .

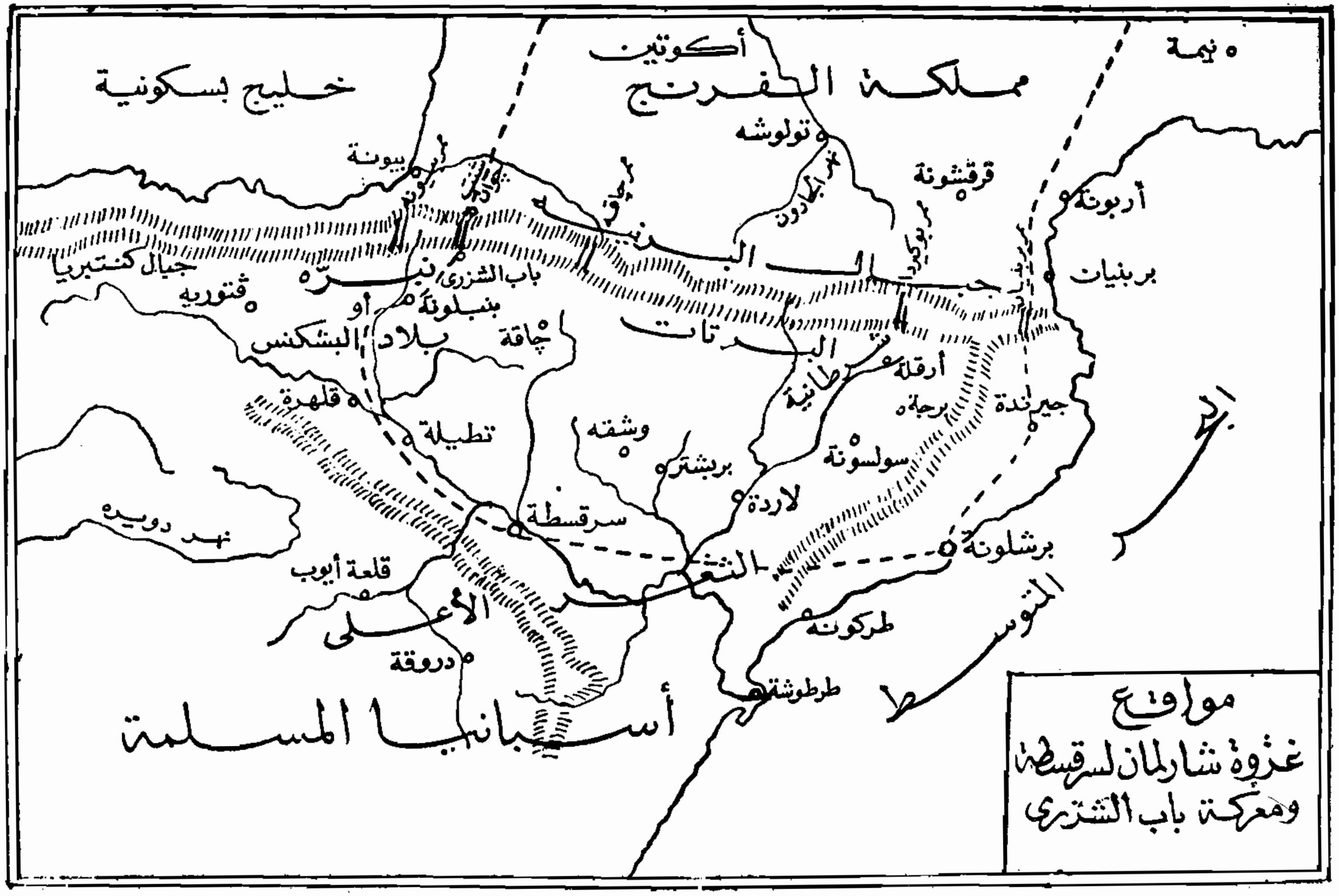

مواقع
غزوة شارلمان لسرقسطة
ومعركة باب الشزرى

فيما يرجح قد اشتركت معهم جموع كبيرة من البشكنس فى هذا الهجوم ، وإن مضمون أنشودة رولان حسبما نقدمه بعد ، يؤكد هذا الاستنتاج فى إسناد الدور الرئيسى فى الموقعة إلى المسلمين .

وقد وصفت لنا إحدى هذه الروايات اللاتينية ، تعاون المسلمين والبشكنس فى الهجوم ، وفيها «أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوى الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة ، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل ، وأن الكمين وقع فى الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد . وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ولاسيما مطروح وعيشون ولدى ابن الأعرابى ، وكان هذا التحالف ضرورياً ، لأن المسلمين كانوا فى حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد وهو ما يتقنه البشكنس ، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين فى التنظيم العسكرى ، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التى ارتجت لها سائر إسبانيا »(1) .

وقع هذا الهجوم الفجائى من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجى بمعاونة البشكنس ، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها . ذلك أن الفرنج لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم فى تلك الشعاب الضيقة المنحدرة . وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجى ، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة وفى مقدمتها الخزانة الملكية ، وكذلك الرهائن ، وفى مقدمتهم سليمان ، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق ، وهلك خلال المعمعة الهائلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجى وفرسانه ، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأى عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة . وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور فى أمم الغرب والنصرانية .

وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الموقعة فى ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ (ذى القعدة سنة ١٦١ هـ)(2). وقد رأينا فيما تقدم كيف تقنع الرواية العربية بالإشارة إليها فى

---

(١) Anales Regios, cit. por R. M. Pidal: ibid. p. 197

(٢) ولكن الرواية العربية تقدم تاريخها عن ذلك فتضعها فى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) وهى رواية ابن الأثير (ج ٦ ص ٥) والمقرى فى نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٣) . والظاهر من نص الرواية العربية أنها تنصرف هنا إلى بداية الحوادث لا إلى الموقعة ذاتها ، وقد وقعت فيما بعد ، وهو ما يفسر التباين بين التاريخين . ولا ريب أن الرواية الفرنجية أقرب إلى الصحة والتحقيق لأنها معاصرة قريبة من الحوادث .

عبارات موجزة ، وإن كانت مع إيجازها فى منتهى الدقة ، وكيف أن الرواية اللاتينية الفرنجية والكنسية تفيض بالعكس فى تفاصيلها إفاضة واضحة ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعض هذه الروايات التى اقتبسنا بعض نصوصها ؛ وربما كانت رواية إجنهارت (أينهارت) مؤرخ شارلمان ، عن الموقعة ، هى أدق هذه الروايات وأوثقها ، فقد كتبت فى سنة ٨٢٩ م بعد وفاة شارلمان بقليل ، واعتمد فيها على كثير من أقوال المعاصرين وشهود العيان . وهو يفصل لنا حوادثها ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة ، ومنهم إيجهارد رئيس الخاص ، وأنسلم محافظ القصر ، وهردولاند حاكم القصر البريتانى ، وكثير من الرؤساء ورجال الخاص والحاشية . وهردولاند ، هو رولان Roland بطل الأنشودة الشهيرة ، التى نظمت فيها بعد عن هذه الموقعة ، واستمدت من أناشيد معاصرة لها ، والتى ما زالت أثراً خالداً لقريض الفروسية فى العصور الوسطى . بيد أن أنشودة رولان تنحرف فى كثير من مناحيها إلى الأسطورة . وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أيما تحريف ، ولكنها تستبقى مكان الموقعة ، وبعض أشخاص التاريخ . وقد رأينا أن نورد فيما يلى خلاصة هذه القصة أو الأنشودة الشهيرة :

« غزا شارلمان إسبانيا ، ولبث يحارب فيها سبعة أعوام ، حتى افتتح ثغورها ومدنها ، ما عدا سرقسطة ، وهى معقل الملك العربى مارسيل . وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة ، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة ، بشرط أن يجلو الفرنج عن إسبانيا ، فعقد شارلمان مجلساً من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه . وكان رولان يرى أن تستمر الحرب ، ولكن فريقاً آخر من السادة برآسة جانلون كونت مايانس ، كان يرى الصلح والمهادنة ، فغلب رأى هذا الفريق ، لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال ، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة . فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر ، واتفق معه على الغدر برولان وفريقه . ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج ، وبذا قرر شارلمان الإنسحاب . وتولى رولان قيادة المؤخرة . وكان معه الأمراء الإثنا عشر ، وزهرة الفروسية الفرنجية . ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية رآى أوليفر أحد الأمراء ، جيشاً من العرب ، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل :

فتضرع إلى رولان أن ينفخ فى بوقه ليدعو شارلمان إلى نجدته ، فأبى رولان ، وانقض الجيش الهاجم على مؤخرة الفرنج ، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة . واستمر رولان يأبى طلب النجدة حتى مزق جيشه ولم يبق منه سوى ستين رجلا ، وعندئذ نفخ فى بوقه يدعو شارلمان : ثم قتل بقية أصحابه ، ولم يبق سوى رولان وأوليفر واثنين آخرين . ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم ، قرروا الانسحاب . وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا ، وأثخن رولان نفسه جراحاً حتى أشرف على الموت . ولكنه استطاع أن ينفخ فى بوقه مرة أخرى قبل أن يموت ، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية ، وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة . فعاد مسرعاً وطارد جيش العدو وسحقه . ودفن الفرنج قتلاهم ، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب . وتوفيت ألده ، خطيبة رولان حينما علمت بموته » .

هذه هى خلاصة القصة التى ترددها أنشودة رولان الشهيرة . وهى أبعد ما يكون عن وقائع التاريخ الحق . بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع ، ومن الذكريات والروايات الشفوية المتناقلة ، والأناشيد الحربية المعاصرة . وهى نورمانية الأصل ، ظهرت لأول مرة فى القرن الحادى عشر ، أعنى بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون ، ودونت أولا فى بعض القصص اللاتينية ، ثم دونت بالنظم فى ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان «أنشودة رولان» **Chanson de Roland** ولبثت تعتبر مدى عصور من أعظم الآثار الأدبية ، ومن روائع القريض الحربى ؛

وكانت حوادث هذه الموقعة الشهيرة مستقى خصباً لكثير من الكتاب والشعراء ، وكانت بالأخص مستقى لقصص الفروسية والملاحم الحماسية المغرقة ، التى تملأ فراغاً كبيراً فى الأدب الفرنجى فى العصور الوسطى(١) .

ومما يلفت النظر فى حوادث الموقعة أن شارلمان ، لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى ، أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه ، وأن يعود فيطارد تلك العصابات التى تحدته واجترأت عليه سواء من المسلمين أو البشكنس .

---

(١) راجع حوادث هذه الموقعة الشهيرة فى أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ ، وراجع أيضاً **Bouquet ; Vol. V.** **R.M. Pidal : La Chanson de Rolad. Cap. VI. p. 171 — 215;p. 14,26,42,& 208** **Hodgkin : Charles the Great p. 141—152** و **Reinaud: ibid ؛ p. 95, 96** و

وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التى وصلته عن تحرك السكسونيين ، وهم ألد أعداء الفرنج وأخطرهم ، فارتد أدراجه مسرعاً ليخوض معهم حرباً جديدة استطالت زهاء سبع سنين ، حتى تمت هزيمة زعيمهم ڤتكنت (أو ڤيدوكنت) نهائياً ، وأرغم على التنصير فى سنة ٧٨٥ م(١) .

ولم يبق بيد شارلمان ، بعد استنقاذ المسلمين للرهائن ، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، وقد لبث فترة أخرى معتقلا بفرنسا ، حتى تمت المفاوضة بشأنه ، وأطلق سراحه لقاء فدية كبيرة .

وهكذا اختتمت محاولة شارلمان غزو اسبانيا المسلمة والتدخل فى شئونها ، بنكبته والقضاء على زهرة جنده ، وقد أسبلت هذه النكبة مدى حين سحابة على مجده الحربى . بيد أنها لم تكن كما سنرى آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنج ، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة ، ترقب سير الحوادث فى الأندلس لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها .

* * *

ونستطيع بعد أن استعرضنا أدوار هذه الموقعة الشهيرة التى تركت فى عصرها أعظم صدى فى الروايات الفرنجية (اللاتينية) والكنسية المعاصرة واللاحقة ، وبعد أن سجلنا ممهداتها وحوادثها تفصيلا . أن نعود فنلقى نظرة مقارنة على موقف الروايات العربية واللاتينية إزاء الموقعة ، وكيف تعاملها كل منها .

وأول ما يلفت النظر هو حسبما قدمنا ، إيجاز الروايات العربية ، فى الوقت الذى تميل فيه الروايات اللاتينية إلى الإفاضة الواضحة . وقد كان خليقاً بالرواية العربية أن تبسط القول فى حوادث موقعة لها من الخطورة البالغة ما لموقعة « باب الشزرى » خصوصاً وقد كان التفوق فيها للجانب الإسلامى . ولكن الرواية العربية لم تنظر إلى الموقعة إلا من حيث ارتباطها بحوادث الأندلس ، ومن جهة أخرى فإنها لم تكن على علم تام بما يدور فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، فى مملكة الفرنج الشاسعة ، ولم تقف على آثار الصدى الهائل الذى أحدثه تمزيق جيش شارلمان داخل مملكة الفرنج ، وفى سائر الأمم المتصلة بها ، ولاسيما القبائل السكسونية ألد أعداء الفرنج يومئذ .

---

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 199

وثمة فرق واضح آخر بين الروايتين العربية واللاتينية ، هو أن الأولى تنوه بأن شارلمان قاد حملته إلى اسبانيا استجابة لدعوة الخوارج المسلمين ليعمل معهم ضد إمارة قرطبة ، وأن الثانية تنوه بأن حملة شارلمان إنما كانت موجهة إلى إخضاع البشكنس .

ومع ذلك فإن الرواية العربية على إيجازها تقدم إلينا ممهدات الموقعة وعناصرها الأساسية بمنتهى الدقة ، بل إن العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال ، وهو آخر من تناول حوادث هذه الموقعة من النقدة المحدثين بإفاضة ، وبأسلوبه النقدى الرائع ، يقرر لنا أن الرواية العربية هنا ، هى أرقى بكثير من الرواية اللاتينية ، وأنها فيما يتعلق بغزوة شارلمان لإسبانيا ، أبعد من أن تنحدر إلى الغموض والتناقض ، وأنها بالعكس تقدم إلينا بعض أنباء فى منتهى الأهمية والجدارة .

ويدفع الأستاذ پيدال ما يرمى به بعض الباحثين مثل باسيه وغيره ، الرواية العربية من أخطاء وسابقات تاريخية ، ويؤكد بالعكس أنه لاتناقض بين النصوص العربية واللاتينية ، وكل ماهنالك أن كلامنهما يركز اهتمامه فى نقط معينة ، وكلتاهما تتفق مع الأخرى فى الحوادث الرئيسية(١) .

---

(١) R.M. Pidal : ibid., p. 177, 178

الفصل الخامس

ولاية عبد الرحمن الداخل

— ٢ —

عبد الرحمن وحوادث الشمال . ظهور الصقلبي فى شرق الأندلس . استئنافه للدعوة العباسية . تحالفه مع ابن يقظان ثم خلافه معه . مسير عبد الرحمن إلى قتال الصقلبي . التجاؤه إلى بلنسية . مصرعه وانهيار دعوته . ثورات محلية مختلفة . حوادث الشمال . مصرع ابن يقظان . مسير عبد الرحمن إلى سرقسطة وحصارها . خضوع الحسين الأنصارى . عبد الرحمن يغزو ناڤار وشرطانية . قتله لعيشون ابن سليمان . عود الحسين إلى الثورة . إرسال عبد الرحمن حملة لقتاله . حصار سرقسطة وثبات الحسين . مسير عبد الرحمن إلى قتاله . هزيمته ومصرعه . تفاهم عبد الرحمن مع شارلمان وسعيه إلى مصاهرته . ائتمار الوافدين من الأموية بعبد الرحمن . صرامته فى إخماد هذه المؤامرات . حديث ينسب إليه عنها . فرار محمد بن يوسف الفهرى وثورته فى طليطلة . مسير عبد الرحمن لقتاله . موقعة قسطلونة . هزيمة محمد وفراره . استئنافه للثورة فى قورية . هزيمته ووفاته . أخوه أبو القاسم . خروجه ثم خضوعه . انتهاء الثورة . خاتمة الكفاح الرائع .

بينما كانت هذه الحوادث الخطيرة تجرى فى الشمال ، كان عبد الرحمن الأموى فى الجنوب يكافح الثورة فى مختلف الأنحاء . وكانت ثورة البربر قد شغلته واستنفدت معظم قواه أعواماً متوالية . بيد أنه ما كاد يفرغ من سحقها حتى ظهر فى شرق الأندلس خطر جديد قوامه الدعوة العباسية . ذلك أن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أحد زعماء الفهرية ، وهو المعروف بالصقلبي نظراً لطوله وشقرته وزرقة عينيه ، عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس فى قوة كبيرة ، ونزل بساحل تدمير (مرسية) فى شرق الأندلس ، ودعا للخليفة العباسى (سنة ١٦١ هـ) . ويجب أن نذكر أن عبدالرحمن بن حبيب هذا هو غير سميه عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية الذى فصلنا أخباره من قبل ، فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية منذ سنة ١٤٠ هـ ، بعد أن خرج على طاعة بنى العباس[1]. ولا نعرف علاقة الصقلبي

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

بيوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وربما كان من أبناء عمومته[1]. بيد أنه كان من زعماء الفهرية وزعماء الثورة على بنى أمية . وكانت حركة الصقلبي فى تدمير ، كحركة العلاء بن مغيث من قبل فى باجة ، ولكنها كانت أشد خطراً ، لأن الصقلبي سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة فى الشمال سليمان بن يقظان وتحالف معه[2] . والظاهر أن هذا التحالف كان بعد عبور الفرنج إلى إسبانيا وموقعة باب شيزروا . ولكن ابن يقظان لم يف بوعده فى إمداده لقتال عبد الرحمن الأموى ، فغضب منه وسار لقتاله ، فهزمه ابن يقظان فى ظاهر برشلونة . فعاد إلى تدمير ولبث مدى أشهر ينظم قواته وأهبته ، ولكن عبد الرحمن لم ينتظر حتى يهاجمه ، بل سار بنفسه ، وهاجمه بشدة ، وأحرق سفنه الراسية بالساحل ، حتى لا يجد سبيلا إلى الفرار ، فارتد الصقلبي بفلوله إلى جبال بلنسية واستعصم بها ، وهنا لجأ عبد الرحمن إلى سلاح الاغتيال مرة أخرى ، فدس على الصقلبي بعض أصدقائه فاغتاله وحمل رأسه إليه ، وانهارت بذلك دعوته وثورته (سنة ١٦٢ و ١٦٣ هـ : ٧٧٨ — ٧٧٩ م) .

ووقعت بعد ذلك عدة ثورات محلية على عبد الرحمن بقمعها قبل أن يسير إلى الشمال ، فقد ثار دحية الغسانى ببعض حصون إلبيرة (غرناطة) ، وكان دحية من أصدقاء عبد الرحمن ومن قادته ، ولكنه نكث بعهده ولحق بالفاطمى ، فلما هلك الفاطمى ، فر إلى إلبيرة وأعلن بها الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إليه جيشاً ضيق عليه الحصار حتى أخذ وقتل . وثار إبراهيم بن شجرة بحصن موررور ،

---

(١) يقول دوزى إنه كان صهراً ليوسف الفهرى متزوجاً بإحدى بناته (ج ١ ص ٢٤٢) ولكنه لم يبين مصدراً لقوله ، ولم نجد فى المراجع العربية ما يؤيده .

(٢) يقدم إلينا دوزى ثورة ابن يقظان وحلفائه وعلاقة الصقلبى به فى صورة أخرى ، فيقول لنا ، إن هذا التحالف كان يضم ابن يقظان والحسين بن يحيى والصقلبى ومحمد بن يوسف الفهرى ، وانهم اتفقوا جميعاً على استدعاء الفرنج إلى اسبانيا ، وساروا جميعاً إلى لقاء شارلمان فى بادربورن ، واتفق على أن يقوم ابن يقظان بمعاونة شارلمان فى غزوته بينما يقوم الصقلبى بحشد البربر فى إفريقية ثم يعبر بهم إلى تدمير ليشغل عبد الرحمن بحركته (دوزى ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١) . ولكننا لا نوافق دوزى على هذا التصوير أولا لأن المصادر العربية لا تشير إلى مثل هذا التحالف الرباعى ، وتتفق جميعاً فى اعتبار حركة الصقلبى حركة مستقلة لا علاقة لها بغزوة الفرنج ، ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد فى الروايات اللاتينية المتعلقة بغزوة شارلمان لإسبانيا ما يشير إلى هذا التحالف ، وثانياً لأن محمد بن يوسف الفهرى أحد أركان هذا التحالف لم يفر من سجنه كما سنرى إلا بعد ذلك ببضعة أعوام . راجع : ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٦ .

فبعث إليه عبد الرحمن مولاه بدراً ، فهاجمه وقتله . وثار فى طليطلة القائد السلمى ، وكان من خاصة عبد الرحمن ، ثم فر من قرطبة خشية بطشه به لأمور نقمها منه ، والتفت حوله العناصر الخارجة فى تلك الأنحاء ، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً قوياً بقيادة حبيب بن عبد الملك ، فحاصره حيناً ثم قتل . وثار فى الجزيرة الخضراء واليها الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه ، وداهمه قبل أن يستكمل أهبته ، ففر الرماحس وعبر البحر إلى المشرق (سنة ١٦٣—١٦٤)(١).

وفى العام التالى تأهب عبد الرحمن لقمع الثورة فى الشمال . وكان الخلاف قد وقع بين زعيمى الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجى فى موقعة باب الشزرى ، وتربص الحسين بن يحيى الأنصارى بزميله سليمان بن يقظان ، ودس عليه ذات يوم من قتله بالمسجد الجامع ، وانفرد بالأمر فى سرقسطة وما حولها(٢). فسار عبد الرحمن إلى سرقسطة فى جيش ضخم وضيق الحصار عليها (سنة ١٦٥ هـ — ٧٨١ م) . ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان ، وكان قد فر عقب مقتل أبيه إلى أربونة ، وانضم إليه بمن معه فى مقاتلة الحسين ، فلما اشتد الحصار بالحسين طلب الصلح ، وقدم ابنه سعيداً رهينة ، فأجابه عبد الرحمن إلى ملتمسه ، وأقره والياً على سرقسطة . ثم تحول عن سرقسطة إلى الشمال الشرقى ، واخترق بلاد البشكنس (ناڤار) ليعاقب أهلها على عيثهم وعدوانهم ، وغزا عاصمتها بنبلونة ، وأثخن فيها وخرب قلاعها ، وغزا قلهرة وبقيرة (ڤكيرا) ، واجتاح ولاية شرطانية(٣)، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية(٤). ثم عاد إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الحكومة المركزية فى الشمال نوعاً ، وألقى على النصارى درساً يذكرهم بأن الإسلام قد استرد منعته وسلطانه فى اسبانيا . وكان سعيد بن الحسين قد فر من معسكر الأمير أثناء الطريق ، ولما حل عبد الرحمن بقرطبة توجس شراً من عيشون بن سليمان ، وكان قد عاد فى ركابه ، فأمر به

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٢ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) يقول لنا العذرى نقلا عن الرازى أن قتل الحسين لسليمان كان بتحريض من حكومة قرطبة ، وذلك على أن يولى سرقسطة (فى كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص٢٦) .

(٣) شرطانية بالإفرنجية Cerdagne وبالإسبانية Cerdana ، وهى ولاية صغيرة فى شمال شرق إسبانيا .

(٤) أخبار مجموعة ص ١١٤ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ .

فقتل . ولما رأى الحسين بن يحيى أن عبد الرحمن قد ارتد عنه ، وعاد إليه ولده سالماً ، نكث بعهده وعاد إلى الثورة ، وعاث فساداً فى سرقسطة وأعمالها ، فاعتزم عبد الرحمن أن يعود إلى قتاله ، وأن ينكل به وبأنصاره فى تلك المرة . فبعث إلى الشمال جيشاً كثيفاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة ، فخرج الحسين إلى لقائه ، ووقعت بينهما معارك شديدة هزم فيها الحسين ، وأسر ولده يحيى وعدة من صحبه ، فأرسلوا إلى قرطبة حيث أمر عبد الرحمن بإعدامهم ، وامتنع الحسين بالمدينة واستمر غالب فى حصاره . وفى العام التالى (سنة ١٦٧ هـ — ٧٨٣ م) سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة ، وضربها بالمجانيق ضرباً عنيفاً حتى هدم أسوارها ، واقتحمها عنوة ، وقبض على الحسين وجماعة من صحبه ، وقتلهم جميعاً ، وشرد كثيراً من أهلها ، وفر سعيد ولد الحسين ، وعين عبد الرحمن قائده ثعلبة بن عبيد والياً لسرقسطة ، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسبما تقدم ؛ وركدت بذلك ريح الثورة فى الشمال مدى حين[1] .

وشغل عاهل الفرنج شارلمان مدى حين عن شئون إسبانيا ، لأن القبائل السكسونية عادت فنكثت طاعته ، وعاد لقتاله خصمه القوى ڤيدوكنت ، واستمرت الحرب بينهما زهاء سبعة أعوام وانتهت بهزيمة السكسونيين ، وخضوع زعيمهم وإرغامه على التنصير (سنة ٧٨٥ م) . بيد أن عبد الرحمن رأى أن يتفاهم مع زعيم الفرنجة ، وأن يؤثر صداقته ومدارته على خصومته ، فبعث إليه يطلب عقد الصداقة معه ، ويكاشفه برغبته فى مصاهرته ، فأجابه شارلمان إلى السلم ولم تتم المصاهرة[2]. وفى بعض الروايات أن شارلمان هو الذى عرض على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته فاعتذر عبد الرحمن باعتلال صحته[3] . واستمر السلام معقوداً بين الزعيمين حتى وفاة عبد الرحمن .

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) المقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٥٥) . ولا تقدم الرواية لنا تفصيلا عن مشروع المصاهرة هذا ، ولكن الظاهر أن عبد الرحمن طلب الاقتران بإحدى بنات شارلمان ، والمرجح أنها « هروترود » كبرى بناته ، وكانت وحدها تصلح للزواج فى ذلك الحين . ويرى رينو أن المقصود بهذه الإشارة إنما هو عبد الرحمن الثانى أو عبد الرحمن الأوسط حفيد عبد الرحمن الداخل ، فقد كانت علائقه بملك الفرنج (شارل الأصلع) على ما يرام ، وكان هذا الاتصال بين الأمراء الفرنج والمسلمين ذائعاً **(Reinaud : ibid , p. 98)**

(٣) راجع : **Scott : Moorish Empire, V.I. p. 40**

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة نمى إليه خبر مؤامرة خطيرة دبرت لسحقه ، بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ، وهذيل ولد الصميل بن حاتم . ولم تكن هذه أول مؤامرة من نوعها ، فقد دبرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة ١٦٣ هـ مؤامرة أخرى ، وعلى رأسها أيضاً اثنان من أقطاب بنى أمية ، الذين وفدوا على الأندلس حينما تألق طالع عبد الرحمن ، هما عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدى ، وهو ابن عم عبد الرحمن ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية وهو ابن أخيه ، وذلك بمعاونة أبى عثمان كبير الدولة . وكان عبد الرحمن منذ تم له الأمر ، يسعى إلى استقدام فل بنى أمية من المنفى ، ويدعوهم إليه ليكونوا له عوناً وعصبة ، ويظلهم برعايته ، ويغدق عليهم من نعمه ، ويختارهم لمختلف المناصب . ولكن روحاً سيئاً من الحقد والحسد ، كان يحفز أولئك الأقارب لمناوأة ذلك الذى هيأت له الأقدار أن يفوز دونهم ، بتراث بنى أمية فى الأندلس . فائتمروا به غير مرة ، وشجعهم على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين ، ولكن عبد الرحمن كان يكتشف الخطر قبل وقوعه ، ويسحقه بكل ما أوتى من شدة وصرامة ، فلم يحجم حينما وقف على المؤامرة الأولى ، عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدى وعبيد الله ابن أخيه أبان ، وعفا عن أبى عثمان لمكانته وسابق صنيعه . ولم يحجم حينما وقف على المؤامرة الثانية ، عن قتل المغيرة بن أخيه الوليد ، وزميله هذيل بن الصميل ومن معهما ، ونفى أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب . وقد نقل إلينا مؤرخ أندلسى عن بعض موالى عبد الرحمن ، أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة ، ابن أخيه ، وهو مطرق شديد الغم فرفع رأسه وقال : « ما عجبى إلا من هؤلاء القوم . سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلو علينا بالسيوف . ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به ، حتى أمنوا وردت عليهم أخلاف النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا فى البرىء منهم ، وساء أيضاً ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه »[1] .

---

(١) الحجارى فى كتابه « المسهب » ؛ ونقله المقرى فى نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٢ و ٧٣) .

وفى ذلك الحين فر أبو الأسود محمد بن يوسف الفهرى من سجنه ، ورفع لواء الثورة فى طليطلة . وكان محمد سجيناً فى قرطبة منذ مقتل أبيه ، ثم فراره وأسره ثانية فى حوادث طليطلة سنة ١٤٢ ه كما قدمنا . وتظاهر محمد عندئذ بالعمى ، وأتقن حيلته حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه ، وأشفق عبد الرحمن عليه فأبقاه ولم يقتله كأخيه ، وأنفق محمد فى أسره أعواماً طويلة حتى أهمل شأنه ، ولم يعد يكترث أحد به ، وعرف بالأعمى . ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به ، ففر من سجنه الواقع على النهر الكبير ، وجاز النهر سباحة ، ولحق بطليطلة سنة ١٦٨ ه وأعلن الثورة . والتفت حوله جموع كبيرة من الفهرية والقيسية ، ومن إليهم من عناصر الخروج والثورة ، وسار فى قواته صوب جيان ، فخرج عبد الرحمن إلى قتاله ، ووقعت بينهما معارك عديدة ، كان النصر فيها لعبد الرحمن . ولكن أبا الأسود لبث حيناً محتفظاً بمراكزه وقواته . ثم نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة فى الوادى الأحمر ، بمكان يعرف بمخاضة الفتح ، معركة شديدة حاسمة ، ولجأ عبد الرحمن إلى الخديعة ، فاتفق مع بعض قادة أبى الأسود على التقاعد والغدر ، فهزم أبو الأسود هزيمة شديدة ، وقتل من جنده عدة آلاف ، وغرق عدد كبير فى النهر ، وطارده عبد الرحمن حتى قلعة رباح ، ومزق جيشه كل ممزق (ربيع الأول سنة ١٦٨ ه — ٧٨٤ م)[١]. ولكن محمداً لم يخضع ولم يهن عزمه ، فارتد إلى جهة الغرب ونزل بقورية ، وعاد يحشد قواته لاستئناف القتال ، وقوى أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء ، فسار عبد الرحمن لقتاله ثانية ، وهاجم قورية ومزق شمل قواته (سنة ١٦٩ ه — ٧٨٥ م) ، ففر فى نفر من صحبه إلى بعض قرى طلطلية ، وهنالك توفى لأشهر قلائل (سنة ١٧٠ ه). فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف ، واقترن بزوجته ، وعاد ينظم الثورة فى طليطلة . فسار عبد الرحمن لقتاله قبل أن يستفحل أمره ، ولم ير أبو القاسم بداً من الخضوع والتماس الصلح والعفو ، فأجابه الأمير إلى ملتمسه ، وصحبه معه إلى قرطبة ، ورد إليه بعض أموال أسرته[٢] ، وطويت بذلك آخر مرحلة فى ثورة

---

(١) يضع الرازى تاريخ هذه الموقعة فى أول ربيع الأول سنة ١٦٨ (ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٧) ويتبعه فى ذلك ابن الأثير فيضع تاريخها سنة ١٦٨ ه . ولكن صاحب البيان المغرب يجعل تاريخها فى سنة ١٦٩ ه (ج ٢ ص ٥٩) .

(٢) ابن الأبار ص ٥٦ و ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٢ و ٥٩ و ٦٠ ، ويروى ابن الأثير أن عبد الرحمن لم يبق على أبى القاسم بل قتله (ج ٦ ص ٢٦) .

الفهرية ، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبد الرحمن ، ولم يعش بعدها سوى عدة أشهر .

وهكذا أنفق عبد الرحمن جميع حكمه — ثلاثة وثلاثين عاماً — فى كفاح مستمر . وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة . أن يطمح فتى شريد ، يعمل القتل الذريع فى أسرته وعصبته ، وحيد ليس له أنصار ولا صحب ، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجند ، وأن يخضع ذلك القطر فى حروب لا يخمد أوارها ، وسيول من الدماء لاتنقطع ، وأن يقيم ملكاً على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة : تلك هى قصة عبد الرحمن الأموى ، وهى قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية ، ولايقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها . ولكن عبد الرحمن كان رجل الموقف ، وكانت حوادث الجزيرة (إسبانيا) وظروفها ، وتمزق شملها ، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها ، وتسير بها نحو السلام والأمن ، تفسح مجال الطموح والعمل لذهن جرىء مغامر كذهن عبد الرحمن . وكان عبد الرحمن يجمع إلى فيض جرأته ، كثيراً من الذكاء والدهاء والعزم ، ولم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التى كادت تزهق غير مرة ، وكان يحملها فى كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع . ولكن الغنم كان عظيماً : كان ملكاً بأسره ، وكان بعث أسرة هوت ومجد عريض دثر . وسنعرض فى الفصل القادم طرفاً من خلال تلك الشخصية الباهرة ، التى تتبوأ مكانها بين أسطع شخصيات التاريخ الإسلامى .

الفصل السادس

خلال عبد الرحمن ومآثره

(١) وفاة عبد الرحمن الداخل . شخصيته . أساليبه . إقدامه وجرأته وقسوته . بطشه بآله وأصدقائه . نزعته الميكافيلية . تعليقات دوزى على سياسته . خلاله الباهرة . وصفه بصقر قريش . (٢) نوع رياسته . قطعه الدعاء لبنى العباس . إحجامه عن التلقب بالخلافة . أقوال ابن خلدون فى ذلك . نظام الحكومة فى عهده . حجابه وأعوانه . استرابته بالعرب بعد الثقة فيهم . اصطناعه للموالى والبربر . سياسته نحو النصارى . مقدرته الإدارية . عنايته بالجيش والأسطول . تفكيره فى غزو الشام . منشآته بقرطبة . الرصافة . السور الكبير . المسجد الجامع . (٣) كرمه وتواضعه . نقش خاتمه . خلاله الأدبية . نثره وشعره . (٤) عناصر المجتمع الأندلسى . العرب والبربر والمولدون . النصارى المعاهدون واليهود .

— ١ —

توفى عبد الرحمن الأموى فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (٢ أكتوبر سنة ٧٨٧ م)[1] وهو فى نحو الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً ملؤها الخطوب والفتن . فخلفه ولده هشام بعهد منه لأيام قلائل من وفاته . وانتظم بذلك سلك الدولة الأموية بالأندلس بعد أن تصرم بالمشرق ، واستؤنفت حياة تلك الدولة الزاهرة ، التى بلغ الإسلام على يدها ذروة الفتح والظفر ، والتى ذهبت سراعاً كالحلم فى عنفوان قوتها .

(١) يختلف المؤرخون فى تاريخ وفاة عبد الرحمن . ويستفاد من أقوال صاحب أخبار مجموعة أنها وقعت فى أوائل سنة ١٧٢هـ (ص ١١٦) . ويوافقه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد على ذلك ، فيقول إنها وقعت فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ (العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١) . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يضعها فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧١ (المقرى ج ٢ ص ٧٢) . وهذه أيضاً رواية ابن الأبار (الحلة ص٣٧) .على إننا نرجح الرواية الأولى لقدمها ،وهى أيضاً رواية ابن عذارى حيث يضع وفاة عبد الرحمن فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠) . ويضعها كل من ابن خلدون (ج ٤ ص ١٢٤) ، والمراكشى (المعجب ص ٩) فى سنة ١٧٢ هـ دون تعيين للشهر . ويضعها ابن الأثير فى ربيع الآخر سنة ١٧١ ، ولكنه يرجح وقوعها سنة ١٧٢ هـ (ج ٦ ص ٢٧) .

كان سقوط الدولة الأموية بالمشرق مأساة من أروع مآسي التاريخ الإسلامى ، وكانت تلك الشخصية التى قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة ، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة . كان عبد الرحمن الأموى يتمتع بعبقرية ممتازة وخلال نادرة . وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبى سفيان ، ينشئ مثله دولة ، ولكن فى ظروف أسوأ من ظروفه ، ويهزم الخطوب والحوادث ، ويسحق خصومه فى كل ميدان ، ويؤثر مثل السياسة العملية على كل اعتبار ، ويذهب توا إلى الغاية بأى الوسائل . وكانت المحنة المروعة التى نزلت بأسرته ، والظروف العصيبة التى يواجهها ، والخصومات والأحقاد المستعرة التى تحيط به ، تحمل خلاله القوية إلى ذروة التطرف ، وتدفعه إلى التذرع بأشد الوسائل . فنراه يقرن وافر العزم بفيض من الجرأة والمغامرة واحتقار الخطر ، ويقرن وافر الدهاء بنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك ، ويقرن وافر الحزم والصرامة بنزوع إلى القمع الذريع ، ويذهب فى الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة . ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن وفياً يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له ، وإن لم يحجم لأقل ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه . وقد رأينا هذه الخلال واضحة بارزة ، فى كثير مما تقدم من حوادث حياته ونضاله ، فرأيناه مراراً يلجأ إلى الغدر والاغتيال للتخلص من خصومه ، ورأيناه فى مواطن كثيرة يزهق دون تردد ، كل من وقع فى يده من أولئك الخصوم أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء . وذهب عبد الرحمن فى صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه ، الذين آزروه يوم مقدمه ، شريداً لاعصبة له ، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والحكم ، وكان قد أولاهم فى المبدأ ثقته وجعلهم عماد دولته . ومن هؤلاء بدر مولاه الذى جاب معه القفر وخاض الغمار ، وكان مثالا للشجاعة والدهاء وبعد النظر ، فإنه قدر فى البداية خلاله وكفايته وولاه القيادة واختصه بأسمى المناصب والمهام ، ولكنه تغير عليه فى أواخر عهده ، لما أبداه من التذمر وعدم الرضى ، ولما وجهه إليه من عتاب خشن تجاوز فيه حد اللياقة ، فنكبه وجرده من مناصبه وأمواله ، وشرده عن قرطبة إلى قاصية الثغر ، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات فى فقر وضعة[1] . ومنهم أبو عثمان رأس أنصاره ،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ و ٧١ ، حيث يورد طرفاً من الرسائل التى تبادلها عبد الرحمن وبدر ، والتى انتهت بنكبة بدر . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣ .

وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه ؛ فإنه جعله كبير دولته ، فلما توطد أمره جرده من نفوذه ، ولما وقعت المؤامرة التى دبرها بعض الوافدين من بنى أمية ، واتهم أبو عثمان بالاشتراك فى تدبيرها استراب به ، ولم ينقذه من بطشه إلا عظم صنيعه لديه . ولما ثار ابن أخت أبى عثمان فى بعض حصون إلبيرة ، لم يتردد عبد الرحمن فى قتله حين ظفر به . وكذا تغير عبد الرحمن على عبد الله بن خالد ، صهر أبى عثمان وزميله فى مؤازرة عبد الرحمن ونصرته ، وكان من وزرائه ، ثم اعتزل المنصب ، وتوارى لما رأى من غدر عبد الرحمن بزعيم اليمنية أبى الصباح ، وكان أبو الصباح هو الذى جمع كلمة اليمنية فى إشبيلية حول عبدالرحمن وقاتل معه بصحبه ، ثم انحرف عنه لأمور نقمها منه ، فاستدرجه عبد الرحمن إلى قرطبة وفتك به فى نفس مجلسه بالقصر ، ناكثاً لعهوده كما قدمنا[1]. بل لم يحجم عبد الرحمن عن الفتك بذويه وخاصة أسرته ، حينما نمى إليه أنهم يأتمرون به ، فقتل ابنى أخيه عبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد ، وابن عمه عبد السلام اليزيدى حسبما فصلنا .

والخلاصة أن عبد الرحمن كان يلجأ فى تحقيق غاياته إلى أروع الأساليب والوسائل ، وكان طاغية مسرفاً فى البطش والسفك ، مكيافيللياً[2] بكل معانى الكلمة . ولكن تلك الخلال المثيرة التى كان يحفزها ويذكيها الخطر الداهم ، كانت عنوان قوته ووسيلة ظفره . يقول دوزى : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غاليا ، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم ، الذى لاتأخذه رأفة . ولم يبق زعيم عربى أو بربرى ، يجرؤ على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية . ولم يك ثمة رجل يرغب فى خدمته » . ثم يقول : «كان هم عبد الرحمن الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة ، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام ، وقد لجأ فى تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل ، التى لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع . بيد أنه كان مصيراً محزناً ذلك الذى دفع القدر إليه اسبانيا ، وكانت مهمة محزنة تلك التى كان على خلفاء عبد الرحمن أن يضطلعوا بها . ذلك أن الطريق الذى رسمه لهم مؤسس الأسرة ، كان طريق الطغيان يؤيده السيف . ولكن من الحق أن نقول إن ملكاً لايستطيع أن يحكم العرب والبربر

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ و ٧١ .

(٢) نسبة إلى مكيافيللى صاحب المذهب السياسى المشهور ، وخلاصته أن للأمير أن يتذرع فى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ومنها الغدر والخيانة والسفك وكل ما إليها .

بغير هذه الوسيلة ، وإذا كان العنف والطغيان ثمة فى ناحية ، ففى الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى »(١) .

على أن عبد الرحمن كان إلى جانب هذه الصفات المثيرة ، يتمتع بكثير من الخلال الباهرة . وقد أجمل ابن حيان مؤرخ الأندلس خلاله فى تلك العبارات القوية ، قال : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لايخلد إلى راحة ، ولايسكن إلى دعة ، ولايكل الأمور إلى غيره ، ثم لاينفرد فى إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحذر قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخياً ، طلق اللسان »(٢) وهذا التصوير الرائع الذى يقدمه لنا ابن حيان عن خلال تلك الشخصية الممتازة ، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة ، توضحها فى جملتها وفى تفاصيلها حياة عبد الرحمن فى جميع أدوارها .

ويشبهه ابن حيان أيضاً بأبى جعفر المنصور فى قوة الشكيمة ، ومضاء العزم ، وفى القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر(٣).

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً ، لا تحمل على الحب ، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب . بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة ، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة ، التى خاض عبد الرحمن غمارها ، وتلك المحن الأليمة التى نزلت بأسرته ، وتلك الجهود الفادحة التى بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته فى الحياة والرياسة . وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة ، تحمل ألد خصوم عبدالرحمن على احترامه والإعجاب به ، حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور « صقر قريش » فى حديث طريف تنقله إلينا الرواية ، وهو أن المنصور قال يوماً لبعض أصحابه ، « من صقر قريش من الملوك ؟ » قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء . قال ما صنعتم شيئاً . قالوا فمعاوية ، قال ولا هذا . قالوا

---

(١) Dozy : Hist. V. I. p. 245, 248

(٢) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

فعبد الملك بن مروان ، قال لا . قالوا فمن يا أمير المؤمنين؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذى تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف ، يعبر القفر ، وركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلل له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عزته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين[١] .

هذا وأما عن شخصه ، فقد وُصف عبد الرحمن ، بأنه كان مديد القامة ، نحيف القوام ، أعور ، أخشم[٢] ، له ضفيرتان ، أصهب[٣] ، خفيف العارضين ، له خال فى وجهه[٤] .

— ٢ —

كانت الأندلس حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، ولاية من ولايات الخلافة الأموية . فلما انهار سلطان بنى أمية ، انفرد يوسف بالأمر ، وغدت الأندلس فى عهده إمارة مستقلة . وتلقى عبد الرحمن الأموى تراث الإمارة كما خلفه يوسف ، ولم ينشئ رغم كونه سليل بنى أمية ، لنفسه شيئاً جديداً من رسوم الملك . وتلقبه الرواية الإسلامية أحياناً بالأمير ، وأحياناً بالإمام[٥] ، ويلقب أيضاً بصاحب الأندلس[٦] . ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل لأندلس من أمراء بنى أمية وحكمها ، ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الأول ، لأنه أول أمراء ثلاثة من بنى أمية بهذا الاسم حكموا الأندلس ، هم عبد الرحمن الداخل ،

---

(١) راجع أخبار مجموعة ص ١١٨ و ١١٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦١ و ٦٢ ، وبين الروايتين اختلاف يسير فى الألفاظ .

(٢) هو الذى فقد حاسة الشم .

(٣) من الصهبة والصهوبة وهى احمرار الشعر .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ .

(٥) راجع أخبار مجموعة ص ١٠٠ — ١٠٤ حتى نهاية الحديث عن عبد الرحمن ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ وما بعدها ، وص ٦٠ ، حيث ينعت عبد الرحمن بالإمام ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ ، والروض المعطار (القاهرة ١٩٣٧) ص ١٨٦ .

(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

وحفيده عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم) ، ثم عبد الرحمن الناصر .

وكانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن ، وذاعت فى منابرها ، ودعى فى الخطبة لبنى العباس فى كثير من النواحى ، ثم دعى لهم فى قرطبة ذاتها ، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبى جعفر المنصور مدى أشهر ، وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه ، عملا من أعمال السياسة . ولكن جماعة من بنى أمية الذين وفدوا على الأندلس ، وعلى رأسهم عبد الملك المروانى ، اعترضوا على هذا التصرف ، ونوهوا بما أثم به بنو العباس فى حق بنى أمية ، وما زالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بنى العباس من الخطبة (١٣٩ هـ) ، فقطعت من سائر منابر الأندلس[١] . ولكن عبد الرحمن لم يحاول أن يتخذ سمة الخلافة قط ، رغم كونه سليل أقيالها . ويرجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية ، يجملها ابن خلدون فى قوله ، إن بنى أمية بالأندلس « تلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك ، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية ، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم عن مهالك بنى العباس »[٢] . ويقول لنا فى موضع آخر إن عبد الرحمن لم يتخذ سمة الخلافة تأدباً منه فى حق الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب[٣]. ويقول المسعودى إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بنى أمية إلا من كان مالكاً للحرمين ، ولذلك سموا بالخلائف ، حتى بعد أن تسموا بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء[٤]. وعلى أى حال فإن بواعث السياسة العملية ، هى التى حملت عبد الرحمن على سلوك هذا المسلك ، والحرص على عدم التورط فى رسوم لم يحن الوقت لاتخاذها ، والدخول بذلك مع الخلافة العباسية القوية فى منافسة لا تؤمن عواقبها .

وأما عن نظام الحكومة ، فقد اتبع عبد الرحمن الداخل سنة أسلافه بالمشرق فى تبسيط الرسوم والنظم ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه فى القيام بمهام الحكم ، وليست لهم سمة الوزارة ، وإنما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى . واختار أعوانه فى

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء (ليدن) ص ٣٣ .

(٢) المقدمة ص ١٩٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ .

(٤) المسعودى فى مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ .

البداية من أصدقائه ، الذين استقبلوه يوم مقدمه ، وآزروه وقاتلوا معه ، فولى حجابته تمام بن علقمة ، ثم ولاها من بعده ليوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك ابن مروان ، ثم عبد الكريم بن مهران الغسانى ، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة ، وولاها فى آخر أيامه لمنصور الخصى ، فلم يزل فى حجابته حتى توفى . وعين لمشورته أبا عثمان عبيد الله بن عثمان كبير أنصاره ، وصهره عبد الله بن خالد ، فكانا مدى حين دعامة حكومته . وكان من أعوان حكومته أيضاً جدار بن عمرو ، وأبو عبدة حسان بن مالك زعيم إشبيلية ، وشُهيد بن عيسى ابن شهيد ، وعبد السلام بن بسيل الرومى ، وهما من موالى بنى أمية ، وثعلبة ابن عبيد الجذامى الذى ولاه سرقسطة فيما بعد ، وعاصم بن مسلم الثقفى وهو من خاصة أنصاره يوم المسارّة . وولى قيادة عسكره مولاه بدراً ، وتمام بن علقمة ، وعبد الملك المروانى ، وثعلبة بن عبيد ، وغيرهم من خاصة عصبته ، وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش ، فى معظم الوقائع والحروب التى نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا . وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه ، وذوى رحمه الوافدين عليه حسبما فصلنا فى مواضعه . وعلى الجملة فقد كانت حكومة عبد الرحمن الداخل تقوم فى البداية بالأخص على العصبية والموالاة ، وكانت عربية فى بنائها وروحها ، ولكن الخصومة المستعرة التى شهرها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن ، والثورات المستمرة التى عملوا على إضرامها من حوله ، ونكثهم المتكرر بعهودهم ، حمله على الاسترابة بالعرب والحذر منهم ، فمال عنهم إلى اصطناع الموالى والبربر ، ولاسيما بربر العُدوة (المغرب) وحشد حوله من الموالى والبربر والرقيق آلافاً مؤلفة ، لتكون له وقت الحاجة عوناً يركن إليه ويثق به . وكان ذلك قاعدة للسياسة التى سار عليها خلفاء عبد الرحمن الداخل من بعده ، والتى بلغت ذروتها فى عهد عبد الرحمن الناصر ، كما نفصل فى موضعه[١] .

وأما عن سياسة عبد الرحمن نحو رعاياه النصارى (المستعربين) ، ونحو نصارى الشمال ، فقد كانت سياسة اعتدال ومهادنة . وكان من الواضح أنه نظراً لاشتغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية ، لم يفكر فى غزو أرض النصارى ، وأنه

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٦٧ .

كان يرحب بعقد السلم والمهادنة معهم . وهذا الأمان الذي يقال إن عبد الرحمن أصدره لجيرانه نصارى قشتالة يؤيد هذه السياسة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن ، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة ، ومن تبعهم من سائر البلدان . كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة ، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ، ومثلها من البغال ، مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح ، في كل عام إلى خمس سنين ، كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة (٧٥٩ م) »[١] .

وكان عبد الرحمن الداخل يتمتع بمواهب إدارية باهرة ، فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة ، وأن يقمع كثيراً من ضروب الفساد والبغي ، وأن يؤيد هيبة القانون والنظام . ولما توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعاً ، استطاعت الأندلس أن تتمتع في ظل حكومته بأمن وطمأنينه ورخاء لم تعرفها منذ بعيد ، ولو لم يُشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية ، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل ، أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً ، وأن يجعل منها حديقة يانعة . على أنه ذلل الصعب ومهد الطريق لعقبة ، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة ، التي غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى . وينوه ابن حيان مؤرخ الأندلس بمقدرة الداخل وكفاياته الإدارية فيقول إنه «دون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته »[٢].

وعنى عبد الرحمن بالجيش عناية خاصة ، فحشد المتطوعة والمرتزقة من كل صوب، وبلغت قواته مائة ألف مقاتل[٣]، هذا عدا حرسه الخاص الذي أنشأه

---

(١) أورد ابن الخطيب في كتاب الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) نص هذا الكتاب ونقله عنه الغزيري في فهرسه . راجع Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialenses Vol. II. p. 104 . بيد أننا نرتاب على الأقل في صحة الأرقام التي وردت به لضخامتها بالنسبة لموارد النصارى في هذا العصر .

(٢) نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ .

من الموالى والبربر والرقيق حسبما قدمنا ويبلغ زهاء أربعين ألفاً[١] . كذلك عنى عبد الرحمن فى أواخر عهده بأمر القوات البحرية ، فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية ، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية وغيرها[٢]. ويقال إن عبد الرحمن الداخل لما توطد ملكه ، وكثرت قواته وعدته ، فكر فى استرداد ملك بنى أمية بالشام ، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته ، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس ، وأيده فى ذلك خاصة أسرته ومواليه . وكان ذلك فى سنة ١٦٣ هـ . ولكن اضطرام الثورة فى سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم ، وتوفى قبل أن تسنح فرصة لتنفيذه[٣]. وقد تكون هذه أمنية جالت بذهن عبد الرحمن ، ولكنا لانجد فى ظروف حياته التى انقضت كلها فى إخماد الفتن والثورات المحلية ، ما يسمح باعتبار مثل هذه الأمنية مشروعاً جدياً تتخذ العدة لتنفيذه .

واستطاع الداخل أيضاً أن يعنى بالحاضرة الأموية الجديدة أعنى قرطبة ، فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة . وكان أول ما أنشأ بها فى عهده منية الرُّصافة وقصرها المنيف. وكان قصر الإمارة بناء قديماً ساذجاً يرجع إلى عهد القوط ، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة ، تليق بحاضرة ملكه ، وتعيد ذكرى بهاء بنى أمية بالمشرق ، فأنشأ فى شمال غربى قرطبة قصراً فخماً تحيط به حدائق زاهرة ، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى من الشأم وإفريقية ، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرُّصافة تخليداً لذكرى الرصافة التى أنشأها جده هشام بالشأم ، واتخذها مقاماً ومنتزهاً ومركزاً للإمارة ، وكانت حدائق الرصافة أماً لحدائق الأندلس ، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية[٤]. وفى سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير ، واستمر العمل فيه مدى أعوام[٥]. وأنشأ عبدالرحمن فى قرطبة وفى باقى مدن الأندلس مساجد محلية عديدة ، وبدأ فى أواخر أيامه (سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦م) بإنشاء المسجد

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .
(٢) Reinaud : ibid , p. 120
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٧٦ .
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ .
(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

الأموى الجامع بقرطبة ، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة ، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد . ولكنه توفى قبل إتمامه ، فأتمه ولده هشام ، وزاد فيه من بعده ملوك بنى أمية ، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس ، وبلغ ما أنفقه عليه الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار [١]. وأنشأ عبد الرحمن أيضاً فى قرطبة داراً للسكة ، تضرب فيها النقود على نحو ما كانت تضرب فى دمشق أيام بنى أمية وزناً ونقشاً .

— ٣ —

وكان عبد الرحمن الأموى جواداً ، جم البساطة والتواضع ، يؤثر لبس البياض ويعتم به ، يصلى بالناس أيام الجمع والأعياد ، ويحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويعود المرضى ، ويزور الناس ويخاطبهم ، ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية إلا فى أواخر عهده ، حينما نصحه بعض خاصته بالترفع ، استبقاء لهيبة الملك ، والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين [٢]. وقد كان فى نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » و « وبالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » ما ينم عن ذلك التواضع الجم [٣] ، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها .

بقى أن نتحدث عن ناحية أخرى من خلال عبد الرحمن البديعة ، هى الناحية الأدبية . كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم ، ناثراً فصيح البيان ، قوى الترسل ، عالماً بالشريعة ، وكان يعتبر من أعظم بنى مروان مكانة فى البلاغة والأدب [٤]. وقد انتهت إلينا بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته . ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه : « أما بعد ، فدعنى من معارض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدن يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لألقين بنانها على رصف المعصية ، نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد » . ومنها رسائله إلى بدر مولاه ، يزجره عن تمرده وانحرافه وقد كتب إليه حين ألحف فى طلب العفو والمنة : « لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٧٦ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ و ٦٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ ؛ والمراكشى فى المعجب ص ١٠ .

ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر ... » . ومن أقواله لأصحابه يوم المسارّة يشحذ هممهم للقتال : « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون »[١] .

وانتهى إلينا من نظم عبدالرحمن ما يدل على قوة شاعريته ورقة خياله . فمن ذلك قوله حين بلغه أن بعض أصدقائه يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه :

سعدى وحزمى والمهنـد والقنا ... ومقادير بلغت وحـال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنـا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا ... أيروم تدبـير البرية غافـل
ويقول قوم سـعده لا عقـله ... خير السعادة ما حماها العـاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك فى مجلس عبد الله ابن على جلاد بنى أمية ، ونعيه عليه إثمه فى حقهم وسفكه لدمائهم ، وفقده لحياته ثمناً لجرأته ، فأنشد عبد الرحمن :

شتان من قام ذا امتعـاص[٢] ... فشـال ما قال واضمحـلا
ومن غـدا مصلتا لعـزم[٣] ... مجـرداً للعـداة نصـلا
فجاب قفـراً وشـق بحـراً ... ولم يكن فى الأنـام كـلاّ
فبز مـلكاً وشـاد عـزاً ... ومنـبراً للخطـاب فصـلا
وجنـد الجنـد حين أودى ... ومصر المصر حـين أجـلى
ثم دعـا أهـله جميـعاً ... حيث انتأوا أن هلم أهـلا[٤]

ومن قوله فى التشوق إلى ربوع الشام ، وهو رقيق مؤثر :

أيهـا الركب الميمـم أرضى ... أقر من بعضى السـلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض ... وفـؤادى ومالكيـه بأرض

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ — ٧٠ ، حيث يورد عدة من رسائل عبد الرحمن وأقواله .
(٢) يريد الغمر بن يزيد بن عبد الملك .
(٣) يريد نفسه أى عبد الرحمن الداخل .
(٤) هكذا يوردها المقرى (نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨) ؛ ولكن صاحب البيان المغرب يوردها بصورة أخرى ج ٢ ص ٦١) .

قدر البين بيننـــا فافترقنـــا　　　وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفـــراق علينـــا　　　فعسى باجتماعنا ســـوف يقضى

ورأى بروض الرصافة وهى الضاحية الجديدة التى أنشأها ، نخلة منفردة ، فأثار منظرها فى نفسه ذكرى وشجناً وأنشد(١) :

تبدت لنا وسط الرصافة نخـلة　　　تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى　　　وطول التنائى عن بني وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبـــة　　　فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها　　　الذى يسح ويستمرى ءالسماكين بالويل(٢)

— ٤ —

هذا ويجب أن نستعرض هنا ، وقبل اختتام الكلام على عصر عبد الرحمن الداخل ، عناصر المجتمع الأندلسى ، الذى كان خلال هذه الأحداث والخطوب التى توالت عليه منذ أيام الفتح ، قد استقر ، وأخذت جذوره فى التوطد والرسوخ ، وأخذت عناصره المختلفة ، يؤدى كل منها دوره فى غمرة الحوادث ، مستهدياً بعواطفه وأمانيه ومثله الخاصة .

وقد سبق أن أشرنا بإيجاز إلى أن المجتمع الإسلامى الذى قام فى شبه الجزيرة عقب الفتح ، كان يتألف من عناصر رئيسية ثلاثة ، هى العرب ، والبربر ، والمولدون . كما أشرنا إلى عناصر الشقاق والتفرق التى كانت تعمل فى صفوف هذا المجتمع الإسلامى الجديد .

كانت البطون العربية التى اشتركت فى الفتح ، واستقرت فى شبه الجزيرة تضطرم منذ البداية بروحها القبلى المتأصل ، ولم تستطع قط أن تتحرر من هذا

---

(١) وينسب هذا الشعر أيضاً لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان ، وكان من الداخلين إلى الأندلس (راجع الحلة السيراء ص ٣٤) .

(٢) يورد ابن الأبار فى هذا الموطن رواية يفهم منها أن هذه النخلة هى أول نخلة غرست بالأندلس ، ومنها تولد جميع النخل بالأندلس فيما بعد ، وإذاً فيكون عبد الرحمن الداخل هو أول من نقل غراس النخيل بالأندلس فيما نقل من غراس الشام إلى الرصافة (الحلة السيراء ص ٣٥) . ولكن يحق لنا أن نلاحظ أن العرب فتحوا الأندلس قبل ذلك بنحو ثمانين عاماً ، ومن قبلها فتحوا إفريقية ؛ ومن المعقول أن يكون النخل قد نقل إليها فيما نقلوا من غراس بلادهم ؛ وقد نقلوه قبل ذلك إلى مصر منذ الفتح . وإذا كان النخيل قد غرس بإفريقية عقب افتتاحها ، أفلا يكون من المرجح أنه قد نقل منها إلى الأندلس عقب افتتاحها أيضاً ؟ وقد كان أول ما عنى به العرب فى الأندلس تنظيم الزراعة وغرس الحدائق .

الروح النكد ، الذى أشاع فيما بينها عوامل الشقاق والتنابذ ، وأثار فيما بينها غير مرة ضرام الحرب الأهلية . وقد رأينا كيف عانت الأندلس فى أواخر عهد الولاة من هذه الحرب الأهلية ، التى اضطرمت بين المضرية واليمنية وبين البلديين والشاميين ، وكيف كادت تودى بسلامة الأندلس ومنعتها . ثم رأينا كيف قضى عبد الرحمن الداخل معظم عهده فى مكافحة الثورات المتعاقبة التى شهرها فى وجهه زعماء القبائل والبطون فى سبيل الاحتفاظ بسلطانهم المحلى . وهكذا كانت القبائل العربية فى الأندلس منقسمة على نفسها ، وإن كانت الرياسة قد بقيت فيها على يد الدولة الأموية الجديدة التى قامت فى شبه الجزيرة . بيد أن العرب لم يكونوا بين كتلة الأمة الأندلسية أغلبية ، بل كانوا بالعكس أقلية تتمثل بالأخص فى الأرستقراطية العربية التى استأثرت بمعظم مغانم الفتح ، واستولت حيناً على أزمة الحكم ، واحتلت فى شبه الجزيرة معظم البقاع الخصبة . وقد ذكر لنا ابن غالب فى « فرحة الأنفس » ، كثيراً من البطون العربية التى استقرت بالأندلس ، وبعض من كان ينتمى إليها من الأسر الأندلسية النابهة ، وذكر لنا من منازلها ، بلنسية وأوريولة وإشبيلية وغرناطة ووادى آش[1]. وكانت الأرستقراطية العربية تستقر بالأخص فى القواعد والمدن الكبيرة ، ولا سيما فى قرطبة ، وتترك العمل فى ضياعها الشاسعة للموالى والبربر ، وكان أمراء بنى أمية منذ عهد عبد الرحمن الداخل يعملون على مقارعة هذه الأرستقراطية القوية وإخضاعها ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر ، فقضى على سلطانها السياسى والاجتماعى ، ورفع إلى مكانها الموالى والصقالبة ، ثم جاء المنصور بن أبى عامر ، فعمل على تمزيقها وتشتيتها ، وخلق أرستقراطية جديدة من البربر تقوم مكانها ، ومن ذلك الحين تغيض الأصول العربية فى شبه الجزيرة تباعاً ، وتضمحل مكانتها وأهميتها .

ويرجع انكماش العنصر العربى فى الأمة الأندلسية ، أولا إلى كونه يمثل الطبقة الممتازة وهى تكون الأقلية دائماً ، وثانياً إلى أن الهجرة العربية إلى شبه الجزيرة لم تكن هجرة غزيرة ، وقد توقفت تقريباً منذ القرن الثالث الهجرى ، ولم يكن ما ينسب للأمراء والكبراء من كثرة النسل ، لامتلاء قصورهم بالجوارى ، مما يعوض هذا النقص العنصرى .

وإلى جانب الأقلية العربية الأرستقراطية ، يجب أن نذكر طائفة الموالى التى

(١) نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ و ١٣٧ .

كانت تنتمى إليها أولا وتشد بأزرها، ثم انقلبت عليها فيما بعد حينما تمكنت واشتد نفوذها . وقد نمت هذه الطائفة بمر الأيام ، وظهر منها كثير من القادة والزعماء النابهين ، الذين شغلوا أعظم المناصب فى الدولة وفى الجيش ، مثل بنى شُهيد ، وبنى مغيث وبنى عَبْدَه ، وبنى جهور ، وبنى بسيل ، وهم الذين شغلوا مناصب القيادة والحجابة أجيالا . وإلى جانب هؤلاء ، يجب أن نذكر طائفة الصقالبة الأجانب التى ظهرت أهميتها منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وبلغت ذروة تضخمها ونفوذها أيام عبد الرحمن الناصر . وقد كان بنو أمية يؤثرون اصطناع هؤلاء الموالى والإفادة من عونهم وتأييدهم .

وأما العنصر الثانى الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية فهو عنصر البربر . وقد قام البربر حسبما رأينا بأكبر قسط فى فتح الأندلس ، وفى الغزوات التى اضطلعت بها الجيوش الإسلامية فيما وراء البرنيه ، وكانوا فى معظم الأحيان أغلبية فى تلك الجيوش ، وإن كانت القيادة قد لبثت على الأغلب فى أيدى القادة والضباط العرب . وكانت هجرة القبائل البربرية إلى شبه الجزيرة أسرع وأشد كثافة من هجرة العرب ، أولا لقرب منازلهم فى العدوة من شبه الجزيرة ، وثانياً لشعورهم بما كان لهم من فضل فى أعمال الفتح ، وثالثاً لما كان يحفزهم من آمال فى البحث وراء طالعهم فى هذا القطر الجديد ، الذى كانت وديانه الخضراء تجذبهم من بواديهم المقفرة . وقد استمرت هجرة البربر على هذا المنوال أجيالا ، بينما كانت هجرة العرب من منازلهم البعيدة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشام بطيئة محدودة أضف إلى ذلك ما عمد إليه أمراء بنى أمية ، منذ عهد عبد الرحمن الداخل من اصطناع البربر إلى جانب الموالى والصقالبة ، والاستعانة بهم فى تدعيم سلطانهم ، لاسترابتهم بالقبائل العربية . وقد بلغت هذه السياسة كما سنرى فيما بعد ذروتها فى عهد المنصور بن أبى عامر ، حيث انثالت القبائل البربرية على شبه الجزيرة ، واحتل زعماؤها معظم المناصب الكبيرة ، وأضحى سواد الجيش مؤلفاً منها . وقد كانت معظم البطون البربرية المهاجرة تنتمى بالأخص إلى زناتة ومصمودة ومكناسة ونفزة والبرانس ، واشتهرت من هـــذه البطون بالأخص ، مدغرة ومديونة ومكناسة وهوارة . ومنها خرج فيما بعد أمراء كثير من القواعد والثغور ، وقامت من بينها ممالك من دول الطوائف . وقد كان البربر أكثرية فى الشمال الغربى ، وفى وسط الأندلس فى منطقة جبال المعدن (أو جبال البرانس) ، وفى أراضى السهلة

ووادى الحجارة ، ومنطقة شرقى إشبيليه والفرنتيرة ، وهى مناطق تمتاز على الأغلب بهضابها الوعرة ، وهو ما كان يشجع البربر فى أحيان كثيرة على الثورة ومقاومة الحكومة المركزية للمحافظة على استقلالهم المحلى[1] .

والعنصر الثالث الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية هو عنصر المولدين ، وهم القوط والإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، ودخلوا حظيرة المجتمع الإسلامى إلى جانب زملائهم العرب والبربر ، مؤثرين أن يتمتعوا فى ظل الإسلام بمزايا المساواة والثقة ، والتحرر من القيود والأعباء التى تلاحق الذميين . ويعرف أولئك المولدون فى الإسبانية بالخوارج أو المرتدين **Renegados** ، أى الذين ارتدوا عن دينهم القديم ، وهو النصرانية ، ويسمون أحياناً بالمسالمة أو بالأسالمة ، أو أسالمة أهل الذمة ، متى كان إسلامهم حديثاً . وكان المولدون يكونون بين السكان كتلة كبيرة ربما كانت الأغلبية ، وقد كان إسلامهم سريعاً ، ولم يأت جيل أو اثنان حتى استطاعوا الاندماج فى المجتمع الإسلامى ، وأضحى من الصعب تمييزهم من المسلمين الأصليين ، وغدوا بمضى الزمن عنصرا من أهم عناصر السكان إن لم يكن أهمها جميعاً ، سواء من حيث الكثرة أو المستوى الاجتماعى والحضارى .

وإلى جانب هذه العناصر الأساسية الثلاثة ؛ التى كانت تتكون منها الأمة الأندلسية ، كان ثمة عنصران آخران هما المستعربون أو النصارى المعاهدون **Mozárabes** وهم النصارى الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم القديم ، ولبثوا يعيشون فى المدن والأراضى المفتوحة تحت الحكم الإسلامى ، وقد كانت منهم ثمة أقليات كبيرة فى بعض المدن مثل طليطلة وقرطبة . واليهود ، وقد رأينا كيف ساعدوا الفاتحين المسلمين وقت الفتح ، وتعاونوا معهم فى حفظ المدن المفتوحة وإدارتها ، وقد كانت منهم أقليات فى معظم المدن الأندلسية ، تتمتع بحماية الحكومات الإسلامية ورعايتها . وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد ، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة فى الدولة ، وغلب نفوذها فى بعض المناطق ، كما حدث فى مملكة غرناطة البربرية ، وظهرت كذلك فى ميدان العلوم والآداب ، ونبغ منها علماء نابهون مثل ابن ميمون وغيره .

تلك هى العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الأمة الأندلسية . وسوف نعود من آن لآخر إلى التحدث عن هذه العناصر فى مختلف المواطن والمناسبات .

---

(١) يحدثنا ابن حزم تفصيلا عن منازل البربر فى الأندلس . راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٦٣ — ٤٦٧ .

الفصل السابع

المملكة النصرانية الشمالية

منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثانى

بعث المملكة النصرانية فى الشمال . اجتماع فلول النصارى فى الهضاب الشمالية . الدوق بتروس وبلاجيوس . نشوء المملكة النصرانية . صمت إيزيدرو الباجى عن ذكرها . أقوال الرواية الإسلامية . إمارة جليقية والصخرة . رأى لابن خلدون فى شأنها . إغفال الفاتحين لأمرها . حملات المسلمين عليها . ارتدادهم عن تلك الهضاب . اجتماع النصارى حول بلاجيوس . حملة ابن أبى نسعة على جليقية . إغارة النصارى على الأراضى الإسلامية . غزو عقبة بن الحجاج لجليقية . نمو المملكة النصرانية . وفاة بلاجيوس . ولده فاڤيلا . إمارة كانتابريا . تحالفها مع جليقية . اتحادهما تحت ولاية ألفونسو الأول . ألفونسو الأول أو الكاثوليكى . اجتياحه للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أسترقة . أخوه فرويلا أمير كانيابريا . استيلاء ألفونسو على مدينة لك . حملة يوسف الفهرى لإنقاذ أربونة . القتال بينه وبين البشكنس . عبور ألفونسو لنهر دويرة . وفاة فرويلا . وفاة ألفونسو . فرويلا الأول . استيلاؤه على شلمنقة وشقوبية وسمورة وقشتالة . اختلاف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الغزوة . خطر المملكة النصرانية . عبد الرحمن الأموى يرسل حملة إلى جليقية . غزو ألبة والقلاع . ما تقوله الرواية النصرانية عن موقعة بونتومو . ثورات النصارى على فرويلا . غزوه لناڤار . بطشه وسفكه . إنشاؤه لمدينة أوبييدو . وفاته . انقسام المملكة . ولاية أورليوس للولايات الشرقية . ولاية سيلو للولايات الغربية . وفاة أورليوس . ولاية سيلو على المملكة كلها . الصلح بينه وبين المسلمين . وفاة سيلو . اضطراب المملكة . قيام مورجات ولد ألفونسو الأول . فرار ألفونسو ابن فرويلا إلى ألبة . تحالف مورجات مع المسلمين . أقوال الرواية الإسلامية . وفاة مورجات . ولاية برمند الأول لجليقية . تحالفه مع ألفونسو . تخلى برمند وولاية ألفونسو على المملكة كلها . أسطورة القديس يعقوب وقيام مدينة شنت ياقب . عزلة المملكة الشمالية . خواص مجتمعها .

نقف الآن قليلا فى تتبع أخبار دولة الإسلام فى الأندلس ، لنأتى على أخبار دولة متواضعة أخرى ، قامت فى اسبانيا إلى جانب الدولة الإسلامية فى نوع من الخفاء والصمت ، ولم يشعر المسلمون بمولدها ولا نموها فى أعوامها الأول ، ولم يقدروا أهميتها حين شعروا وجودها ، ولم يعنوا بأمرها إلا حينما نمت وانتظمت إلى قوة تستطيع العدوان والمقاومة : تلك هى المملكة الإسبانية النصرانية التى يجب أن تأخذ منذ الآن مكانها فى تاريخ شبه الجزيرة ، إلى جانب دولة الإسلام فيها . ولم يكن قيام هذه المملكة الناشئة ، سوى طور جديد فى حياة تلك المملكة

القوطية التى سحقها العرب عند فتح الأندلس (٩٢ هـ — ٧١١ م) ، والتى قامت بعد ذلك تستأنف حياتها ضئيلة متواضعة ، فى قاصية اسبانيا الشمالية الغربية وفيما وراء الصخر ، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة ، حتى رسخت دعائمها فى هاتيك الهضاب ، وبدأت بعد ذلك معركة الحياة والموت ، مع تلك المملكة الإسلامية التى قامت فى الجنوب ، على أنقاض مملكة القوط القديمة ، وهى معركة تشغل منذ الآن حيزاً كبيراً فى تاريخ الإسلام فى اسبانيا .

وقد نشأت المملكة الإسبانية النصرانية فى ظروف كالأساطير ، ونشأت فى نفس الوقت الذى افتتح فيه العرب اسبانيا ، وسحقوا دولة القوط القديمة . ففى موقعة شَريش التى مزق فيها جيش القوط وقتل آخر ملوكهم ردريك (لذريق) (٩٢ هـ) ، فرت شراذم قليلة من الجيش المنهزم إلى الشمال ، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية ، التى وقف عندها تيار الفتح الإسلامى ، واجتمعت بالأخص فى هضاب كانتابريا (ناڤار وبسكونية) فى الشرق ، وفى هضاب أشتوريش[١] فى الغرب ، واجتمع فل النصارى فى الهضاب الشرقية تحت لواء زعيم يدعى الدوق پتروس ، واجتمع فلّهم فى الهضاب الغربية فى جليقية تحت لواء زعيم يدعى پلاجيوس أو پلايو . وكان پتروس ينتمى إلى أحد الأصول الملكية ، وكان من قادة الجيش فى عهد وتيزا ملك القوط ، ثم فى عهد خلفه ومغتصب ملكه ردريك . أما پلاجيوس أو پلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته ، ولكن يبدو مما تنسبه إليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة ، أنه كان رفيع المنبت والنشأة ، وتقول بعض الروايات إنه ولد الزعيم فاڤيلا[٢] الذى قتل الملك وتيزا فى هضاب جليقية ، وإنه كان لذلك من خاصة الملك ردريك وقادته . وهذا ما يردده سيمونيت إذ يقول فى أصل پلاجيوس ما يأتى : « وكان الحزب المتمسك بدينه ووطنه ، المنكر لخيانة أولاد وتيزا ، قد اختار له رئيساً رفيع المواهب هو الدون پلايو بن فاڤيلا ، من سلالة القوط الملكية . ويقول البعض إنه ولد من يدعى ڤريمندو ، وحفيد للملك ردريك ، وقد حارب إلى جانب ردريك . ثم رأى فيه الأحبار والأكابر الذين التفوا حوله ، أنه جدير بالعمل على إحياء مملكة

---

(١) فى الجغرافية الحديثة « أستورية » Asturias

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ ، حيث يقول «وملكوا عليهم (أى الجلالقة) بلاى ابن فافلة»

القوط»[1]. وتعرف الرواية الإسلامية پلايو وتحدثنا عنه وتسميه (بلاى) ، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك، وتنعته غالباً بأنه « علج من علوج النصارى »[2] وتتبع أخباره مع المسلمين ؛ ولكنها لا تلقى ضياء كثيراً على أصله أو أحوال مملكته الصغيرة . ذلك لأن المسلمين لم ينفذوا قط إلى ما وراء الهضاب الوعرة ، التى امتنع بها هذا الزعيم وفله ، والتى نشأت فيها جذور المملكة النصرانية الشمالية ، التى غدت غير بعيد خطراً على دولة الإسلام فى اسبانيا . ومن الغريب أن راوية نصرانياً كبيراً معاصراً هو إيزيدور الباجى ، وهو حبر عاصر الفتح الإسلامى ، وكتب روايته منذ منتصف القرن السابع ، ووصل فى كتابتها حتى سنة ٧٥٤ م[3]، لم يذكر لنا فى روايته شيئاً عن قيام تلك المملكة النصرانية الصغيرة فى الشمال ، ولا عن زعيمها أو ملكها پلايو ، ولا عن غزوات المسلمين لها ، مع أن إيزيدور يتتبع أخبار الغزوات الإسلامية كلها ، منذ الفتح حتى منتصف القرن الثامن ، سواء فى اســبانيا أو فى مملكة الفرنج ، ويقدم إلينا عنها كثيراً من التفاصيل والملاحظات الهامة . وقد يرجع ذلك إلى أن إيزيدور وهو يقيم فى الجنوب فى مدينة باجة ، كان يجهل قصة هذه المملكة النصرانية الناشئة ، ولكن ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الإسلامية فى فرنسا ، وأخبار مملكة أكوتين ، يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجهل أخبار مملكة جليقية النصرانية ، وهى أقرب إليه من فرنسا ، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع إلى انتماء أميرها پلايو إلى حزب ردريك الذى كان يبغضه المؤرخ ، هى التى حملته على إغفال أخبارها[4].

وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية ، تذكر لنا كيف نشأت المملكة النصرانية

---

(١) F.J. Simonet cit. Saavedra ; Historia de los Mozarabes de Espana, Vol. I. p. 148. ويقول المؤرخ المستشرق كاردون إن بلاجيوس ينتمى إلى أصل ملكى ، وانه الأمير الوحيد الذى نجا من فتك العرب (راجع Cardonne : ibid , I. p. 105.) ، بيد أن كاردون لا يقول لنا من أين استقى هذه الرواية .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١١٠ .

(٣) وقد كتبت باللاتينية بعنوان Isidorus Pacensis Chronicon . ونشرت ضمن المجموعة التاريخية الكنسية الإسبانية الكبيرة المسماة Espana Sagrada تصنيف الأب P. Enrique Florez . الجزء الثامن . ونشر دوزى منها مقتطفات فى كتابه Recherches : V.I. p. 4-14 مع تعليقات .

(٤) راجع : Aschbach : ibid, I. p. 142

الإسبانية فى الهضاب الشمالية ، بعد أن سحقت فى موقعة شريش فقد لجأت شراذم قليلة من القوط عقب الفتح إلى الجبال الشمالية ، وامتنعت فى مفاوز جبال أشتوريش (أستورية) ، وقامت إمارتان نصرانيتان صغيرتان فى كانتابريا وجلّيقية . وكانت إمارة كانتابريا التى أسسها الدوق بتروس ، لوقوعها فى الطرف الغربى من جبال البرنيه فى سهول نافار وبسكونية ، عرضة لاقتحام الفاتحين لها حين سيرهم إلى فرنسا وحين عودهم منها . ولكن إمارة جلّيقية Galicia ، كانت تقع فى أعماق جبال أشتوريش الوعرة ، بعيداً عن غزوات الفاتحين ، وسميت جليقية لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تسمى بهذا الإسم . فى هذه الهضاب النائية المنيعة اجتمع پلايو وصحبه ، وعددهم لا يتجاوز بضع مئات حسبما تقول الرواية ، ولجأوا إلى مغار عظيم فى آكام كوفادنجا ، تحيط به وديان سحيقة خطرة ، ويعرف فى الروايه الإسلامية باسم (الصخرة)[1]. ويقول لنا ابن خلدون فى الفصل الذى يخصصه (لملوك الجلالقة) ، إن هذه الإمارة الصغيرة التى كانت مهد المملكة النصرانية ، لا تمت بصلة إلى القوط ، وإن ملوك الجلالقة ليسوا من القوط ، لأن أمة القوط كانت قد بادت ودثرت لعهد الفتح الإسلامى[2]. بيد أنه يصعب علينا أن نقبل هذا الرأى على إطلاقه ، فمن المحقق أن فلول النصارى التى لجأت إلى الشمال كانت مزيجاً من القوط والإسبان المحليين ، ولكن الظاهر مما انتهى إلينا من أقوال الروايتين المسلمة والنصرانية ، أن الزعماء ولاسيما پلاجيوس كانوا من القوط ، وأن ملوك الجلالقة يمتون إلى القوط بأكبر الصلات .

ولم يعن المسلمون لأول عهد الفتح بأمر هذه الشراذم الممزقة عناية كافية . وكان فاتحا الأندلس موسى وطارق ، قد قاد كل منهما حملة إلى جليقية لسحق البقية الباقية من فلّ القوط ، ولكنهما لم يتمكنا من تحقيق غايتهما لاستدعائهما إلى دمشق كما أسلفنا . وكان إغفال أمر هذه الفلول الباقية بعد ذلك من أعظم أخطاء الفاتحين . بيد أنه لما كثرت ثورات النصارى فى الشمال ، وبالأخص فى بسكونية (أو بلاد البشكنس) ، اهتم ولاة الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية ،

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ ، وهو يعارض هنا رأى ابن حيان فى أن المملكة النصرانية يرجع أصلها إلى القوط .

وسير الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس فى سنة ٩٨ هـ (٧١٨ م) جيشاً إلى الشمال لإخضاع النصارى ، فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب أشتوريش ، وأوفدوا حليفهم الأسقف أوپاس وهو أخو الملك وتيزا إلى پلايو ليقنعه بالتسليم وعبث المقاومة ، فأبى پلايو ولجأ إلى كهوفه المنيعة فى صخرة كوفادنجا ، ونفذ المسلمون إلى أعماق الجبال وحاولوا عبثاً أن يستولو على مراكز العدو ، وحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة ، وحوصر پلايو وأصحابه فى « الصخرة » مدى حين ، وقطعت عنهم المؤن ، وتساقطوا تباعاً من الجوع ، حتى لم يبق منهم على قول الرواية سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء[1]. وتزعم بعض الروايات النصرانية أن پلايو كر على المسلمين ، وأنهم هزموا هزيمة شديدة وفقدوا ألوفاً كثيرة ، ووقع أوپاس فى أيدى مواطنيه فعاقبوه على خيانته بالموت[2] .

وقد أتيح لنا أن نزور هذه المنطقة الوعرة — منطقة كوفادنجا — وأن نشهد الصخرة المنيعة ، التى تقول الرواية إن پلايو وأصحابه امتنعوا فى مغارها ، والتى تثوى فى جانب منها إلى اليوم رفات پلايو . والحق أننا شهدنا من الوادى الذى تشرف عليه الصخرة ، والذى يقال إن المسلمين رابطوا فيه لمحاصرة النصارى ، أروع منظر يمكن تصوره من الصخور الوعرة ، والآكام الرفيعة المدببة ، وأدركنا كيف عجز المسلمون عن اقتحام مثل هذا المعقل المنيع .

ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة ، ارتدوا عن جلّيقية محتقرين شأن هذه الشرذمة الممزقة الجائعة . فقويت لذلك نفس پلايو وأصحابه ، وانضم إليهم كثير من النصارى فى كانتابريا وسهول جليقية ، واختاروه ملكاً عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه ، وألفى پلايو الفرصة سانحة لتوطيد سلطانه وتوسيع أملاكه ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية الشمالية ، وبدا لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التى أخذت تنتظم إلى قوة يخشى بأسها . ولكن اضطراب الشئون الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها .

وفى سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) فى عهد أمير الأندلس الهيثم بن عبيد ، بعث حاكم ولاية البرنيه وهو يومئذ الزعيم المسلم الذى تعرفه الرواية النصرانية باسم

---

(١) أخبار مجموعة ص ٢٨ ؛ وكذلك Dozy : Hist, II. p.129

(٢) Cardonne : ibid , I. p. 109, Aschbach : ibid; I. p. 145

منوسة أو مونس — جيشاً إلى جبال أشتوريش لغزو جليقية وسحق أميرها پلايو . ولكن پلايو استطاع أن يصمد للمسلمين كرة أخرى ، وأن يهزمهم هزيمة شنيعة . ولما رأى پلايو منعة معقله وقوة عصبته ، اخترق بسكونية وهاجم قوات المسلمين فى الوقت الذى كانت تتأهب فيه للسير إليه ، ومزق بعض وحداتها ، ثم ارتد إلى هضابه فاستعصم بها . ولما اضطربت شئون الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقى وارتداد جيشه فى بلاط الشهداء (١١٤ هـ — ٧٣٢ م) ، وشغل الولاة برد جيوش الفرنج ، عن الأراضى الإسلامية فى سبتمانيا ، كثرت غارات العصابات الجليقية على الأراضى الإسلامية فى شمال نهر دويرة (دورو) وفى منطقة أسترقة ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من عيث النصارى . ولما تولى عقبة بن الحجاج حكومة الأندلس فى سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) ، ورأى خطر العصابات الجليقية وشدة عيثها فى الأراضى الإسلامية ، سار إلى جليقية وغزاها مرة أخرى فى سنة ٧٣٥ أو ٧٣٦ م (١١٨ هـ) واستولى على بعض مواقعها ، ولكن النصارى امتنعوا كعادتهم فى الجبال ولم يبلغ عقبة منهم أمراً . ولما اضطرمت الأندلس بالفتن ونشبت الحرب الأهلية ، بين مختلف الزعماء والقبائل ، ازداد النصارى جرأة وتحرشاً بالمسلمين وعيثاً فى أراضيهم ، ولم تستطع حكومة قرطبة أن تسعفهم بالعون والمدد لاشتغالها بالشئون الداخلية . وكانت سلطة الحكومة المركزية ضعيفة فى تلك الأنحاء النائية ، وكان سكانها ومعظمهم من البربر ، يكثرون من الخروج والثورة سخطاً على العرب ، واستئثارهم بالحكم والسيادة . وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة ، يدسون الدسائس ويرتكبون شتى الخيانات ، ويشجعون بذلك پلايو وعصبته على الإغارة والعيث فى أراضى المسلمين ، وكانت الإمارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشتد ساعدها ، ويهرع النصارى إلى لواء پلايو من مختلف الأنحاء .

ويقول العلامة ألتاميرا : « كان كفاح پلايو وزملائه الأشراف ، يرجع إلى الرغبة فى استرداد جزء من الأراضى المفقودة ، ومن جهة أخرى فإن احترام الفاتحين لدين المغلوبين وعاداتهم ، لم يجعل فى البداية للمعركة لوناً دينياً أو عنصرياً ، بل كان مدارها من جانب الأشراف ورجال الدين . استرداد الأملاك وشىء من هيبة الملك »(١) .

(١) R. Altamira :Historia de Espana , Vol. I. p. 224

واستمر پلايو فى حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاماً ، وتوفى سنة ٧٣٧ م . ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك ، فتقول إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهرى للأندلس (١٢٧ — ١٣٧ هـ) (٧٤٥ — ٧٥٥ م) ، وأن الموقعة التى نشبت بين منوسة وپلايو كانت بين سنتى ٧٤٦ و ٧٥١[١] ، وهى رواية ظاهرة الضعف ، لأن منوسة قتل فى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) كما قدمنا ، والرواية الإسلامية واضحة دقيقة فى ترتيب الوقائع والتواريخ فى هذا الموطن . وخلف پلايو ولده فاڤيلا ، ولكنه توفى بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين (سنة ٧٣٩ م) . وكان الدوق پتروس أمير كانتاريا قد توفى فى ذلك الحين أيضاً ، وخلفه ولده ألفونسو دوق كانتاريا ، ونمت هذه الإمارة النصرانية الصغيرة أيضاً واشتد ساعدها ، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جليّقية بتزوج أميرها ألفونسو من ابنة پلايو واسمها أرموزندة أو هرمزندة . فلما توفى فاڤيلا ولد پلايو ، اختار الجلالقة ألفونسو دوق كانتاريا ملكاً عليهم ، واتحدت الإمارتان ، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة ، هى مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليّقية فى الرواية الإسلامية ، وتمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى شاطئ المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا إلى نهر دويرة جنوباً ، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة ، وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن سلطان المسلمين وغزواتهم[٢] .

ويعتبر ألفونسو دوق كانتاريا ، أو ألفونسو الأول الملقب بالكاثوليكى مؤسس المملكة النصرانية الشمالية ، وأصل ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة[٣] ، الذين لبثوا قروناً يدفعون حدودهم إلى الجنوب تباعاً فى قلب المملكة الإسلامية ، ثم انتهوا بالقضاء عليها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها (١٤٩٢ م) . وحكم ألفونسو فى ظروف حسنة ، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس ، وكان أمر الولايات الشمالية فوضى ، والضعف يسود المسلمين فى تلك الأنحاء ، وكان ثمة منطقة عظيمة من القفر والخراب تفصل بين جليقية وبين الأراضى الإسلامية ، فاجتاحها ألفونسو بجموعه ، وقتل من بها من المسلمين القلائل ، ودفع النصارى

---

(١) Aschbach : ibid , I. p. 148—149

(٢) Aschbach : ibid , I. p. 152 و Dozy : Hsit., V. II. p. 130

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ .

إلى الشمال . ولما حل القحط بالأندلس (سنة ١٣٣ هـ — ٧٥٠ م) واشتد عصفه بالولايات الشمالية الغربية ، جلا كثير من المسلمين عن تلك الأنحاء ، واشتد ساعد النصارى فيها ، ورفعوا لواء الثورة ، وفتكوا بالمسلمين ، ونادوا بألفونسو ملكاً عليهم[١] ، وانتهز ألفونسو الفرصة فغزا أسْتُرقة واستولى عليها من يد المسلمين ، واستولى على كثير من البلاد والضياع المجاورة ، وضمها لأملاكه (١٣٦ هـ — ٧٥٣ م) . وهكذا نمت تلك المملكة النصرانية التي نشأت في ظروف كالأساطير واتسعت حدودها ، واشتد بأسها بسرعة مدهشة ، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى بدأت تناهض الإسلام في الأندلس وتغالبه ، وتغير على معاقله وأراضيه .

وعهد ألفونسو بإمارة كانتّاريا وهي القسم الشرقي من مملكته ، إلى أخيه فرويلا (أو فرويلة) ، فكان يغير أيضاً على الأراضي الإسلامية المجاورة ، ويعيث فيها قتلا ونهباً وسبياً ، ثم يعود مسرعاً إلى الجبال خشية أن يلحق به المسلمون . بيد أن المسلمين كانوا يومئذ في شغل شاغل من الفتنة والحروب الداخلية ، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس يعني يومئذ بقمع الثورة في الشمال ، فانتهز ألفونسو تلك الفرصة وغزا مدينة لُك (لوجو) الحصينة وهي أقصى معاقل المسلمين في الشمال الغربي وافتتحها (سنة ١٣٧ هـ — ٧٥٤ م) ، وكان يوسف قد انتهى من إخماد الثورة في الشمال ، وأراد إنجاد المدينة المحصورة ، فجاءته الأنباء بمقدم عبد الرحمن الأموي ، فهرول إلى الجنوب وترك لُك لمصيرها . وكان أيضاً قد أرسل قبل أن يغادر الشمال قوة من جنده بقيادة الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب لإنجاد ثغر أربونة ، الذي كان يحاصره الفرنج يومئذ ، ففاجأها النصارى قبل أن تعبر البرنيه ، ونشبت بين الفريقين معركة مزق فيها المسلمون وقتل قائدهم سليمان بن شهاب ، وارتد فلهم إلى الجنوب (سنة ٧٥٦ م)[٢] . والظاهر أن الذي هاجم المسلمين في تلك الموقعة هو فرويلا وحلفاؤه أو رعاياه البشكنس . وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) غير مرة ، وعاث في أراضي المسلمين مراراً ، وكان يقتل كل من وقع في يده من المسلمين ، ويسوق النصارى معه إلى الشمال . ولبث مع أخيه فرويلا كل يعمل من جانبه على توسيع المملكة

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦١ و ٦٢ .

(٢) راجع ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٥٨ ؛ وكذلك **Aschbach : I. ibid ; I.p. 155** والهوامش .

النصرانية ، حتى توفى فرويلا سنة ٧٦٤ م (١٤٦ هـ) ، وتولى أخوه ألفونسو من بعده حكم المملكة كلها ، ولكنه لم يعش طويلا ، وتوفى فى العام التالى (٧٦٥م)[١] فخلفه ابنه فرويلا الأول . وكان عبد الرحمن الأموى يكرس كل جهوده وقواه لقمع الثورة الخطيرة التى نظمها العلاء بن مغيث باسم الدعوة العباسية ، فرأى فرويلا الفرصة سانحة لغزو الأراضى الإسلامية[٢] فعبر نهر دويرة فى جيش ضخم وغزا لُك وبُرتقال وشلَمنقة وشقُوبية وآبلة وسمّورة وقشتالة[٣] ، واستولى عليها من المسلمين ، وعاث فى تلك المنطقة سفكاً وتخريباً وضمها إلى أملاكه ، فصارت جزءاً من مملكة جلّيقية ، حتى استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين فى عهد الحاجب المنصور . وتختلف الرواية الإسلامية فى تعيين تاريخ هذه الغزوة فيضعها ابن الأثير قبل ذلك بأعوام فى حوادث سنة ١٤٠ هـ (٧٥٨ م) ويقول إن الذى قام بها هو تدويلية (تدڤيليا) ابن أذفنش (ألفونسو) ، ولكن ألفونسو توفى بعد ذلك كما رأينا[٤] ، ويضعها ابن خلدون بعد سنة ١٤٢ هـ وهى التى يعينها تاريخاً لوفاة ألفونسو ، فى عهد فرويلا ، وقد تولى فرويلا الملك بعد وفاة أبيه حسبما تقول الرواية النصرانية فى سنة ٧٦٥ م (١٤٧ هـ)[٥]. وعلى أى حال فقد كانت هذه الغزوة أعظم فتح قام به النصارى يومئذ فى الأراضى الإسلامية ، بعد افتتاح الفرنج لسبتمانيا واستيلائهم على أربونة أمنع مواقع ولاية « الثغر » قبل ذلك بأعوام قلائل .

وهنا ظهر خطر المملكة النصرانية واضحاً جلياً . ولم يكن عبد الرحمن الأموى بغافل عن ذلك الخطر ، وكان رغم اشتغاله المتواصل بقمع الثورة والفتن الداخلية ، يتحين الفرص لدرئه ، ففى سنة ١٤٨ هـ (٧٦٦ م) أرسل بعض قواده إلى

---

(١) يضع ابن خلدون (ج ٤ ص ١٨٠) وفاة ألفونسو(أدفونش) فى سنة ١٤٢ هـ (٧٦٠م) .

(٢) ينسب أشباخ هذه الغزوة لفرويلا الكبير (ج ١ ص ١٥٦) معتمداً على رواية ردريك الطليطلى ، ولكن الرواية الإسلامية وهى أقدم من ذلك ، تجمع على أنها وقعت بعد ذلك فى عهد فرويلا ابن الفونسو .

(٣) تراجع الأسماء الفرنجية لهذه الأماكن فى جدول الأعلام التاريخية والجغرافية الملحق بنهاية الكتاب .

(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ و ١٨٠ ؛ وكذلك المقرى عن ابن حيان فى نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

الشمال على رأس قوة كبيرة ، فسارت حتى حدود جليقية ، واشتبكت مع النصارى والعصاة فى عدة مواقع ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى[١]. وفى سنة ١٥٠ ﻫ (٧٦٧ م) بعث عبد الرحمن جيشاً بقيادة مولاه بدر إلى ألبة والقلاع [٢]، وهى المنطقة الواقعة بين بلاد البشكنس وجبال كانتاريا ، على ضفاف نهر إيبرو فى الطرف الشرقى من مملكة جليقية ، فغزاها وتوغل فيها وأرغمها على أداء الجزية ، وقبض على كثير من العصاة فى تلك الأنحاء[٣] . وتقص الرواية النصرانية علينا بعد ذلك نبأ موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى فى بونتومو من أعمال جليقية ، وتقول لنا إن عبد الرحمن أرسل فى سنة ٧٧٣ م (١٥٧ ﻫ) جيشاً كبيراً إلى الشمال بقيادة حاجبه عامر ، أو تمام بن علقمة على يظهر ، فلقيه النصارى بقيادة فرويلا فى بونتومو ، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة ، هزم فيها المسلمون وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية بأربعة وخمسين ألفاً وأسر قائدهم[٤]. ولم تشر الرواية المسلمة إلى أن موقعة بهذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى ، ولاسيما فى هذا التاريخ ، الذى كان عبد الرحمن مشتبكا فيه مع الدعى الفاطمى فى معارك تقتضى كل جهوده وموارده ، والرواية النصرانية تبدى كعادتها فى هذا الموطن مبالغة تسبغ عليها كبير ريب .

وكان فرويلا طاغية شديد البطش ، ولم يكن حكمه موفقاً ، فقد اضطرمت فى جليقية الغربية نار ثورة كبيرة أيدها المسلمون فيما يظهر ، وأخمدها فرويلا بعد جهد ، ولكنه فقد كثيراً من أرضه التى افتتحها فى تلك الأنحاء ، وعادت إلى

---

(١) Conde : ibid , I. p. 207

(٢) تطلق الرواية الإسلامية اسم «ألبة والقلاع» على ولايتى قشتالة القديمة Castile وآلفا Alava معربة عن اللاتينية القديمة Alava et Castella Vetula . وكانت « ألبة والقلاع » تشمل فى العصور الوسطى ، جميع المنطقة الواقعة بين نهر دويرة جنوباً والبحر شمالا ، وبين ناڤار (بلاد البشكنس) وأراجون (الثغر الأعلى) شرقاً ومملكة ليون غرباً ؛ وألبة هى فى الواقع إحدى ولايات بلاد البشكنس ، وتمتد غرباً حتى « برغش » وشمالا حتى خليج بسكونية ، وجنوباً حتى نهر إيبرو . وأما « القلاع » أو قشتالة Castella أو Castile فقد كانت تشمل باقى المنطقة من برغش شمالا إلى ما بعد نهر دويرة (الدورو) وجبال واد الرملة Guadarrama جنوباً ، وحتى موقع مدينة مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٤) Aschbach: ibid ; I, p. 159 والهوامش

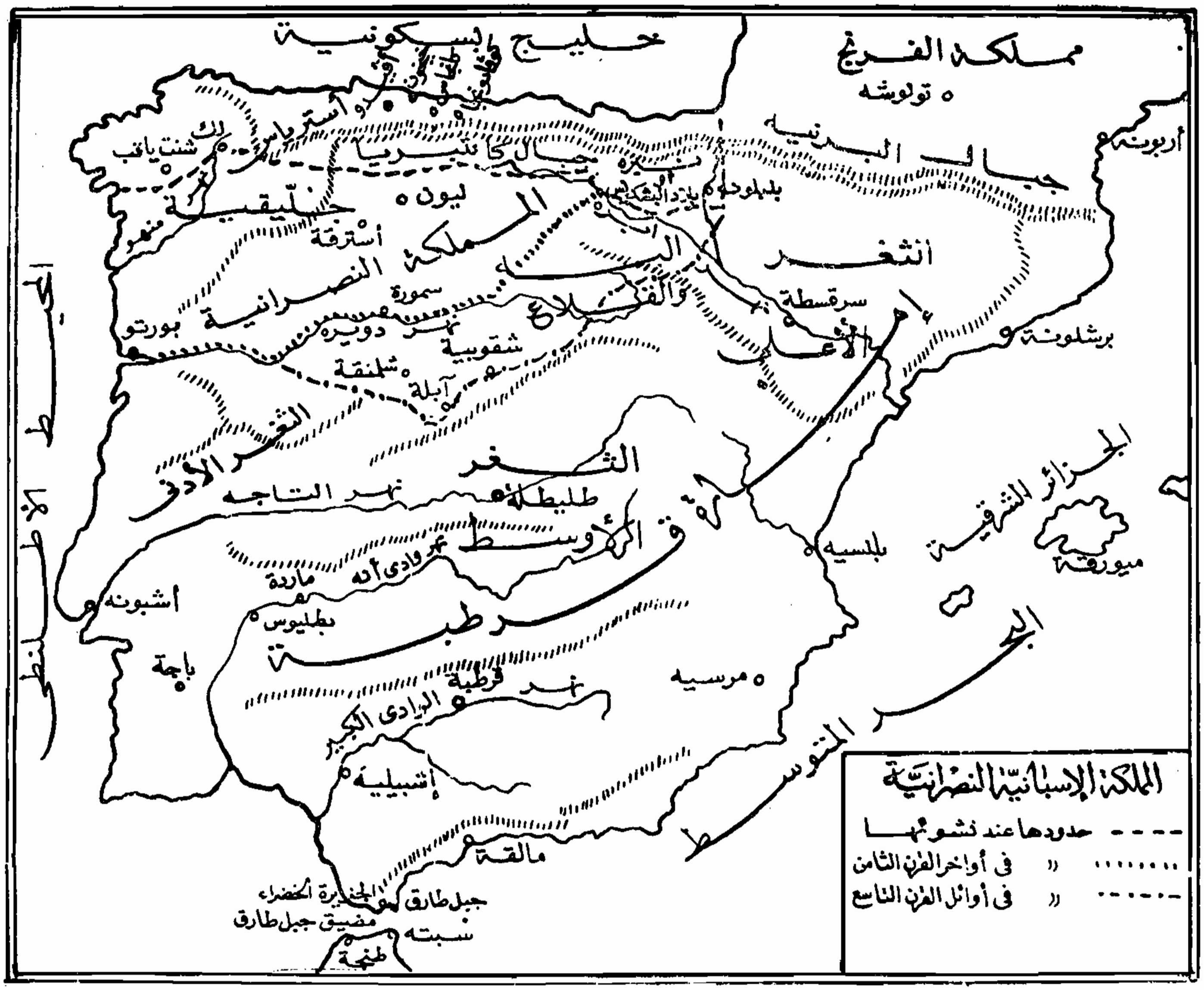

المملكة الإسبانية النصرانية
حدودها عند نشوئها
في أواخر القرن الثامن
في أوائل القرن التاسع
مملكة الفرنج
تولوشه
خليج بسكونية
جبال البرنيه
جبال كانتبريا
أربونه
برشلونة
سرقسطة
الثغر الأعلى
بنبلونة
ليون
المملكة النصرانية
جليقية
أسترقة
شنت ياقب
سمورة
نهر دويره
بورتو
شقوبية
شلمنقة
آبلة
الثغر الأدنى
الثغر الأوسط
طليطلة
نهر التاجه
ماردة
وادي آنه
أشبونه
بطليوس
باجة
قرطبة
مرسيه
بلنسيه
الجزائر الشرقية
ميورقة
البحر المتوسط
الوادي الكبير
إشبيلية
مالقة
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبته
طنجة

المسلمين ، ونشبت ضده فى ناڤار فى الشرق ثورة أخرى ، فأخمدها بشدة ، واجتاح ناڤار وأخضعها ، وكان من أسراه فى تلك المعارك فتاة حسناء من أسرة كريمة تدعى مونيا فأحبها وتزوجها ، ورزق منها بولده ألفونسو ، الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان مسرفاً فى الانتقام والسفك ، قتل كثيراً من أفراد أسرته وقتل أخاه بيده ، وكان الشعب يبغضه ويلتف حول « أوريليوس » ابن عمه فرويلا . وأنشأ فرويلا مدينة أوبييدو التى غدت فيما بعد حاضرة جليقية ، ولكنه لم يتخذها قاعدة للحكم ، ولبث فى مدينة كانجاس حاضرتها الأولى ، حتى هلك قتيلا فى ثورة جديدة نشبت سنة ٧٧٥ م[1] .

ولما توفى فُرُويلا كان ولده من مونيا ألفونسو طفلا ، فافترقت كلمة الشعب ، وانحازت منه أغلبية كبيرة إلى أوريليوس أو أورالى[2] ولد فرويلا أخى ألفونسو الأول واختارته للملك ، ولكنه لم يحكم إلا فى الولايات الشرقية فى ناڤار وبسكونية ، حيث كان يحكم أبوه من قبل ، وانحازت جليقية الغربية إلى سيلو أو شيلون[3] زوج أروزندا إبنة ألفونسو الأول ، وانقسمت المملكة بذلك إلى إمارتين . ولكنهما تهادنتا ولم تقع بينهما حرب ولا منافسة . وفى سنة ٧٧٨ م غزا شارلمان بلاد البشكنس فى طريقه إلى سرقسطة حسبما قدمنا ، فاضطر أوريليوس أن يسعى إلى محالفة المسلمين . ولم تقع فى ذلك الحين فيما يظهر حروب بين المسلمين ومملكة جليقية ، لاشتغال كل منهما بشئونه الخاصة . وتوفى أوريليوس سنة ٧٨١ م ، فاختار البشكنس مكانه سيلو لأن ألفونسو ولد فرويلا كان لايزال طفلا ، واتحدت المملكة مرة أخرى . ولبث سيلو ملكاً على جليقية المتحدة ثلاثة أعوام أخرى ، وفى عهده عقد الصلح بين المسلمين والنصارى . ولكن نشبت بعض ثورات محلية فى جليقية نجح فى إخمادها ، وتوفى بعدئذ بقليل سنة ٧٨٤م[4].

وتوفى سيلو دون عقب ، ولكنه أوصى بالملك لألفونسو ولد فرويلا الطفل

---

(١) يضع ابن خلدون وفاة فرويلا فى سنة ١٥٨ (٧٧٥ م) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) .

(٢) هكذا تسميه الرواية العربية وهى تعتبره ملكاً لجليقية كلها (راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٢)

(٣) وهو اسمه فى الرواية العربية . ويعتبره ابن خلدون خطأ ولد فرويلا الكبير (ج ٤ ص ١٨٠) .

(٤) يضع ابن خلدون وفاة سيلو أو شيلون سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) متفقاً أيضاً مع الرواية النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) . وكذا ابن الأثير (ج ٦ ص ٢٢) .

وبالوصاية عليه لزوجه أروزندا . ولكن الأشراف لم يرضوا عن حكم طفل وامرأة ، وانضم إليهم فريق من الشعب ، ولم تلبث جلِّيقية أن اضطرمت بثورة قوية على رأسها زعيم يدعى مورجات — وفى الرواية العربية مورقاط — وهو ولد غير شرعى لألفونسو الأول من جارية عربية ، فاستولى على جليقية الغربية ، وانضم إليه كثير من الأشراف والزعماء الذين اشتركوا فى محاربة فرويلا خشية أن يستقر الملك لابنه فيبطش بهم فيما بعد ، ففر ألفونسو إلى ألبة حيث عصبة أمه وعشيرتها ، وقد كانت بسكونية حسبما تقدم . ورأى مورجات أن يوطد مركزه وسلطانه بالتحالف مع المسلمين ، وتحالف حزب ألفونسو مع الفرنج أعداء المسلمين ، واتخذ مورجات قاعدة حكمه فى مدينة براڤيا فى قاصية جليقية . وكان رجال الدين ومن إليهم من النصارى والمتعصبين يبغضونه ويثيرون الشعب عليه ، لأنه بالغ فى التودد إلى المسلمين والتقرب إليهم ، ولأنه يمت إليهم بصلة الدم بواسطة أمه العربية . ولكنه استطاع مع ذلك أن يحكم مملكته الصغيرة حتى وفاته فى سنة ٧٨٩ م[١] .

وتشير الرواية العربية إلى طرف من هذه الحوادث ، وتقول لنا إن مورقاط (مورجات) وثب على أذفنش (ألفونسو) فقتله ، ولكن ألفونسو لم يقتل كما قدمنا . وسنرى أنه يتولى الملك ويخوض مع المسلمين فى الأعوام التالية كثيراً من الوقائع . وتقول الرواية العربية أيضاً ، إن المسلمين انتهزوا فرصة الاضطراب الذى وقع فى جليقية ، من جراء هذه الحوادث ، فسار إليها وإلى طليطلة وغزاها وأثخن فيها[٢] ، وهذا ما لا تشير إليه الرواية النصرانية . والظاهر أن المسلمين أغاروا على ألبة والقلاع ، لأنهم كانوا على وئام وتحالف مع مورقاط أمير جليقية . ووقعت هذه الغزوة حسبما تشير الرواية العربية حوالى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٦ م) أعنى فى أواخر عهد عبد الرحمن الداخل .

وكان طبيعياً بعد أن توفى مورجات عميد الثورة ومغتصب الملك ، أن يعود العرش إلى صاحبه الشرعى ، أعنى ألفونسو ولد فرويلا . ولكن الأشراف لبثوا

---

(١) **Aschbach : ibid , I. p. 165—166**

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٠ ، ويسمى مورقاط هنا بسمول قاط وهو تحريف نسخ أو خطأ مطبعى على ما يظهر .

فى توجسهم من نقمة ألفونسو ، واختاروا للملك برمند (أو برمودو) ، وهو ولد لفرويلا وأخ لأروليوس ، الذى تولى إمارة البشكنس من قبل . وكان قد هجر الحياة الدنيا إلى عزلة الدير ، فتولى الملك على غضاضة منه ، ولكنه لم يحكم على ما يظهر إلا فى غربى جليقية ، حيثما كان يسود نفوذ مورجات ، ولبث ألفونسو أميراً على الأنحاء الشرقية . وفى ذلك الحين كان أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن يتأهب لغزو الشمال ، فخشى برمند خطر الإنقسام على مستقبل المملكة ، وعقد الصلح مع ألفونسو وولاه قيادة الجيش ، ولم تمض ثلاثة أعوام حتى ضاق ذرعاً بمهام الملك فتنازل عن العرش مختاراً لألفونسو ، وارتد إلى حياة الدير والعزلة ، وتولى ألفونسو الملك فى أواخر سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ)(١) باسم ألفونسو الثانى . وبذلك عادت المملكة النصرانية إلى اتحادها مرة أخرى .

وفى أواخر عهد ألفونسو الثانى ، الملقب « بالعفيف » el Casto ، وقع حدث دينى كان له فيما بعد أثر عميق فى توجيه مصاير المملكة النصرانية ، هو اكتشاف قبر القديس ياقب ، وهو القديس يعقوب أو يعقوب الحوارى . وتذكر الأسطورة أنه لما قتل بأمر هيرود الثانى ملك بيت المقدس ، حمل تلاميذه جثته فى مركب جاز به البحر المتوسط إلى المحيط ، ثم حملتهم الرياح شمالا حتى انتهوا إلى موضع فى قاصية جليقية ، ودفنوا جثمان القديس فى سفح تلال هنالك . ومضت العصور ، وغاض القبر ولم يعلم مكانه ، حتى كانت سنة ٨٣٥ م ، حيث زعم القس تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف القبر ، هداه إليه ضوء نجم ، وحمل النبأ فى الحال إلى الملك ، فأمر أن يبنى فوق هذه البقعة كنيسة ، وذاعت الأسطورة فى جميع الأنحاء ، وصدقها المؤمنون دون تردد ، وهرعوا يحجون إلى البقعة المقدسة ، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة ، وغدت مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela المقدسة ، وأنشئت فيما بعد فوق القبر مكان الكنيسة الساذجة كنيسة جامعة (كتدرائية) ، غدت من أعظم كنائس اسبانيا ضخامة وروعة وفخامة . وكان لقيام هذه المدينة المقدسة أثر كبير فى إذكاء الحماسة الدينية والعاطفية القومية فى إسبانيا ، وغدا القديس ياقب

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٠ ، وهو يتفق هنا مع الروايه النصرانية فى الوقائع والتواريخ وراجع أيضا Aschbach : I. p. 188—192

« حامى » اسبانيا كلها ، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية فى أوربا .

وينوه الأستاذ ألتاميرا بأهمية هذا الحدث الدينى ، وأثره فى حضارة هذه المنطقة من اسبانيا ، فيقول : « وقد بعث هذا الاكتشاف فى النصارى أيما سرور ، وانتظمت وفود عظيمة ، جاءت لتحج إلى القبر ، لا من الأراضى الإسبانية وحدها ، ولكن من الخارج أيضاً ؛ وهكذا بدأ تيار من الزيارات والمؤثرات الأوربية فى جليقية ، وكان لها أعظم تأثير فى العادات والآداب »(١) .

وقد أتيح لنا أن نزور مدينة شنت ياقب ، وهى من أعجب وأجمل المدن الإسبانية ، ذات طابع خاص بها ، وهى أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع الخاص . وطابعها القدم المشبع بالجلال والوقار ، وهى تبدو بشوارعها المعقودة ، وميادينها التى تغص بالصروح التاريخية ، مدينة قديمة عريقة حقاً . وأروع ما تقع عليه العين كنيستها العظمى ، التى تقوم فى وسطها ، وتبدو بواجهاتها الفخمة وصرحها الشامخ ، وبرجها العظيم ، أثراً من أعظم الآثار الدينية .

وقد نشأت هذه المملكة النصرانية الشمالية ، مستقلة فى ظروفها وفى خواصها ، ولبثت آماداً طويلة بعيدة عن الإتصال بالأمم النصرانية الأخرى ، ولم تنشأ بينها وبين جيرانها المسلمين علائق سياسية أو اجتماعية قوية تؤثر فى نظمها وخواصها ، فاستمرت تحتجب بوعر الجبال وعباب المحيط ، تسود فيها روح المملكة القوطية القديمة ونظمها ، واستمر الخلالقة دهراً ينتسبون إلى القوط ، ويسمون أنفسهم قوطاً ، وتسير حكوماتهم على سنن السياسة القوطية ونظمها ، فالعرش مطلق يقبض على زمام السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ولايستطيع الأشراف الحد من سلطانه إلا بالثورة ، أو باستعمال حقهم فى الانتخاب ، واستمرت خواص المجتمع القديم كما كانت أيام القوط : أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الثروة والجاه ، وأكثرية فقيرة مستعبدة ترزح تحت جور العرش ، واستغلال الأشراف والسادة ، بيد أن هذه الأكثرية استطاعت أن تشق طريقها إلى الحرية ، حينما اشتدت معركة الحياة والموت بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا ، واضطرت المملكة أن تلجأ إلى الأكثرية للذود عن حدودها وحياتها ، وانقلب الرقيق القديم جنداً يثور ضد

---

(١) R. Altamira: Hist. de Espana; Vol. I. p. 239

وتعرف الرواية الإسلامية هذه الأسطورة وتشير إليها . راجع الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١١٥ .

سادته ، ويرغمهم على احترامه ومصانعته . هكذا نشأت المملكة النصرانية الشمالية ، ونمت واتسعت حدودها فيما بين الجبال والقفر ، حتى أصبحت تمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن المحيط شمالا إلى ما بعد ضفاف نهر دويرة جنوباً ، وتشمل عدة مناطق وقواعد ، كانت قبل ذلك بفترة يسيرة فى قبضة الإسلام .

وهنا نقف فى تتبع أخبار المملكة النصرانية عند هذا الحد ، لنستأنفه فى مواطنه فيما سيأتى .

الفصل الثامن

هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام

(١) ولاية العهد .هشام يخلف أباه عبدالرحمن .خلاله . خروج أخويه سليمان وعبدالله . خضوع عبد الله . مطاردة سليمان وعبوره إلى المغرب . الثورة فى الشمال . إخمادها . عدوان النصارى . غزو جليقية وهزيمة النصارى . غزو المسلمين الثغر الفرنجى . موقف حكام الشمال وانحرافهم إلى الفرنج . الاستيلاء على جرندة ومحاصرة أربونة . موقعة فُيل دفى بين المسلمين والفرنج . غزو جليقية ثانية . هزيمة الجلالقة . وفاة هشام . حزمه وتقواه . منشآته بقرطبة . شغفه بالجهاد . إعزازه للغة العربية . نفوذ الفقهاء فى عهده . انتشار مذهب مالك بالأندلس . (٢) الحكم بن هشام وخلاله . محاربته لنفوذ الفقهاء وسخطهم عليه . غزوة ألبة والقلاع. الثورة فى سرقسطة . عود سليمان وعبد الله عمى الحكم إلى الثورة . استنصار عبد الله بشارلمان . غزو الفرنج للثغر الأعلى ثم انسحابهم . هدوء الثورة فى الشمال . الحرب بين الحكم وعمه سليمان . هزيمة سليمان وإعدامه . خضوع عبد الله . سياسة الفرنج نحو اسبانيا المسلمة . تحرشهم بالمملكة الإسلامية . موقف الخلافة العباسية من هذه السياسة . اتحاد الغاية بينها وبين الفرنج . إنتهاز الفرنج لاضطراب الحوادث الداخلية . غزوهم للثغر الأعلى ومحاصرتهم لبرشلونة . دفاع المسلمين الباسل عنها . سقوطها فى أيدى الفرنج . إنشاء الفرنج للثغر القوطى . ائتمار الفقهاء والأعيان بالحكم . اكتشاف المؤامرة وسحقها . الثورة فى ماردة . الثورة فى طليطلة تعيين عمروس ابن يوسف حاكماً لها . واقعة الحفرة . حصار الفرنج لطرطوشة . تحرك نصارى الشمال . عيثهم فى أراضى المسلمين . مسير الحكم لمحاربتهم . غزو المسلمين لقطلونية . عقد الهدنة بين الحكم وشارلمان . بواعث هذا الصلح . الثورات المحلية . القحط فى الأندلس . غزو المسلمين لجليقية . سخط أهل قرطبة على الحكم . تحريض الفقهاء . تحرك العامة وزحفهم على القصر . واقعة الربض . إخماد الثورة وتمزيق الثوار . معاقبة أهل الربض ونفيهم . مسير الأندلسيين إلى الإسكندرية وافتتاحهم لإقريطش . بلاغ الحكم عن الثورة وشعره فيها . تحوطاته بعد إخمادها . مرض الحكم ووفاته . وصيته لولده عبد الرحمن . أخلاق الحكم وصفاته . توطيده لهيبة الملك . إصطناؤه للصقالبة . أبهته وفخامته . شعره . رجال دولته . الحاجب عبد الكريم . قومس أهل الذمة . ازدهار العلوم والآداب . عباس بن فرناس ويحيى الغزال .

— ١ —

خلف عبد الرحمن الداخل ولدُه هشام بعهد منه ، ولم يكن أكبر ولده ، بل كان أكبرهم سليمان والى طليطلة ، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد ، بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور ، حقاً مفوضاً للأمير أو الإمام ، يجريه وفقاً

للمصلحة العامة[1]، ولم يكن انحصاره فى ولد الأمير أو أسرته ، سوى تقليد من تقاليد السياسة والعصبية ، سارت عليه الدولة الأموية ، فوضعت بذلك فى الدول الإسلامية أسس الأسر الملوكية ، والعروش المتوارثة . وكان من الطبيعى بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموى ، بإحياء تراث أسرته المندثر فى المشرق ، أن يصل ما انقطع ، وأن تقوم من هذا الفرع الأموى ، أسرة ملوكية جديدة تتعاقب فى العرش ، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب .

وهكذا اختار عبد الرحمن لولاية العهد من بين بنيه الأحد عشر ، ولده هشاماً ، وآثره بهذه الاختيار لما توسمه فيه من المزايا والمواهب الخاصة . وكان مولده بقرطبة فى سنة ١٣٩هـ — ٧٥٦م[2] . وكانت أمه — وهى « أم ولد »[3] بارعة فى الحسن تدعى «حلل»[4]— أحب نساء عبد الرحمن إليه ، وأكثرهم نفوذاً لديه ، وكان هشام حينما توفى أبوه مقيما بماردة مقر ولايته ، فأخذ البيعة له أخوه عبد الله المعروف بالبلنسى ، ولكن على غضاضة منه ، لأنه مثل أخيه سليمان ، كان يرى نفسه أحق بولاية العهد من أخيه الأصغر . ودخل هشام قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، وبويع فى مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) ، وكان حينما ولى العرش فى الثالثة والثلاثين من عمره ، بيد أنه كان عاقلا حازماً وافر الشجاعة والعزم ، كثير العدل والتقوى ، جم التواضع والرفق . وتشيد الرواية الإسلامية بجميل خلاله ، وتنوه بالأخص بورعه ، وتواضعه ، وحبه للخير ، فيقول لنا ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد إنه «كان أحسن الناس وجهاً ، وأشرفهم نفساً ، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذى أخذ الزكاة على حلها ، ووضعها فى حقها ، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته ، ولا زلة فى أيام صباه » . وقيل بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الممطرة ، فيلقى بصرر المال فى المساجد لمن وجد فيها بغية تعميرها بالمصلين ،

---

(١) يعقد ابن خلدون فى مقدمته ، فصلا عن ولاية العهد فى الأمة الإسلامية ، (ص ١٧٥ وما بعدها) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٣٧ .

(٣) هى الجارية إذا رزقت من سيدها بولد ، وعندئذ لا يجوز بيعها ولا هبتها .

(٤) وفى رواية « حوراء » . وفى رواية أخرى « جمال » .

ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل[1]. وكان يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز ، فى تحرى الحق والعدالة ، فكان يبعث إلى الكور بقوم من ثقاته ، للتحرى عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أسقطه واشتد فى عقابه[2] .

وكانت ولاية هشام نذير فوره جديدة من الثورات المحلية . ذلك أن سليمان أكبر أخوته لم يقر إمارته ، ودعا لنفسه فى طليطلة وما جاورها ، وكذلك أخوه عبد الله البلنسى لم يخلد إلى الرضى ، بالرغم مما بذله هشام لاسترضائه ، ولم يلبث أن لحق بأخيه سليمان فى طليطلة ، وتحالفا على العصيان والثورة ، وسار سليمان خفية إلى قرطبة ليحاول إضرام الثورة ضد أخيه ، فلم يظفر بشىء ، وطارده الجند ، ففر إلى ماردة وحاول أن يعتصم بها ، ولكن رده عاملها . وكان هشام قد بعث جيشاً لحصار طليطلة وإخضاعها ، ففر سليمان إلى جبال بلنسية ، ولجأ إلى بعض ثغور تدمير . ولما رأى عبد الله البلنسى ما حل بأخيه من الفشل والهزيمة ، خشى عاقبة الخروج ، وارتد إلى قرطبة يلتمس الصفح من أخيه ، فعفا عنه هشام وأكرم مثواه ، وبعث جيشاً بقيادة ولده معاوية لمطاردة سليمان وصحبه ، فتوغل فى أنحاء تدمير (مرسية) واضطر سليمان إلى طلب الأمان والعفو ، فأجابه هشام إلى طلبه ، على أن يعبر بأهله وولده إلى المغرب ، وأعطاه ستين ألف دينار صلحاً على تركة أبيه . وسار معه أخوه عبد الله ، وأقاما بعدوة المغرب ، وانتهت بذلك ثورة الأخوين (سنة ١٧٤ هـ — ٧٩٠ م)[3] .

واعتقد ثوار الشمال فى نفس الوقت أن الفرصة قد سنحت بوفاة عبد الرحمن لإضرام نار الثورة كرة أخرى ، فخرج بطرطوشة سعيد بن الحسين الأنصارى ، وكان قد التجأ إليها منذ مصرع أبيه ، والتف حوله اليمنية ، وأخرج عاملها من قبل هشام ، يوسف العبسى ، فعارضه موسى بن فرقوق فى المضرية ودعا لهشام[4] ،

---

(١) راجع فى التنويه بخلال هشام وصفاته ، أخبار مجموعة ص ١٢٠ و ١٢١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ؛ والعقد الفريد (مصر سنة ١٩٢٨) ج ٣ ص ٢٠٢ ؛ والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ ، وأخبار مجموعة ص ١٢٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ و ٦٥ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقظان بثغر برشلونة ، والتفت حوله جموع كبيرة ، واستولى على سرقسطة ووشقة ، وقوى أمره ، وبسط سلطانه على الولاية كلها ، فسير إليه هشام جيشا كبيراً بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فسار إلى طرطوشة وانتزعها من يد الثوار ، وحاصر سرقسطة وفيها مطروح وصحبه ، وضيق عليها الخناق حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار ، وفى ذات يوم اغتال مطروحاً بعض أصحابه واحتزوا رأسه ، وقدموها إلى ابن عثمان ، فبعث بها إلى هشام ، ودخل سرقسطة ظافراً (سنة ١٧٥ هـ)[1]، وقضى بذلك على الثورة فى تلك الأنحاء .

وكان نصارى الشمال ، منذ اشتد ساعدهم ، يكثرون من الإغارة على البلاد الإسلامية والعيث فيها ، ويشتد هذا العيث والعدوان كلما اضطرمت الأندلس بالفتن الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية . وكان الفرنج جرياً على سياستهم المأثورة ، يشجعون النصارى من البشكنس والجلالقة على مواصلة التحرش بالمملكة الإسلامية ، وكان هشام كأبيه يقدر خطورة هذه الدسائس الفرنجية ، وتحدوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو ، فما كاد ينتهى من القضاء على الثورة الداخليـــة ، حتى سير إلى الشمال جيشاً قوياً من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فاخترق ألبة والقلاع (قشتالة القديمة) ، واجتاح جليقية ، وهزم الجلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أو برمند) وحلفاءهم البشكنس ، ومزق جموعهم (سنة ١٧٥هـ — ٧٩١م) ، وعاد إلى قرطبة مثقلا بالغنائم والسبى . ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت إلى جليقية حملة أخرى بقيادة يوسف بن بخت ، وهزم برمودو مرة أخرى ، وقتلت جموع كبيرة من النصارى ، وعلى أثر ذلك تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثانى ولد فرويلا ، وأمير جليقية الشرقية ، ولجأ إلى عزلة الدير .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) تأهب هشام لمحاربة الفرنج ، واستئناف عهد الجهاد والغزو ، فسير إلى الشمال جيشاً كثيفاً . بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث[2]. فعبر البرنيه من ناحية قطلونية ، واستولى

---

(١) العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » (ص ٢٦ و ٢٩) .

(٢) وهو حفيد مغيث الرومى فاتح قرطبة .

أثناء سيره على مدينة چيرونة (جرندة) الحصينة فى قاصية شمال شرقى إسبانيا ، وكان الفرنج قد استولوا عليها منذ سنة ٧٨٥ م من يد مطروح بن سليمان . وكان حكام هذه الأنحاء التى لبثت تضطرم بالثورة على حكومة قرطبة ، منذ غزوة شارلمان الأولى لإسبانيا ، قد استقلوا بما فى أيديهم من المدن ، وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم من الشمال ، والتماس حمايتهم . ومن ذلك أن أبا ثور صاحب مدينة وشقة ، الذى سبق ذكره فى حوادث باب الشزرى ، بعث رسله إلى تولوشة عاصمة أكوتين يطلب التحالف من ملكها الدوق لويس ابن شارلمان (٧٩٠م)(١). واستولى الحاجب عبد الملك بعد ذلك على عدد آخر من المعاقل والحصون ، ثم نفذ إلى سبتمانيا ، وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامى القديم . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين افتتحوا خلال تلك الغزوة أربونة(٢) ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لاتذكر شيئاً عن ذلك الفتح ، وتذكر أن المسلمين أرتدوا عن أربونة لمناعتها إلى قرقشونة . وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه السكسونيين بعيداً عن فرنسا ، فتأهب ولده لويس أمير أكوتين لصد العرب ، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة جيوم كونت دى تولوز ، فالتقى الفريقان فى مكان يسمى «ڤيل دنى» على ضفاف نهر أوربينا بين أربونة وقرقشونة ، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ، ارتد المسلمون على أثرها إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والسبى ، وقدرت أخماس السبى وحدها بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب ، وأرغم الأسرى النصارى على حمل أو جر أحمال من الأحجار والتراب من سور أربونة حتى قرطبة ، وأمر هشام أن يُبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة .

وكانت منطقة رندة ، المعروفة بإقليم « تاكرنّا » ، أو « تاكرنى »(٣) ، وفيها يحتشد البربر ، مهد الفتن والقلاقل المتوالية . فى سنة ١٧٨ هـ (٧٩٤ م) أثار البربر هنالك ضرام الفتنة مرة أخرى ، وخلعوا الطاعة وعاثوا فى تلك الأنحاء ، فسير إليهم هشام حملة بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله ، فأخمد الثورة دون رأفة ، وأباد جموع البربر ، وخرب بلادهم وضياعهم ، وفرقهم فى الأنحاء

---

(١) راجع R.M. Pidal : ibid, p. 203

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٨

(٣) راجع معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٠٣ .

والقبائل تمزيقاً لعصبتهم ، وبقيت هذه المنطقة عدة أعوام قفراً خراباً .

وفى ربيع سنة ١٧٩ هـ (٧٩٥ م) سير هشام إلى جليقية حملة أخرى بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، أخى الحاجب ، فاخترق المسلمون مفاوز جليقية حتى أستُرقة ، ففر السكان النصارى إلى رؤوس الجبال ، وتأهب ألفونسو ملك جليقية للقاء المسلمين ، على رأس جيش من الجلالقة وحلفائهم البشكنس ، ونشب القتال بين الفريقين فى قاصية جليقية ، فى المكان المعروف بالصخرة ، وانتصر الجلالقة فى البداية فى بعض الوقائع المحلية ، وقتل جماعة من المسلمين فى كمين دبر لهم ، ولكن النصارى هزموا فى النهاية ، وعاث المسلمون فى جليقية ، وأصابوا كثيراً من الغنائم ، ثم ارتدوا إلى الجنوب بعد أن مزقت قوى الجلالقة وسكنوا إلى حين ، وساد الأمن فى الولايات الشمالية[1].

وكانت هذه آخر غزوة سيرها هشام ، إذ توفى عقب ذلك بقليل فى الثالث من صفر سنة ١٨٠ هـ (١٨ إبريل سنة ٧٩٦ م) فى نحو الأربعين من عمره ، بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام . وكان أبيض ، أشهل ، مشرباً بالحمرة ، وبعينيه حول ، وكنيته أبو الوليد ويلقب بالرضا[2]. وفى عهده ساد الأمن والاستقرار ربوع الأندلس بالرغم مما وقع خلاله من الثورات المحلية . وكان هشام إلى جانب رفقه وتواضعه ، حازماً ، صارماً فى الحق ، حريصاً على توطيد النظام والعدالة ، فلم يتردد فى القبض على ابنه الأكبر عبد الملك وزجه إلى السجن لما ثبت لديه من ائتماره به ، فبقى فى سجنه أعواماً طويلة حتى توفى بعد وفاة أبيه[3]. وكان فوق شغفه بالجهاد والغزو ، محباً للإصلاح والإنشاء ، فعنى بإتمام مسجد قرطبة الجامع الذى بدأ بإنشائه أبوه وتوفى قبل إتمامه ، وأنشأ عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بكثير من الأبنية والحدائق الفخمة ، وجدد قنطرة قرطبة الشهيرة التى بناها السمح بن مالك على النهر الكبير ، وأنفق فى تجديدها أموالا عظيمة ، وكان

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٦ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٧٢ . ويقول ابن الأثير إن الذى قاد هذه الحملة هو عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث (ج ٦ ص ٤٨) . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٦ ، وابن الأبار ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٤١ .

يشرف على إصلاحها بنفسه[١]، وعلى الجملة فقد كان عهده زاهراً ، وافر الأمن والرخاء .

وكان هشام شديد الورع والتقوى ، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين من أخص مظاهر تقواه ، وكان ينفق الأموال الطائلة فى افتداء أسرى المسلمين ، حتى لم يبق فى عهده منهم فى قبضة العدو أحد ، ورتب فى ديوانه أرزاقاً لأسر الجند المتوفين فى الجهاد[٢] . وفى عصره اتخذت السياسة الأموية إجراء يشهد ببعد نظرها ، إذ جعلت العربية لغة التدريس فى معاهد النصارى واليهود . وكان لذلك الإجراء بالرغم من بساطته ، أثر عميق فى التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة ، وفى بث روح التفاهم والوئام بينها ، ولاسيما بين المسلمين والنصارى ، وكان من أثره أيضاً أن كثر اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله ، وقربت مسافة الخلف بينهم وبين الفاتحين ، ولم يكن ذلك بعيداً فى الواقع عن غاية السياسة الأموية[٣] .

وكان هشام يؤثر مجالس العلم والأدب ولاسيما الحديث والفقه على غيرها . وفى عصره ذاع مذهب مالك[٤]. وكان الإمام مالك ، وهو معاصر لهشام ، يعجب بسيرته وخلاله ، ويشيد بعدله وتقواه ، وكانت تجمع بين الرجلين على بعد المزار عاطفة مشتركة هى بغض بنى العباس ، وكان قد رحل إلى المشرق عدة من فقهاء الأندلس ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وفى مقدمتهم زياد بن عبدالرحمن ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، ويحيى بن يحيى الليثى ، فدرسوا على مالك بالمدينة ، واستقوا من علمه واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه « الموطأ » ، وذاع مذهب مالك على يدهم فى الأندلس فى عصر هشام . وكان هشام كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك فى ذيوعه وتوطده ، وغدا مذهب أهل الأندلس الغالب ، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٤٩ . وما تزال هذه القنطرة العربية قائمة حتى اليوم على نهر الوادى الكبير خلف الجامع الأموى ، محتفظة بعقودها القديمة ، بالرغم مما توالى عليها من ضروب الإصلاح والتجديد .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠ .

(٣) راجع Scott : ibid, I. p. 433.

(٤) الإمام مالك بن أنس ، أبو عبد الله ، أحد أصحاب المذاهب الأربعة الشهيرة (٩٥ — ١٧٩ هـ) وترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ٥٥٥ — ٥٧ .

أهل الشأم[١]. وفى عصر هشام قوى نفوذ الفقهاء ورجال الدين ، وتربعوا فى أهم المناصب ، وكثر تدخلهم فى شئون الدولة ، خلافاً لما كان عليه عبد الرحمن الداخل من إقصائهم والتحرز من تدخلهم ونفوذهم ، وكان لذلك أثر غير محمود ترتبت عليه فيما بعد نتائج سياسية واجتماعية خطيرة .

— ٢ —

وخلف هشاماً ولده الحكم بعهده منه ، وبويع عقب وفاة أبيه بأيام قلائل فى الثامن من صفر سنة ١٨٠ هـ (أبريل ٧٩٦ م) ، وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بقرطبة سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) ، وأمه أم ولد تدعى زخرف ، وكان طاغية ، حازماً ، شجاعاً ، شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه ، وكانت تحدوه مع ذلك نزعة إلى الإنصاف والعدالة[٢] . وهو أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، وأسرف فى تأييد هيبته ، وجدد عهد أجداده بالمشرق ببذخه وروعته ، واستكثر من المماليك والبطانة . وكان ميالا إلى اللهو ، مولعاً بالصيد ، يؤثر مجالس الندماء والشعراء ، على مجالس الفقهاء والعلماء . وآنس الفقهاء تصدع مركزهم الذى سما فى عهد أبيه هشام ، وكانت سياسة الحكم ترمى إلى الحد من نفوذهم ، وإبعادهم عن التدخل فى شئون الدولة ، وكانوا بالعكس يرمون إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش بواسطة جمهورية دينية ، فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على أمانيهم ، وثارت نفوسهم سخطاً على الأمير الفتى ، وأخذوا يلوحون بسببه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقيعة ، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأحكام الدين . وكان الحكم بإسرافه فى مجالى اللهو والبذخ ، يسبغ على أقوالهم قوة ، وكانت دعايتهم قوية بالأخص بين البربر والمولدين (أو مسلمى الإسبان) ، إذ كان هؤلاء يبغضون العرب لكبريائهم واستئثارهم بالمناصب والنفوذ ، وكانوا دائماً على أهبة الخروج والعصيان كلما سنحت الفرصة . وكان لتحريض الفقهاء وسعايتهم كما سنرى آثار بعيدة المدى[٣].

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٠ ؛ والاستقصاء ج ١ ص ٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٥٨ ؛ وراجع أيضاً Dozy : Hist. , I. p. 286 & 287

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٥ .

(٣) راجع المعجب ص ١١ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص١٥٩ ، وكذلك Dozy : Hist ,I.p. 238 وألتاليرا Hiat. de Espana, Vol. I. p. 227

وفى بداية عهد الحكم ، فى صيف سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) سار الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غازياً بالصائفة إلى ألبة والقلاع ، (قشتالة القديمة) واستولى على قلعة قلهرّة الواقعة على نهر إيبرو ، وأثخن فى بلاد البشكنس (ناڤار) ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى . ولكن سرعان ما اضطر الحكم إلى ترك الجهاد والغزو ، ليعنى بمقاومة بوادر الخروج والثورة التى أخذت تتفتح حوله من كل صوب . وكان الثغر الأعلى (أراجون) موطن الخطر فى تلك المرة ، وكانت تؤازره وتذكيه عوامل خارجية فى منتهى الخطورة . ذلك أن الحكم ما كاد يجلس على عرش أبيه ، حتى عول عماه سليمان وعبد الله على التحرك مرة أخرى . وكانا يقيمان فى عدوة المغرب منذ أيام أخيهما هشام ، يرقبان الفرص . واتصل عبد الله بابن الأغلب صاحب إفريقية وخاطبه فى مشروعهما ، ولكنه لم يلق على ما يظهر منه تأييداً ، فاتجه الأخوان وجهة أخرى . وكانت مدائن الثغر الأعلى(١) وفى مقدمتها سرقسطة ما زالت ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل تفيض بعوامل الفتنة ، ففى سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ثار بالثغر الأعلى بهلول بن مروان المعروف بأبى الحجاج ودخل سرقسطة ، وثار حاكم مدينة وشقة فى نفس الوقت . فعبر سليمان وعبد الله سراً إلى الأندلس ، وسار عبد الله إلى الثغر الأعلى يؤلب البلاد ، ويحشد الأنصار لمقاتلة الحكم ، ثم عبر جبال البرنيه إلى بلاد الفرنج ، وسعى إلى مقابلة شارلمان (كارل الأكبر) فى مدينة إيكسلا شابيل حيث كان يعقد بلاطه يومئذ ، والتمس إليه العون والمؤازرة ، فأكرم ملك الفرنج وفادته ، واستجاب إلى دعوته ، وألفى الفرصة سانحة للتدخل فى شئون الأندلس ، وتحقيق مطامعه القديمة . وسير شارلمان جيشاً مع ولده لويس أمير أكوتين ، فعبر البرنيه واستولى على مدينة جيرونة (جرندة) ، ثم توغل فى ولاية الثغر الأعلى ، بممالأة بعض الزعماء الخوارج ، وقيل إن الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابنى عبد الواحد

---

(١) قال ياقوت فى معجمه الجغرافى « الثغر » ، كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغراً ، كأنه مأخوذ عن الثغرة ، وهى الفرجة فى الحائط » . وكان رباط الثغر أيام فتح الأندلس يشمل أربونة وما حولها ، باعتبارها أقصى ولاية فى اسبانيا المسلمة ، مما يلى أرض الفرنج ، فلما سقطت أربونة فى يد النصارى ارتد « ثغر » الأندلس إلى ما وراء جبال البرنيه ؛ فأصبح «الثغر» يطلق على ولاية سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقاً ، وهذا هو « الثغر الأعلى » ، ويشمل عدا سرقسطة لاردة ، وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وطركونة وغيرها ؛ ويقابل « أراجون » من ولايات اسبانيا الحديثة . وسميت طليطلة وأعمالها « بالثغر الأوسط » لمجاورتها لمملكة ليون النصرانية (جليقية) .

ابن مغيث انضما يومئذ إلى عبدالله فى ثورته ، وأنهما سارا إلى سرقسطة ، ولكن أبا صفوان حاكمها من قبل الحكم ، استطاع أن يهزم الخوارج ، وأن يأسر زعيمهم عبد الكريم ، وأن الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنا فى أوائل سنة ١٨٦ هـ فأمنهما الحكم ، ووفدا على قرطبة وقدما خضوعهما وإخلاصهما[1]. وقد نجد ما يؤيد هذه الرواية فى أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال هذه الأعوام الخمسة ، مع أنهما كانا دائماً فى الطليعة فى قيادة مختلف الحملات والغزوات . وعلى أى حال فقد بادر الحكم بالسير إلى الشمال لرد هذا الخطر الجديد . والظاهر أن الفرنج لم يلقوا الحوادث ممهدة فى ذلك الجزء المضطرم من الأندلس ، وخشوا من جهة أخرى من نكث حلفائهم المسلمين ، وتكرار مأساة باب الشزرى ، فارتدوا إلى الشمال بعد أن حاصروا مدينة وشقة حيناً (٧٩٧ م) ، تاركين الأمور لمصيرها ، ولما رأى الزعماء الخوارج عبث المقاومة ، عادوا إلى الطاعة ، واسترد الحكم سلطانه على سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها .

---

(١) وردت هذه الرواية منسوبة إلى الرازى مؤرخ الأندلس ، فى أوراق مخطوطة عن تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ إلى سنة ٢٣٢ هـ عثر بها صديق العلامة المرحوم الأستاذ « ليڤى بروڤنسال » عميد كلية الجزائر والأستاذ بجامعة باريس سابقاً . وقد تفضل بإطلاعى عليها ونقلت عنها . ولم نكن نعرف وقتئذ بالتحقيق من هو مؤلف هذا المخطوط ؛ ولكن تبين فيما بعد من مقارنة الروايات التى يوردها عن مؤرخى الأندلس السابقين مثل الرازى وابن القوطية وابن الفرضى ، ثم ابن حزم وأحمد ابن خالد ، كما تبين منه مما تتسم به كتاباته وتعليقاته من الرزانة والدقة ، أن هذه الأوراق المخطوطة ، إنما هى قطعة من مؤلف مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، وهو المسمى « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » . وتحتوى هذه القطعة على كثير من المعلومات والتفاصيل الحسنة عن حوادث العصر الذى نتحدث عنه وعن شخصياته . وقد حصلت بعد ذلك بأعوام من مكتبة القرويين بفاس ، على نسخة مصورة من قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان المشار إليه تبين أنها تتمة للجزء المتقدم ، إذ تبدأ حوادثها من سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى فى سنة ٢٦٧ هـ ، وهى عبارة عن جزء كبير يقع فى مائة وتسعين صفحة كبيرة . وهى قديمة بالية متآكلة الحوافى . وقد انتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً حسبما يرى القارىء بعد هذا . ثم ظهرت أخيراً قطعة كبيرة من « المقتبس » تتعلق بعصر الناصر وتحفظ بالمكتبة الملكية بالرباط ، وقد أشرنا إليها وإلى محتوياتها فى مقدمة الكتاب . وقد انتفعنا بها فى هذه الطبعة الجديدة أعظم انتفاع حسبما يرى القارئ بعد . وقد نشرت من قبل قطعة أخرى من تاريخ ابن حيان بعناية المستشرق الإسبانى أنتونيا ، وهى تتعلق بالأخص بحوادث عصر الفتنة الكبرى (٢٥٠ – ٣٠٠ هـ) . وتوجد قطعة صغيرة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وهى تتعلق بأحوال الخلافة وحوادث الأندلس فى سنى ٣٦٢ – ٣٦٥ هـ أيام الحكم المستنصر .

وفى ذلك الحين كان سليمان بن عبد الرحمن قد استطاع أن يحشد أنصاره ولاسيما من البربر ، وهرع إليه أخوه عبد الله البلنسى بعد فشله فى الشمال ، وسار الخوارج إلى قرطبة يحاولون الإغارة عليها ، فالتقوا بجند الحكم على مقربة منها فى مكان يسمى « فنجيط » وذلك فى شوال سنة ١٨٢ هـ ، فهزم سليمان . ثم التقى الجمعان ثانية بالقرب من إستجَّة فى صفر سنة ١٨٣ ، فهزم سليمان مرة أخرى بعد قتال عنيف ، وفر فى أصحابه متجهاً إلى ماردة ، فبعث الحكم الجند فى أثره ، فطاردته حتى قبض عليه . وجىء به إلى الحكم ، فأمر بإعدامه ، وأعدم معه عدة من زعماء الفتنة ، وأرسلت رؤوسهم إلى قرطبة حيث طيف بها (سنة ١٨٤ هـ — ٨٠٠ م) . وفر أخوه عبد الله إلى بلنسية فاختفى بها ، ولكنه لم ير فى النهاية مناصاً من طلب العفو ، فعفا عنه الحكم وأصدر له أماناً خاصاً ، وذلك على أن يبقى فى بلنسية وتجرى عليه أرزاقه ، وبعث عبد الله إلى الحكم بابنه عبيد الله فأكرمه الحكم وزوجه إحدى أخواته ، وركن عبد الله إلى السكينة طوال عهد الحكم[1] .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الحوادث التى اقترنت بثورة سليمان وأخيه عبد الله ، ولم يجن الفرنج منها كبير غنم ، ولكن ذلك لم يثن شارلمان عاهل الفرنج عن عزمه ومشاريعه . ذلك أن سياسة التدخل فى شئون إسبانيا المسلمة ، كانت أصلا من أصول السياسة الفرنجية ، وكان الفرنج ينظرون بعين التوجس ، إلى قيام هذه الإمارة الإسلامية الجديدة فيما وراء البرنيه ، وإلى توطدها ونموها ، ويخشون بالأخص أن يضطرم الإسلام بفورة جديدة من الجهاد والغزو ، فينساب تيار الفتح الإسلامى إلى غاليس كرة أخرى ، وقد حاول شارلمان ضربته الأولى فى عهد عبد الرحمن الداخل فباء بالهزيمة والفشل ، ونكب فى مفاوز رونسفال (باب الشزرى) . ولما عبر المسلمون جبال البرنيه فى عهد هشام وغزوا سبتمانيا ، تجددت مخاوف الفرنج وتجددت مشاريعهم لتأمين حدودهم الجنوبية ، وكانوا يلتمسون الفرصة كلما اضطرمت الأندلس بالثورة . وهنا يجدر بنا أن نتساءل ، هل كان لسياسة الخلافة العباسية أثر فى صوغ هذه السياسة الفرنجية نحو الأندلس أو الإيحاء بها ؟ لقد رأينا كيف كانت الخلافة العباسية تحاول بث دعوتها فى الأندلس على يد بعض الزعماء الخوارج ، وكيف كانت هذه الدعوة تحدث أثرها فى إضرام نار

---

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه لوحة ٩٠ .

الفتنة . على أن الخلافة العباسية ، كانت من جهة أخرى تتصل بالمملكة الفرنجية بصلات سياسية . وترجع الرواية الفرنجية هذه الصلة إلى عهد المنصور ، وتقول لنا إن پيپن ملك الفرنج أرسل إلى المنصور سفارة رد عليها المنصور بمثلها ، وتضيف الرواية الفرنجية إلى ذلك أنه كانت ثمة بعدئذ مكاتبات وسفارات بين الرشيد وبين شارلمان ولد پيپن ، ومع أن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه العلائق بين ملك الفرنج والخليفة العباسى ، فإن فى تفاصيل الرواية الفرنجية ، وفى طبيعة الحوادث التى كان يجوزها الشرق والغرب يومئذ ، مايحملنا على الاعتقاد فى صحتها[1]. وهذه العلائق ذاتها تلقى ضوءاً على موقف السياسة العباسية ، من حوادث الأندلس فى ذلك الحين . فقد كانت الخلافة العباسية ترى فى قيام إمارة قرطبة الأموية فى الغرب منافساً لها فى سيادة العالم الإسلامى ، ولم يكن يسوءها أن تتعثر هذه الإمارة الفتية فى معترك من الصعاب والفتن ، وأن تشغل بمقارعة أعدائها فى الداخل والخارج . وإذاً فقد كانت الخلافة العباسية تشاطر السياسة الفرنجية نفس الغاية التى ترمى إليها بالنسبة لإمارة قرطبة ، وهى العمل على إضعافها وتحطيمها إن أمكن ، ولما كانت الدولة العباسية لاتستطيع أن تعمل لتحقيق هذه الغاية بطريق مباشر ، فقد كان فى وسعها على الأقل أن تعمل لتأييدها بطريق الدعوة والتحريض . ولم يكن بعيداً أن يجد الخليفة العباسى ، وهو يبسط حكمه على ملايين من النصارى ، وفى أرضه يقع القبر المقدس ، وسيلة للتفاهم مع إمبراطور الفرنج وحامى النصرانية ، وأن يجد عاهل الفرنج ما يشجعه على إذكاء تحرشه بإمارة قرطبة ، فى رفق الخليفة برعاياه النصارى ، هذا فضلا عن أن السياسة الفرنجية تعمل بذلك على تحقيق غايتها الأصلية من مناوأة الإسلام فى اسبانيا وإضعاف سيادته ونفوذه ، وحماية حدود مملكة الفرنج الجنوبية . وإذاً فمن المحتمل أن يكون لهذه السفارات والمراسلات السياسية ، التى تقول الرواية الفرنجية بوقوعها بين الرشيد وشارلمان ، صلة بهذه المرحلة من تدخل الفرنج فى شئون اسبانيا المسلمة ، واعتدائهم المتكرر على أراضيها . وقد وقع الغزو الفرنجى لشمال اسبانيا فى عهد الحكم بين سنتى ١٨١ و ١٨٥ هـ ، أعنى فى أواسط عهد الرشيد

---

(١) تناولت موضوع العلائق بين الرشيد وشارلمان فى فصل خاص فى كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » (الطبعة الرابعة ص ٢١٨ — ٢٢٤) .

(١٧٠ — ١٩٣ هـ) . والواقع أن فى اتحاد المصلحة والغاية بين الخليفة العباسى وعاهل الفرنج ، ما يسبغ على هذا الفرض تأييداً .

ولما كانت السياسة الفرنجية ترمى قبل كل شىء إلى تأمين غاليس (جنوب فرنسا) من خطر الغزو الإسلامى ، فقد رأت أن تنشىء فى قاصية اسبانيا الشمالية الشرقية مما يلى جبال البرنيه ، ولاية فرنجية جديدة تكون سداً بين الغزاة وبين مملكة الفرنج ، وأنشئت هذه الولاية التى سميت « بالثغر القوطى » أو الثغر الإسبانى فى البداية ، من مدن چيرونة (جيرندة) وأوزونة وسولسونة ، وما حولها مما اقتطعه الفرنج من أراضى اسبانيا المسلمة ، التى كانت تابعة لرباط الثغر الإسلامى القديم . ولما عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية ، ألفى الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب ، وكان شارلمان يطمح بالأخص إلى افتتاح ثغر برشلونة المنيع ليكون معقلا لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا . وعمد شارلمان قبل البدء فى تنفيذ مشروعه إلى عقد محالفة بينه وبين أمير جليقية ألفونسو الثانى (سنة ٧٩٨ م) ، لكى يكتسب ولاء البشكنس ومعاونتهم . وفى سنة ٨٠١م (١٨٥ هـ) سير شارلمان إلى اسبانيا جيشاً ضخماً لافتتاح برشلونة بقيادة ولده لويس أمير أكوتين ، وانقسم هذا الجيش إلى قسمين ، سار أحدهما بقيادة حاكم چيرونة لمحاصرة برشلونة ، وسار الآخر بقيادة جيوم كونت دى تولوز ليرابط جنوب غربى برشلونة بين لاردة وطركونة ، ليحول دون وصول أى مدد إلى المدينة المحصورة . وكان الحكم يشغل يومئذ بمطاردة الخوارج عليه وفى مقدمتهم عمه عبد الله ، وكان والى برشلونة ، سعدون الرعينى ، فى مأزق حرج ، يتطلع عبثاً إلى قدوم المدد ، وهو فى ثغره القاصى بعيداً عن كل عون ومساعدة ، ولم يكن له ما يؤمل من معاونة زملائه ولاة الثغر الأعلى ، ومعظمهم يضمر الخروج على حكومة قرطبة ، ويرى فى اضطراب الأمور ملاذاً . ومع ذلك فقد صمدت برشلونة ، وصمم واليها الشجاع على المقاومة ، ولبثت حيناً تعانى أمر ضروب الحرمان والجوع ، دون أن يأتيها المدد المنشود . ثم تفاقم الأمر وجاء جيش جديد من الفرنج بقيادة لويس ليشدد الحصار على المدينة ، فرأى سعدون الرعينى أن يحاول التماس المدد بنفسه من قرطبة ، وغادر برشلونة تحت جنح الظلام ،

وحاول أن يخترق خطوط العدو ، ولكنه ضبط وأسر ، ولم تستطع برشلونة ثباتاً بعد أن هلك ألوف من أهلها ، وفتحت ثغرات عديدة فى أسوارها ، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر . واتخذ الفرنج من برشلونة مكان جيرندة ، قاعدة للثغر القوطى الذى نما فيما بعد ، وكان الفرنج يعينون حكامه من الكونتات الذين ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى . ولم يلبث أولئك الحكام ، حينما شعروا بقوتهم وبعدهم عن سلطان مملكة الفرنج ، أن أعلنوا استقلالهم ، وغدا الثغر الفرنجى إمارة نصرانية هى إمارة قطلونية ، التى اندمجت فيما بعد فى مملكة أراجون القوية ، وخسر الإسلام بفقد برشلونة أمنع ثغوره فى قاصية اسبانيا ، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاوز جبال البرنيه[1].

وفى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) اكتشف الحكم مؤامرة خطيرة دبرت لخلعه ، وكان من ورائها رهط الفقهاء الذين قضى الحكم على نفوذهم ، مثل يحيى بن يحيى الليثى ، وعيسى بن دينار ، وطالوت الفقيه ، وغيرهم من زعماء المالكية . وقد رأينا كيف سخط الفقهاء على الحكم لتصدع نفوذهم القديم ، وأثاروا عليه وعلى خلاله دعاية قوية ، واتهموه من فوق المنابر بالقسوة والخروج على أحكام الدين ، وكيف كان الحكم ، بمرحه وبذخه ، وشغفه باللهو والشراب ، يسبغ على دعايتهم قوة . وكان ثمة فريق آخر من أعيان قرطبة ينقم على الحكم صرامته وطغيانه . وكان هؤلاء وهؤلاء يتربصون بالحكم ويلتمسون الفرصة للإيقاع به ، وكان فى موقف الشعب القرطبى ، ما يشجعهم على تدبير مشاريعهم ، إذ كان الشعب متأثراً بدعاية الفقهاء فى حق الحكم ، وبما كان يبديه الحكم من ترفع عن الشعب ، فكان أهل قرطبة يبغضون الحكم وبلاطه . وهكذا ائتمر الفقهاء والأعيان بالحكم واتفقوا على خلعه ، وكان فى مقدمة المتآمرين مالك بن يزيد بن يحيى التجيبى ، وموسى بن سالم الخولانى ، وأبو كعب بن عبد البر وأخوه عيسى ، ويحيى ابن مضر القيسى الفقيه وغيرهم ، وكان بينهم بعض المروانية من أقارب الحكم ، ومنهم محمد بن القاسم المروانى الذى اختاره المتآمرون لرياستهم ، ووعدوه بأن

---

(١) تضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط برشلونة فى سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) متفقة بذلك مع الرواية الفرنجية ، وقد وردت عنه نبذة حسنة فى مخطوط ابن حيان الذى أشرنا إليه (ص ٩٠) . وراجع ابن الأثير ج ٦ ص ٥٥ ؛ وكذلك Scott : ibid , V. I. p. 448-452, و Altamira : Hist. de Espana : Vol. I. p. 241

يكون خلف الحكم فى الإمارة(١) ، ولكنه خشى العاقبة وبادر بإبلاغ الحكم ، واكتشفت المؤامراة قبل نضجها ، وقبض الحكم على عدد كبير من المتآمرين ؛ واستطاع بعضهم الفرار ، مثل يحيى بن يحيى ، وعيسى بن دينار . وأعدم الحكم منهم اثنين وسبعين رجلا ، وأبدى فى إعدامهم قسوة ظاهرة ، إذ صلبهم على شاطىء النهر تجاه مشارف القصر ، وكان من بين القتلى عماه مسلمة المشهور بكليب ، وأمية ، ابنا عبد الرحمن بن معاوية ، قتلهما لارتيابه فى سلوكهما ، فأثار هذا الإجراء الدموى فى قرطبة أيما ارتياع ، وأسبغ على خلال الحكم ريباً ، وأذكى الحفيظة على الأمير فى نفوس الخاصة والعامة معاً . وشعر الحكم بخطورة هذا الأثر ، فحصن قرطبة ورمم أسوارها ، واحتفر الخنادق حولها ، وفرض على الشعب حكم إرهاب يزيد فى حفيظته . ولم تمض أشهر على ذلك حتى اضطرمت فى قرطبة فورة من السخط ، وثار العامة فى الرَّبض (الضاحية) بزعامة رجل منهم يقال له ديبل ، وكان الحكم غائباً يشرف على محاصرة الثوار فى ماردة ، فعاد مسرعاً إلى قرطبة ، وقبض على زعيم الفتنة وعدة كبيرة من أنصاره ، وصلبوا جميعاً ومثل بهم ، وسحق الهياج دون رأفة ، وهدأت العاصمة إلى حين(٢) .

وفى العام التالى ، سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) ، نشبت الثورة فى ماردة بقيادة زعيمها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ، فسار الحكم إلى قتاله ، ولكنه ارتد عنه حينما وقف على نبأ الهياج فى قرطبة . وترددت الحملات والبعوث بعد ذلك إلى ماردة لإخماد الثورة ، واستمر زعيمها أصبغ على مقاومته بضعة أعوام ، وكان ذا وجاهة وبأس ، يلتف حوله مواطنوه البربر ، وهم كثرة فى ماردة وما حولها ، ولكنه اضطر أخيراً إزاء حزم الحكم وصرامته إلى طلب الأمان والصلح ، فاجابه الحكم إلى طلبه ، وعادت ماردة إلى الطاعة(٣) .

وكانت طليطلة حاضرة القوط القديمة ، وقاعدة «الثغر الأوسط»(٤) ما تزال

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٦٦ ؛ ولكن ابن القوطية يذكر أن المتآمرين بايعوا شخصاً آخر من أبناء عمومة الحكم .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٨٦ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٤ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٩ .

(٤) تسمى طليطلة وأعمالها فى الجغرافية الأندلسية « بالثغر بالأوسط » حسبما تقدم .

منذ الفتح تفيض بعوامل الهياج والثورة ، وكان بين أهلها كثرة من المولدين أو النصارى الذين دخلوا فى الإسلام ، والمستعربين أو النصارى المعاهدين . وقد سبق أن عنينا بالتعريف بهذين العنصرين ، اللذين اضلعا بأدوار خطيرة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وأوضحنا أن العرب والبربر ، وهما العنصران اللذان تعاونا فى فتح اسبانيا ، لم يكونا أغلبية بين الشعب الأندلسى الذى تكون بعد الفتح بمضى الزمن ، وكان العرب بالأخص أقلية فى معظم المدن الكبيرة ، لكن هذه الأقلية العربية كانت تستأثر بالحكم ، وخصوصاً فى الأقاليم الوسطى والجنوبية القريبة من قرطبة مركز الإمارة والسيادة . وكان البربر من جانبهم أغلبية فى بعض المناطق الغربية والشمالية ، وكانوا حيثما غلبت كثرتهم وسلطتهم ، يتحدون فى معظم الأحيان مع المولدين ، وأحياناً مع النصارى المعاهدين أنفسهم ، على مناوأة حكومة قرطبة .

أما «المولدون» فكان معظمهم حسبما أسلفنا من الإسبان والقوط الذين اعتنقوا الإسلام منذ الفتح تباعاً ، واندمجوا فى المجتمع الإسلامى ، وقد كانوا كثرة فى بعض المدن القوطية العريقة مثل طليطلة وبعض مدن الثغر الأعلى ، وقد برزت منهم بعض الأسر القوية ذات السلطان والبأس ، مثل بنى قسىّ زعماء الثغر الأعلى وبنو حفصون زعماء ريُّه ، ويصفهم المستشرق سيمونيت بأنهم كانوا بعد اندماجهم فى المجتمع الإسلامى أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين الخلص أنفسهم[١] .

وأما النصارى المعاهدون أو المستعربون كما يسمون بالإسبانية Mozárabes ، فهم حسبما أشرنا من قبل النصارى الإسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم ، وبقوا فى المدن الأندلسية المفتوحة تحت الحكم الإسلامى . وبالرغم مما كانت تسبغه الحكومة الإسلامية عليهم من أسباب الرعاية ، وما كان لهم فى كثير من الأحيان من الحظوة والتمتع بثقة الأمراء ، وتولى كثير من الوظائف الهامة ، فقد كانوا على العموم عنصراً قليل الولاء للحكومة الإسلامية ، وكانوا فى المدن البعيدة فى كثير من الأحيان ، يحالفون الثوار من المسلمين والبربر والمولدين ، ويمالئونهم ، ويعملون على عقد الصلات بينهم وبين الملوك النصارى ، سعياً إلى مناوأة حكومة قرطبة وخلق الصعاب فى وجهها . وسنرى أى دور خطير يلعبه أولئك النصارى المعاهدون فى قرطبة فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، لإثارة الفتن والاضطراب فى المملكة الإسلامية .

---

(١) Simonet: Hist. de los Mozárabes, Vol.I.p. 362

هذا ، وفضلا عما كان للمولدين والنصارى المعاهدين من كثرة ظاهرة فى مدينة طليطلة ، فإن أهل طليطلة على وجه العموم ، لم ينسوا سالف عزهم ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعتزون بكثرتهم وثروتهم وحصانة مدينتهم[1] ، وتحدوهم روح من التمرد والخروج المستمر على حكومة قرطبة . وقد رأينا كيف كانت طليطلة مركز الثورة ، وملاذ الزعماء الخوارج منذ عهد عبد الرحمن الداخل . وفى عهد الحكم عادت طليطلة إلى سابق سيرتها ، وثار فيها فى سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) عبيدة بن حميد ، فوجه الحكم قائده عمروس ابن يوسف لمحاربته ، وكان يقود الجيش فى طلبيرة ، فالتقى بالثوار فى عدة وقائع ، ولما رأى ثبات الثوار لجأ إلى سلاح الغيلة ، واستمال إليه بعض وجهاء المدينة بالمنح والوعود ، ودفعهم إلى اغتيال عبيدة بن حميد ، وبذا أخمدت الثورة إلى حين ، وأذعنت المدينة الثائرة لسلطان الحكم . ولكن هذا الهدوء المؤقت لم يطل أمده ، ولم تمض بضعة أعوام حتى عادت طليطلة إلى الثورة ، ولم ير الحكم وسيلة لإخضاعها سوى تعيين عمروس بن يوسف حاكماً لها . وكان عمروس « مولداً » من أهل وشقة ، ذا وجاهة وبأس ، وكان قد ظهر فى الثغر الأعلى ، وأظهر طاعة الحكم ودعا له ، خلافاً لكثير من زعماء الثغر الخوارج ، فسر الحكم بمسلكه ودعاه إلى خدمته ، واختاره للقيادة ، ثم اختاره لولاية طليطلة ليعالج المدينة الثائرة ، ويعمل على إخضاعها ، ولوحظ فى هذا الاختيار أن عمروس مولد ، وأن معظم أهل طليطلة من المولدين . وكتب الحكم إلى أهل طليطلة يقول : « إنى قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه ، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا ومن موالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم » . ودخل عمروس طليطلة ، فأنس به أهلها ، وتظاهر أمامهم ببغض بنى أمية والموافقة على خلع طاعتهم ، واستمالهم برفقه ولينه ، ثم أنشأ بموافقتهم فى ظاهر طليطلة قلعة حصينة بحجة إيواء الجند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم . وبعث إلى الحكم يستقدم إليه الجند سراً ، فسير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لمقاتلة نصارى الشمال فى الظاهر ، ثم عرج هذا الجيش حين العودة على طليطلة ، وخرج عمروس لملاقاة الأمير

(١) إن إلقاء نظرة على موقع طليطلة فوق المنحدر الصخرى الوعر المشرف على منحنى نهر التاجه ، والنهر محيط بها من كل نواحيها تقريباً ، وبقية الأسوار الماثلة التى كانت تحيط بها ، كل ذلك يدل على ما كانت عليه هذه المدينة التالدة من الحصانة فى تلك العصور .

وتحيته ، ومعه وجوه المدينة ، فأكرمهم عبد الرحمن ولاطفهم . وهنا دبرت المؤامرة التى هلك فيها وجوه طليطلة وأعيانها ، وفى بعض الروايات أن الذى دبرها وأوعز بتنفيذها هو الحكم ، فى خطاب أرسله سراً إلى عمروس مع ولده عبدالرحمن ، وفى البعض الآخر أن الذى دبر الكمين هو عمروس . وعلى أى حال فقد نفذت المؤامرة بأن أقام عمروس فى القلعة الجديدة ، وليمة حافلة دعا إليها ألوفاً من الكبراء والأعيان ، ورتب الدخول من باب والخروج من باب آخر ، منعاً للزحام ، وجعل الخدم يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام عشرة عشرة ، وكلما دخل منهم فوج أخذوا إلى ناحية معينة ، وضربت أعناقهم ، وألقيت جثثهم إلى حفرة عظيمة ، حفرت خصيصاً فى مؤخرة القصر ، وأصوات الطبول والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم ، ولم يفطن أحد إلى الحقيقة المروعة إلا بعد أن تعالى النهار ، ولم يبد للداخلين أثر فى الخروج ، ولم يسمع لهم ضجيج ، فعندئذ فطن البعض إلى الكمين ، وتصايح القادمون ونكصوا على أعقابهم ، وهلك فى تلك المذبحة التى تعرف بواقعة « الحفرة » عدد كبير من وجوه طليطلة وأعيانها ، يقدره البعض ببضع مئين والبعض الآخر ببضعة آلاف ، وكانت ضربة شديدة للمدينة الثائرة جردتها من زعامتها ، وأضعفت من شأنها ، وقضت مدى حين على روح الثورة فيها ، وكانت وقعة الحفرة فى سنة ١٩١ هـ (٨٠٧ م)[١] .

وفى ذلك الحين غزا الفرنج بقيادة لويس ولد شارلمان[٢] ، ولاية الثغر الأعلى مرة أخرى ، وحاصروا مدينة طرطوشة (سنة ١٩٢ هـ) ، فبعث الحكم جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن ، فارتد الفرنج إلى أراضيهم ، ثم عادوا إلى حصار طرطوشة فى العام التالى بقيادة لويس أيضاً ، وعاد المسلمون إلى قتالهم بقيادة عبد الرحمن ، ومعه فى تلك المرة عمروس عامل الثغر الأوسط ،

---

(١) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ و ١٢٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٧١ و ٧٢ ، وفيه أن من هلك فى مذبحة الحفرة ، بلغ زهاء سبعمائة فقط . وجاء فى مخطوط ابن حيان السابق ذكره ، رواية عيسى بن أحمد الرازى ، أن الذى دبر الكمين هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وأنه هو الذى أولم الوليمة ، وأنه هلك فى المذبحة زهاء خمسة آلاف (ص ٩٣) . وراجع أيضاً Dozy : Hist., I. p. 291—294.

(٢) وتسميه الرواية العربية خطأ برذريق أو لذريق بن قارله (ابن الأثير ج ٦ ص ٩٦ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٤) .

وعبدون عامل الثغر الأعلى ، فى قواتهما ، ونشبت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع انتهت بهزيمة الفرنج وإنقاذ طرطوشة ، وذلك فى سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) .

وعمد نصارى الشمال كعادتهم إلى انتهاز كل فرصة سانحة للإغارة على أراضى المسلمين ، وشجعهم انشغال حكومة قرطبة بقمع الثورات المختلفة ، وكان ملك جليقية يومئذ ألفونسو الثانى ، الملقب بالعفيف ، أميراً شديد التعصب لدينه ووطنه ، وكانت حملاته المتوالية إلى أراضى المسلمين يطبعها لون دينى عميق ، وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) إلى أراضى المسلمين غير مرة ، وعاث فيها قتلا ونهباً وسبياً ، وكانت حملاته تتجه بالأخص إلى أطراف الثغر الأدنى ، والى المنطقة الواقعة بين نهرى دويرة والتَّاجُه ، لبعدها عن حكومة قرطبة ، وضعف وسائل الدفاع فيها ، وتوغل ألفونسو فى حملاته حتى قُلُمْرية (قلنبرية) وأشبونة ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من جراء غزوات النصارى ، وترامت إلى الحكم آلامهم واستغاثتهم ، ورفع إليه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى قصيدة يصف فيها آلام أهل الثغر ومصائبهم . ففى صيف سنة ١٩٤ هـ (٨١٠ م)(١) ، سار الحكم غازياً بنفسه إلى أراضى ألبة والقلاع ، وتوغل فيها مما يلى وادى الحجارة غرباً ، وأثخن فى تلك الأنحاء ، وهزم النصارى فى عدة وقائع ، وقتل وسبى منهم جموعاً كثيرة ، واطمأنت نفوس المسلمين فى الثغر بزجر النصارى وردهم إلى داخل أراضيهم .

وسير الحكم فى العام التالى جيشاً إلى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البلنسى ، فغزا قطلونية ، وهاجم مدينة برشلونة ، وهزم الفرنج ، ولكنه لم يحرز فتوحاً ثابتة . وشعر الفرنج ، كما شعر المسلمون بعقم هذه الحملات المخربة ، وآثر الفريقان التفاهم والمهادنة ، ويقول لنا ابن حيان إنه كان ثمة باعث آخر على التعجيل بعقد السلم بين العاهلين ، هو استفحال أمر إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسنى بأرض العدوة (المغرب) ، وتقاطر الوفود من إفريقية والأندلس إلى بيعته ، وتوجس الحكم من مصاير هذه الحركة الجديدة بالمغرب(٢) . وهكذا عقد

---

(١) هذه رواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٥) ويضع ابن الأثير تاريخ هذه الغزوة فى سنة ١٩٦ هـ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٠ . ويسمى ابن حيان هنا ملك الفرنج باسمه الصحيح « قارله بن ببين » . وراجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧١ و ٧٢ .

السلم بين شارلمان والحكم ، واستمر معقوداً حتى وفاة شارلمان بعد ذلك بأعوام قلائل فى سنة ٨١٤ م .

ووقعت فى تلك الأثناء عدة ثورات محلية ، فثار حزم بن وهب فى باجة ، وامتد سلطانه حتى أشبونة ، فسير إليه الحكم ولده هشاماً ، فقاتل الثوار حتى أذعنوا لطلب الأمان . وعادت طليطلة إلى الثورة فى سنة ١٩٧ هـ لأعوام قلائل من واقعة الحفرة ، فرأى الحكم أن يسير إليها بنفسه ، فسار فى قواته من طريق منحرفة كأنه يقصد الشمال ، ثم تحول إليها فجأة ، ولم تكن الثورة يومئذ ، فى مثل عنفها القديم ، فلم يجد الحكم مشقة فى دخول المدينة الثائرة وإخضاعها (سنة ١٩٩ هـ) . وثارت بعد ذلك ماردة بقيادة زعيمها مروان بن يونس الجليقى ، فبعث الحكم إليها ولده عبد الرحمن فى الجند فأخضعها .

وفى سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) عصف بالولايات الشمالية قحط شديد ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من ضروب الحرمان والبؤس ، ومات منهم خلق كثير ، وعبر البحر إلى العدوة الكثير منهم ، فبادر الحكم إلى إغاثتهم ومعاونة المنكوبين منهم ، وتخفيف الويل عنهم ، وفرق الصدقات الواسعة والأموال الكثيرة فى الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل ، وفى ذلك يمتدحه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى بقوله :

نكد الزمان فآمنت أيامه ... من أن يكون بعصره عسر
طلع الزمان بأزمة فجلت له ... تلك الكريهة جوده الغمر

وكانت آخر غزوة قام بها الحكم فى الشمال فى سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) إذ سير الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية فى جيش ضخم ، وكان الجلالقة وحلفاؤهم البشكنس ما يزالون على عدوانهم وعيثهم بالأراضى الإسلامية المجاورة ، فتوغل المسلمون فى أراضى جليقية ، وأثخنوا فيها ، ونشبت بينهم وبين النصارى موقعة شديدة على ضفاف نهر أرون استمرت عدة أيام ، وانتهت بهزيمة النصارى ، وقتل منهم عدد كبير ، ووقع فى الأسر جماعة من أمرائهم وأكابرهم ، وارتد النصارى إلى الداخل ، واعتصموا بالوهاد والربى ، وعاد الحاجب إلى قرطبة ظافراً[1] .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

وفى أواخر عهد الحكم اضطرمت بقرطبة ثورة خطيرة كادت أن تزعزع عرشه ، وكان الشعب القرطبي ينقم على الأمير طغيانه وصرامته وكبرياءه ، وكان بين أهل قرطبة كثير من « المولدين » الذين يبغضون السلطة الحاكمة ، لشعورهم بنقص فى مركزهم الإجتماعى وفى حقوقهم العامة ، وكان الفقهاء من جهة أخرى ، وفى مقدمتهم جماعة من المحرضين البارعين مثل طالوت المعافرى وغيره ، يعملون على إذكاء سخط العامة على الحكم وبلاطه ، بما يرمون به الحكم من جنوح إلى المعاصى ، واقتراف للإثم ، وانهماك فى اللهو والشراب ، فكانت بين الأمير وبين أهل قرطبة وحشة تشتد على مر الأيام ، وزاد فى سخط العامة ما فرضه الحكم على المواد الغذائية ، من عشور مرهقة ، وكان العامة يجاهرون بذم الأمير والخوض فى سيرته ، ويجتمعون فى المساجد ليلا لتجريحه والطعن عليه ، ووصلت بهم الجرأة إلى أن كانوا يتعرضون له فى الطريق ، وينعتونه علنا « بالمخمور » . وحدث ذات يوم أن خرج الأمير إلى الصيد ، وشق سوق «الربض» فتعرضوا له بالقول ، وصفقوا عليه بالأكف ، فأمر بالقبض على عشرة من زعمائهم وصلبهم . ويقول لنا ابن القوطية ، إن أولئك الذين قبض عليهم وصلبوا كانوا من زعماء مؤامرة دبرت ضد الحكم ، وكان منهم بعض أعلام القوم ، مثل يحيى بن نصر اليحصبى ، وموسى بن سالم الخولانى وولده[(1)]. وهنا ازداد الهياج ، وبدت أعراض الثورة ، وتحفز العامة للوثوب ، وأكثروا من التعرض لجند الأمير وحرسه والاعتداء عليهم ، وشعر الحكم بخطورة الموقف ، فحصن القصر واتخذ أهبته . وفى ذات يوم اضطرمت نار الثورة فجأة ، وذلك على أثر مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وبين صيقل عهد إليه بصقل سيفه ، فتباطأ الصيقل ، فقتله المملوك ، فثار العامة فى الحال ، وهرعوا إلى السلاح ، وكان أشدهم تحفزاً وهياجاً أهل «الربض» الجنوبى فى الضفة الأخرى من النهر ، وهى ضاحية قرطبة الجنوبية المساة « شَقُندة» ، وكانت كثرتهم من الأوغاد والسفلة ، وكان ذلك فى اليوم الثالث عشر من رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٢٥ مارس ٨١٨ م)[(2)]، وزحفت

---

(١) ابن القوطية فى « افتتاح الأندلس » ص ٥٠ و ٥١ .

(٢) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الواقعة اختلافاً بينا ، فتضع معظم الروايات الأندلسية تاريخها فى سنة ٢٠٢هـ ؛ ويعين ابن الأبار اليوم والشهر الذى وقعت فيه فيقول إنها وقعت =

جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية ، وتأهب الحكم فى حرسه وغلمانه لردها ، وبعث ابن عمه عبيد الله البلنسى صاحب الصوائف ، والحاجب عبد الكريم ، فى قوة من الفرسان والمشاة ، فاستقبلت الجموع الزاحفة ، وردتها إلى الوراء بعد أن نفذت إلى فناء القصر ، ثم شقت طريقها إلى النهر واقتحمته إلى الضاحية الثائرة ، وأضرمت النار فى عدة من أنحائها ، ونجحت هذه الوسيلة فى تفرقة شمل الثوار ، إذ ما كادت ألسنة اللهب تبدو ، حتى هرع الكثير منهم إلى دورهم يحاولون إطفاء النار وإنقاذ الأهل والولد . وهنا احتاط الجند بالثوار من كل ناحية وأمعنوا فيهم قتلا حتى أفنوا منهم خلقاً كثيراً ، وطاردوهم فى كل مكان ، ونهبت دورهم ، وأسر منهم عدد كبير ، وفر من استطاع ، ومنهم بعض الفقهاء والمحرضين مثل طالوت وغيره ، والتجأ البعض إلى طليطلة ، واستمر القتل والنهب ثلاثة أيام حتى مزقوا كل ممزق ، وصلب الحكم تجاه قصره على شاطىء النهر ثلاثمائة رجل من الثوار ، صفوفاً منكسة ، إرهاباً لأهل قرطبة . ثم كف الجند عنهم ، ونودى بالأمان وهدأت الفتنة ، وأمر الحكم بديار الثوار فهدمت عن آخرها ، ولا سيما «الرّبَض» القبلى الذى كان مهد الفتنة ، وقام على الهدم ربيع القومس عامل أهل الذمة وقائد الغلمان الخاصة ، فسح أحياء الثوار مسحاً ، وغدت ألوف كثيرة منهم دون مأوى ، وأمر الحكم بخروجهم من قرطبة فى الحال ، وأن

=فى يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (الحلة السيراء ص ٣٩) ؛ ويوافقه ابن عذارى فيضع تاريخها فى نفس العام (ج ٢ ص ٨٧) ؛ وتؤيد هذا التاريخ عدة روايات وردت فى مخطوط ابن حيان الذى بين أيدينا ، ومنها رواية الرازى (ص ١٠٣ و ١٠٤) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخ واقعة الربض فى سنة ١٩٨ هـ ، وإن كان يشير أيضاً إلى ما قيل من وقوعها فى سنة ٢٠٢ هـ (ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢) ؛ ويأخذ المشارقة بهذه الرواية ؛ فنرى المقريزى مثلا يضع مقدم الأندلسيين الذين نزحوا على أثر الواقعة إلى الإسكندرية فى سنة ١٩٩ هـ ، ويشير إلى اشتراكهم فى الحرب الأهلية التى كانت تضطرم يومئذ بها فى سنتى ٢٠٠ و ٢٠١ هـ (راجع خطط المقريزى – مصر – ج ١ ص ٢٧٨–٢٨٠) وذلك مما قد يعزز رواية ابن الأثير فى حدوث الواقعة سنة ١٩٨ هـ ؛ ويميل دوزى أيضاً إلى الأخذ بهذه الرواية (ج ١ ص ٢٩٦ – ٢٩٧) ، ويستشهد بما يرويه المقريزى من الوقائع المادية . على أننا نميل من جانبنا إلى الأخذ بالرواية الأندلسية ، لقدمها واتفاقها ، وكونها أقرب إلى ميدان الحوادث وأقرب إلى التحقيق . وأما رواية المقريزى ، فقد يحمل ما ورد فيها إلى اضطراب فى ذكر الحوادث ، خصوصاً وأن الحرب الأهلية المصرية التى يشير إلى اشتراك الأندلسيين فيها قد استمرت من سنة ١٩٩ إلى سنة ٢٠٥ هـ ، مما يمكن معه أن نوفق بين أقواله وبين حدوث واقعة الربض فى سنة ٢٠٢ هـ (وراجع النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٩ و ١٧٨) .

لا أمان لمن لديه تخلف منهم . وبدأ رحيلهم فى العشرين من رمضان (٢٠٢ هـ) فتفرقوا فى الثغور والكور ، ولجأت جموع منهم إلى طليطلة لمخالفة أهلها على الحكم يومئذ ، وعبر البحر كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واتجهت جماعة كبيرة منهم قوامها زهاء خمسة عشر ألفاً إلى المشرق فى عدة من السفن ، ورست فى مياه الإسكندرية ، وكانت مصر تضطرم يومئذ بنار الحرب الأهلية التى نشبت بين السّرى بن الحكم وبين خصومه حول ولايتها ، فنزل الأندلسيون إلى الثغر واستقروا فيه، واشتركوا فى الحرب الأهلية ، واستمرت الفتنة بمصر ، والأندلسيون بالإسكندرية ، حتى قدم عبد الله بن طاهر إلى مصر أميراً عليها من قبل الخليفة المأمون ، فسار إلى الإسكندرية وحاصرها ، واضطر الأندلسيون إلى الإذعان والصلح ، وغادروا الإسكندرية فى سفنهم ، وساروا إلى جزيرة إقريطش (كريت) ، بقيادة زعيمهم أبى حفص عمر بن عيسى البلوطى ، وافتتحوها ، ونزلوا بها (٢١٢ هـ — ٨٢٧ م) ، وأسسوا بها دولة صغيرة زاهرة استمرت زهاء قرن وثلث ، حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) .

هكذا كانت ثورة « الربض » التى كادت أن تحمل الحكم وعرشه ، وكانت ثورة شعبية بمعنى الكلمة ، ولكنها كانت دون تنظيم ودون زعامة ، وقد أدرك الحكم خطورتها ، ولم تأخذه فى إخمادها هوادة ولا رأفة ، وأصدر عقب إخمادها كتاباً إلى الكور يشرح فيه الواقعة وظروفها . وقد رأينا أن ننقل نصه فيما يلى كوثيقة سياسية وديوانية هامة من وثائق العصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم؛ أما بعد فإن الله ذو الفضل والمنن ، والطول والعدل ، إذا أراد إتمام أمر وتهميه ، لمن جعله أهله وكفيه ، سدده وأعزه ، وأنفذ قضاءه بفلحه ، ولم يجعل لأحد من خلقه قوة على عناده ودفاعه ، حتى يمضى فيه حكمه له وعليه كما شاء ، وختم فى أم الكتاب لا مبدل لكلماته عز وجل ، وإنه لما كان يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان ، تداعى فسقة أهل قرطبة وسفلتهم ، وأذنبتهم من الشرطانيين ، ألد الفئة ، المعلوجى شراً وبطراً ، عن غير مكروه سيرة ، ولا قبيح أثر ، ولا نكر حادثة ، كان منا فيهم ، فأظهروا السلاح ، وتلينوا للكفاح ، وهتفوا بالخلعان ، وتأنقوا بالخلاف ، ومدوا عنقاً إلى ما لم يجعله الله له أهلا من التأمير على خلقه ، والتسور فى حكمه . فلما رأيت ذلك من

غدرهم وعدوانهم ، أمرت بشد جدار المدينة ، فشد بالرجال والأسلحة ، ثم أنهضت الأجناد خيلا ورجالا ، إلى من تداعى من الفسقة فى أرباضها ، فأقحموا الخيل فى شوارعهم وأزقتهم ، وأخذوا بفوهاتها عليهم ، ثم صدقوهم الحملات ، وكورهم بالسدّات المتواليات ، فما صبر العبدان أن كشفوا السوءات ، ومنحوا أكتافهم المتواليات ، وأمكن الله منهم ذوى البصائر المؤيدات ، فأسلمهم الله بجريرتهم ، وصدعهم ببغيهم ، وأخذهم بنكثهم ، فقتلوا تقتيلا ، وعموا تدميراً ، وعروا تشويهاً وتمثيلا ، جزاء عاجلا على الذى نكثوه من بيعتنا ، ودفعوه من طاعتنا ، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد تنكيلا . فلما قتلهم الله بجرمهم فيها ، وأحسن العون عليهم لنا ، أمسكت عن نهب الأموال ، وسبى الذرية والعيال ، وعن قتل من لا ذنب له من أهل البراءة والاعتزال ، ازدلافاً إلى رضى الله ناصرى عليهم ذى العزة والجلال ، تهنأت صلحه وفلحه ، واستورعت حمده وشكره ، فاحمدوا الله ذا الآلاء والقمع ، معشرة الأولياء والرعية ، الذى أتاح لنا ولجميع المسلمين فى قتلهم وإذلالهم ، وقمعهم وإهلاكهم ، مما أعظم به علينا المنة ، وخصنا فيه بالكفاية ، وتمم علينا وعليكم به النعمة ، فقد كانوا أهل جرأة مقدم ، وذعرة ضلالة ، واستخفاف بالأئمة ، وظهير إلى المشركين ، وحطوط إليهم ، وتحنن لدولتهم . فلله الحمد المكرور ، والاعتراف المذخور ، على قطع دابرهم ، وحسم شرهم ، أحببت إعلامك بالذى كان من صنع الله عليهم لولائك بنا ، ومكانك منا ، لمشاركتنا فى نصرته ، وتحمد الله ومن قبلك من شيعتنا ومعتقدى طاعتنا ، على جميل صنعه فيه ، وتشيعوا شكره عليه إنشاء الله »[1] .

ومن نظم الحكم فى واقعة الربض قوله :

رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً   وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة   أبادرها مستنضى السيف دارعا

---

(١) نقلنا هذه الوثيقة عن مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٣ و ١٠٤) . وتراجع حوادث واقعة الربض فى ابن الأبار (الحلة السيراء ص ٣٩ و ٤٠) ، والبيان المغرب (ج ٢ ص ٧٧ و ٧٨) ، والمعجب للمراكشى (ص ١١) ، وابن الأثير (ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢) ، وابن القوطية ص ٥١ و ٥٢ . ويورد ابن خلدون والمقرى عن الواقعة روايات محرفة متداخلة فى حوادث سابقة (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦) . ووردت فى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة منسوبة إلى الرازى وغيره (ص ١٠٣ — ١١٠) .

تنبيـــك أنى لم أكن فى قراعهـــم بوان وقد ما كنت بالسيف قارعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم فوافوا منـــايا قدرت ومصارعا
فهذى بلادى إننى قـــد تركتهـــا مهاداً ولم أترك عليهـــا منـــازعا
وإنى إذ أجادر أجراعاً عن الـــردى فما كنت ذا جيد عن الموت جارعا

خرج الحكم ظافراً من تلك الثورة الشعبية بعد أن سحقها سحقاً . ومع ذلك فقد لبث أهل قرطبة على تحديهم له ، ولبثوا يتغامزون عليه ، ويقدحون فى سيرته . وقد وصف لنا كاتب قريب من العصر ، موقف أهل قرطبة بعد الواقعة من الحكم فى قوله : « فأكثروا الخوض ، وأطالوا الهمهمة ، وفزع رؤوسهم إلى السمر فى مساجدهم بالليل ، مستخفين من السلطان ، مدبرين عليه ، وقد كان خائفاً من ثورتهم ، متهمماً لدخلتهم ، حذراً منهم ، مستعداً لهم ، مرتقباً لوثبتهم ، مرتبطاً الخيل على باب قصره ، نوباً بين غلمانه ... » . ثم إنه استكثر من العبيد والسلاح ، وعززهم بالأحرار ، يرابطون دائماً حول القصر ، واستشعر الناس من ذلك الهيبة والخوف ، وركنوا إلى السكينة ، وفرض الحكم العشور على جميع الناس بقرطبة وبالكور ، فزاد فى نفورهم منه ، وبغضهم له(١).

وأثارت حوادث الربض ، واستكانة الشعب ، من جهة أخرى ، قريض الشعراء الأحرار ، من خصوم الحكم ، والناقمين على عسفه وطغيانه ، وصدرت فى ذلك قصائد كثيرة تنعى مسلك أهل قرطبة واستكانتهم ، ومن ذلك قول الشاعر غريب بن عبد الله من قصيدة طويلة :

يا أهـــل قرطبة الذين تواكلوا جد الدفاع من التواكل أفضل
جد الدفاع لو انـــكم دافعـــتم يوم الهياج لـــكم أعز وأجمـــل
إن التواكل وهنـــة ومـــذلة والحد فيـــه الصنع والمتمهـــل
صرتم أحـــاديث العبـــاد وكنتم عوناً لهـــم فى كل هم يـــنزل
أمسى عبيـــدكم الذين ملـــكتم ملـــكوا عليـــكم والأمور تحول

ومرض عبد الرحمن بعد ذلك واستطالت به العلة ، فاستناب عنه فى أواخر عهده عبد الرحمن أكبر أولاده لتدبير الأمور(٢) ، واختاره لولاية عهده ، وأخذ له البيعة

---

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٥ و ١١٠
(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤١ .

بالفعل ، واختار أخاه المغيرة ليخلفه من بعده ، ولكن المغيرة تنازل فيما بعد عن حقه فى ولاية العهد . وكان الحكم أول أمير من أمراء بنى أمية بالأندلس أخذ البيعة فى حياته لولى عهده ، وذلك خشية وقوع الخلاف بعد موته . ثم توفى الحكم فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ (٢٢ مايو سنة ٨٢٢ م) ، وقد بلغ الثانية والخمسين من عمره ، ودفن مع آبائه فى مقبرة القصر المعروفة بالروضة . وترك من الولد تسعة عشر من الذكور واثنين وثلاثين من الإناث .

وقيل إن الحكم أبدى حين مرض موته أسفه وندمه ، لما أوقعه بأهل الربض من بالغ النكال والشدة ، وصرح بأنه كان خيراً لو لم يفعل ما فعله[1] .

ولما شعر الحكم بدنو أجله استدعى ولده عبد الرحمن ، وألقى إليه وصيته ، وفيها يقول : « إنى وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الأعداء ، وأقمت أود الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة ، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة ، واعلم أن أولى الأمور بك ، وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ، ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فهم أنصارك وأهل دعوتك ، ومشاركوك فى حلوك ومرك ، فبهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نعمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم ، مستثقلين لأعبائهم ، فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم ، واحسام أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة ، وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك رجلا لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة ، وتطمح نفسه وهمته ، فأعنه واختبره ، وقدمه واصطنعه ، ولا يريبنك خمول أوله ، فان أول كل شرف خارجيته ، ولا تدع عن مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسىء بإساءته ، فإن عند التزامك لهذين ، ووضعك لهما مواضعهما ، يرغب فيك ، ويرهب منك . وملاك أمرك كله بالمال ، وحفظه ، بأخذه من حله ، وصرفه فى حقه ، فإنه روح الملك المدبر بجثمانه ، فلا تجعل بينك وبينه أحداً ، فى الإشراف على اجتنائه وادخاره ، والتثقيف لإنفاقه وعطائه . وختام وصيتى إياك بإحكامك فى أحكامك ، فاتق الله ما استطعت ، وإلى الله أكلك ، وإياه استحفظك ، فقد هان على الموت إذ خلفنى مثلك »[2].

---

(١) ابن القوطية ص ٥٥

(٢) نقلنا نص هذه الوصية عن مخطوط ابن حيان . وقد وردت فيه برواية الرازى ومعاوية هشام الشبينسى فى نصين مختلفين حاولنا أن ننسق بينهما .

وكان الحكم أميراً قوى النفس ، وافر العزم ، فطناً ، حسن التدبير ، واسع الحيلة ، نافذ الرأى والحزم ، صارماً يؤثر وسائل الطغيان المطلق ، شديد الاستئثار بسلطانه ، حريصاً على حمايته من كل تدخل أو نفوذ . وكان مثل جده عبد الرحمن الداخل يلتمس الغاية بأى الوسائل ، ويذهب فى صرامته وطغيانه إلى حد القسوة والقمع الذريع ، ولم يكن يحجم مثله عن الالتجاء إلى وسائل لا تقرها المبادئ الأخلاقية القويمة . وكان شغوفاً بأبهة الملك ، مسرفاً فى مظاهر البذخ الطائل ، كثير الترفع عن العامة ، ولم يكن كأبيه وجده محبباً إلى الشعب ، بل كان بالعكس مكروهاً من الكافة ، وكان الفقهاء يبثون هذا البغض فى نفوسهم بوسائلهم الخاصة ، لما عمد إليه الحكم من سحق سلطانهم ونفوذهم . ومع ذلك فقد كان الحكم بالرغم من عسفه وطغيانه ، أميراً مستنيراً ، يؤثر العدل ، ويحرص على إقامته ، ويختار لقضائه أفضل الناس ، وأكثرهم نزاهة وورعاً ، وكان يسلط قضاته على نفسه ، وعلى ولده وخاصته . وكان قاضيه محمد بن بشير من أعظم القضاة نزاهة واستقلالا فى الرأى والحكم[1] .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن الحكم كان أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، والواقع أنه أول من أنشأ بالأندلس بلاطاً إسلامياً ملوكياً بكل معانى الكلمة ، ورتب نظمه ورسومه ، وأقام له بطانة ملوكية فخمة ، فاستكثر من الموالى والحشم ، وأنشأ الحرس الخاص ، وفى عهده ظهر الصقالبة لأول مرة فى البلاط بكثرة ، وكان جده عبد الرحمن الداخل أول من وضع سياسة اصطفاء الموالى لاسترابته بالعرب كما قدمنا ، وتوسع حفيده الحكم فى تطبيق هذه السياسة ، فاستكثر من الموالى والصقالبة ، وعهد إليهم بمعظم شئون القصر والخاص . وكان هؤلاء الصقالبة[2] على الأغلب من الرقيق والخصيان ، الذين يؤتى بهم بالأخص من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض النصرانية ، وكان يؤتى بهم أطفالا من الجنسين ويربون تربية إسلامية ، ثم يدربون على أعمال البطانة وشئون القصر ، وقد سما شأنهم فيما بعد ، وتولوا مناصب الرياسة والقيادة ،

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٠ ؛ والمعجب ص ١١ .

(٢) يرى البعض أن كلمة صقالبة قد اشتقت فى الأصل من كلمة **Esclave** الإفرنجية . ومعناها الرقيق أو الأسير . راجع **Reinaud : ibid , p. 237**

وبلغ عددهم فى عهد الحكم زهاء خمسة آلاف[1]. وكان للحكم فرقة من الحرس الخاص معظمهم من فىء أربونة ورثهم عن والده هشام ، وقد أبلوا فى الدفاع عنه يوم الربض أحسن البلاء ، فأعتقهم جميعاً ، وأغدق عليهم صلاته[2] . وكان الحكم فارساً مجيداً ، يعشق الفروسية والصيد ، وكانت له ألفا فرس من الجياد الصافنات مرتبطة على شاطئ النهر تجاه القصر ، يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين[3]. وكانت له شرطة قوية منظمة ، وله عيون يطالعونه بأحوال الناس . وعلى الجملة فقد كان الحكم أميراً عظيم السلطان والهيبة ، يسطع بلاطه ، كما تسطع خلاله ، ويثير من حوله بهاء الملك وروعته ، وقد شبهه بعضهم بأبى جعفر المنصور فى قوة الملك ، وتوطيد الدولة ، وقمع الأعداء[4].

وكان الحكم فوق ذلك خطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، نظم الشعر فى مختلف المناسبات ، من أحداث الحرب والسياسة ، والفخر والغزل وغيرها . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه فى واقعة الربض ، ومن قوله فى الفخر :

غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن ... من اللحن فى الأوتار واللهو والردن
إذا اختلفت زرق الأسـنة والقنـا ... أرتك نجوماً يطلعن من الطعـن
بها يهتدى السارى وينكشف الدجى ... وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن
وإن تجد الأبطال حصـناً ومعقلا ... فما لى غير السيف فى الأرض من حصن
قذفت بهم فى فضا الأرض فانزوت ... له الأرض واستولى على السهل والحزن

ومن قوله فى الغـزل :

قضب من البان ماست فوق كثبان ... ولَّيْن عـنى وقد أزمعن هجرانى
ناشدتهن بحقى فاعـتزمن على الـ ... عصيان لمـا خـلا منهن عصيانى
ملـكننى ملـكاً ذلت عـزائمـه ... للحب ذل أسـير موثق عـانى
من لى بمغتصـبات الروح من بدنى ... يغصبننى فى الهـوى عزى وسلطانى

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٥ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٦) .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٢٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ .

على أن هذه الخلال الباهرة التى كان يتمتع بها الحكم ، لم تكن دون نواح قاتمة هى دائماً مما يغلب لدى الطغاة الأقوياء ، وقد ذكر لنا ابن حزم أنه كان من المجاهرين بالمعاصى السفاكين للدماء . ويزيد ابن حزم على ذلك أن الحكم كان يخصى من اشتهر بالجمال من أبناء رعيته ، ليدخلهم إلى قصره ويصيرهم من خدمه ، ومن هؤلاء طرفة بن لقيط ، وهو من أسرة نابهة تصرف أبناؤها فى الولايات الرفيعة ، ومنهم نصر صاحب منية نصر ، وهو الذى غدا فى عهد ولده عبد الرحمن من أعظم رجالات الدولة مكانة ونفوذاً(١) .

وكان الحكم مديد القامة ، أسمر ، نحيفاً ، وكان يلقب بالحكم المنتصر ، وبالحكم الربضى ، نسبة إلى ما حدث منه فى واقعة الربض .

* * *

وكانت حكومة الحكم تضم طائفة من الشخصيات البارزة فى تاريخ الأندلس فى ذلك العصر ، فتولى حجابته (رياسة الوزارة) عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث قائد أبيه من قبل ، وكان جندياً عظيماً ، قاد عدة غزوات مظفرة إلى بلاد النصارى ، وكان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً(٢). وخلفه فى الحجابة عبد العزيز بن أبى عبْدَة ، وكان قائداً كبيراً وسياسياً بارعاً . وكان بين قواده ووزرائه أيضاً ، إسحاق بن المنذر ، والعباس بن عبد الله . وفى عهد الحكم أنشئ بالدولة منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) ينعت صاحبه بالقومس(٣)، وعين فيه ربيع بن تدلف القومس ، قائد الغلمان الخاصة ومتولى قهرمة الأمير الحكم وشئونه الخاصة ، وكان طاغية ظلوماً يبغضه الجميع ، وقد أمر الحكم بقتله قبيل وفاته ، فنفذ فيه الحكم ولى العهد عبد الرحمن ، وتم إعدامه وسط الاغتباط العام . وذكر البعض أن هذا المنصب أنشئ فى عهد

---

(١) مخطوط ابن حيان السالف الذكر ص ١٢٨ . وراجع رسالة ابن حزم المسماة « نقط العروس » المنشورة بعناية الدكتور شوقى ضيف فى مجلة كلية الآداب (ديسمبر سنة ١٩٥١) ، ص ٧٣ . وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٧٢ .

(٣) مخطوط ابن حيان . والقومس تعريب للكلمة اللاتينية **Comes** ، وتعرب أحياناً بكلمة « قمط » ، أعنى « الكونت » **Comte** باللغة الحديثة .

عبد الرحمن الداخل[1]. ولكن الظاهر أنه لم يرتب بصورة ثابتةوتحدد اختصاصاته إلا فى عهد الحكم .

وكان عصر الحكم ، بالرغم مما غشيه من الاضطرابات والفتن ، عصراً ازدهرت فيه الآداب والعلوم ، وظهر فيه عدد جم من أكابر الكتاب والشعراء والعلماء . وكان فى مقدمتهم شاعر الحكم الأثير لديه ، وقطب الشعر فى عصره ، عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى ؛ وكان فضلا عن براعته فى الشعر والأدب ، بارعاً فى علوم اللغة ، وفى الهندسة والفلسفة والفلك ، وكانت له منزلة خاصة عند الحكم ، وله فى مديحه أشعار كثيرة . وقد ولاه الحكم قضاء الجزيزه بلده ومسقط رأسه ، ثم وليه من بعده ولده عبد الوهاب بن عباس ، وكان مثله شاعراً نابهاً ، وتوفى أواخر عهد الحكم[2] .

وكان من أعلام عصر الحكم أبو القاسم عباس بن فرناس ، وهو فيلسوف وعلامة رياضى من نوع فذ ، وقد ولد فى مقاطعة تاكرنا من أصل بربرى ، وبرع منذ فتوته فى الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضاً فى الموسيقى ، وصنع آلة فلكية تعرف « بالميقاتة » لتعريف الوقت ، وله مخترعات كثيرة أخرى . وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين بهيئة مخصوصة ، وحاول الطيران من ناحية الرُّصافة ، فحلق فى الهواء ، ثم وقع فى مكان طيرانه على مسافة بعيدة ، واشتهر أمره بذلك حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر :

يطم على العنقـــاء فى طيرانهـــا ... إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم

وذكر عبد الحميد بن بسيل الوزير ، قال : « أبدع عباس بن فرناس طول أمده إبداعات لطيفة واختراعات عجيبه ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنة ، وكان مع ذلك مجيداً للشعر ، حسن التصرف فى طريقته ، كثير المحاسن جم الفوائد » . وأثار ابن فرناس باختراعاته المدهشة ريب الجهلاء ، فكثر الطعن فى عقيدته ، واتهم بالزندقة ، ولكن القضاء لم يجد سبيلا إلى إدانته ، وعاش طويلا وعاصر من بعد الحكم ، ولده عبد الرحمن ، وتوفى فى عهد حفيده الأمير محمد بن

---

(١) ابن القوطية ص ٣٨ . ويقول إن أول من تولى « القيامة » هو ارطباس ابن وتيزا .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٢٨ و ١٢٩ . وراجع تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضى رقم ٨٨١ (طبع مصر ص ٣٤٠)

عبد الرحمن[1] ونظم كثيراً من مختار الشعر فى العهود الثلاثة . وسوف نعود إلى ذكره .

ومن أعلام عصر الحكم أيضاً ، يحيى الغزال الجيانى ، وهو أبو زكريا يحيى ابن الحكم البكرى ، نسبة إلى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيَّان ، ولقب بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه ، وكان شاعراً جزلا مطبوعاً ، وبرع بالأخص فى الغزل ، وله فى النسائيات كثير من رقيق النظم ، وكان فوق ذلك عالماً بالفلك والفلسفة ، وله أرجوزة طويلة فى أبواب العلوم لم تصل إلينا ، وكان كثير التعريض بالفقهاء والحملة عليهم ، حتى سخطوا عليه ، ورموه بالزندقة ، لصراحته وحر تفكيره . وهو القائل فيهم :

لست تلقى الفقيـــه إلا غنيــاّ ... ليت شعرى من أين يستغنونا
تقطع البر والبحـــار طلاب الـ ... ـرزق والقوم ها هنـــا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غـــاب عنـــا ... لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وله فى ذكر النفس والروح قصيدة ، أثارت حول عقيدته شبهاً وريباً ، يقول فيها :

يا ليت شعرى أى شىء محصـــل ... يرى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خـــلق شبيه بمـــا رأ ... ى فقل للقـــلوب النائمـــات عيون
وكيف يرى والعين قد مات نورها ... وواقعـــه شـــبه الوقـــار ســـكون
لئن كانت الأرواح من بعـــد بينها ... بهـــن إلى ما خلفهـــن حـــنين

وقال يمدح الحكم فى قصيدة مطلعها :

كأن الملوك الغُلْبَ عنـــدك خُضَّعاً ... خواضع طير يتقى الصـــقر لُبَّد
تقـــلب فيهـــم مفـــلة حكميـــة ... فتخفض أقواماً وقـــوماً تُسوِّد

واشتهر الغزال فوق ذلك بأصالة الرأى ، وحسن التدبير ، واللباقة ، والدهاء وقد رشحته هذه الصفات فيما بعد ، فى عصر عبد الرحمن بن الحكم للقيام ببعض المهام الدبلوماسية الخطيرة ، وهو ما سوف نعود إليه فى موضعه .

(١) المخطوط السابق الذكر ص ١٣١ ؛ ١٣٢ .

الفصل السادس

عبد الرحمن بن الحكم

ولاية عبد الرحمن بن عبد الحكم . الثورة فى تدمير . شغب أهل الذمة . غزو ألبة والقلاع . وفاة الحاجب عبد الكريم . نكبة جديدة للفرنج . حوادث الثغر الأعلى . ثورة البربر فى ماردة . مغامرات محمود بن عبد الجبار وأخته جميلة العذراء . ثورة هاشم الضراب فى طليطلة . مسير الجند إليها ومصرع الضراب . محاصرة طليطلة وثبات الثوار . تعاقب الحملات إليها . حصارها للمرة الثانية وخضوعها . الصوائف . غزو عبد الرحمن لناڤار . خروج والى تطيلة وتحالفه مع النصارى . بنى قسى وأصلهم . مسير عبد الرحمن إلى الشمال . زحفه على ناڤار واقتحامه لبنبلونة . هزيمة الثوار والنصارى . وفاة ألفونسو الثانى . النورمانيون أو المجوس . بدء ظهورهم فى المياه الإسبانية . غزوهم لثغر أشبونة . إقتحامهم للنهر حتى إشبيلية . غزوهم لها وعيثهم فيها . الحرب بين المسلمين والغزاة . هزيمة النورمانيين وانسحابهم . اهتمام حكومة قرطبة بأمر الأسطول . غزو جليقية . حوادث الثغر الأعلى . غزو ميورقة . الحملات البحرية الأندلسية إلى شواطىء فرنسا وكورسيكا وسردانية . الحرب بين المسلمين والبشكنس . مجتمع النصارى فى قرطبة . كيف يصفه المستشرق سيمونيت . حملته على الحكومة الإسلامية . الغلاة المتعصبون . بغضهم للمسلمين وتحاملهم على الإسلام . مجاهرتهم بسب النبى . عقاب المعتدين . دسائس الأحبار وتفاقم الفتنة . أقوال العلامة ألتاميرا . مجمع الأساقفة وحزم الحكومة . قصة الفتاة فلورا . وفاة عبد الرحمن . صفاته وخلاله . روعة البلاط الأموى فى عهده . ترتيب الوزارة . وزراؤه وكتابه وقضاته . اصطفاؤه للموالى والصقالبة . الفتى نصر . نفوذ الفتيان والجوارى . منشآته . الأمن والرخاء فى عهده . أدبه وشعره . حمايته للعلوم والآداب . استقدامه لزرياب نابغة الموسيقى . شغفه بجمع الكتب . سفارة قيصر قسطنطينية إليه . بواعث هذه السفارة . سفارة عبد الرحمن إلى القيصر وكتابه إليه . يحيى الغزال فى بلاط بيزنطية . سفارته إلى ملك النورمانيين .

لما توفى الحكم ، خلفه عبد الرحمن أكبر أولاده بعهد منه ، وكان ينوب عنه فى الحكم أثناء مرضه حسبما قدمنا ، وبويع فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ (مايو ٨٢٢ م) ، وأخذ له البيعة بالقصر الحاجب عبد الكريم ، وكان حينما ولى العرش فى الحادية والثلاثين من عمره ، إذ كان مولده بطليطلة فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) ، وأمه أم ولد تدعى « حلاوة » ، وكان أحب أبناء الحكم إليه ، وقد عنى بتربيته وتثقيفه عناية خاصة . وشغف عبد الرحمن ، منذ فتوته بالأدب والحكمة ، ودرس الحديث والفقه ، فكان ذهناً مستنيراً[1] ، وكان فوق ذلك أميراً رفيع الخلال والكفاية ، وافر الخبرة بشئون

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٥ .

الحرب والإدارة ، يحسن اختيار الرجال للمناصب ، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة[1] .

وفى فاتحة ولايته ، عاد عبد الله البلنسى ، عم أبيه ، إلى الثورة مرة أخرى ، واحتل كورة تدمير مطالباً بإقطاعها (سنة٢٠٧هـ) ، والتف حوله جمع كثير ، وكان يزمع الزحف إلى قرطبة بالرغم من ضعفه وشيخوخته ، ولكن المرض عاجله ، وتوفى فى العام التالى (سنة ٢٠٨ هـ) ، فاحتل عبد الرحمن كورة تدمير ، وتكفل بأهله وولده ، وانتهت بذلك آخر مرحلة فى فتنة طالما تكرر حدوثها منذ وفاة عبد الرحمن الداخل .

ولكن تدمير لبثت مع ذلك تضطرم بنار ثورة داخلية من نوع جديد . ذلك أن فتنة نشبت فيها بين المضرية واليمنية ، من جراء موت مضرى قتله يمانى ، واستفحل الشر بينهما ، وقتل كثير من الفريقين ، فبعث عبد الرحمن إليهم حملة بقيادة يحيى بن عبد الله ، وعينه والياً على تدمير ، ولكنه لم يفلح فى إخضاع الولاية الثائرة . واستمرت الفتنة على أشدها ، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم اليمنية ، ولبث بضعة أعوام يتحدى سلطة قرطبة ، والبعوث تتردد إليه فى كل عام ، دون أن تنال منه منالا ، ولم تهدأ الفتنة إلا فى سنة ٢١٣ هـ ، حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء ، وطلبوا الأمان ، وعادوا إلى الطاعة .

وحدثت فى قرطبة عقب جلوس عبد الرحمن بأيام قلائل ، فتنة شعبية من نوع ما حدث أيام الربض . ذلك أن وفوداً من أهل الذمة وغيرهم قدمت من إلبيرة تطالب برفع المغارم التى فرضها عليهم ربيع الأسقف ، وانضم إليهم كثير من أهل قرطبة النصارى ، وساروا إلى القصر فى ضجة كبيرة ، فأرسل إليهم عبد الرحمن قوة من الفتيان لتهدئتهم فاعتدوا عليها ، فبعث عندئذ الجند إليهم ، ففتكوا بهم وقتل منهم خلق كثير ، وفر الباقون فى مختلف الأنحاء ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٢٠٧ هـ[2] .

وبدأ عبد الرحمن برنامجه فى الغزو والجهاد مبكراً ، فبعث فى صيف سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) حملة إلى ألبة والقلاع بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث ، وكان ألفونسو الثانى ملك جليقية (أو ليون) قد أغار على

(١) مخطوط ابن حيان ص ١٣٨ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٣٠ .

مدينة سالم Medinaceli من أعمال الثغر الأعلى ، وحذت حذوه بعض القبائل الجبلية من أهل بسكونية ، فأغارت على أطراف الثغر وعاثت فيها ، فاخترق الحاجب بسائط ألبة والقلاع ، وهزم النصارى فى عدة مواقع ، وعاث فى ألبة وخرب مدينة ليون وأحرق حصونها ، واشترط على النصارى أن يدفعوا جزية كبيرة ، وأن يطلقوا أسرى المسلمين ، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة بسكينتهم ، وعاد الحاجب إلى قرطبة مثقلا بالغنائم والسبي . وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا الوزير النابه والقائد المظفر ، الذى قاد معظم الغزوات الكبرى إلى أرض العدو ، منذ عهد هشام بن عبد الرحمن ، إذ توفى عقب عوده إلى قرطبة بقليل فى المحرم سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) (١) .

وفى هذا العام (٨٢٤ م) أصيب الفرنج بهزيمة ساحقة فى أحواز بنبلونة ، فى سفح جبال البرنيه ، عند باب شزروا ، حيث نكب جيش شارلمان من قبل ؛ ويبدو من أقوال الرواية الفرنجية أن المسلمين كان لهم دور كبير فى إيقاع هذه الهزيمة . ذلك أن لويس ملك الفرنج أرسل قواته بقيادة الكونتين أزنار وإبلو لمهاجمة البشكنس وإخضاعهم ، فاستغاث البشكنس بجيرانهم المسلمين ، والظاهر أن الذى لبى نداء البشكنس هم بنو موسى أو بنو قسى أصحاب تطيلة ، وأن هذه المعاونة كانت بموافقة حكومة قرطبة . وعلى أى حال فقد أحرز المسلمون والبشكنس على الفرنج نصراً ساحقاً . وأسر القائدان أزنار وإبلو ، ثم أطلق سراح الأول وأرسل الثانى إلى قرطبة حيث اعتقل بعض الوقت . وقد أثار هذا الحادث ذكريات موقعة باب شزروا الكبرى التى نكب فيها الفرنج أيام الأمير عبد الرحمن الداخل ، قبل ذلك بستة وأربعين عاماً (٢) .

وتولى قيادة الصائفة بعد الحاجب عبد الكريم (٣) ، أمية بن معاوية بن هشام ، ولكنه لم يسر إلى أرض العدو ، بل سار إلى شنت برية ، ثم إلى تدمير ليعمل على تهدئة الثورة . وكانت حوادث الشمال قد عادت تتطلب اهتمام قرطبة ، وكان

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) راجع : R.M. Pidal : ibid, Vol. I. p. 195 ، وكذلك كوندى : Conde : ibid ; Vol. I. p. 264 & 265

(٣) كانت معظم الحملات والغزوات الإسلامية الكبرى ، تنظم فى الصيف باعتباره خير الفصول للقيام بمثل هذه الغزوات ، ولهذا كانت تسمى بالصائفة و الصوائف .

الفرنج فى الثغر القوطى قد تحركوا ، وأغاروا على أطراف الثغر الأعلى ، بقيادة أميرهم برنهارت صاحب برشلونة ، وهو ولد جيوم دوق تولوز ، فسير عبد الرحمن إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسى ، فاخترق الثغر الأعلى إلى أراضى الفرنج (٢١٢ هـ — ٨٢٧ م) واجتاح ولاية قطلونية ، وهزم الفرنج فى عدة مواقع ، وسار حتى جِرُندة (جيرونة) ، ولكنه لم يحاول أن يحرز فتوحاً ثابتة ، فارتد إلى الجنوب بعد أن مزق شمل النصارى فى تلك الأنحاء[١] .

وشغلت عبد الرحمن فى الأعوام التالية عدة ثورات محلية خطيرة ، وكانت الفتنة تضطرم فى نفس مواطنها القديمة ، فى طليطلة ، وماردة ، حيث كانت عناصر الخروج والثورة تحتشد وتعمل بعيدة عن العاصمة ، ممتنعة بالوهاد والوعر ، قريبة من النصارى ، تتلقى منهم الوحى والعون فى أحيان كثيرة . فى ماردة ثار البربر بقيادة زعيمين من زعمائهم هما محمود بن عبد الجبار بن راحلة ، وهو من بنى طريف من مصمودة ، وسليمان بن مرتين ، وانضم إليهم النصارى المعاهدون . وألفى لويس ملك الفرنج فرصة جديدة للدس والتحريض على حكومة قرطبة ، فبعث إلى الثوار يشجعهم ويعدهم بالمدد والعون[٢]. وكان محمود زعيما قوياً ومغامراً جريئاً ، فوثب بعامل ماردة وقتله ، وعاث فى تلك الأنحاء قتلا ونهباً وتخريباً ، وتوالت إليه بعوث عبد الرحمن ، فكان فى كل مرة يعتصم بالمدينة ، فإذا غادره الجند عاد إلى عيثه وسفكه . وفى سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) سار إليه عبد الرحمن بنفسه ، فغادر ماردة فى صحبه ومعه زميله سليمان ، وخرجت مع محمود أخته جميلة العذراء ، وهى فارسة بارعة الحسن ، اشتهرت يومئذ فى جميع أنحاء الأندلس برائع جمالها ، كما اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية ، ولقاء الفرسان ومبارزتهم[٣]، ونزل الثوار بحصن فرنكش على ضفة نهر وادى يانة . ثم غادر سليمان زميله ، واستقل محمود بالعمل ، وزحف فى جموعه على بطليوس ، ثم على أكشونبة[٤] ثم سار إلى باجة ، فقاتله أهلها ، ولكنه تغلب عليهم بمعاونة أخته جميلة ، وبسط محمود سلطانه على

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ ؛ ومخطوط ابن حيان ص ١٨٠ .
(٢) Scott : ibid , Vol. I. p.482
(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٦ .
(٤) بطليوس بالإسبانية Badajoz ، وأكشونبة Ocsonoba

باجة ، وهو يقاتل خصومه من حوله ، وبعوث الأمير تتردد إليه ، حتى لحقه الإعياء واليأس ، ففر مع أخته وصحبه إلى جليقية ، واستجار بملكها ألفونسو الثانى ، فرحب به وأكرم وفادته ، وأنزله بأطراف مملكته . وبعد حين رأى الثائر أن يعود إلى الطاعة فكاتب عبد الرحمن ، ووقف ألفونسو على هذه المحاولة ، فخشى إن أفلت الثائر منه أن ينقلب حرباً عليه ، فسار إليه وأحاطت به الجند من كل ناحية ، ودافع محمود عن نفسه دفاع الأبطال ، ولكنه قتل أخيراً ، وأسر أهله وصحبه ، وكانت أخته الحسناء جميلة بين الأسرى (٢٢٥ هـ — ٨٤٠ م) . ووقعت جميلة فى نصيب كبير من كبراء النصارى ، فحملها على اعتناق النصرانية وتزوج منها ، وكان من ولدها فيما بعد أسقف شنت ياقب[1] .

واضطرمت طليطلة بالثورة فى نفس الوقت ، ففى سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ثار بها زعيم من العامة يدعى هاشم الضراب ، وكان هاشم فى طليطلة أيام واقعة الحفرة ، ثم أخذ بين الرهائن إلى قرطبة ، فاشتغل بها حداداً مدى حين وعرف بالضراب ، ثم غادرها إلى طليطلة ، وهناك اجتمع إليه عدد كبير من الأوغاد والسفلة ، فأخذ يغير بهم على الأنحاء المجاورة ، حتى اشتد بأسه وطار صيته ، وهرع إلى لوائه أهل الشر والبغى من كل صوب ، وسار إلى البربر فى شنت برية ، فأغار عليهم وأوقع بهم ، فبعث عبد الرحمن الجند لقتاله بقيادة محمد بن رستم ، عامل الثغر الأدنى ، فنشبت بينه وبين الثوار عدة وقائع غير حاسمة . وفى العام التالى بعث عبد الرحمن إلى عامله بالمدد ، فزحف على الثوار والتقى بهم على مقربة من حصن سمسطا بمجاورة رورية ، ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة هزم فيها الثوار ، وقتل هاشم الضراب وكثير من أصحابه ، وذلك فى سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) .

ولكن طليطلة استمرت مع ذلك على اضطرامها ، وكان على عبد الرحمن أن يخوض معارك أخرى لإخضاعها . ففى سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) أرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه أمية بن الحكم ، فحاصرها وانتسف ما حولها من الزروع ، ولكن المدينة الثائرة لم تهن ولم تخضع ، فرحل عنها ، وأبقى بعض قواته بقيادة

---

(١) وردت هذه التفاصيل الشائقة فى مخطوط ابن حيان (ص ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٤) . وراجع ابن القوطية ص ٦٧ .

ميسرة الفتى فى قلعة رباح [١] الواقعة فى جنوبها استعداداً لمحاصرتها ، فخرج عندئذ أهل طليطلة لقتال ميسرة ، فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فارتدوا إلى داخل المدينة ، وعادوا إلى الاعتصام بأسوارها المنيعة . وفى العام التالى (سنة ٢٢٠ هـ) سار إليهم عبد الرحمن بنفسه ، فثبتت فى وجهه المدينة الثائرة ، فترك الجند فى قلعة رباح ، وسار إلى الغرب فى أحواز ماردة ، ليطارد سليمان بن مرتين زعيم البربر ، وكان بعد أن تخلف عن زميله محمود بن عبد الجبار ، يتزعم الثورة فى تلك الأنحاء ، فحاصره عبد الرحمن ، وحدث أن قتل الثائر فى سقطة مميتة عن جواده ، فانفضت جموعه وخبت ثورته . وسير عبد الرحمن فى العام التالى حملة أخرى إلى طليطلة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم ، فضرب حولها الحصار الصارم ، واستمر على حصارها حتى جهد أهلها ، وضاقوا بالحصار ذرعاً ، ثم هاجمها بعد ذلك واقتحم أسوارها ، وخضعت المدينة الثائرة ، بعد أعوام عديدة من من فتن وثورات مستمرة ، كان يغذيها خلالها روح التمرد المتأصل فى شعبها ، ودسائس البربر والنصارى من أهلها ، وتحريض الفرنج والجلالقة ، وكان خضوعها فى رجب سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) [٢] .

واستطاع عبد الرحمن بعد إخماد الثورة فى مختلف النواحى ، أن يستأنف أعمال الجهاد والغزو ، فعكف فى الأعوام التالية على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفية متعاقبة فى كل عام إلى الشمال ، تارة إلى أطراف الثغر الأعلى ، حيث تشتبك مع الفرنج ، وتثخن فى أراضيهم ، وتارة إلى ألبة والقلاع ، حيث تغير على أراضى البشكنس ، أو أطراف مملكة ليون (جليقية) ، وتولى عبد الرحمن قيادة الصائفة بنفسه إلى جليقية فى سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) . وفى سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) سار عبد الرحمن إلى الشمال ، وكان موسى بن موسى بن قسيّ والى تُطيلة [٣] من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) ، قد خرج عن طاعته وتحالف مع غرسية [٤] أمير نافار ، وأوقع الإثنان بجند الأمير فى الثغر ، وعاثا فى أنحائه .

---

(١) ومقابلها بالإسبانية **Calatrava**

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ و ١٥٠ و ١٥٣ و ١٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ .

(٣) وهى بالإسبانية **Tudela**

(٤) وهى بالإسبانية **Garcia**

وتقول الرواية فى سبب نقض موسى الطاعة ، أن عبد الرحمن كان قد ولى عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وعامر بن كليب على تُطيلة ، فأغار عبد الله على أموال ينقة بن ونقة أخى موسى لأمه ، واعتدى عامر بن كليب على أملاك موسى وخيله ، وانتهب أمواله ، وخرب حدائقه ، فعندئذ أعلن الخروج والعصيان ، وكان ذلك فى سنة ٢٢٦ هـ[١] . فسار عبد الرحمن إلى بلاد البشكنس (ناڤار) ، وتوغل فيها حتى بنبلونة ، وعاث فيها نسفاً وتخريباً ، وسبى من أهلها جموعاً كثيرة .

ولا بد لنا هنا من التعريف بهذا الزعيم الثائر موسى بن موسى ، إذ هو سوف يحتل منذ الآن فصاعداً ، هو وأبناؤه ، حيزاً كبيراً فى تاريخ الثورة على حكومة قرطبة . فهو وفقاً لابن حيان ، وابن حزم ، موسى بن موسى بن فرتون ابن قسىّ (أو القسوى) . وكان جده الأعلى ، الكونت قسىّ Kasi من أشراف القوط ، وكان وقت الفتح «قومس» Comes الثغر الأعلى ، فلما غزا المسلمون أراضيه سار إلى الشام ، واعتنق الإسلام على يدى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وذلك لكى يحتفظ فى ظل الغزاة الجدد ، بأملاكه وسلطانه الإقطاعى ، واعتبر بإسلامه على يدى الخليفة من مواليه ، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب المضرية . وعدا أولاده وأحفاده من بعده زعماء المولدين فى الثغر الأعلى . وكانوا من أنجاد الزعماء والفرسان ، يمتازون بالجرأة والإقدام والشجاعة ، ويعتزون دائماً بأصلهم القوطى النصرانى ، وكانت لهم دائماً علائق مصاهرة مع جيرانهم من الأمراء النصارى ، من البشكنس وغيرهم ، وكان إسلامهم فى الواقع مظهراً سطحياً لاغتنام السلطان والنفوذ ، وكانوا لا يشعرون بالولاء نحو حكومة قرطبة ، يصانعونها متى وجبت المصانعة ، احتفاظاً بمركزهم وسلطانهم فى الثغر ، ولكنهم لا يحجمون عن انتهاز أية فرصة للثورة عليها ، ومحالفة أعدائها من النصارى . وسنرى فيما بعد أى دور خطير قامت به هذه الأسرة المتمردة الخطرة ، فى ثورة المولدين الكبرى على قرطبة [٢].

---

(١) نصوص عن الأندلس للعذرى فى الأوراق المنثورة من كتاب « ترصيع الأخبار » ص٢٩

(٢) راجع المقتبس لابن حيان ، الجزء المطبوع بعناية المستشرق أنتونيا ص ١٦ و ١٧ . وكذلك جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٧ و ٤٦٨ ، حيث يقدم لنا شجرة كاملة لنسبة بنى قسى ، منذ جدهم الأعلى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى .

وفى العام التالى سار عبد الرحمن إلى الشمال مرة أخرى ، ومعه ولداه المطرِّف ومحمد ، واستخلف ولده المنذر على قرطبة ، وبدأ عبد الرحمن بمحاصرة تُطيلة حتى أخضعها ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى ، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى فى جموع كبيرة ، فهزم البشكنس وحلفاؤهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد جم ، وفر موسى وحليفه غرسيّة جريحين ، وسار عبد الرحمن إلى بنبلونة فأثخن فيها وخربها ، واضطر البشكنس إلى طلب الأمان والصلح ، وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الإسلام وحكومته فى تلك الأنحاء (٢٢٨ هـ — ٨٤٢ م)(١) . ولم يكن لهذه الغزوات فى الواقع نتائج مستقرة ، وكانت تقصد فى الغالب إلى إيقاع الرعب فى قلوب نصارى الشمال ، وتخريب بلادهم ، وإنهاك قواهم ، حتى يلزموا السكينة ، ويكفوا عن عدوانهم وعيثهم فى أراضى المسلمين .

وفى نفس هذا العام الذى سحقت فيه ناڤار وخربت (٨٤٢ م) ، توفى ألفونسو الثانى الملقب بالعفيف بعد أن حكم مملكة ليون (جليقية) إحدى وخمسين عاماً ، إذ تولى الملك فى سنة ٨٩١ م ، أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وخلفه ولده راميرو الأول ، أو رذمير كما تسميه الرواية العربية . وقد اقتصرنا فيما تقدم على أن نسرد من أخباره وأخبار مملكته ، ما له صلة بسير الحوادث فى اسبانيا المسلمة ، أما أخبار مملكة ليون الداخلية ، فسنفصلها عند الكلام على تاريخ المملكة النصرانية الشمالية .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، عرفت الأندلس لأول مرة خطراً جديداً لم يسبق لها أن عرفته أو توقعت حدوثه : ذلك هو خطر الغزوات النورمانية البحرية .

كانت سيادة البحار الشمالية منذ بداية العصور الوسطى فى يد « الڤيكنج » Vikings أو النورمانيين ، وكان أولئك النورمانيون أمة بحرية عريقة ، تمرست منذ غابر العصور فى ركوب البحر ومقارعة أهواله ، ووطنهم الأصلى هو اسكندناوة ، وربما دانيماركه ، وشواطئ ألمانيا الشمالية ، ولذا عرفوا بالنورمانيين

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٨ و ٨٩ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٦٧ و ١٧٢ و ١٨٠ ، ومخطوط ابن حيان ص ١٨٥ .

أى أهل الشمال[1] . واشتهر النورمانيون بجرأتهم فى جوب البحار الشمالية ، وبراعتهم فى مغالبة قسوة الجليد وأهوال اللجة والطبيعة ، ولم يأت القرن الثامن الميلادى حتى كانت حملاتهم البحرية الناهبة ، تثخن فى شواطئ الجزر البريطانية . وكان جدب الوطن ، وشظف العيش . وروح المخاطرة ، تدفع بهم دائماً إلى عرض البحار ، وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطئ والثغور المجاورة . وفى أوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة إلى شواطئ بلاد الفرنج (فرنسا) ، ثم نفذت جموع منهم إلى شمال فرنسا . وغزوا مصب اللوار ومصب الجارون ، وأنشأوا لهم عدة مراكز وقواعد فى تلك الأنحاء .

وهنا بدأ تطلع النورمانيين إلى اسبانيا . والأندلس بنوع خاص . وكانت نعماء الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والغنى . تثير جشع أولئك الغزاة المغامرين ، ولم تكن الأندلس تحسب حساباً لذلك الخطر الداهم المستتر معاً ، لأنها لم تعرف النورمانيين من قبل ، ولا تعرف لهم بقربها أرضاً أو مستقراً . وتطلق الرواية الإسلامية على أولئك الغزاة المجهولين إسم «المجوس» ، بيد أنها تعرفهم أيضاً «بالأردمانيين» أى النورمانيين ، وقد ترجع هذه التسمية إلى أن النورمانيين كانوا فى العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة « مجوساً » أى وثنيين لم يعتنقوا النصرانية بعد . وكان ظهور النورمانيين فى المياه الإسبانية ، لأول مرة فى سنة ٨٤٣ م . ففى تلك السنة خرج أسطول نورمانى من نهر الجارون وعاث فى شواطئ مملكة جليقية ، فبعث ملكها راميرو (رذمير) إليهم جيشاً ردهم وأحرق كثيراً من سفنهم ،فانقلب النورمانيون عندئذ إلى مياه إسبانيا الغربية والجنوبية ، يجوبونها فى طلب السبى والغنيمة ، واقتحموا شواطئ المملكة الإسلامية (الأندلس) فى غزوتهم الأولى .

وتضع الرواية الإسلامية هذه الغزوة فى سنة ٢٣٠ هـ . وتحدثنا عنها بإفاضة ، فتقول لنا إن أسطولا مجوسياً (نورمانياً) قوامه زهاء ثمانين مركباً ، رسا فى مياه أشبونة[2] فى أواخر سنة ٢٢٩ هـ (يوليه أو أغسطس سنة ٨٤٣ م) ، فكتب عاملها وهب الله بن حزم إلى عبد الرحمن بن الحكم ينبئه بالخطر . فكتب عبد الرحمن

---

(١) وهى بالإفرنجية **Norsmen** أو **Normanen**

(٢) لشبونة **Lisboa** عاصمة البرتغال الحديثة .

إلى عمال الثغور بالتحوط والأهبة . ولبث النورمانيون فى مياه أشبونة ثلاثة عشر يوماً التحموا خلالها مع المسلمين فى عدة وقائع ، ثم ساروا بأسطولهم جنوباً إلى قادس ، ثم شذونة ، ثم اخترقوا النهر الكبير (الوادى الكبير) حتى إشبيلية . وكان ظهور هذه السفن الغازية ، وأولئك الغزاة الشقر فى قلب الأندلس ، مفاجأة مروعة ، ولم يكن للأندلس يومئذ أسطول قوى تدفع به شر الغزوات البحرية ، ولم تتخذ فى الثغور لردها أهبات خاصة . ونزل النورمانيون فى ظاهر إشبيلية فى أوائل المحرم سنة ٢٣٠ هـ (سبتمبر سنة ٨٤٣ م)[١] وكانت يومئذ دون أسوار تحميها من العدوان المفاجىء ، وكانت مفاجأة مروعة لأهلها ، الذين لم يتخذوا أية أهبة خاصة للدفاع عن أنفسهم ، وعبثاً حاول المسلمون رد الغزاة . واقتحم النورمانيون إشبيلية وأمعنوا فى أهلها سفكاً ونهباً وسبياً ، وعاثوا فيها مدى سبعة أيام أشنع عيث ، ثم غادروها وعسكروا فى ظاهرها ، فى قرية طلياطة الواقعة غربى إشبيلية . وفى تلك الأثناء بعث الأمير عبد الرحمن قوات من الخيل على عجل لإنجاد إشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم ، وجعل على قوات قرطبة حاجبه عيسى بن شهيد ، وهرع المسلمون من كل صوب للجهاد ورد الغزاة . وقاد القوات المتحدة نصر الخصى ، وتلقى النورمانيون المدد فى سفن جديدة قدمت إليهم ، ونشبت بين الفريقين فى البداية بضع معارك محلية ، تفوق فيها الغزاة . وفى الخامس والعشرين من صفر سنة ٢٣٠ هـ ، نشبت بينهما معركة حاسمة تجاه قرية طلياطة ، وكان على رأس قوات المسلمين محمد بن رستم ، فهزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف وأسر نيف وأربعمائة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وكان قائدهم بين القتلى ، وارتد النورمانيون إلى سفنهم ، وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم ، وصلبوا على جذوع النخل ، ثم أقلعت سفن الغزاة مرتدة إلى الجنوب ، والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ، ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وانتقم النورمانيون لأنفسهم أثناء ارتدادهم بالإغارة على لبلة وباجة ، ثم انتهوا ثانية إلى ثغر أشبونة حيث غادروا مياه الأندلس مع باقى سفنهم ، بعد أن لبثوا بضعة أسابيع يبثون فيها الرعب والروع .

---

(١) يضع ماريانا غزوة النورمانيين الأولى لإشبيلية فى سنة ٨٤٧ م (راجع تاريخه العام — الترجمة الفرنسية — ج ٢ ص ٨٤) .

واستطالت غزوة النورمانيين ، منذ نزولهم بأرض إشبيلية ، إلى أن تمت هزيمتهم وإقلاعهم ، إثنين وأربعين يوماً ، عانى فيها المسلمون محناً وشدائد كثيرة ، ارتجت لها ربوع الأندلس كلها . فلما انقشعت الغمة ، بادر الأمير عبد الرحمن فبعث بالكتب إلى سائر الآفاق معلنة هذا النصر على العدو المغير ، وبعث بها بالأخص إلى أمراء العدوة ، ومعها طائفة من رؤوس أكابر النورمانيين القتلى . وأغدق الأمير ثناءه وصلاته على نصر الخصى فتاه الأثير لديه ، وكان قائد قواته العام فى تلك المعركة الكبرى[١] .

وكان لهذه المفاجأة المروعة أثرها فى حمل حكومة الأندلس على الاهتمام بأمر الأسطول والتحصينات البحرية . فابتنى عبد الرحمن حول إشبيلية سوراً ضخماً ، وأنشأ بها داراً عظيمة للصناعة ، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة ، وحشد لها المقاتلة من شواطئ الأندلس ، فكانت نواة الأسطول الأندلسى الكبير الذى بلغ فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة . وعلى أى حال فقد أدرك النورمانيون أن الأندلس لم تكن فريسة هينة . وتحدثنا الرواية الإسلامية بأنهم عقب هزيمتهم فى هذه الغزوة الأولى سعوا إلى الصلح مع أمير الأندلس ، وبعثوا رسلهم فى طلب السلم والمهادنة ، وأن الأمير الأندلسى عبدالرحمن بعث كاتبه يحيى الغزال إلى ملكهم لبرد السفارة ، وهى رواية سنعود إلى تفصيلها[٢] .

ولم يمض قليل على رد الغزاة النورمانيين ، حتى بادر عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير بالصائفة إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده هشام ، ومعه الوزير عيسى ابن شهيد ، فاخترق قشتالة القديمة ، وسار صوب ناڤار وغزا بنبلونة ، ووافاه هناك موسى بن موسى والى تطيلة ، فقدم طاعته ، ومنح الأمان ، وأقر على ولايته . وفى العام التالى سير عبد الرحمن بالصائفة قواته مرة أخرى إلى الشمال ،

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه الغزوة ، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والعذرى فى الأوراق المنشورة من « ترصيع الأخبار » ص ٩٨ — ١٠٠ ؛ وفى النويرى : نهاية الأرب (القسم الخاص بتاريخ الأندلس) وقد نقل دوزى روايته ؛ **Recherches : II. p. 337-338** وكذلك فى الملحق **Appendice 37** ؛ وفى ابن القوطية (ص ٦٣ — ٦٧) ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ . وفى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة نقلت عن محمد بن أحمد الرازى وأخيه عيسى ومعاوية بن هشام الشبينسى .

(٢) راجع رواية النويرى المشار إليها فى دوزى : **Recherches : App. 37**

بقيادة ولده محمد ، فاخترق بسائط جليقية ، وحاصر عاصمتها ليون ، ولجأ النصارى إلى الجبال ، ثم ارتد عنها بعد أن عاث فيها قتلا وتخريباً (سنة ٢٣١ هـ — ٨٤٥ م) . وعصف بالأندلس فى العام التالى قحط شديد ، وهلكت الزروع والماشية ، وقاست البلاد من ويلاته مدى أشهر .

وفى سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) ظهر بالثغر الفرنجى ، فى شمال شرقى إسبانيا ، زعيم يدعى جيين دى تولوز ، وهو فيما يرجح من تسميه الرواية العربية ، غليالم بن برباط بن غليالم ، وكان قد أعلن الخروج والثورة على ملك الفرنج شارل الأصلع ، ووفد فى العام السابق على بلاط قرطبة ، يلتمس التأييد والعون ، فاستقبله عبد الرحمن بترحاب ، وأمده بعونه ، فعاد إلى الثغر وعاث فيه بقواته ، وحاصر برشلونة وخرب حصونها ، وهاجم جرندة ، وكتب عبد الرحمن إلى عامله على طرطوشة عبد الله بن يحيى ، وعامله على سرقسطة عبد الله بن كليب ، فى إمداده وتأييده فى ثورته ضد ملك الفرنج[1]. بيد أنه يبدو من أقوال الرواية الفرنجية أنه وقعت على إثر ذلك مفاوضات بين عبد الرحمن وشارل الأصلع ، انتهت بعقد الهدنة والسلم بينهما .

وفى نفس هذا العام نقض موسى بن موسى بن قسى (القسوى) العهد ، وعاد إلى الثورة ، وعاث فى أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة من أعمال الثغر الأعلى ، وظاهره أخوه لأمه فرتون إنيجز (ابن ونقة) أمير بنبلونة، فبعث إليه عبد الرحمن جند الصائفة بقيادة عباس بن الوليد المعروف بالطبلى ، فطاردته حتى أرهق وأعلن عوده إلى الطاعة ، وقدم ولده إسماعيل رهينة كفالة بولائه، فقبل عبد الرحمن طاعته، وأقره على ولايته تطيلة ، ودخل معه فى هذا الصلح أخوه فرتون إنيجز[2]

وفى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) بعث عبد الرحمن قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتى ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزائر البليار) لغزوهما ، ومعاقبة

---

(١) وردت هذه الرواية فى قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان ، عثرت بها فى مكتبة القرويين بفاس ، وحصلت منها على نسخة مصورة حسبما أشرت إلى ذلك من قبل . وهى التى تبدأ حوادثها منذ سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى بحوادث سنة ٢٦٧ هـ ، وسوف نقتبس منها منذ الآن فصاعدا فى مختلف المواطن التى تتناول حوادثها . (لوحة ١٨٩ ب من المخطوطة المذكورة) .

(٢) لوحة ١٨٩ ب و ١٩٠ أ من المخطوط المذكور ، وهو يسمى هنا أمير بنبلونة بابن ونقة، وهو تحريف ، والصواب ابن ونقة **Inequiz**

أهلهما لتعرضهم لسفن المسلمين المجاهدين والإضرار بهم ، فأخضعهما المسلمون وأثخنوا فيهما ، وأصابوا كثيراً من السبي ، وبعث أهلهما إلى الأمير يطلبون الأمان ودفع الجزية ، ويتعهدون بالولاء والطاعة ، فأجابهم إلى ما طلبوا . وكانت مياه اسبانيا الشرقية قد غدت منذ عهد هشام مركزاً للحملات البحرية المتجهة نحو الشمال والشرق ، وكان قوام هذه الحملات فى الغالب جماعات من البحارة والمجاهدين ، الذين يجوبون هذه المياه طلباً للغنيمة والسبي ، ويثخنون فى الثغور والجزر النصرانية القريبة . ففى سنة ٨٠٦ م (١٩١ هـ) فى عهد الحكم ، غزت إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، فبعث بيبن ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولا لقتالهم ، فهزموه واستولوا على كثيرا من الغنائم والسبي . ولم يمض عامان على ذلك ، حتى عاد البحارة المسلمون إلى غزو شواطىء كورسيكا وسردانية ، ثم توالت غزواتهم لها بعد ذلك . وفى سنة ٨٣٦ م (٢٢١ هـ) خرج أسطول أندلسى من ثغر طرّكونة والجزائر الشرقية ، وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية ، وهاجم المسلمون ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضى وأثخنوا فيها . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان ، وكان ملكاً ضعيفاً عاجزاً ، فلما توفى سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملكة ، وضعفت حماية الثغور ، فانتهز البحارة المجاهدون هذه الفرصة ، وغزوا ولاية بروڤانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل وخربوها ، ثم توالت غزواتهم فى تلك المياه بعد ذلك ، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة فى بروڤانس وفى أنحاء أخرى فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا ، وسوف نعود إلى حديث هذه المستعمرات العربية النائية فى قلب أوربا .

وفى سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) ، اضطرمت الحرب فى الشمال بين المسلمين والغسقونيين أو الجاشقيين كما تسميهم الرواية الإسلامية وهم فرع من البشكنس ، وكان هؤلاء قد أغاروا على الأراضى الإسلامية المجاورة ، فى قاصية الثغر الأعلى ، فتصدى لردهم موسى بن موسى والى تطيلة ، وكان يومئذ على ولائه لحكومة قرطبة ، ووقعت الحرب بين المسلمين والبشكنس ، فى جنوبى بنبلونة على مقربة من بقيرة ، فهزم المسلمون أولا ، وأثخن قائدهم موسى جراحاً ، ولكنه أستأنف المعركة فى اليوم التالى ، وكر على العدو بشدة ، فهزم البشكنس شر

هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، وتسمى هذه الموقعة فى الرواية الإسلامية بموقعة البيضاء ، وهى محلة صغيرة مجاورة لبقيرة[1] .

* * *

وفى أواخر عهد عبد الرحمن ، هبت على نصارى قرطبة ريح شديدة من التعصب ، ولاحت فى الأفق بوادر فتنة دينية واجتماعية خطيرة . ولم يك فى نظم الحكم الإسلامى ، ما يقصد إلى إيذاء النصارى المستظلين بلوائه ، ولم تشذ حكومة قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامى المأثور ، ولم تحاول تدخلا فى شئون النصارى الدينية أو تعرضاً لعقائدهم أو شعائرهم ، بل كان النصارى فى قرطبة وغيرها ، أحراراً فى عقائدهم وشعائرهم ، والاحتكام إلى شرائعهم وقضاتهم ، وكثيراً ما تبوأوا مناصب الثقة والمسئولية فى الجيش وفى الإدارة ، وكثيراً ما حاربوا مع إخوانهم المسلمين جنباً إلى جنب ، وكانت أغلبية كثيرة منهم تشتغل بالتجارة فى الثغور والمدن ، ويشتغل عامتهم فى ضياع المسلمين دون إكراه ولا عنت ، وكانت منهم مجتمعات زاهرة رغدة فى قرطبة وغيرها ، بل كثيراً ما بهرتهم الفصاحة العربية فانطلقت بها ألسنتهم ووضعوا بها كتبهم ، وكثيراً ما تخلقوا بأخلاق المسلمين وعاداتهم ، ونهجوا نهجهم فى الحياة الخاصة . بيد أنه كان ثمة فريق آخر من النصارى المتعصبين الذين يرون فى سادتهم المسلمين أجانب غاصبين ، معتدين على دينهم وأوطانهم ، وكان أولئك الغلاة يبغضون إخوانهم من النصارى المعتدلين ، ويرمونهم بالمروق والخيانة ، وكان رجال الدين ، وهم فى الأصل مبعث التعصب ودعامته ، يبذرون بذور الشقاق ، ويضرمون نار الفتنة ، ويوغرون قلوب الغلاة والمتطرفين ، باسم الدين ، وكانوا يبغضون المسلمين أشد البغض ويسخرون من دينهم ونبيهم ، ويجاهرون بهذا التحامل والبغض للنبى العربى وتعاليمه ، ويعتمدون فى معرفتهم للإسلام ونبيه ، على طائفة من الخرافات والأباطيل التى يتناقلها القسس فى كل عصر ومكان . يقول دوزى : « ولم يك ثمة أيسر عليهم ، وقد كانوا يعيشون بين المسلمين من الوقوف على الحقيقة ، ولكنهم كانوا يرفضون أن يستقوا من المصادر التى كانت لديهم ، وكان يسرهم أن يعتقدوا وأن يعيدوا كل الخرافات السخيفة التى أذيعت عن نبى مكة »[2] .

---

(١) ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٣ أ . وبقيرة هى بالإسبانية **Viguera** .

(٢) **Dozy : Hist, I.p. 317 et suiv.** . ويخصص دوزى لهذا البحث حيزاً كبيراً ، وتحمله نزعة من التعصب فى إيراد الوقائع ووصفها ، وهو يعتمد هنا بالأخص على مصادر كنسية معاصرة .

ويقدم إلينا المستشرق سيمونت ، وهو عمدة العلماء الإسبان فى الكتابة عن تاريخ « النصارى المعاهدين » Los Mozárabes التفاصيل الآتية ، عما يصفه بأنه « البطولة التى تذرعت بها النصرانية فى قرطبة فى مقاومة فورات الإلحاد الإسلامى » . ويرى سيمونيت أن قرطبة كانت من المعسكرات الرئيسية للحرب المدمرة التى شهرها الإسلام على النصرانية . وبالرغم عن أنه يعترف بأن الإسلام لبث مدى قرن يحتفظ بقدر من التسامح نحو المستعربين ، وقت أن كان فى حاجة إلى خدماتهم ومعاونتهم ، فإنه يقول إن الإسلام لما شعر بقوته ، لم يبد تسامحاً إزاء انتعاش الروح النصرانى ، الذى بدا يسيطر على فريق كبير من الشعب النصرانى . ثم يتحدث سيمونيت بعد ذلك عن « المظالم وصنوف الاضطهاد التى كان النصارى يقاسونها ، ليس فقط من عامة أهل قرطبة بل من حكومة قرطبة ذاتها » . ثم يقول : « وقد كانت هذه السياسة منافية للعهود والقوانين التى منحت للوطنيين (الإسبان) أيام الفتح . وقد كان الطغيان الإسلامى شديد الوطأة على ضمائر النصارى الوطنيين وأملاكهم وكرامتهم معاً » .

وينعى سيمونيت على أمراء قرطبة ، أنهم احتفظوا بحقوق وامتيازات ضد النصارى لإخضاعهم ، وأنهم كانوا مثل القوط يدعون لأنفسهم حق تعيين الأساقفة وعزلهم ، وحق عقد المجالس الدينية التى يمثلهم فيها بعض المسلمين أو النصارى المرتدين ، ويسندون وظائف الأساقفة فى أحيان كثيرة إلى رجال من طراز منحط ، يملقون الأمراء ويخدمونهم .

ولم يك استبداد الأمراء أقل وطأة على أملاك المستعربين وثرواتهم ، إذ كانوا حرصاً على سلامتهم يؤدون للخزانة مزايا عظيمة ، فى شكل جزية وضرائب تنبو عن طاقتهم . وقد كان تسامح المسلمين لا يغتنم فى الظروف العادية إلا بالعرق والدم . ثم جاءت الأيام التى كان يقاسى فيها النصارى كل شىء ، ليحتفظوا بحرية دينهم ، وينتزع كل يوم منهم مغارم أكبر ، هذا فضلا عن الضرائب العادية ، وقد كانت فادحة فى ذاتها تفرض عليهم بمختلف الحجج والأعذار .

وقد وصلت هذه المغارم إلى ذروتها فى عصر عبد الرحمن الثانى الأمير الباذخ ، ومحمد الأول الأمير القاسى ، الذى حصل من نصارى قرطبة بواسطة الكونت سواندا على مبلغ مائة ألف « سويلدو » .

ويتحدث سيمونيت بعد ذلك عن تعصب المسلمين ، ويقول إن تعصب العرب ضد الأجانب وامتهانهم لهم ، وصل إلى الذروة فى النصف الأول من القرن التاسع ، وكذا وصل إلى الذروة تزمت البربر الوحشى ، وتزمت الإسبان المسلمين (المولدين) الذين اتخذوا الارتداد عن دينهم سبيلا إلى بلوغ الرخاء ، وكانوا لكي يمحوا ذكرى أصولهم المسيحية ، أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين أنفسهم . كان هؤلاء وهؤلاء يمعنون فى إهانة النصارى واضطهادهم بشتى المظاهر ، ولاسيما رجال الدين والقساوسة ، وكانت موجة هذا الاضطهاد تشتد كلما جاءت الأخبار بانتصار نصارى الشمال ، أو قيام المولدين فى طليطلة أو غيرها .

هكذا يتحدث سيمونيت عن « تعصب » المسلمين ضد رعاياهم وإخوانهم النصارى المعاهدين . ومع ذلك فإن سيمونيت يعترف بأن كثيراً من نصارى قرطبة ، كانوا يخدمون فى الجيش الإسلامى جنداً أو ضباطاً ، وأن كثيراً منهم وصل إلى وظائف هامة فى البلاط والقصر الملكى ، وفى قصور أكابر المسلمين .

ويصف سيمونيت تأثير المجتمع الإسلامى ، وعظمته ولغته وتقاليده ، فى نفوس النصارى فى قوله :

« هذا ، وقد كان يأسر الشباب النصرانى منظر العظمة المادية والحضارية ، التى تفوقت بها قرطبة المسلمة على قرطبة النصرانية ، وما كانت تقترن به هذه العظمة من المظاهر الأدبية والفنية ، التى بثها عبد الرحمن بحبه للشعر والفلسفة والموسيقى .

وكان من مظاهر تأثر الشباب النصرانى أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية ، محتقرين دراسة اللغة والآداب اللاتينية ، وهو أمر كان شديد الخطر على وطنيتهم ودينهم .

وفى النصف الأول من القرن التاسع ، لم تكن اللغة والآداب العربية فقط ، بل وكذلك الأفكار والتقاليد الإسلامية ، قد انتشرت بين المستعربين الإسبان . وهذا ما تشير إليه وثيقة هامة كتبها نصرانى قرطبي معاصر هو ألبرو القرطبي Alvaro Cordubense فى سنة ٨٥٤ م عنوانها Indicalo Luminoso ، وفيها يصف بقوة وبلاغة ، الذعر الذى أصاب « الأشراف الكرماء البواسل الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية والوطنية الإسبانية » . وكيف أن شباناً من

النصارى يمتلئون حياة وقوة وفصاحة ، يتقنون اللغة العربية ، ويبحثون بشغف عن الكتب العربية ويدرسونها بعناية ، ويمتدحونها بحماسة ، هذا فى حين أنهم يجهلون جمال الآداب الكنسية ، ثم يبدى ألمه من أن النصارى يجهلون شريعتهم ولغتهم اللاتينية ، وينسون لغتهم القومية(١) .

وهذه التفاصيل التى يقدمها إلينا العلامة سيمونيت عن أحوال المجتمع النصرانى فى قرطبة ، هى تفاصيل مفيدة قيمة ، ولكنها تنم عن كثير من التحامل ، وتصور وجهة نظر الكنيسة بأسلوب مغرق متزمت . وهى تغضى عن تلك الحقيقة الهامة ، وهى أن النصارى المستعربين وهم من رعايا الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون تقريباً بكامل حقوق إخوانهم المسلمين ، يدينون لهذه الحكومة بالطاعة ، واحترام القانون والنظام . ولئن كانت ثمة بعض قيود لحقوقهم ، فإن سن هذه القيود لا يرجع إلى عدم التسامح ، ولكنه يرجع إلى روح العصر ذاته .

بيد أن العوامل الدينية لم تكن وحدها مبعث هذا التحامل ، الذى يضطرم به نصارى قرطبة نحو الحكومة الإسلامية ، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضاً أثرها فى إذكائه . ذلك أن القسس والمتعصبين كان يحفظهم ويثيرهم ، ما يحيط بالحكم الإسلامى من مظاهر الإعزاز والسؤدد ، وما تبديه الهيئة الحاكمة من مظاهر الأبهة والفخامة ، وماينعم به المجتمع الإسلامى ، من حياة رغدة رفيعة . وكان يذكى هذا الحقد فى نفوسهم مايعانونه من خشونة عامة قرطبة وتعريضهم وتحاملهم . وهكذا بلغ تعصب النصارى أقصاه فى عهد عبد الرحمن ، وبدا منذراً بشر العواقب . وكان فى وسع أولئك المتعصبين فى المدن البعيدة عن قرطبة مثل طليطلة وغيرها ، أن يرفعوا علم الثورة ، وأن يقاتلوا حكامهم وجهاً لوجه ، ولكن الثورة فى قرطبة كانت أمراً عسيراً . فحاولوا عندئذ أن يبثوا بذور الفتنة الطائفية والفوضى الدينية والاجتماعية ، وأن يحاولوا الاستشهاد بطريق الاشتباك والتحدى . وعمد القسس والمتعصبون إلى تحقيق غايتهم بوسيلة بسيطة خطيرة معاً ، هى المجاهرة بسب النبى العربى ودينه ، وهى جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة الموت ، وأخذ بعض الغلاة من القسس والمتعصبين الهائمين ينزلقون عامدين إلى

---

(١) راجع هذا الفصل فى مؤلف سيمونيت الضخم : Historia de los Mozarabes de Espana. Vol. I. p. 258—272

هذا المنحدر الخطر ، ويوجهون السب المثير إلى النبي العربي فى الطرقات جهراً ، فإذا أخذوا أمام القضاة كرروا سبابهم بمنتهى الإصرار والجرأة . وحاول القضاة فى البداية استعمال الرفق واللين ، وإقناع أولئك العابثين بالعدول عن أقوالهم ، ولكنهم ألفوا أنفسهم أمام سلسلة مدبرة من الجرائم المماثلة ، فلم يترددوا عندئذ فى الحكم على القاذفين بالموت ، وهكذا أزهق بتلك الطريقة عدة من القسس والمتعصبين فى فترة وجيزة من صيف سنة ٨٥١ م (٢٣٧ هـ) ، وكان الأحبار يكرمون رفات القتلى ، ويسبغون عليهم صفة الشهداء ، ويزيدون بذلك فى اضطرام الفتنة . وكان فى مقدمة المنظمين لهذه الحركة قس من قرطبة يدعى «أولوخيو» ، كان يعمل على تحريض أولئك «الشهداء» المزعومين ، ودفعهم إلى براثن الموت .

ويصف لنا العلامة المتزن ألتاميرا ، تلك المؤامرة المنظمة فيما يأتى : « اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الدينى منذ الفتح . وكان أشراف العرب يحترمون النصارى ، ولكنهم لم يستطيعوا منع الدهماء فى أوقات الحماسة المغرقة ، من إهانة القسس حينما يسيرون فى الشوارع فرادى أو فى مواكبهم . وكانت هذه الحوادث وأمثالها تثير سخط النصارى ، وأدى ذلك بمضى الزمن إلى حقد الورعين ولاسيما القساوسة . وحاول النصارى عن طريق آخر ، أن يحدثوا فورات تحطم النير الإسلامى . فطلبوا الاستشهاد بالطعن فى محمد أمام الناس والسلطات ، وأعدموا لأن القانون يعاقب بالموت على ذلك . ولم يقتصر الاندفاع فى ذلك الطريق على المدنيين ، بل اندفع فيه كذلك قساوسة عقلاء مسالمون ، وكان من هؤلاء أولوخيو وألبارو ، ولم يجد هؤلاء طريقة أفضل للاحتجاج على الإسلام من الطعن فيه ، وتقديم حياتهم قرباناً للدين الكاثوليكى »[١]. وأدرك عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ، ورأى أن يعالجه بالحزم والتفاهم معاً ، فاستدعى مجلساً من الأساقفة ، عقد فى قرطبة برآسة ريكافرد مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه أحد كتابه النصارى ، وهو جومث بن أنطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة[٢] ، وشرح للأساقفة

---

(١) R. Altamira : Hist. de Espana , Vol. I. p. 230

(٢) ويسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن ديانة وقد اعتنق الإسلام فيما بعد (ص ٨٣) . وكذلك يذكره الخشنى فى كتاب قضاة قرطبة ويسميه أيضاً قومس بن انتنيان . راجع كتاب قضاة قرطبة (القاهرة) ص ١١١ .

ما يمكن أن يترتب على أعمال المتطرفين وسبهم للنبي من العواقب الخطيرة بالنسبة للنصارى. ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد فى ذاته ، ولكنه أصدر قراره باستهجان مسلك أولئك المتطرفين ، وتحذير النصارى المخلصين من حذو مسلكهم ، ووجوب اعتقال كل مخالف [1]. ولكن قرار الأساقفة لم يكف لتسكين فورة التعصب المزبد ، وتمادى المتطرفون أنصار أولوخيو فى غيهم ، وزج إلى السجن منهم كثيرون ، ومنهم أولوخيو نفسه ، وكان بين المعتقلين بضع فتيات مسلمات بمولدهن من آباء مسلمين وأمهات نصارى ، ولكن أضلهن الأمهات والقسس ، ودفعن إلى التنصر وسب النبي ، وكان منهن فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا ، عرفها أولوخيو وهام بها حباً .

وقصة هذه الفتاة حسبما يرويها سيمونيت ، توضح لنا طريقة التحدى والاستثارة التى اتبعها المتطرفون لإحداث الشغب . فقد كانت فلورا ابنة مسلم من زوجه النصرانية ، وتوفى أبوها وهى ما تزال طفلة ، فربتها أمها على مبادئ المسيحية . وكانت بالرغم من جمالها تبدى تحفظاً ونسكاً ، وتزور الكنائس خفية لخوفها من أخيها الأكبر ، وهو مسلم شديد التعصب. ثم فرت من دار أهلها ، وتتبعها أخوها فى كل مكان ، فعادت إلى منزلها ، وأعلنت لأخيها تمسكها بدين النصرانية ، ولم ينجع فى ردها الضرب والوعيد . فأخذها أخوها إلى القاضى ، وأبلغه بأن أخته القاصر قد ضلت واعتنقت الدين المسيحى ، وأنها تسب النبي ودينه ، واعترفت فلورا بأنها نصرانية منذ طفولتها ، ومتمسكة بدينها . ومع أن هذا الاعتراف بالردة يستحق عقوبة الموت ، فإن القاضى اكتفى بتقرير ضربها ضرباً مبرحاً ، أملا فى أن تعود إلى صوابها . فاحتملت الفتاة العقوبة بجلد ، وحملت إلى دارها منهوكة القوى ، وصبرت أياماً حتى برئت من مرضها ، ثم فرت من الدار ذات ليلة ، وسارت هائمة على وجهها ، حتى لجأت إلى دار نصرانى فى بلدة « مرتش » القريبة ، والظاهر أن القس أولوخيو رآها هنالك ، وأعجب بجمالها وحشمتها وورعها ، وشعر نحوها بحب سماوى عميق .

ثم عادت فلورا بعد حين إلى قرطبة مواجهة كل خطر ، معتزمة الاستشهاد ، ولجأت إلى كنيسة سان إثيسكولو ، وكانت قد لجأت إليها أيضاً فتاة نصرانية

---

(1) Dozy : ibid , Vol. I. p. 340

أخرى تدعى ماريا ، وكانت إبنة رجل نصرانى من لبلة ، وأم مسلمة تنصرت . وربيت ماريا فى الدير تربية دينية خالصة ، كما ربى أخوها الأكبر فيه . ولما توفى أخوها وجدت عليه وجداً شديداً ، وسارت إلى قرطبة تبغى الاستشهاد ، ولجأت إلى نفس الكنيسة التى لجأت إليها فلورا . واعتزمت الفتاتان أمرهما وذهبتا إلى دار القضاء ، وقالت فلورا للقاضى إنها إبنة مسلم ، ولكنها اعتنقت النصرانية وأخلصت لها ، وأن المسيح هو الإله الحق ، وأن النبي محمد ، هو نبي زائف ... الخ[1]. وكذلك قالت ماريا إنها تؤكد من كل قلبها أن يسوع هو الرب الحقيقى ، وأن الإسلام دين الشيطان . فأمر القاضى بإيداعهما السجن . وكان فيه بطريق الصدفة أولوخيو مقضياً بحبسه أيضاً ، فعكف على وعظ الفتاتين ، وحثهما على الاستشهاد فى سبيل المسيح .

وحاول القاضى نصح الفتاتين ، ولكنهما أصرتا على موقفهما وعلى مطاعنهما. وأخيراً أصدر القاضى حكمه بإعدامهما ، وذلك فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ ، وأخذتا إلى ساحة الإعدام ، وهنالك أبدت كلتاهما إشارة الصليب ، ثم أعدمتا بقطع الرأس ، وألقيت جثتاهما إلى النهر ، واستطاع النصارى العثور على جثة ماريا وحدها ، فأخذوها مع رأسى الفتاتين . ونظمت فلورا فيما بعد فى سلك القديسين[2].

هكذا يروى سيمونيت قصة فلورا وزميلتها ، ومهما كان فى أسلوبه من رواء القصة المشجية ، فإن فى وقائعها ما يلقى ضوءاً على خيوط المؤامرة التى دبرها نصارى قرطبة ، وفى مقدمتهم القسس ، لإثارة الفتنة الطائفية والإخلال بالنظام والأمن ، وهى محاولة لايمكن لأية حكومة منظمة أن تغضى عنها .

واستمرت هذه الفتنة المضطرمة مدى حين ، وتذرعت حكومة قرطبة فى إخمادها بالحزم والشدة ، وزهق من المتعصبين عدة أخر ، ومن بينهم أولوخيو الذى نظمه النصارى فيما بعد فى ثبت « القديسين » .

وهكذا شغل عبد الرحمن فى أواخر عهده بتلك الفتنة الدينية الخطيرة ، ولكن المتعصبين لم يحققوا منها ما أملوا ، وكانت بالعكس مثار السخط والإنكار من جانب النصارى المعتدلين ، الذين يقدرون تسامح الحكومة الإسلامية ورفقها ورعايتها .

* * *

---

(١) لم نر مجالا لإيراد بقية المطاعن التى أوردها سيمونيت على لسان فلورا وهى مطاعن مقذعة .

(٢) Simonet : Hist. de los Mozarabes, Vol. I. p. 413—422

وتوفى عبد الرحمن بن الحكم فى الثالث من ربيع الثانى سنة ٢٣٨ هـ (٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م) فى الثانية والستين من عمره ، بعد أن حكم إحدى وثلاثين عاماً وبضعة أشهر . وكان أسمر طويلا ، وسيم المحيا ، أشم ، أقنى ، أعين ، أسود العينين ، بهى الطلعة ، بهيج الزى ، كبير اللحية . نقش خاتمه : « عبد الرحمن بقضاء الله راض »[1] ، ويكنى أبا المطرّف ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط أو الثانى ، والأول هو جده عبد الرحمن الداخل ، والثالث هو عبد الرحمن الناصر . وكان مثل أبيه الحكم ، أميراً وافر البأس والعزم ، رفيع الخلال ، يسمو بمكانته ويحتجب عن العامة ، ويعشق مظاهر البذخ والفخامة . وفى عهده وصل البلاط الأموى إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة ، وبدت الأرستقراطية العربية فى أبدع مظاهرها ، وسطعت الفروسية الأندلسية ، وتجلت خلالها الباهرة التى غدت فيما بعد مثلا يحتذى فى مجتمعات العصور الوسطى ، وعنها اقتبست فروسة النصرانية فيما تلا من العصور . ورتبت رسوم المملكة أبدع ترتيب ، ورفع من شأن الوظائف العامة ، وأحيطت بسياج من الهيبة والمسئولية ، وجعل « أحكام السوق » منصباً مستقلا عن ولاية المدينة ، واتبعت رسوم الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة[2] ، ووضعت خطة الوزارة المنظمة .

وتنوه الرواية الإسلامية بمقدرة عبد الرحمن ، وحسن اختياره لرجالات حكومته . فيقول لنا الرازى : « وانتقى الرجال للأعمال ، واستوزر الأكفاء ، من أهل الاكتفاء ، وقدوة الأبطال ذوى الغناء ، فظهر فى أيامه جلة الوزراء وكبار الفقهاء » . وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجالات العصر ، مثل الحاجب عبد الكريم ، والقائد عيسى بن شُهيد ، ويوسف بن بخت ، وهاشم بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن بن رستم ، وحسن بن عبد الغافر بن أبى عبده ، ومحمد بن السليم ، ومحمد بن عبد السلام بن بسيل ، وعبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى ، وغيرهم . وكان الوزراء يختلفون إلى القصر بطريقة منظمة للبحث والمداولة وإبرام الشئون فى جناح خاص ، سمى « بيت الوزارة » ، وانتهت

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وابن حيان عن الرازى ، المخطوطة الأولى ص ١١١ ؛ والثانية لوحة ١٩٤ ب

(٢) ابن الآبار فى الحلة السيراء ص ٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

أرزاق الوزراء يومئذ إلى ثلاثمائة وخمسين ديناراً فى الشهر[1] .

وتفيض الرواية فى مناقب هذه الجمهرة من الوزراء والقادة ، الذين اجتمعوا فى بلاط عبد الرحمن بن الحكم ، وتصفهم بأنهم «عصابة من سراة الوزراء ، أولى الحلوم والنهى ، لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم» . ويتقدم هذا الثبت الحافل رجلان ، كان لهما فى تنظيم حكومة عبد الرحمن وسياسته أعظم الأثر ، أولهما الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث حاجب أبيه الحكم من قبل ، وهو الذى يصفه الرازى بأنه « أكمل من حمل هذا الاسم ، وأجمعهم لكل حملة حسنة» . وكان عبد الكريم ، فضلا عن براعته الإدارية ، مثل جده مغيث فاتح قرطبة ، من أعظم قادة هذا العصر ، وقد قاد حسبما تقدم فى مواضعه ، عدة من الحملات الغازية المظفرة . ولما توفى فى سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) خلفه فى الحجابة سفيان بن عبد ربه وهو من البربر ، ولم تكن له نباهة سابقة ، ثم عيسى بن شهيد ، وهو ثانى الرجلين . وكان عيسى من أعيان موالى بنى أمية ، وكان أيضاً من وزراء الحكم ، أوصى به ولده عبد الرحمن ، فلما ولى الأمر قدمه على خاصته ، ثم ولاه خطة الخيل ، ثم خلع عليه رتبة الوزارة ، وعهد إليه بالنظر فى المظالم ، وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة . ثم ولاه الحجابة بعد سفيان . واشتهر عيسى بالحلم والوقار وحصافة الرأى ، والمعرفة والجزالة ، وقاد كثيراً من الصوائف المظفرة . بيد أنه استهدف لخصومة الفتى نصر الخصى المسيطر على شئون القصر ، والأثير لدى الأمير بمظاهرته لحظيته طروب ، فلبث يدس له ويعمل على إقصائه عن الحجابة ، حتى تم له ذلك ، حينما مرض عبد الرحمن وطال احتجابه . وعين مكانه للحجابة عبد الرحمن بن رستم . فلما أبل الأمير من مرضه أنكر ما وقع ، وأنحى باللائمة على نصر ، وأعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة ، فلم يزل على حجابته حتى توفى عبد الرحمن . قال ابن القوطية : «لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس فى أنه ما خدم ملوك بنى أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية ، ولا أكرم اصطناعاً ، ولا أدعى لذمته . ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة ، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى ،

---

(١) ابن القوطية ص ٦١ ، و ٦٢ ، وكذلك مخطوط ابن حيان ص ١٤٤ . ومخطوط القرويين لوحة ١٩٦ أ .

إلا فى باب كرم الصنيعة واستتمامها ، فلم يك تفصله درجة »[١] .

وتولى الكتابة للأمير عبد الرحمن عدة من الكتاب المبرزين ، فى مقدمتهم الحاجب عبد الكريم ، وقد كان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً جزلا ، وعبد الله بن محمد ابن أمية بن أبى حوثرة ، ومحمد بن أبى سليمان الزجالى وهو من برابرة نفزة ، وكان كاتباً بارعاً ، واشتهر بقوته فى الحفظ حتى أنه سمى « بالأصمعى » ، واشتهر أبناؤه من بعده فى ميدان الكتابة .

وكان ممن كتبوا للأمير عبدالرحمن أيضاً الأسقف جومث (قومس) بن أنطونيان عامل أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، وكان عبد الرحمن يعهد إليه بالمهام الخطيرة ، وخدم من بعده ولده الأمير محمد[٢] .

واجتمعت فى عهد الأمير عبد الرحمن أيضاً جمهرة من جلة الفقهاء والقضاة ، رحل معظمهم إلى المشرق فى طلب العلم وانتقاء الرواية ، ومن هؤلاء محمد بن يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقى بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، ويحيى بن إبراهيم بن مدين ، وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى . وقد اشتهر بعض هؤلاء من قبل فى عهد أبيه الحكم . وكان يتقدم هذه الجمهرة من الفقهاء فى المكانة والنفوذ ، عبد الأعلى بن وهب ، ويحيى ابن يحيى ، وعبد الملك بن حبيب . وكان يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة الأول ، وأصله من برابرة مصمودة ، ودرس فى المشرق على مالك ، والليث بن سعد وابن وهب وغيرهم ، وتولى الفتيا بعد عيسى بن دينار ، ولبث حتى وفاته فى سنة ٢٣٤ هـ يتبوأ أسمى مكانة . وكان ممن اتهموا بالتحريض على ثورة الربض وفر عقب إخماد الثورة إلى طليطلة ، ثم استأمن الحكم فأمنه وعاد إلى قرطبة .

وخلفه فى علمه ومكانته عبد الملك بن حبيب ، وغدا أثير الأمير ، لا يقدم عليه أحداً ، ولا يعدل بمشورته أحد . وكان عبد الملك فوق براعته فى الفقه والحديث ، متقدماً فى علوم اللغة ، والعلوم القديمة ، بارعاً فى الأدب ، وكتب كتباً فى إعراب القرآن وشرح الحديث وفى الأنساب وغيرها[٣] .

---

(١) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٦ أ و ب و ١٩٧ أ و ١٩٨ أ .

(٢) راجع قضاة قرطبة للخشنى ص ١١١ .

(٣) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ٢٠١ ب و ٢٠٢ أ .

ويخصص ابن حيان لذكر قضاة عبد الرحمن ، وأخبارهم ، ونوادرهم والتعريف بهم ، نبذاً طويلة رأينا أن نكتفى بالإشارة إليها[1].

وحذا عبد الرحمن حذو أبيه أيضاً ، فى اصطفاء الموالى والصقالبة ، وابتاع أنصبة أخوته من مماليك أبيه « العجم » ، وكانوا خمسة آلاف مملوك ، ثلاثة آلاف فارس يرابطون إزاء باب القصر ، فوق الرصيف ، وألفا رجل على أبواب القصر وكانوا يسمون « الخرص » لعجمتهم[2] . وسما نفوذ الفتيان يومئذ فى البلاط ، وكان زعيمهم الفتى نصر المتصرف فى شئون القصر الخاص ، وكان يتمتع بأعظم نفوذ فى القصر والدولة ، بمؤازرة طروب جارية عبد الرحمن .

وكان نصر هذا ويكنى أبو الفتوح ، من الفتيان المختارين الذين اشتهروا بالجمال والظرف ، وأمر الحكم بخصيهم ، وأصله من أبناء الأحرار الذين حشدوا للخدمة داخل القصر ، وكان أبوه من أسالمة أهل الذمة (المولدين) من أهل قرمونة[3] . ولما ولى عبد الرحمن ، قدمه على سائر خاصته ، وغدا مدبر أمر داره ، ومشاركاً لأكابر وزرائه فى تصريف الشئون . وتضاعف نفوذه ومكانته بمحالفته لجارية عبد الرحمن الأثيرة طروب ، صاحبة النفوذ القوى. وكان من أشهر أعمال نصر قيادته لجيوش الأندلس التى حشدت لمقاتلة النورمانيين فى أراضى إشبيلية ، وانتصاره عليهم . واستمر نجم نصر فى صعود ، ونفوذه فى تمكن ، حتى غدا أعظم رجال الدولة ، وأمضاهم أمراً ؛ وكان مرهوب الجانب ، تخشاه الأكابر والخاصة . توفى فجأة فى أواخر سنة ٢٣٣ ﻫ (٨٤٨ م) ، « أرقى ما كان فى غلوائه ، وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه ، أرهب ما كان الناس له ، وأخوفهم لعدوانه ، إذ نال من أثرة مولاه الأمير عبد الرحمن واصطفائه ، فوق ما ناله خادم خاص ، مع أمير رشيد » . فتنفس الناس الصعداء ، وسروا لوفاته ، والتخلص من طغيانه[4].

---

(١) مخطوط القرويين اللوحات ٢٠٢ أ حتى ٢١١ أ .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٤٥ .

(٣) ابن حزم فى رسالة نقط العروس ص ٧٣ . ويقول ابن حزم إن نصراً هذا هو الذى تنسب إليه « منية نصر » وهى ضاحية جميلة كانت تقع على النهر ، على مسافة قصيرة من شرق قرطبة .

(٤) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩١ ب .

واستكثر عبد الرحمن أيضاً من اقتناء الجوارى الحسان ، وكان كلفاً شديد الشغف بهن ، وكان يعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول ، واجتمعت لديه منهن نخبة بارعة فى الحسن والخلال ، مثل طروب أم ولده عبد الله ، ومؤمرة أم ولده المنذر ، وشفاء أم ولده المطرِّف ، وفخر ومتعة وغيرهن ، وأنجب عبد الرحمن من الولد عدداً ضخماً بلغ وفقاً لابن حزم مائة ، خمسين من الذكور ، ومثلهم من الإناث ، وذكر الرازى أن عدد أولاده من الذكور أربعون ، وسماهم واحداً واحداً ، وأن عدد بناته ثلاثة وأربعون ، ذكر أسماءهن جميعاً[1] . وبلغ الجوارى كالفتيان من النفوذ مبلغاً عظيماً . واشتهرت من بينهن طروب حظية عبد الرحمن الأثيرة لديه ، وقد اشتد نفوذها فى أواخر أيامه ، وظاهرت نصراً الفتى ، فكانت لها الكلمة النافذة فى معظم الشئون ، وكان عبد الرحمن يشغف بها أعظم شغف ، وهو القائل فيها :

إذا ما بدت لى شمس النهـا ر طالعــة ذكرتنى طـروبا

وعنى عبد الرحمن بالمنشآت العامة أعظم عناية ، فزاد فى مسجد قرطبة الجامع بهوين جديدين من جانب القبلة ، وقام على عمارته الفتى نصر . وما زال هذا الجامع الشهير قائماً إلى اليوم بسائر عقوده الإسلامية ، وأروقته ومحاريبه . ولكنه حول منذ القرن السادس عشر إلى كنيسة قرطبة العظمى (كتدرائية) ، وبالرغم من أن الهياكل قد أقيمت فى سائر عقوده الجانبية ، وأقيم فى وسطه مصلى عظيم على شكل صليب ، فإنه ما زال يحمل بالإسبانية اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع » La Mezqnita Aljama ، وقد أزيلت قبابه ومعظم زخارفه الإسلامية ، لتحل مكانها الزخارف النصرانية . ولكن محاريبه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية ، وآياتها القرآنية .

ويقع جامع قرطبة فى طرف المدينة الجنوبى وسط شبكة من الدروب الأندلسية القديمة ، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادى الكبير . ويبلغ طوله ١٨٥ متراً وعرضه ١٣٥ متراً . وله عدة أبواب كبيرة فخمة ، مازالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية . ويعرف بابه الرئيسى المقابل لصحنه

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ، ص ٩٠ ، وابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٤ ب و ١٩٥ أ .

« بباب النخيل » Puerta de las Palmas ، ويقع صحنه فى ناحيته الشمالية ويعرف بفناء النارنج Patio de los Naranjos ، وهو صحن مستطيل شاسع يزدان بعدد من أشجار البرتقال (أو النارنج) ، وهو الآن صحن الكنيسة . وقد هدمت منارة الجامع ، وهى التى أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الصحن ، وأقيم مكانها برج الأجراس الحالى[١] .

وأنشأ عبد الرحمن أيضاً مسجد إشبيلية الجامع ، كما ابتنى سورها الكبير عقب غزو النورمانيين لها ، ووضع نظاماً جديداً للسكة وجعلها أندلسية مستقلة ، بقيم وأوزان جديدة . وكان أهل الأندلس يتعاملون من قبل بما يحمل إليهم من نقد المشرق ، أو بنقود تسك على نظامه ، فى دار السكة التى أنشأها عبد الرحمن الداخل . وأنشأ أجنحة ومشارف جديدة للقصر ، وجلب إليه الماء العذب من قنن الجبال ، وأنشأ على النهر الأعظم مما يلى سور القصر والمدينة رصيفاً عظيماً[٢]. كما أنشأ بقرطبة عدة من الحدائق الغناء . وحذت جواريه حذوه ، فأنشأن فى قرطبة عدة مساجد سميت بأسمائهن .

ويشير سيمونيت إلى عظمة قرطبة فى عصر عبد الرحمن ويقول « إن عبد الرحمن كان يعشق البذخ الطائل ، وفى عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة . وقد وصف قرطبة وعظمتها فى عهده نصرانى معاصر شهير وهو سان أولوخيو ، إذ يقول إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته لوناً خارقاً من العظمة ، ورفع من ذكرها ، وأفاض عليها حلل المجد ، وأغدق عليها الثروات ، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق »[٣] .

وكانت أيام عبد الرحمن أيام سكينة وأمن ورخاء ، وفيها ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وورد على الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة ، وزخرت الأسواق بالبضائع . وزاد الدخل زيادة عظيمة ، وبلغت الجباية وحدها

---

(١) راجع وصفاً مسهباً لجامع قرطبة وتاريخه وخواصه الأثرية فى كتابى : « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » (الطبعة الثانية) ص ٢٠ — ٣٤ .

(٢) كان القصر الأموى القديم يقع على ضفة النهر على مقربة من الجامع ، ويحتل موقعه اليوم القصر الأسقفى والسجن المحلى ، والحدائق المجاورة التى ما زالت إلى اليوم ، تسمى حدائق القصر Huertas del Alcazar ، والمرجح أنها تقوم مكان حدائق القصر القديمة .

(٣) Simonet : ibid , Vol. I: p. 366

زهاء ألف ألف دينار فى السنة ، واستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير الحملات الغازية ، وإقامة المنشآت المختلفة(١) .

وكان عبد الرحمن بن الحكم أديباً حسن التثقيف ، وكاتباً بليغاً مشرق البيان ، عالماً بالشريعة والحكمة (الفلسفة) ، مجيداً للنظم ، نصيراً للعلوم والآداب ، يحتشد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء ، مثل العلامة الرياضى والفلكى عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر بن نمير ، وكان صديقه مذ كان ولياً للعهد ، وكان بارعاً فى الأدب والشعر والمنطق والتنجيم ، وكان يكشف لعبد الرحمن نجمه وطالعه(٢) ، وعباس بن ناصح الجزيرى شاعر أبيه الحكم ، وعبيد الله بن قرلمان بن بدر مولى الداخل ، وكان من جلسائه وخاصته وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً مجيداً . وغيرهم . ومن نظمه قوله :

ولقد تعـــارض أوجه لأوامر ... فيقودها التوفيق نحو صـــوابها
والشيخ أن يحو النهى بتجارب ... فشباب رأى القوم عند شبابها

وقوله وقد خرج غازياً إلى جلّيقية :

فـكم قد تخطيت من سبسب ... ولاقيت بعـــد دروب دروبا
ألاقى بوجهى ســموم الهجـــ ... ـير إذ كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارك بى الله ديـــن الهـــدى ... فأحييتـــه وأمتُّ الصـــليبا
وسرت إلى الشرك فى جحفـــل ... ملأت الحزون بهـــا والسهوبا

ومن قـــوله فى الغـــزل :

قـــتلتنى بهـــواكا ... وما أحب ســـواكا
من لى بســحر جفون ... تديره عينـــاكا
وحمـــرة فى بيـــاض ... تكسى بـــه وجنتاكا
أعطف على قليـــلا ... واحينى برضـــاكا
فقد قنعت وحسبى ... أن أرى من رآكا

---

(١) راجع ابن القوطية ص٦٧ ، وابن الأبار ص ٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص٩٣ و ٩٤ ، وأخبار مجموعة ص ١٣٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ و ١٦٣ ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وفى مخطوط ابن حيان عما تقدم نبذ وتفاصيل حسنة (ص ١٣٨ و ١٤٢ و ١٤٤) .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٥٦ و ١٥٧ .

واشتهر عبد الرحمن بحنوه الجم على قرابته وذوى رحمه بدرجة لم يجاره فيها أحد من أهل بيته ، فكان يوليهم وافر عطفه ، ويجرى عليهم الصلات السخية . وفى أيامه وفد من المشرق على الأندلس عدد من قرابته المروانية (بنى أمية) ، فاستقبلهم جميعاً أجمل استقبال ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأجرى عليهم الأرزاق والإقطاعات الواسعة .

وكان عبد الرحمن يعشق الفلك والتنجيم ، ويشغف بدراسته ، وكان العلامة الرياضى ابن فرناس ، وعبيد الله بن الشمر ، وعبد الواحد بن إسحاق الضبى من أساتذته فى ذلك الفن ، وكان يقربهم ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، وله معهم قصص ونوادر كثيرة . وكان أيضاً يعشق الغناء والموسيقى ، ويجمع حوله عدداً من أكابر الفنانين يجرى عليهم الأرزاق الواسعة . ووفد عليه من المشرق أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب نابغة الغناء والموسيقى ، وكان زرياب من تلاميذ الفنان الشهير إسحاق الموصلى مغنى الرشيد ، فلما ظهر نبوغه وشعر أبو إسحاق بخطورة منافسته ، تحيل فى صرفه وإبعاده ، فغادر بغداد إلى المغرب ، وكتب إلى الحكم أمير الأندلس يستأذنه فى الوفود عليه . فأذن له واستدعاه ، ولكن زرياب ما كاد يصل إلى المغرب حتى علم بوفاة الحكم ، وكاد ينثنى عن عزمه فى العبور إلى الأندلس ، لولا أن جاءه كتاب عبد الرحمن بدعوته والترحيب به ، فسار إلى قرطبة واستقبله عبد الرحمن بمنتهى الإكرام والحفاوة ، وأجرى عليه الأرزاق الواسعة ، وجعله من خاصة بطانته . وبهر زرياب أهل الأندلس ببراعتـــه فى الغناء والموسيقى ، وطار صيته فى كل مكان ، وأضحى قطب الفن الذى لا يجارى ، وأخذ عنه أهل الأندلس فنونه وإبداعه ، وتشبهوا به فى مظاهر زيه وإناقته وطرائق معيشته . وتوفى فى ربيع الأول سنة ٢٣٨ هـ (أغسطس ٨٥٢ م) قبيل وفاة عبد الرحمن بأسابيع قلائل . وكان لزرياب وفنه أعظم الأثر فى تكوين الفن الأندلسى فى ظل الدولة الأموية ، ثم فى ظل دول الطوائف(١).

وشغف عبد الرحمن أيضاً بجمع الكتب ، وأوفد شاعره عباس بن ناصح إلى المشرق للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها ، فجمع له منها طائفة كبيرة ،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلدون فى المقدمة ص ٢٥٧ .

وكان أول من عنى بجمعها من أمراء الأندلس، وكانت جهوده فى هذا السبيل نواة لإنشاء مكتبة قرطبة العظيمة .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن سما شأن حكومة قرطبة الإسلامية ، وأخذت تتبوأ مكانتها من الهيبة والنفوذ ، بين مختلف القصور والحكومات النصرانية ، وتغدو مركز التوجيه للدبلوماسية الإسلامية فى الغرب . والظاهر أن الدولة البيزنطية ، خصيمة الدولة العباسية فى المشرق ، كانت تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهمها مع حكومة قرطبة الإسلامية ، إلى بغض النتائج العملية فى مقاومة خصيمتهما المشتركة . فى سنة ٨٤٠ م (٢٢٥ هـ) وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس (توفلس) ، يدعى قرطيوس ، ومعه كتاب وهدية فخمة ، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة ، وكان القيصر يتوجه فى كتابه إلى أمير الأندلس ، باسم الصداقة القديمة التى كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء بنى أمية وقياصرة بيزنطية ، ويشكو مر الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيثهما فى أراضيه ، ويشير إليهما فى كتابه بابن مراجل وابن ماردة[1] تحقيراً وازدراء ، كما يشكو إليه من استيلاء أبى حفص البلوطى وعصبته الأندلسية على جزيرة إقريطش (كريت) وهى من أملاكه ، ويطلب إليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما ، ويرغبه فى ملك أجداده بالمشرق ، ويستنهض همته لاسترداده ، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية ، وزوال سلطانها ، ويعده بنصرته فى ذلك المشروع . وقد رد عبد الرحمن على سفارة تيوفيلوس بمثلها ، وأوفد كاتبه وصديقه الشاعر يحيى الغزال إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة بكتاب وهدية إلى الإمبراطور . وقد سبق أن أشرنا إلى الغزال وإلى شخصيته الممتازة وإلى بارع خلاله وظرفه ، وكان الغزال قد جاوز الستين يومئذ ولكنه كان مايزال يحتفظ بكثير من إناقته ورونقه . وسار الغزال وصاحبه يحيى ومعهما السفير البيزنطى إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، عايتوا فيها الأهوال من اضطراب البحر وروعة الموج . واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسى بحفاوة ، وقدم الغزال إليه كتاب

---

(١) مراجل هى أم المأمون ، وماردة هى أم المعتصم ، وكلتاهما جارية وأم ولد .

عبد الرحمن وهديته . ويرد عبد الرحمن فى كتابه على ما جاء فى كتاب الإمبراطور تفصيلا ، ويشير مثله إلى المأمون والمعتصم بابن مراجل وابن ماردة ، وإليك ما يرد به عبد الرحمن على ما يدعوه إليه الإمبراطور من وجوب العمل لاسترداد ملك أجداده بالمشرق ، وهى أهم فقرات الخطاب :

« وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قبله ، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو فى ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونمترى حسن بلائه لدينا ، بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شأمنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف أن النقمة تنزل بهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى »[1].

وأدى الغزال سفارته خير أداء ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور وبين مليكه ، وسحر البلاط البيزنطى بكياسته وظرفه ، وبديع صفاته ، وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا وإلى ولده الأمير ميخائيل الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعاً ، فأنست به الإمبراطورة وسحرته برائع جمالها ، وسحره الأمير الفتى بظرفه وبارع خلاله . وقال فيه قصيدته التى مطلعها :

وأغيد لين الأطراف رخص كحيل الطرف ذو عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبنــاء الغطارف قيصرى العمومة حين ينسب والخؤول

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطى .

---

(١) ورد هذا الخطاب بنصه كاملا كما وردت تفاصيل هذه السفارة مفصلة فى مخطوط ابن حيان ص ١٦١ و١٦٢ و ١٦٣ ؛ ونشر الأستاذ ليڤى بروڤنسال قصة هذه السفارة بالفرنسية ، ومعها نص الخطاب بالعربية فى فصل خاص ، فى المجلد الثانى عشر من مجموعة **Byzantion** التى تصدر فى بروكسل بعنوان : **Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe.Siècle** كما نشرها أيضاً فى رسالة خاصة . وراجع أيضاً نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ ، حيث يشير إلى هذه السفارة إشارة موجزة .

هذا وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل فى سفارة أخرى أغرب وأعجب ؛ وذلك أنه على أثر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم إشبيلية ، وردهم عنها ، ثم هزيمتهم ومطاردتهم ، بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم فى طلب المهادنة والصلح ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة ، ويعلنه بقبول الصلح .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة . وهى رواية أديب أندلسى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، هو أبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية البلنسى ، أوردها فى كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» فى حديثه عن الغزال . وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال ، يحيى بن حبيب لمرافقته فى تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق شلب[1] فى مركب خاص أعد لهما ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين . ويصف لنا ما لقيه السفيران المسلمان من أهوال البحر وروعته ، وكيف أنهما جازا تلك الشدائد سالمين ووصلا إلى بلاد المجوس . ثم يصف لنا بلاد المجوس بأنها « جزيرة عظيمة فى البحر المحيط » ، وعلى مقربة منها « جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من المجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية » .

ويبدو من وصف طريق الرحلة ، وأوصاف تلك الجزر ، أن القطر الذى قصده الغزال ورفيقه ، هو الدانماركة ، ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت فى ذلك الوقت مستقر ملك النورمان (المجوس) ، وكان ملكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر ، وقسما من إسكندناوة وألمانيا الشمالية . وكان يجلس على عرش النورمان فى ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى « هوريك » . وكان النورمان يومئذ أحداثاً فى النصرانية ، حسبما تقول الرواية الإسلامية . ولقى السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلا حسناً . وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقى الغزال فى البلاط النورمانى كله ، كثيراً من

---

(١) شلب Silves هى بلدة أندلسية قديمة تقع فى جنوب غربى البرتغال على مقربة من المحيط الأطلنطى .

الإعجاب والعطف ، واستقبلته « نود » ملكة النورمان ، فراعه حسنها، وشملته بعطفها ، ورآها بعد ذلك مراراً ، ونظم فى حسنها شعراً رقيقاً ، يورده لنا ابن دحية ، وفيه يخاطبها بقوله :

يا نود يا رود الشباب التى   تُطلع من أزرارها الكوكبا

وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق شنت ياقب . ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاباً إلى صاحبها ، وهو ملك جليقية وليون . والظاهر أنه كان كتاب توصية وجواز ، لكى يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية ، فى طريقهم إلى الأندلس . وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون ، وسار إلى طليطلة ، ومنها إلى قرطبة . والمرجح أن وصوله إلى قرطبة ، كان سنة ٢٣٢ هـ (أواخر سنة ٨٤٦ م) .

وعاش الغزال بعد ذلك زهاء عشرين عاماً أخرى ، وتوفى فى سنة ٢٥٠ هـ . وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، إذ كان مولده فى سنة ١٥٦ هـ[1] ، وأدرك خمسة من أمراء بنى أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد ابن عبد الرحمن . وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة فى الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ فى بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير[2] .

---

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٨٨٧

(٢) تراجع رواية ابن دحية كاملة فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » المنشور بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤ (ص ١٣٨ – ١٤٩) . ونقلها دوزى فى كتابه : Recherches, Vol. I. App, XXXIV ، وأشار إليها المقرى فى الفصل الذى أورده عن الغزال وأخباره (نفح الطيب ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها) . وقد كان البحث يتجه من قبل إلى أن رواية ابن دحية عن هذه السفارة قد تكون تكراراً أو تحريفاً للرواية الخاصة بسفارة الغزال إلى قسطنطينية ، ولكن يتضح من مراجعة رواية ابن دحية كاملة فى كتابه المنشور ، ودراسة المعالم الجغرافية التى أوردها عن طريق سفر الغزال وطريق عودته عن طريق شنت ياقب ومملكة جليقية – وعن موقع مملكة النورمان ، يتضح من ذلك كله أنه لا توجد الآن ذرة من الريب فى صحة القول بأن السفارة كانت فعلا إلى « بلاد المجوس » أو النورمان ، أو بعبارة أخرى إلى الدانماركة .

الفصل الأول

ولاية محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
وطوالع الثورة الأولى

محمد بن عبد الرحمن . ظروف توليته والتمهيد لها . الثورة فى طليطلة . مسير محمد إلى طليطلة . استعانة الثوار بملكى ليون وناڤار . موقعة وادى سليط . تحريضات النصارى المتعصبين . غزوة ألبة والقلاع . عود إلى محاربة طليطلة وإخضاعها . غزوة النورمانيين . عيثهم فى جنوبى الجزيرة . ارتدادهم من طريق الشمال . غزو المسلمين لناڤار وألبة والقلاع . موسى بن موسى وسيادته فى الثغر الأعلى . الحرب بينه وبين أردونيو . مصرع موسى . ولده لب ومحالفته للنصارى . أخوته الثلاثة . غزو المسلمين لألبة والقلاع . هزيمة المسلمين . عود إلى غزو ألبة . هزيمة النصارى . الثورة فى ماردة وإخمادها . احتماء بنى قسى بملك النصارى . الثورة فى قواعد الثغر الأعلى . استيلاء بنى قسى على تطيلة وسرقسطة . سير محمد إلى الثغر الأعلى . استيلاؤه على تطيلة . غزوه لناڤار . زحف المنذر إلى سرقسطة . غزوه لناڤار ثانية . عوده إلى غزو الثغر الأعلى . افتتاح المنذر لحصن روطة واستيلاؤه على لاردة . خضوع سرقسطة . الخلاف بين بنى قسى . خروج محمد بن لب فى سرقسطة وتحالفه مع النصارى . سير المنذر إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . الهدنة بين المسلمين والنصارى . عود ابن مروان إلى الثورة فى ماردة . سير محمد لقتاله . تحالف ابن مروان مع ملك ليون . هزيمة جيش الأندلس وأسر قائده . عيث ابن مروان بنواحى الغرب . التجاؤه إلى ملك ليون . زحف المنذر على بطليوس وإحراقها . الثورة فى شنت برية وبنو ذو النون . ظهور ابن حفصون فى جبل ببشتر . بواعث الفتنة فى كورة ريه . غزو ابن حفصون لكورة ريه . محاربة ابن حفصون وأسره . فراره واستئنافه الثورة . سير المنذر لقتاله . محاصرة الحامة . وفاة محمد بن عبد الرحمن وعود المنذر إلى قرطبة . خلال محمد . عنايته بالجيش والأسطول والمنشئات الدفاعية . نظام البلاط فى عهده . حجابه ووزراؤه . أعماله الإنشائية . المسجد الجامع ومنية الرصافة . شخصه وخلاله . أدبه وبلاغته . عطفه على العلماء والأدباء . حمايته لبقى بن مخلد . نفوذ الفقهاء فى عهده . تسامحه نحو النصارى .

ترك عبد الرحمن بن عبد الحكم ، مملكة زاهرة موطدة الأركان ، تنعم بالاستقرار والهدوء . ولكن هذا الاستقرار الظاهر ، كان يحجب كثيراً من التيارات الخفية ، التى تهدد أمن المملكة وسلامتها . ذلك أن الهزات العنيفة التى توالت على الأندلس فى عهد عبد الرحمن ، تركت آثارها العميقة فى هذا الصرح الباذخ .

وكانت الثورات المحلية المتعاقبة ، وغزوات النورمانيين ، ودسائس النصارى المتعصبين ، كلها تنذر بأن الاستقرار المؤقت الذى تنعم به المملكة ، لم يكن سوى

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الثانى

عصر الإمارة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد
وعهد الفتنة الكبرى

٢٣٨ – ٣٠٠ هـ : ٨٥٢ – ٩١٢ م

هدنة خادعة ، حققتها سياسة قوية حازمة . وكانت عناصر الإضطراب والغدر تجثم هنالك فى صدور المنافقين والطامعين ، وتنذر حكومة قرطبة وعرش بنى أمية بأعظم الأخطار .

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك عقب وفاة أبيه ، فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٢٤ سبتمبر سنة ٨٥٢ م) ، ودخل القصر وأبوه مسجى على سريره ، فاقتعد لفوره سرير الملك ، وأخذ له البيعة الحاجب عيسى بن شُهيد . وكان يومئذ قد جاوز الثلاثين بقليل . وكان مولده فى شهر ذى القعدة سنة ٢٠٧ هـ (إبريل سنة ٨٢٣ م) . وأمه أم ولد تدعى بهير[1]. وكانت ظروف ولايته ممهدة من قبل ، وكان والده عبد الرحمن قد استخلفه بقصر الإمارة ، حينما اعتزم أن ينيبه عنه فى سنة ٢٢٦ هـ ، وهو يومئذ فتى فى العشرين من عمره ، ثم ولاه ثغر سرقسطة ، فضبطه وأحسن إدارته ، وصحب والده إلى بنبلونة فى غزوته المظفرة سنة ٢٢٨ هـ ، وقاد ميمنة الجيش ، وأثنى عليه والده فى كتاب الفتح ، فاشتهر اسمه بين الناس ، ثم ندبه أبوه بعد ذلك لمقابلة رسل ملك الفرنج قارله (كارل) بن ببين القادمين إليه . وأخيراً كلفه بالركوب إلى البلاط بصفة منتظمة ، ليرفع إليه الكتب الواردة بعد تلخيصها بمعرفته ، وقد تم هذا الإجراء بتوصية الحاجب عيسى بن شهيد ونصحه ، وذلك لتمكين أمر محمد ومكانته ، وتوهين ما كان يحاوله نصر الخصى الأثير لدى الأمير ، وحليف حظيته طروب المتغلبة عليه ، من ترشيح ولدها عبد الله لولاية العهد ، وتمكين أمره .

ولم يكن ذلك دون اختيار وتثبت . ذلك أن عبد الرحمن ، كان حسبما يحدثنا عيسى الرازى « قد كشف عن مذاهب ولده ، ولداً ولداً ، وعجم أخلاقهم اختباراً ، فوجد محمداً راجحاً لهم بخلاله » . فاختاره ليخلفه من بعده ، وأوعز إلى وزرائه وأكابر دولته ، بأنه صاحب ولاية عهده ، والمفوض إليه الأمر من بعده ، وكلفهم جميعاً ، ومعهم القاضى وأهل الشورى ، بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع فى المسجد الجامع ، وأبدى على الجملة بما لا يدع مجالا لأى شك ، بإيثاره على جميع ولده ، وتفرده دونهم بخلافته فى ملكه .

وفضلا عن ذلك كله ، فقد كانت لمحمد عيون من الصقالبة بالقصر يطالعونه

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

بالأخبار فى وقتها : فلما توفى والده ، وافاه فى مساء نفس اليوم رسول من قبل حبيب الخصى ، يستدعيه إلى القصر بسرعة ، فبادر إلى القصر متنكراً وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه ، خوفاً من دسائس أخيه ومنافسه عبدالله ، لتمكن نفوذ أمه داخل القصر . وكان الصقالبة قد كتموا موت الأمير ، وأغلقوا أبواب القصر ، وثارت بينهم مناقشات عنيفة حول ولاية العرش ، وانتهى الأمر بتفضيل محمد وتقرير استدعائه . وخرج محمد من غرفة أبيه المسجى إلى مجلس البيعة ، واستدعى إخوته التسعة والأربعين ، وعمومته ، وأهل بيته ، وعظماء المملكة . وأخذت له البيعة دون خلاف (يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ٢٣٨ هـ) ، ثم أخذت له بيعة الكافة فى المسجد الجامع أياماً متوالية[1] .

أوردنا هذه التفاصيل لنقف على نوع الإجراءات التى كانت تتخذ لتقرير ولاية العهد ، فى إمارة قرطبة الأموية ، ثم لنقف على الدور الذى أخذ يضطلع به الفتيان الصقالبة منذ الآن فصاعداً فى مسألة خلافة العرش ، وهو دور كان له أثره الحاسم فى كثير من المواطن .

وكان محمداً أميراً ذكياً فطناً بالأمور[2] ، تولى والأفق الذى ظلل عصر أبيه العظيم مازال يحتفظ بلمعانه ، وملوك اسبانيا النصرانية يحسبون حسابه ، ويشعرون بأنه خلف كفء لأبيه ، وملوك العدوة القريبين من الأندلس يخطبون وده ، وملك الفرنج يسعى إلى عقد السلم معه .

وأقر محمد حاجب أبيه عيسى بن شُهيد ، ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه على خططهم ومراتبهم ؛ وصنع نظاماً جديداً للوزارة ، تتميز فيه الخطط الرفيعة على غيرها ، ويمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلة ، وقدم الوزراء من أهل الشام على غيرهم من الأندلسيين والبربر ، وأعلاهم فى الجلوس على أرائكهم ببيت الوزارة . وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتاب ، ويدقق فى أعمالهم وتصرفاتهم وحساباتهم[3] . ولما توفى عيسى بن شهيد ، خلفه فى الحجابة عيسى بن الحسن بن أبى عبدة ، وكان بالرغم من رثاثة هيئته وزيراً قوياً ،

---

(١) ابن حيان عن أحمد بن محمد الرازى ، وعيسى بن أحمد الرازى ، ومعاوية بن هشام الشبينسى ؛ مخطوط القرويين اللوحات ٢١٥ إلى ٢٢٠ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

(٣) ابن حيان عن أحمد الرازى ؛ مخطوط القرويين لوحة ٢٢٣ .

وافر الفطنة والذكاء ، صائب الرأى والتقدير . وكان هاشم بن عبد العزيز من بين وزراء الأمير محمد، أشدهم خصومة ومنافسة للحاجب ابن أبى عبدة ، وكان فى نفس الوقت أحب وزراء الأمير إليه ، وأكثرهم حظوة لديه ، فلم يلبث أن غلب نفوذه على سائر الوزراء . ويقول لنا ابن عبد البر إن هذه الحظوة التى استأثر بها الوزير هاشم لدى الأمير محمد، كان لها أثر سيئ فى تصرفات الأمير ، وأنه أى هاشم قد أفسد عليه أمره ، « فشرّهه ، وصلفه، وحمله على غير المنهج من محمود طرقه ، وعدل عن اختيار ثقات العمال ، من الشيوخ والكهول أولى النهى والأصول ، إلى الأحداث من أولى الشر والخيانة ودناءة الأصول . فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك إلى أبعد حال .. فنجمت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر فى الأرض الفساد فى المملكة»(١). وفى أقوال ابن عبد البر عن هذا التحول فى سياسة الأمير محمد وفى أساليب حكمه مبالغة ، ينقضها ما أورده صاحب البيان المغرب وغيره عن صفاته(٢). وعلى أى حال فسوف نرى أى دور خطير يلعبه الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذى تولى الحجابة فيما بعد ، فى ميدان الحرب والسياسة فى عهد الأمير محمد .

وقد شاء القدر أن يكون عهد محمد بداية عصر من أخطر عصور التاريخ الأندلسى ، وأشدها خطراً على ملك بنى أمية ، وعلى دولة الإسلام فى الأندلس . ذلك أنه ما كاد يتبوأ العرش ، حتى بدأت طلائع تلك الثورة الجارفة ، التى قدر له أن يضطلع بكفاحها طوال حكمه ، الذى امتد خمسة وثلاثين عاماً ، والذى يصفه ابن حيان بقوله : « والمشوب آخره بالتنكيد ، المنصرم عن فرقة الجماعة ، ونجوم النفاق بكل جهة » .

ففى منتصف ربيع الثانى سنة ٢٣٨ هـ ، يعنى لأيام قلائل فقط من وفاة عبد الرحمن ، وولايه محمد ، تحرك أهل طليطلة التى ما فتئت تفيض بعوامل الثورة . وكان بها عندئذ سعيد بن الأمير محمد ، والعامل عليها حارث بن بزيع . وكان جماعة من المارقين وأهل الشر ، قد اجتمعوا فى الهضبة القريبة من المدينة المسماة « جبل الأخوين » بزعامة مسوقة بن مطرّف ، وهو أحد الزعماء الخوارج الذين فروا من قرطبة ، فلما وقفوا على وفاة الأمير عبد الرحمن ، كاتبوا أهل طليطلة وحرضوهم على الوثوب بسعيد ومن معه . فاضطرمت الثورة داخل المدينة ،

---

(١) نقله ابن حيان ، مخطوط القرويين اللوحة ٢٢٢ أ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

وساعدهم ابن مطرف بحشوده من الخارج ، وانتهى الأمر بهزيمة جند الأمير ، واستطاع سعيد أن يغادر المدينة ، ولكن الثوار أسروا عاملها حارثاً ، ورفضوا إطلاق سراحه حتى أطلقت حكومة قرطبة رهائنهم المعتقلة هناك[1]. وفى صيف العام التالى (سنة ٢٣٩ هـ — ٨٥٣ م) بعث الأمير محمد أخاه الحكم فى جند الصائفة إلى قلعة رباح ، وكانت قد أقفرت وخربت وغادرها معظم أهلها ، عقب مهاجمة أهل طليطلة الخوارج لها ، وقتلهم كثيراً من أهلها ، فاحتلتها جند الأمير ، وقامت بإصلاح أسوارها ، واستدعى أهلها الفارون وأمنوا ؛ وفعل الحكم مثل ذلك بحصن شندلة ، الواقع على النهر المسمى بهذا الإسم **Jandula** ، وهو من أفرع الوادى الكبير ؛ وجالت جند الأمير فى تلك المنطقة تطهيراً من الثوار ، وخرجت منها حملة سارت جنوباً ، فلقيتها عصابات الخوارج من أهل طليطلة فى فحص أندوجر ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير ، وردوا بخسارة فادحة (شوال سنة ٢٣٩ هـ) . وعلى أثر ذلك خشى أهل مدينة جيّان القريبة على أنفسهم من عيث الخوارج ، فغادرها كثير منهم إلى الجبال ، وابتنى الأمير محمد لهذا السبب حصن « أندة » على مقربة جيان ، وضم إليه العرب المقيمين على الطاعة ، وسمى المكان لذلك « أندة العرب »[2] .

وعندئذ شعر محمد بما يهدد العاصمة من الأخطار ، وأراد أن يلقى على ثوار طليطلة ، درساً عميق الأثر ، فسار إليها فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ (يونيه ٨٥٤ م) على رأس قوة كبيرة . وكانت أول حملة يقودها بنفسه بعد تبوئه الملك . وكان عماد الثورة فى طليطلة جمع كبير من المولدين والنصارى ، الذين تحركهم روايات المتعصبين ، عن الاضطهاد الذى يلقاه إخوانهم فى قرطبة ، وكانوا يتطلعون دائماً إلى عون ملك النصارى ؛ فلما استشعروا عزم محمد على قتالهم ، بادروا بالاستغاثة بأردونيو (أردن) ملك ليون ، وكذلك بملك ناڤار ؛ وأمدهم أردونيو بقوة على رأسها الكونت غاتون[3]. وكان تدخل النصارى على هذا النحو لتأييد الثورة ضد حكومة قرطبة ، عاملا فى إذكاء حماسة المسلمين ، فهرعت جموع كبيرة إلى جيش الأمير ، ومنهم كثير من الفرسان الأشراف وذوى الحسب ، وسار محمد صوب

---

(١) ابن حيان عن الرازى فى مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ أ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ ب .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ . ويقول صاحب البيان إن الكونت غاتون هو أخ لملك ليون .

طليطلة فى بعض قواته ، وترك بقية جيشه الكثيف مستتراً بالتلال التى تظلل وادى سليط ، وهو الوادى الذى يخترقه النهر المسمى بهذا الإسم Guazalete ، وهو أحد أفرع التاجُه الجنوبية ، فلما رأى أهل طليطلة قلة الجيش المحاصر ، خرجوا لقتاله ومعهم حلفاؤهم النصارى وهم على ثقة من الظفر ، فارتد محمد بجنوده نحو وادى سليط متظاهراً بالهزيمة ، وعندئذ برزت قوات الأندلس من مكامنها ، وأطبقت على الثوار وحلفائهم النصارى ، وكانت موقعة هائلة مزقت فيها جموع الطليطليين والإسبان فى ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة تقدرها الرواية الإسلامية بأحد عشر ألفاً ، وقيل بل عشرين ألفاً ، وأسر منهم كذلك عدد جم ، بينهم كثير من القساوسة وقد أعدموا على الفور ، ورصت رؤوس القتلى ، وأذن فوقها لصلاة الظهر . وكان نصراً عظيماً . وفى هذه الموقعة يقول شاعر العصر عباس بن فرناس :

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف	لهـــوم الفلا عبل القبائل ملتف
إذا أومضت فيه الصوارم خلتها	بروقاً تراءى فى الغمام وتستخفى
كأن ذرى الأعلام فى ميلانها	قراقير فى يم عجزن عن القذف
بكى جبلا وادى سليط فأعولا	على النفر العبدان والعصبة الغلف
يقول ابن يوليس لموسى وقد ونى	أرى الموت قدامى وتحتى ومن خلفى
قتلنــــا لهم ألفاً وألفاً ومثلهـــا	وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف
سوى من طواه النهر فى مستلجه	فأغرق فيه أو تهدهد من جرف
لقد نعمت فيه غزاة نسورنا	وسمعت الدقات قصفاً على قصف (١)

على أن الفتنة فى طليطلة لم تهدأ ولم تخمد ، فقد استمر تحريض النصارى المتعصبين فيها على أشده ، وأضحت المدينة الثائرة موئلا لطائفة من القسس المتعصبين مثل أولوخيو وصحبه ، يبثون دعاياتهم المضطرمة فى طليطلة وما جاورها من الأنحاء ، ويصورون مصير النصارى فى ظل الحكم الإسلامى بأشنع الصور ، ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وكان صدى هذه

(١) ينقل إلينا ابن حيان عن موسى الرازى تفاصيل هذه الموقعة — مخطوط القرويين لوحة ٢٦٠ أ وب و ٢٦١ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ و ١١٤ . وكذلك : Dozy Histoire, V.I. p. 355

الدعوة يتردد قوياً فى العاصمة الأندلسية ، ويبث القسس تحريضهم ودعايتهم المسمومة ، مثلما كانوا يفعلون أيام عبد الرحمن بن الحكم[١]. وكان محمد يرقب هذه الفتنة حذراً من عواقبها ، وعواقب تمرد المدينة الثائرة ، ومن ثم فقد لبث متأهباً لمقارعتها ، وشحن قلعة رباح وطلبيرة على مقربة منها بالجند والعدد .

وسير الأمير محمد كذلك الصوائف والحملات الغازية إلى الثغر الأعلى . ففى سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) سير جيشاً بقيادة موسى بن موسى بن قسىّ والى تطيلة إلى ألبة والقلاع . وكان موسى أيام الأمير عبد الرحمن ، من زعماء الثورة فى الشمال ، وتحالف مع النصارى حسبما تقدم ، وقاتله عبد الرحمن حتى تمكن من إخضاعه . ولكنه عاد فى أواخر عهده إلى سابق مكانته من زعامة الثغر الأعلى ، واستطاع أن يوطد استقلاله فى تطيلة وما جاورها ، مع التظاهر فى نفس الوقت بالولاء لحكومة قرطبة ، اتقاء لخصومتها . فسار إلى ألبة والقلاع وعاث فيها ، وهزم النصارى فى عدة مواقع ، وافتتح بعض الحصون ، ثم عاد بعد ذلك فاتجه صوب ثغر برشلونة ، وانتزع بعض حصونه من أيدى النصارى ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) . بيد أنه يبدو من أقوال الرازى أنها وقعت قبل سنة ٢٤١ هـ[٢] .

وفى صيف سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) سار محمد بنفسه إلى ألبة والقلاع ، وقد كتب إلى موسى بن موسى وأهل الثغور بالاحتشاد والسير فى حملته ، فعاث فى بسائط ألبة والقلاع ، وافتتح كثيراً من حصون النصارى . وفى العام التالى بعث موسى بن موسى إلى أحواز برشلونة ، فغزاها وخرب برشلونة وافتتح بعض حصونها ، وأسر بعض أمرائها[٣] .

بيد أن اهتمام الأمير لبث فى الوقت نفسه بالأخص موجهاً إلى طليطلة ، فبعث ولده المنذر إلى المدينة الثائرة فى قوة كبيرة فحاصرتها وعاثت فى أحوازها (٢٤٢هـ) ، ولم يجرأ الثوار هذه المرة على مغادرة مدينتهم . ولكنهم خرجوا فى العام التالى إلى طلبيرة لمقاتلة الحامية الأندلسية بها ، فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله ،

---

(١) يفيض دوزى فى شرح أدوار هـذه الفتنة الدينية وأعمال دعاتها : **Dozy: Hist.; V. I. p. 356—362**

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٦١ ب .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

وأوقع بهم وقتل منهم عدة مئات أرسلت رؤوسهم إلى قرطبة . وسارت جند الصائفة فى الوقت نفسه إلى طليطلة ، فنازلتها وعاثت فى أحوازها ، وانتسفت زروعها وأقواتها .

ورأى الأمير محمد أن يتابع معاقبة أهل طليطلة . فخرج إليهم بنفسه فى صيف سنة ٢٤٤هـ (٨٥٨م) ، وحاصر المدينة الثائرة ، وتأهب أهلها لقتاله بالرغم مما أصابهم من نقص فى القوى ، وشح فى الأقوات ، واعتمدوا على حصانة مدينتهم . ولجأ محمد إلى الحيلة فهدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ثم انسحب بجنوده ؛ وهنا خرج أهل طليطلة لقتاله ، فلما احتشدوا على القنطرة سقطت بهم فى نهر التاجه وغرق منهم عدد جم[1] . ولم يترك محمد هذه المرة وسيلة رائعة إلا استعملها لسحق المدينة الثائرة ، فخرب حصونها ومعالمها ، وأوقع بأهلها قتلا وتشريداً ، حتى اضطروا إلى طلب الأمان والصلح ، وأذعنوا للخضوع والطاعة ، وهم يعتزمون النكث فى قرارة أنفسهم متى سنحت الفرص (٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) .

وهكذا لبثت طليطلة عصراً تضنى حكومة قرطبة بتمردها وثوراتها المتوالية ؛ وكانت حاضرة القوط القديمة تشعر دائماً بقوتها ومنعتها الطبيعية ، وكانت فوق ذلك مثوى التيارات النصرانية الخطرة حسبما بينا ، تنساب إليها من نصارى الشمال ، ومن النصارى المعاهدين بقرطبة ، ومن أهلها أنفسهم . والواقع أن طليطلة كانت بوعورة موقعها على المنحدر الصخرى الممتد نحو نهر التاجه ، وإحاطة النهر بهذا المنحدر الوعر ، ثم بحصونها القوية ، وأسوارها العالية الضخمة ، من أمنع مدن العصور الوسطى . وما تزال إلى اليوم حين نتأملها ونتجول فيها ، تذكرنا بموقعها الصعب ، وطرقها الصخرية الوعرة ، وبقية أسوارها وحصونها المنيعة ، بما كان لها من سابق الحصانة والقوة فيما خلا من العصور .

وهكذا أخمدت ثورة المولدين والنصارى المعاهدين فى طليطلة إلى حين ؛ وتأهب محمد فى الوقت نفسه لقمع شغب النصارى المتعصبين فى قرطبة وغيرها ،

---

(١) يقدم إلينا ابن حيان عن هدم القنطرة قصة أخرى ، فيقول إن جنود محمد حاولوا هدم القنطرة تحت أنظار أهل المدينة ، وأنهم سخروا من هذه المحاولة ، وأيقنوا بعقمها . ثم خرجوا للقتال ، واحتشد الكثير منهم فوق القنطرة ، فانهارت تحت أقدامهم وهوت بمن فوقها إلى النهر ، وهدمت صخورها عليهم من كل ناحية (مخطوط القرويين لوحة ٢٦٢ أ) .

وإخماد نزعتهم الثورية الخطيرة . وحوكم القس أولوخيو الذى أشرنا من قبل إلى دعايته وتحريضه أيام عبد الرحمن ، وكان مايزال معقد الدسائس الدينية ، وقضى بإعدامه كما قضى بإعدام صاحبته ومعاونته الفتاة ليوكريسيا (مارس سنة ٨٥٩ م) . ورأى النصارى فتنتهم تنهار فركنوا إلى السكينة ، وخبت جذوة تعصبهم ، التى لبثت أعواماً طويلة تضطرم فى قرطبة ، ولم يبق من حماستهم سوى الذكرى[١] .

ولم يكد ينتهى الأمير محمد من إخضاع طليطلة ، حتى دهم الأندلس خطر النورمانيين مرة أخرى. فى نفس هذا العام (٢٤٥هـ — ٨٥٩ م) انحدر النورمانيون (وهم الأردمانيون أو المجوس كما تسميهم الرواية الإسلامية) فى سفنهم نحو شواطئ جليقية ، وعاثوا فى شاطئ اسبانيا الغربى . وتقدر الرواية الإسلامية أسطول النورمان فى هذه المرة باثنتين وستين مركباً ؛ وطاردتهم السفن الأندلسية ، وكانت دائماً على قدم الأهبة تجوس خلال المياه الغربية بصفة مستمرة استعداداً لرد أولئك الغزاة الخطرين ، مذ فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة أيام عبد الرحمن . ووصلت بعض سفن النورمانيين جنوباً حتى تجاه مدينة باجة ، وهنالك استطاعت السفن الأندلسية أن تقضى على طلائع الغزاة ، وأن تنتزع سفينتين من سفنهم المحملة بالغنائم والسبى ، بيد أنهم انقضوا على الشواطىء الجنوبية ، ووصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير ، ثم انحدروا جنوباً حتى مياه الجزيرة الخضراء .

وفى تلك الأثناء كانت القوات الأندلسية قد سارت إلى الغرب بقيادة الحاجب عيسى بن أبى الحسن بن أبى عبدة ، وهرع الناس إلى جيش الأمير من كل صوب ، وتقدم الأسطول بقيادة أميرى البحر حشحاش وابن شكوح ، وقد عبىء أحسن تعبئة ، وجهز بالأنفاط وفرق الرماة الكثيفة ، وورد الغزاة أولا عن إشبيلية بعد عدة معارك برية وبحرية . ثم نشبت بين الفريقين بعد ذلك معركة بحرية شديدة تجاه شاطئ شذونة ، وغنم المسلمون فى البداية مركبين آخرين ، ولكن السفن النورمانية تكاثرت على جناح الأسطول الذى يقوده حشحاش ، وغلبت عليه ، وقتل أمير البحر المسلم فوق سفينته ، ثم انحدر النورمانيون صوب الجزيرة الخضراء واقتحموها ، وأحرقوا مسجدها الجامع ، وعاثوا فيها سفكاً ونهباً ، وسارت

(١) Dozy : Hist, V. I. p. 361—362

بعض سفنهم إلى شواطئ العدوة (عدوة المغرب) وعاثت فيها ، ثم نزلوا بشاطئ الأندلس الجنوبى ، وسارت سفنهم قبالتهم على ساحل تدمير حتى أوريولة ، فدخلوها ، وعاثوا فى تلك الأنحاء نهباً وسبياً ، واشتبكوا مع القوات الأندلسية فى عدة معارك برية وبحرية عنيفة ، حطمت فيها بعض سفنهم ، وقتل كثير من المسلمين ، واستمر عيث النورمانيين على هذا النحو أشهراً حتى خبت فورتهم ، وفقدوا كثيراً من سفنهم . فارتدوا نحو الشمال على طول شواطىء اسبانيا الشرقية ، ونفذت منهم قوة خلال نهر إبره إلى نافار ، واقتحموا عاصمتها بنبلونة وأسروا ملكها غرسية ، ولم يطلقوه إلا لقاء فدية كبيرة ، وأغارت قوات أخرى منهم على الجزائر الشرقية وشواطئ پروڤانس حيث عبروا مصب الرون ، وخربوا آرل ونيمة وڤالانس .

وهكذا لم تكن الغزوة النورمانية فى هذه المرة مفاجأة مثلما كانت الغزوة الأولى ، ولم يكن عيث الغزاة على نفس النطاق الواسع . وهذا ما يسجله لنا ابن حيان فى ختام حديثه عنها ، إذ يقول : « فلم يكن لهم فى هذه الكرّة الإنبساط فى البحر ، والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا فى السواحل مطمعاً لشدة ضبطها ، ولاقوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة ، فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدتهم بالخيبة ، فلم تكن لهم بعد بالأندلس إلى اليوم عودة »[1] .

وفى العام التالى أعنى سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) بعث محمد حملة إلى الولايات الشمالية بقيادة حاكم طرطوشة . ويقول لنا ابن حيان إن الأمير محمد هو الذى غزا بالصائفة بنفسه فى تلك السنة . وكان غرسية ملك نافار ، قد تحالف عقب انطلاقه من أسر النورمان مع أردونيو ملك ليون ، وأغارت قواتهما المتحالفة على الأراضى الإسلامية . وعلى أى حال فقد زحفت القوات الأندلسية على نافار ، ولم تكن قد

---

(١) تخالف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الغزوة النورمانية الثانية لشواطىء الأندلس ، فيضعه الرازى فى سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) . ويتابعه فى ذلك ابن الأثير وابن عذارى . ويضعها هشام ابن معاوية الشبينسى فى سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، وقد أخذنا بالرواية الأولى لأنها أرجح وأكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . راجع فى تفاصيل الغزوة ، ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٦٣ أ و ب و ٢٦٤ أ ، والعذرى فى « الأوراق المنثورة من ترصيع الأخبار » ص ١١٨ و ١١٩ . وابن الأثير ج ٧ ص ٢٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ .

أفاقت بعد من ضربة النورمانيين ، وغزت بنبلونة وخربت حصونها . ولم تقو جموع غرسية على رد المسلمين ، واستمر المسلمون بضعة أسابيع يخربون بسائط نافار وينتسفون قراها وحصونها ، وكان من بين الأسرى فرتون ولد غرسية ، فأخذ إلى قرطبة حيث اعتقل زهاء عشرين عاماً(١) .

وفى صيف سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) سارت حملة أندلسية أخرى إلى ألبة والقلاع . وكان موسى بن موسى قد طلب إلى محمد أن يكون طريق الحملات الغازية عن غير منطقته ، نظراً لما يتجشمه فى مقارعة النصارى من جهد ، وما يصيب أراضيه من الدمار ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وسارت الحملة من طريق آخر ، وعاثت فى أراضى النصارى .

وكان موسى بن موسى بن قسيّ يومئذ ، قد بسط نفوذه على بسائط قواعد الثغر الأعلى ، وأصبح سيداً لتطيلة ووشقة وسرقسطة وأحوازها . وكان هذا الزعيم القوى الذى يرجع حسبما أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وله مصاهرة وقرابة مع الأمراء النصارى ، ينتهز كل فرصة لتدعيم استقلاله ، وكان يتشح بلقب الإمارة ، ولم يكن يدين لحكومة قرطبة إلا بنوع من الولاء الإسمى . وكانت علائقه مع أردونيو ملك ليون جاره من الغرب ، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقاً للظروف . وكان أردونيو ينظر إلى اتساع ولايته من ناحية الغرب بعين القلق ، وموسى من جانبه يحرص على تحصين قواعده وحدوده ؛ فى سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢م) سار موسى فى قواته إلى الغرب لتحصين قواعده الغربية ومعه صهره غرسية أمير نافار ؛ وحاول أردونيو من جانبه أن يحبط هذه الحركة ، فهاجم بعض الحصون التابعة لموسى وفى مقدمتها حصن « البلدة » الواقع على نهر إبره على مقربة من قلهرّة ، ونشبت بين الفريقين معركة جرح فيها موسى جراحاً خطيرة ، وهزمت قواته وقتل منها عدد كبير من المسلمين والنصارى ، وقتل صهره غرسية ، وهدم أردونيو حصن البلدة وغيره من الحصون التى تحمى أراضى ابن قسى ، ولم يمض سوى قليل حتى توفى موسى نفسه متأثراً بجراحه ، وكانت وفاته نذيراً بتطور الحوادث فى الثغر الأعلى .

وذلك أن موسى بن موسى كان بالرغم من استقلاله عن حكومة قرطبة ،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ و ١٠٠ ، ومخطوط القرويين اللوحة ٢٦٣ أ .

يقف بقواعده وقواته فى الشمال الشرقى ، سداً منيعاً فى وجه النصارى . فلما توفى أعلن ولده لب خضوعه لأردونيوملك ليون ، وتحالف معه ضد المسلمين ، وزحف على وادى الحجارة يبغى الاستيلاء عليها ، فرده عنها حاكمها ابن سالم . وأصابته خلال المعركة جراح توفى منها وهو فى طريق العودة إلى تطيلة ، وحل أخوته الثلاثة إسماعيل ومطرف وفرتون مكان أبيهم فى حكم القواعد الشمالية . وهنا رأت حكومة قرطبة أن تضاعف أهباتها لرد النصارى عن الولايات الشمالية . فنى صيف سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) سار عبد الرحمن ابن الأمير محمد على رأس حملة كبيرة إلى ألبة والقلاع ، ومعه القائد عبد الملك بن العباس القرشى ، فجاس خلالها وخرب بسائطها . واشتبك النصارى بقيادة ملكهم أردونيو مع المسلمين فى معركة عنيفة ، وهزموا على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل عدة من قوادهم[١]. ولم يمض عامان حتى سير محمد ولده عبد الرحمن مرة أخرى ، إلى غزو ألبة والقلاع (٢٥١ هـ — ٨٦٥ م) . ويقول لنا ابن حيان إن الذى كان على رأس هذه الغزوة هو المنذر بن عبد الرحمن ، وكانت قيادة الجيش للحاجب عيسى بن الحسن بن أبى عبدة . وعلى أى حال فقد سار المسلمون بحذاء نهر إبره ، واستولوا على معظم حصون أكابر النبلاء والسادة فى تلك المنطقة . وحاول أردنيو كعادته أن يعترض سبيل المسلمين عند العودة ،وقد كمن لهم فى موضع يسمى «بفج المركور» على مقربة من نهر إبره ، أفرغ جهده فى تحصينه ، فنشبت بينه وبين المسلمين على ضفاف النهر معركة شديدة ، كانت الدائرة فيها على النصارى ، فقتل وأسر منهم عدد كبير وغرق الكثير منهم فى النهر ، ومزقوا كل ممزق[٢]. وفى العام التالى سارت حملة أخرى إلى الشمال بقيادة الحكم بن محمد ، فعاث فى أرض النصارى ، و استولى على بعض الحصون . وكانت هذه الغزوات المتوالية قد هدت من قوى النصارى ، ومزقت شملهم وخربت بلادهم ، فركنوا إلى السكينة ، وتوفى ملكهم أردونيو فى الوقت نفسه (٨٦٦ م) فخلفه ولده ألفونسو الثالث الذى لقب فيما بعد بألفونسو الكبير .

— ٢ —

كان حرياً بعد أن هدأت ثائرة النصارى فى الشمال ، أن تتمتع حكومة قرطبة

---

(١) ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ أ

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢ . ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ ب .

بفترة من السلام والدعة . ولكن الخطر كان يجثم فى ناحية أخرى. ذلك أن عوامل الانتقاض والثورة كانت تجتمع من جديد فى شمال غربى الأندلس ، فى المناطق الجبلية التى ألفت الثورة واتخذتها شعاراً لها . ولم تكن حكومة قرطبة بغافلة عن هذه النذر . وكانت ماردة وبها عدد من زعماء المولدين المتمردين ، فى مقدمة القواعد التى يشك فى ولائها وطاعتها . ففى سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨ م) خرج الأمير محمد على رأس جنده من قرطبة ، متظاهراً بالسير إلى طليطلة ، ولكنه عرج فى منتصف الطريق فجأة على طريق ماردة ، ودهمها قبل أن تستعد للقائه ، فتحصن بها أهلها . ثم اقتحمها محمد ، ووقع بين الفريقين قتال عنيف انتهى بسحق الثوار وإذعان المدينة ، وطلب الزعماء الثائرون الأمان وفى مقدمتهم عبد الرحمن بن مروان الجليقى ، وابن شاكر ، ومكحول ، وغيرهم ، وهم من أكابر الفرسان والسادة ، فنقلهم الأمير بأموالهم وأهلهم إلى قرطبة ، وولى على ماردة سعيداً بن عباس القرشى ، وهدم حصونها وأسوارها[1] .

وكانت الحوادث تتطور فى الثغر الأعلى فى نفس الوقت تطوراً خطيراً . وكان الأمير محمد قد استطاع عقب وفاة موسى بن موسى أن يسترد سلطانه فى تلك الأنحاء ، وأن ينتزع القواعد الشمالية من أبنائه ، ويعين لها حكاماً من قبله . وكان بنو موسى أو بنو قسىّ ، نسبة إلى جدهم الأعلى الكونت قسىّ القوطى ، يرجعون كما أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وكانت هذه الأسرة المتمردة الشديدة المراس ، كباقى الأسر القوية المولدة ، تبغض حكومة قرطبة ، وتميل إلى مناوأتها والتحالف ضدها مع النصارى ، وكان بنو قسى أصهاراً لملك نافار النصرانى ، حيث كان غرسية زوجاً لابنة موسى المسماة « أورْية » Oria ، فلما توفى موسى وانتزعت حكومة قرطبة قواعده من يد بنيه ، لجأ هؤلاء حيناً إلى حماية ملك ليون ، حتى تسنح لهم فرصة العمل ومعاودة الجهاد . على أن حكومة قرطبة لم تلق فى حكامها الذين اختارتهم للقواعد الشمالية ما كانت تؤمل من ولاء وإخلاص . ففى سنة٢٥٥هـ (٨٦٩ م) ثار سليمان بن عبدوس فى مدينة سُرية وهى من أعمال سرقسطة ، فسار إليه الحكم بن الأمير محمد ، وحاصر سرية وهدم أسوارها بالمجانيق ، وأرغم الثائر على الخضوع والطاعة ، وبعث به إلى قرطبة . وفى العام التالى (٢٥٦ هـ)

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٨ أ .

ثار عمروس بن عمر بن عمروس أحد زعماء الثغر ، وغدر بموسى بن غلند عامل وشقه وانتزعها منه . وعمروس هذا هو حفيد عمروس بن يوسف بطل واقعة الحفرة بطليطلة ، وقد كان بنو عمروس مثل بنى قسى مولدين من أصل نصرانى ، لا يشعرون بأى ولاء حقيقى لحكومة قرطبة . فسير عامل الثغر عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث الجند لمقاتلة الثائر ، فلما انتهت إلى وشقة فر عنها عمروس ، وأسر بها حفيده لب بن زكريا بن عمروس ، وقتل وعلق رأسه على سور المدينة . وفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) أرسل محمد حملة جديدة إلى الثغر الأعلى بقيادة عبد الغافر بن عبد العزيز ، فطارد فلول عمروس ، وقبض على ولده زكريا وأبنائه وجماعة من أهله ، وقتلهم على باب مدينة سرقسطة ، وقفل إلى قرطبة ورؤوسهم مرفوعة بين يديه(١) ، ولاح أن الثورة قد أخمدت فى الشمال

ولكن الواقع أن الثورة عادت لتضطرم فى الشمال بأقصى شدتها . ذلك أن القوات الأندلسية ما كادت تعود إلى قرطبة حتى ظهر بنوقسى فى الميدان مرة أخرى ، وزحف مطرف وأخوه إسماعيل ابنا موسى بن موسى على تطيلة ، فانتزعاها من حاكمها عبد الوهاب بن مغيث ، كما انتزعا سرقسطة من ولده محمد ابن عبد الوهاب ؛ وملك مطرف تطيلة فى صفر سنة ٢٥٨ هـ (٨٧١ م) ، وملك إسماعيل سرقسطة فى ربيع الأول من نفس العام . وهنا عول محمد على أن يخرج إلى الثوار بنفسه . فسار فى العام التالى على رأس جيشه (٢٥٩ هـ — ٨٧٢ م) وعرج فى طريقه على طليطلة ، حيث عقد لأهلها الأمان وأخذ الرهائن . ثم سار إلى الثغر الأعلى ، وزحف تواً على تطيلة واستولى عليها . وقبض فيها على مطرف ابن موسى وأبنائه . وفى رواية أخرى أن مطرفاً كان قد ملك وشقة إلى جانب تطيلة واستقر بها ، وأن عمروساً صاحب وشقه السابق استطاع أن يؤلب أهلها على مطرف ، وانتهى بأن انتزعها منه ، وقبض عليه وعلى ولده وزوجته وهى بنت غرسية ملك نافار وتزوجها . فلما قدم الأمير فى جيشه سارع عمروس بإعلان طاعته ، والتمس الأمان ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وأقره على ولاية وشقة وأعمالها ، وتسلم منه مطرفاً وأولاده(٢) . واتجه الأمير بعد ذلك إلى نافار فخرب

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٩ أ .

(٢) هذه هى رواية عيسى بن أحمد الرازى ، نقلها إلينا ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٧٠ ب .

بسائطها ، ثم عاد إلى قرطبة وأمر بقتل الثائر مطرّف وبنيه الثلاثة : ورفعت رؤوسهم على باب القصر . وفى العام التالى (٢٦٠ ﻫ) سير محمد إلى الشمال مع ولده المنذر جيشاً بقيادة هاشم بن عبد العزيز . فزحف المنذر إلى سرقسطة وعاث فى نواحيها ، وانتسف أشجارها وزروعها ، وجعلها قاعاً صفصفاً ، ولكنه لم يستطع انتزاعها من يد المتغلب عليها اسماعيل بن موسى . وكان أخوه فُرتون قد حل فى تطيلة مكان أخيه مطرف ، وتحالف الثائران مع ألفونسو الثالث ملك ليون ، فسار المنذر إلى وشقة ، ثم إلى بنبلونة عاصمة نافار ، وعاث فى تلك الأنحاء ، ولكن جهوده لم تسفر عن أية نتائج مستقرة[1] .

وشغلت حوادث الشمال وثورة بنى موسى حكومة قرطبة أعواماً طويلة . ففى سنة ٢٦٤ ﻫ (٨٧٨ م) سار المنذر مرة أخرى إلى الثغر الأعلى ، وعاث فى بسائط سرقسطة وتطيلة ، ولكنه لم يظفر بالاستيلاء عليهما . ثم زحف على بنباونة ، فخرب بسائطها ، وأتلف زرعها ، وقتل كثيراً من أهلها . وفى العام التالى (٢٦٥ ﻫ) ، عاد المنذر إلى غزو الثغر الأعلى ، وحاصر مدينة سرقسطة وسائر بلاد بنى قسىّ ، وعاث فيها إتلافاً وتخريباً . ومع ذلك فقد لبث الشمال بعيداً عن سلطان قرطبة بضعة أعوام أخرى . وكانت جنبات الأندلس الأخرى تضطرم فى الوقت نفسه بسلسلة من الثورات المدمرة حسبما نفصل بعد ، ولكن حكومة قرطبة كانت تعلق على قواعد الثغر الأعلى أهمية خاصة ، لوقوعها على حدود الممالك النصرانية . ففى سنة ٢٦٨ ﻫ (٨٨٢ م) سير الأمير محمد ولده المنذر إلى الشمال على رأس جيش ضخم ، ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز . وكان المنذر قائداً مجرباً ذا شجاعة وبأس ، وكان يعتزم هذه المرة أن يسحق الثورة وزعماءها فى الشمال . فزحف تواً على سرقسطة ، ولما لم ينجح فى اقتحامها ، تحول إلى الحصون الواقعة حولها فخربها واستولى عليها ، وافتتح حصن روطة أمنع حصونها وأسر به عبد الواحد الروطى « أشجع أهل عصره »[2] ثم استولى على لاردة وما حولها من الأنحاء ، وانضم إليه محمد بن لب بن موسى ، وكان ساخطاً على عميه لاستئثارهما دونه بالسلطان . ولما رأى إسماعيل بن موسى صاحب سرقسطة

(١) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ أ .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ . وفى رواية أخرى أن هاشم بن عبد العزيز اشترى حصن روطة من صاحبه عبد الواحد ولم يفتتحه (العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٣٥) .

عبث المقاومة ، أعلن خضوعه وطاعته للأمير وقدم رهائنه . وزحف المنذر بعد ذلك على ألبة واخترقها إلى قشتالة (القلاع) ، وتأهب النصارى للقائه بقيادة ملكهم ألفونسو الثالث . ولكن جرت مفاوضة بين الفريقين انتهت بعقد الهدنة ، وعاد المنذر إلى قرطبة ظافراً .

وما كاد المنذر يرتد إلى قرطبة ، حتى نشب الخلاف بين إسماعيل بن موسى وابن أخيه محمد بن لب ، وكان إسماعيل يحقد عليه لتحالفه مع المنذر . وانتهى القتال بينهما إلى انتصار محمد بن لب ، واستيلائه على سرقسطة ، وأسره لعمه إسماعيل . وحكم محمد سرقسطة باسم الأمير محمد . ولكن الأمير أراد أن ينتزع ولايتها منه ، فسخط عليه وأعلن خروجه عن طاعته ، وتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون . فبادر الأمير محمد بإرسال قواته مرة أخرى بقيادة ولده المنذر وهاشم بن عبد العزيز ، إلى الثغر الأعلى (٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م) . فسار المنذر إلى سرقسطة واستولى عليها بعد قتال عنيف ، وأخرج منها محمد بن لب . وفى رواية أخرى أن محمداً بن لب سلم سرقسطة صلحاً وفقاً لاتفاق تم بينه وبين المنذر نظير قدر كبير من المال[1] . وكان من ضباط جيش الأمير فى تلك الغزوة عمر بن حفصون الزعيم الخارج الذى سيجىء ذكره فيما بعد . ثم اخترق المنذر ألبة لمقاتلة النصارى حلفاء الثائر . ولكن المفاوضات انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين . وأرسل ألفونسو الثالث سفيراً إلى قرطبة هو القس دولثديو ليضع قواعد الصلح مع أمير الأندلس ، فنجح السفير فى مهمته وعاد إلى أوبييدو عاصمة ليون ، ومعه رفات القس أولوخيو وصاحبته ليوكريسيا ، وهما اللذان أعدما بقرطبة قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، ونظمهما النصارى فى سلك القديسين .

ولنترك الآن حوادث الثغر الأعلى لحظة لنستعرض ما حدث خلال هذه الأعوام المليئة بالفتنة فى أنحاء الأندلس الأخرى . فنى ماردة وبطليوس عادت الثورة إلى الاضطرام . وذلك أن عبد الرحمن بن مروان الملقب بالجليقى — لانتمائه

---

(١) نقل إلينا هذه الرواية العذرى فى كتابه « ترصيع الأخبار » وفيها أن محمداً بن لب تقاضى نظير تسليمه سرقسطة خمسة عشر ألف دينار . وكان ذلك فى سنة ٢٦١ هـ . (الأوراق المنشورة من الكتاب المذكور ص ٣٥) . هذا وقد أورد لنا العذرى تفاصيل كثيرة عن موسى بن موسى بن قسى وأولاده وأحفاده ، وثوراتهم ، وما خاضوه من الوقائع المختلفة فى الثغر الأعلى زهاء نصف قرن (الأوراق المذكورة ص ٢٩ — ٤٠) .

إلى أسرة من المولدين أصلها من ولاية جليقية فى شمال البرتغال — استطاع أن يفر من قرطبة مع نفر من صحبه . وكان بنو الجليقى قد استقروا بماردة منذ أمد طويل ، وتولى أبوه مروان بن يونس الجليقى حكم ماردة أيام الأمير عبدالرحمن ، فلما اضطرمت الثورة بماردة قتله أهلها (سنة ٢١٣ هـ) . وكان ولده عبد الرحمن طموحاً لا يشعر بالولاء نحو حكومة قرطبة ، فانتظم فى سلك الخوارج ، واشترك فى الثورة ضد الأمير محمد . فلما أخمدت الثورة وتم إخضاع ماردة فى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) قبض الأمير على عبد الرحمن الجليقى ونقله مع باقى الزعماء الثائرين إلى قرطبة حسبما تقدم . وكان فرار الجليقى من قرطبة فى أوائل سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) على أثر مشادة وقعت بينه وبين القائد هاشم بن عبدالعزيز كبير الوزراء أهانه خلالها وصفعه ؛ فغادر قرطبة خفية مع جمع من أنصاره ، واستولى على قلعة ألانية (أو قلعة الحنش)[١] فى جنوبى ماردة وتحصن بها ؛ واستولى زميله فى الخروج والعصيان مكحول ابن عمر على قلعة جلّمانية[٢] القريبة منها . واجتمع إليهما جمع غفير من المارقين والمتمردين ، واشتدعيثهما فى سائر الأنحاء المجاورة . وعندئذ سار الأمير لقتال الثائرين فى قوة كبيرة . فلما علما بمقدمه استغاثا بزميلهما القديم سعدون بن عامر المعروف بالسرنباقى ، وهو أيضاً من زعماء الثوار المولدين ، وكان يعيش فى كنف ألفونسو الثالث ملك ليون فى مدينة برتقال جنوبى جليقية ، فسار إليهما فى قوة من صحبه ، وانضم إلى قوات ابن مكحول . فضرب الأمير الحصار حول القلاع الثائرة ، وقطع عنها الماء ، واشتد فى ذلك ، وجنده ترهق المحصورين كلما طلبوا الحصول على الماء والمؤن خارج الأسوار . فلما ضاقوا بالحصار ذرعاً ، اضطر عبد الرحمن الجليقى أن يستجير بعبد الله ولد الأمير ، وأن يوسطه فى الشفاعة والإذعان إلى طلب الأمان . وكان عبد الله لين العريكة محباً للسلم ، فتوسط لدى والده الأمير ، وألح حتى أسعفه بما طلب ، ووافق على منح الأمان للثائر ، على أن ينزل له عن قلعة الحنش ، وينصرف وقومه إلى بطليوس ، وكانت يومئذ خالية مجردة من الحصون فينزلون بها ، ويقومون بتعميرها . فقدم ابن مروان رهائنه وهم ولده محمد وثلاثون من أكابر قومه ، وسار إلى بطليوس وصحبه ، ونزلها وأخذ فى تعميرها

---

(١) هى بالإسبانية Alange .

(٢) هى بالإسبانية Jurumena ، وهى تقع على مقربة من غربى بطليوس .

وماكاد الأمير يرتد أدراجه إلى قرطبة ، حتى حشد ابن مروان أنصاره من كل ناحية ومعظمهم من أهل الشر والمولدين الناقمين ، وأخذ فى تحصين بطليوس ، وإعدادها للدفاع والمقاومة ، وبعث جواسيسه إلى قرطبة ، يتعرفون أخبار الأمير ويترصدون حركاته ، ويبعثون بها إليه تباعاً . ثم عقد حلفاً مع ألفونسو الثالث ملك ليون . وكان يدعو أنصاره إلى مذهب دينى جديد هو خليط من تعاليم الإسلام والنصرانية . واستمر على هذا النحو زهاء عام آخر ، وهو يغير على الأنحاء المجاورة ويرهق أهلها ، ويستلب أموالهم ومتاعهم .

فلما اشتد عيثه ، وضج المسلمون فى تلك الأنحاء من شره وعدوانه ، وجاهر هو من جانبه بالعصيان وخلع الطاعة ، اعتزم الأمير محمد أن يعاقبه ويقمع شره بطريقة حاسمة ، فجهز إليه حملة كبيرة برياسة ولده المنذر ، وجعل قيادتها لوزيره الأثير هاشم بن عبد العزيز . وسارت هذه الحملة صوب بطليوس فى شهر شعبان سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) ، فلما علم ابن مروان بمقدم جند الأمير ، وشعر بصعوبة الدفاع عن بطليوس لاتساعها ، غادرها مع قواته ، وانضم إليه كثير من المولدين من الأنحاء المجاورة ممن خشوا بطش قوات الأمير بهم ، ونزل بحصن كركى أو كركو القريب وامتنع به ، وبعث إلى سعدون السرنباقى فى طلب النجدة . وسار المنذر وهاشم إلى بطليوس ، فألفياها خالية ، فسارا فى أثره ، واحتل هاشم حصن منت سلود (منت شلوط) الواقع جنوبى بطليوس خوفاً من أن يحتله الثوار ، وضرب المنذر الحصار حول حصن كركى . وفى تلك الأثناء قدم سعدون السرنباقى فى صحبه ، ومعه قوة كبيرة من النصارى أمده بها ملك ليون ، واشتبك فى طريقه بمدينة قُلُمرية بحاميتها ، وهم قوم من البربر من بنى دانس من مصمودة ، وفتك بهم ، وكانوا على الطاعة ، فبعثوا إلى هاشم بن عبد العزيز يستغيثون به . ووقف هاشم من طلائعه على مقدم سعدون وقواته ، وما فعله بأهل قلمرية ، فخرج إلى لقائه متحمساً تواقاً إلى الانتقام ، وكان سعدون قائداً مجرباً وافر الجرأة ، وكانت لديه فرق مختارة من الفرسان والرماة ، فرتب معظم قواته وراء التلال ، وتقدم للقاء قوات هاشم ، واعتقد هاشم أنه يستطيع سحق الثوار بأيسر أمر ، والتقى الفريقان فى مخاضة النهر جنوبى بطليوس ، وفاجأت خيل سعدون قوات الأندلس وأرهقتها ، وكثر فيها القتل ، وتقدم هاشم بن عبد العزيز إلى المعمعة ،

بعيداً عن مركز قيادته ، فأصابته جراح ،وأحاطت به فرسان العدو ، وكادت تجهز عليه ، لولا أن عرفه بعضهم ، فقبض عليه ، وحمله معه سعدون أسيراً إلى حصن منت سلود ، وكانت قوات الأمير قد غادرته . وكانت هزيمة قوات الأندلس ، وأسر قائدهم على هذا النحو ، فى الثانى عشر من شهر شوال سنة ٢٦٢ هـ (يونيه سنة ٨٧٦ م) . ولما علم المنذر بن محمد بما وقع لجنده من الهزيمة وأسر هاشم ، وكان مقيماً على حصار الجليقى ، شدد فى الحصار أياماً أخر ، ثم انصرف قافلا ببقية الجيش إلى قرطبة . وسار الجليقى وسعدون ومعهما أسيرهما القائد هاشم غرباً ، وهما يعيثان فساداً فى الأرض . وحصل الجليقى أولا على هاشم ، وكان يؤمل أن يتخده أداة للمساومة مع الأمير ، ولكن سعدون استرده منه فيما بعد ، خوفاً من غضب سيده وحاميه ملك ليون ، وتوجه به سعدون بالفعل إلى ألفونسو الثالث ، فتسلمه وحصل فى يده ، واستمر أسيراً لديه بمدينة أوبييدو زهاء عامين ، حتى تم الإفراج عنه لقاء فدية كبيرة بلغت مائة وخمسين ألف دينار[1] .

واستمر ابن مروان أعواماً وهو يسيطر على منطقة بطليوس ، ويعيث فى أنحائها فساداً ، ويخرج منها للإغارة على ناحية الغرب حتى أشبونة ، وجنوباً حتى باجة وأطراف أكشونبة ، ثم أن بعض أصحابه اختلفوا معه ، وغادروه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير . ولما شعر بقلة جمعه ، وخشى مطاردة الأمير وانتقامه ، عول على أن يحذو حذو صاحبه سعدون فى الالتجاء إلى ملك جليقية ، فقبل الملك النصرانى ملتمسه ، وأنزله مع صحبه فى حصن بطرسة بوادى دويره على مقربة من ليون ، ولبث فى كنفه أعواماً . ثم دب الخلاف بينهما بسبب غارة قام بها ملك جليقية فى منطقة بطليوس ومعه ابن مروان ، وفيها بالغ الملك النصرانى فى قتل المسلمين ، ومعظمهم من أصحاب ابن مروان ورعاياه السابقين (سنة ٢٦٦ هـ — ٨٧٩ م) . فغادره ابن مروان مغضباً ، وعاد إلى منطقة بطليوس ، ليستأنف غاراته وعيثه فى أراضى النواحى المجاورة . وفى سنة ٢٧١ هـ (٨٨٥ م) سير إليه الأمير محمد ولده المنذر فى قوة كبيرة ، فزحف على بطليوس ، ففر منها

---

(١) لخصنا ما تقدم من رواية عيسى بن أحمد الرازى المسهبة التى نقلها إلينا ابن حيان ؛ وقد وردت فى مخطوط القرويين فى اللوحات ٢٦٧ أ و ب و ٢٧٣ أ و ب و ٢٧٤ أ و ب ، و ٢٧٦ ب و ٢٧٧ أ حتى ٢٨٠ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٤ و ١٠٥ .

ابن مروان وتحصن بجبل « أشبروغيره »[1] فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها .
وفى العام التالى سارت حملة أخرى بقيادة الوزير هاشم إلى « أشبروغيره » لقتال ابن مروان ، فحاصره حيناً ثم ارتد عنه دون إخضاعه . ولما أعيا الأمير أمره ، انتهى أخيراً إلى قبول شروطه فى الاستقلال بحكم بطليوس وما جاورها ، والإعفاء من المغارم والفروض[2] .

ووقعت فى ذلك الحين ثورات محلية أخرى ، فخرج فى شنت برية[3] مظفر ابن موسى بن ذى النون وزحف على طليطلة ، فلقيه جندها فهزمهم ، وقوى أمره فى تلك الجهة ، وأضاف إلى شنتبرية ما حولها من البلاد والحصون .

ويرجع ظهور بنى ذى النون ، وهم سادة مملكة طليطلة أيام الطوائف ، إلى ذلك العهد . وخلاصة ما تقدمه إلينا الرواية فى ذلك ، هو أن جدهم ذا النون (أو زنون) بن سليمان الهوارى ، كان زعيماً لشنت برية من أعمال قونقة ، ومر به الأمير محمد فى بعض غزواته إلى الثغر ، وقد مرض له خصى من أكابر فتيانه ، فتركه عند ذى النون حتى يحدث الله فيه أمره . فاعتنى به ذو النون حتى برئ من علته ، وصحبه بنفسه إلى الأمير بقرطبة ، فكافأه الأمير بأن أقره على ناحيته . واستقام ذو النون على الطاعة حتى توفى ، وخلفه ولده موسى ، فنبذ الطاعة ، وانتظم فى سلك الخوارج ؛ ولما توفى سار ولده مظفر على خطته ، وأضحى بنو ذو النون من زعماء الفتنة فى الثغر الأوسط[4] . وخرج أسد بن الحرث بجهة رندة[5] وأخذ ضرام الفتنة ينساب إلى كل ناحية ، ونشط النصارى فى الشمال ، يتربصون لإذكاء الفتنة ، وانتهاز الفرصة السانحة للإغارة على الأراضى الإسلامية .

وانبعثت من هذا الضرام شرارة فى الجبال الجنوبية ، قدر لها أن تستفحل بسرعة ، وأن تغدو أخطر ما يهدد سلام الأندلس وعرش بنى أمية . فى جبل بُبَشتر[6] ، فيما بين رندة ومالقه ، ظهر عمر بن حفصون أعظم ثوار الأندلس ،

---

(١) واسمه بالإسبانية **Esparragosa** . وهو يقع بين نهر وادى يانة وجبال المعدن .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٥ و١٠٦ و١٠٨ . وراجع **Dozy : Hist.; V. II p. 8-11**
(٣) وهى بالإسبانية **Santaver** وهى تقع جنوب شرقى وادى الحجارة . وهى غير شنتمرية الشرق .
(٤) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ ب .
(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ .
(٦) وبالإسبانية **Bobastro**

وأشدهم مراساً ، وأخطرهم جانباً . وكانت سلسلة الجبال الواقعة بين رندة ومالقة مأوى الأشقياء والعصاة . وكان عمر سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل نصرانى قوطى . وقد سجلت لنا الرواية الأندلسية نسبته ، فجده عند الفتح هو ألفونسو القس ، وجده الرابع جعفر هو أول من اعتنق الإسلام من أسرته[١] . ونشأ بيتهم فى تاكرنّا من أعمال رندة . وكان والده حفصون ذا مال ووجاهة . ونشأ ولده عمر فاسداً سيئ السيرة ، عنيفاً يعتدى على النفس والمال ، ولم يلبث أن هجر أسرته وأطلق العنان لأهوائه وغيه ، والتف حوله جماعة من أهل الفساد والبغى ، فألف منهم عصابة معتدية ناهبة ، ونزل بمكان منيع بجبل بُبَشتر الواقع شمال شرقى جبال رندة ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٧ هـ (٨٨٠ م) . وقد وصف لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس ابن حفصون عند ذكر الخوارج فى تلك العبارة الجامعة : « إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون ، أعلاهم ذكراً فى الباطل ، وأضخمهم بصيرة فى الخلاف ، وأشدهم سلطاناً ، وأعظمهم كيداً ، وأبعدهم قوة »[٢] .

ويشرح لنا الرازى البواعث الأولى لهذه الفتنة التى اضطرمت فى كورة ريُّه والجزيرة ، فيقول لنا إن السبب فى تحريكها يرجع إلى عنف يحيى بن عبد الله ابن يحيى عامل الأمير محمد فى كورة ريه ، فى مطالبته لأهلها ببقايا عشور تأخرت عليهم ، واشتطاطه فى ذلك وإرهاقهم ، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم ، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ، فحشد يحيى بن عبد الله قواته لقتالهم ، واستدعى أخاه أحمد ابن عبد الله عامل كورة الجزيرة بقواته لمعاونته فى حربهم ، ونشبت بين قوات الأمير وبين الخوارج معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) . وفى العام التالى سار بالصائفة إلى كورة ريه عبدالله ابن الأمير محمد ، وعلى قيادة الجيش الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكان قد أطلق سراحه من الأسر ، وعاد إلى سابق مكانته لدى الأمير محمد ، واستأنف القيادة لأول مرة ، فاشتد فى مطاردة الخوارج ، ومزق جموعهم ، وأنشأ عدة

---

(١) قال ابن خلدون عن ابن حيان إنه عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش ابن أدفونش القس (ج ٤ ص ١٣٤) . وزاد عليها صاحب البيان المغرب اسما آخر (ج ٢ ص١٠٨) .

(٢) ابن حيان فى المقتبس ، وهو السفر الثالث المطبوع بعناية المستشرق الأب ملشيور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) ص ٩ .

من الحصون لمدافعتهم ، ولكن الفتنة لم تقمع ، وظلت سحب الخروج والعصيان قائمة ، وعمت الفوضى كورة ريه بأسرها .

فى هذا الأفق المضطرم ظهر ابن حفصون ؛ وكانت حوادث ريه مقدمة هذه الفتنة الهائلة التى تزعمها فى جنوبى الأندلس ، والتى يصفها الرازى بأنها « طمت على جميع فتن الأندلس ، بعمومها وامتداد أيامها ، ودفع أهل الشرور منهم نحوها »(١). وأخذ ابن حفصون ينتهز كل فرصة للإغارة على أطراف إقليم ريه ويوسعها تخريباً وسبياً ونهباً ، ثم يعتصم بأوكاره فى جبل ببشتر ، فلما اشتد عيثه وعدوانه، سار إليه عامل ريه، عامر بن عامر فى بعض قواته، فهزمه ابن حفصون وقوى بذلك أمره ، وهرع إلى لوائه كثير من أهل الشر والعصاة . وعزل الأمير عامل ريه المهزوم ، وبعث إليها بعامل جديد هو عبد العزيز بن عباس ، فسار إلى قتال ابن حفصون للمرة الثانية ، فامتنع الثائر بقلاعه ، ووقعت الهدنة بين الفريقين(٢). وعندئذ سير محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز إلى كورة ريه فى قوة كبيرة ، فشدد الحصار على ابن حفصون ، وجد فى أثر العصاة والخوارج، وأسر الكثير منهم ، وما زال حتى أرغم ابن حفصون على التسليم مع سائر عصابته ، وحملهم جميعاً إلى قرطبة . فعفا محمد عن الثائر وضمه إلى جيشه ، لما آنسه من براعته وقوة مراسه . ولما سار المنذر إلى الثغر الأعلى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) لقتال محمد بن لب ، كان ابن حفصون من ضباط جيشه . بيد أنه لم يكن راضياً كل الرضى عن منصبه ، وكانت نفسه الوثابة تنزع دائماً إلى الخروج والعمل الحر ، فلم يلبث أن فر من جيش الأمير مع نفر من صحبه ، ولم يلبث أن عاد إلى معاقله فى ببشتر ، واستأنف ثورته ، ومن حوله جميع كبير من الخوارج والبغاة (٨٨٤ م) .

ولبث ابن حفصون مدى عامين يعيث فى هذه المنطقة فساداً ، ويبث من حوله الذعر والروع . وفى صيف سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) ، خرج المنذر إلى كورة ريه لقتال ابن حفصون ، وبدأ الزحف على مدينة الحامّة فى شمال شرقى مالقة ، وفيها الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون ، فسارع ابن حفصون إلى إنجاد حليفه ، واجتمع الثائران بمدينة الحامة لمقاتلة جند الأمير ، فحاصر المنذر الحامة مدى

---

(١) ابن حيان عن عيسى بن أحمد الرازى . مخطوط القرويين لوحة ٢٨٣ أ و ب .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ .

شهرين ، ولما أشرفت مؤن المدينة المحصورة على النفاد ، خرج ابن حفصون وحليفه فى جندهما ، واشتبكا مع جند الأمير فى معركة عنيفة ، هزم فيها الثوار وجرح ابن حفصون ، وارتد مع أصحابه ثانية إلى الحامة واستعصم بها . وبينما المنذر مقيم على حصار الحامة ، إذ جاءته الأنباء من قرطبة بوفاة أبيه الأمير محمد . وكانت وفاته فى ٢٩ صفر سنة ٢٧٣ هـ (أوائل أغسطس سنة ٨٨٦م) فارتد لفوره إلى قرطبة ، تاركاً الحامّة لمصيرها ، وتنفس ابن حفصون الصعداء ، وانتهز الفرصة السانحة للإغارة على معظم الحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على ريُّه ورندة وإستجّة وغيرها .

— ٣ —

كان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من خيرة أمراء بنى أمية وأوفرهم ذكاء وفطنة(١). وقال الرازى : « ولمحمد فى سلطانه الآثار الجميلة ، والآيات الجزيلة ، والفتوح العظيمة ، والعناية بمصالح المسلمين ، والتهمم بثغورهم ، والضبط لأطرافهم ، والتوجيه لمصالحهم »(٢) ، وكان يرجو محمد أن يجرى على سنن أبيه من الإصلاح والإنشاء ، ولكن الحوادث سارت على غير ما يشتهى ، وسرت الفتنة إلى سائر أنحاء الأندلس ، واضطر أن ينفق حكمه الطويل فى غزوات متعاقبة وكفاح مستمر . وكان عليه أن يصون عرش بنى أمية ، وأن يحمى سلطان الدولة الإسلامية فى الأندلس من الانهيار . وكانت مهمة شاقة ، ولكنه أبدى فى الاضطلاع بها جلداً وبراعة ، فكانت الصوائف لغزو أرض النصارى ، والحملات التأديبية لقمع الثوار ، تتوالى دون كلل ، وذلك بالرغم مما كانت تنتهى إليه فى معظم الأحيان من النتائج السلبية . وكان الأمير محمد يعشق الجهاد والكفاح ، ويقود الجيش بنفسه كلما سنحت الفرص . وكان ولده المنذر ساعده الأيمن فى تلك المهمة الخطيرة . واهتم محمد بأمر الجيش والأسطول ، وكان اهتمامه بتقوية الجيش ضرورة ، أملتها الظروف العصيبة التى كانت تجوزها المملكة يومئذ . وتلقى الأرقام التى يقدمها إلينا ابن حيان نقلا عن معاوية بن هشام ، عن عدد الفرسان الذين يحشدون فى مختلف الكور والمدن لغزوات الصوائف ، ضوءاً على مدى قوة الجيش الأندلسى

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٢٢ أ .

يومئذ ، وقد كانت هذه الأرقام ، تفرض على النواحي ، ويؤخذون بها غير منتقصين لها ، إلا لعذر قاهر أو لجدب بين . ومن ذلك كورة إلبيرة (غرناطة) ألفان وتسعمائة ، وجيّان ألفان ومئتان ، وقبرة ألف وثمانمائة ، وباغة تسعمائة ، وتاكرنا ميتان وتسعة وستون ، والجزيرة مايتان وتسعون ، وإستجة ألف ومايتان ، وقرمونة مائة وخمسة وثمانون ، وشذونة ستة آلاف وسبعمائة وتسعون ، وريُّه ألفان وستمائة وسبعة ، وشريش ثلاثمائة واثنان وأربعون ، وفحص البلوط اربعمائة ، وموورور ألف وأربعمائة وثلاثة ، وتدمير مايتان ... أما قرطبة العاصمة فكانت تترك لاجتهادها وهمّها ، ويحشد أبناؤها بطريق التطوع خلافاً لأهل النواحي الأخرى. وكانت هذه الفرق تسمى بفرق الفرسان المستنفرين ويجرى « استنفارهم » أوقات الصوائف ، أو كلما بدرت من العدو حركة اعتداء على أهل الثغور . فاذا ذكرنا أن هذه الأرقام تتعلق بنواحي الأندلس فقط ، وإذا ذكرنا بعد ذلك حشود المشاة المستنفرة والمتطوعة ، استطعنا أن نقدر ضخامة الجيوش التي كانت الدولة الأندلسية تستطيع تعبئتها يومئذ(١) . وأما الأسطول فقد عمل محمد ، على إنشائه ، لحماية الشواطئ الغربية ولغزو مملكة جليقية من ناحية البحر . وفى سنة ٨٦٦م (٢٥٢ هـ) سارت السفن الأندلسية بالفعل إلى شواطئ جليقية بقيادة أمير البحر عبد الحميد بن مغيث ، ووصلت إلى مصب نهر منهو . ولكنه لم يوفق إلى تحقيق بغيته ، إذ عصفت الرياح بالسفن فتفرقت وغرق معظمها فى المياه الغربية(٢) .

وعنى محمد كذلك بتحصين أطراف الثغور ، وأقام عدة من المحلات والقلاع الدفاعية ، المنيعة فابتنى حصن شنت إشتيبن لحماية مدينة سالم ، وابتنى حصن طلمنكة وحصن مجريط بمنطقة وادى الحجارة ، للدفاع عن طليطلة ، وكان شديد الاستخبار عن الثغور ، والبحث فى مصالحها .

وبالرغم مما كان يقتضيه الجهاد المتواصل من النفقات الضخمة ، فقد كان الأمير محمد يبذل وسعه لتخفيف الضرائب عن كاهل شعبه ، وقد رفع عن أهل قرطبة ضريبة « الحشود » ، واكتفى بدعوتهم إلى التطوع والجهاد فى سبيل الله ،

---

(١) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٤ ب . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٦ ، و Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien; B. I. s. 293.

فأقبلوا على تعضيده وتأييده[١]. وأما عن العشور فقد أبدى محمد تشدداً فى اقتضائها وقد نصح له وزيره عبد الرحمن بن غانم صاحب المدينة ، بأن يسقط العشور متى عدمت الغلات ، لأن العشور إنما تفرض على الغلات إذا وهبها الله ، فإذا لم يزرع بذر ولم يستغل زرع وجب إسقاطها ، فلم يستمع إليه محمد فى البداية وعزله ، وعين مكانه حمدون بن بسيل ، وكان فظاً ظلوماً ، فاشتط فى تحصيل العشور ، حتى ضج الناس بالدعاء عليه ، ووصل صريخهم إلى الأمير ، وتوالت فى نفس الوقت أعوام الجدب والقحط ، فاضطر الأمير أن يسقط عن الناس جملا من العشور ، حتى يتنفس مخنقهم ، ويستطيعوا مواجهة أعباء الحياة ، ومواصلة نشاطهم العمرانى ، وأعلن الناس عندئذ بشكره ومدحه الشعراء[٢]. وكان الأمير محمد بارعاً فى الشئون المالية ، دقيقاً فى مراجعة الدخل والخرج ، وقد ساعده ذلك على ضبط شئون الخزانة العامة[٣]. وفى عهده أصيبت الأندلس بالقحط مرتين ، الأولى بين سنتى ٢٥١ و ٢٥٥ هـ ، والثانية فى سنة ٢٦٠ هـ ، وكان قحطاً شديداً استمر بضعة أعوام ، وكثر بسببه الغلاء والموت . ولكن الأندلس استطاعت أن تصمد للمحنة ، وأن تتغلب عليها .

وفى عهده سار بلاط قرطبة على سنن الاعتدال ، ومجانبة البذخ الذى ساد فى أيام أبيه عبد الرحمن ، وضعف نفوذ الجوارى والصقالبة فى القصر ، ومع ذلك فقد استمر النظام الإدارى الذى كان قائماً فى عهد عبد الرحمن بتفاصيله تحت إشراف الأمير وتولى زمام الأمور نفس الرجال الذين تولوها من قبل ، واجتمعت السلطات فى أيدى أسرتى بنى شُهيد وبنى أبى عَبْدة ، أعظم الأسر القرطبية يومئذ ، وتولى الحجابة لمحمد فى البداية عيسى بن شهيد حاجب أبيه من قبل . وقد أشرنا من قبل إلى هذا الوزير النابه غير مرة . ثم خلفه فى الحجابة عيسى بن الحسن ابن أبى عبدة ، فكان من أرجح الوزراء عقلا وإصابة ، وكان طوال خدمته هدفاً لمنافسة هاشم بن عبد العزيز ودسائسه ، وقد خلفه هاشم بالفعل فى الحجابة ، ولبث يضطلع بها أعواماً طويلة حتى وفاة الأمير محمد ، وكان هاشم بن عبد العزيز ينتمى إلى أسرة من المولدين ، وكان من أعظم رجالات الحرب والسياسة فى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ و ١١٢ ، وأخبار مجموعة ص ١٤١ و ١٤٢ .
(٢) ابن حيان — مخطوط القرويين لوحة ٢٣٠ أ و ٢٥٥ .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٠ .

عصره ، وقد تولى القيادة الفعلية لكثير من الغزوات والحملات حسبما فصلنا ، وكان من قبل من وزراء الأمير عبد الرحمن ، فلما صار الأمر إلى ولده محمد ، غدا من بين وزرائه أكثرهم حظوة لديه ، وغدا من خاصة جلسائه وندمائه ، وكان هاشم فوق ذلك أديباً متمكناً وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مطبوعاً ، يقرب الأدباء والشعراء ، بيد أنه كان حاد الطبع قليل التحفظ ، لا يحسن اصطناع الرجال ، حتى أنه لما نكب فى غزوة الخليق وحمل أسيراً إلى ملك ليون (سنة ٢٦٢ هـ) لم يجد كثيراً من المدافعين عنه فى محنته ، وسخط عليه الأمير محمد ، وأنحى عليه باللوم ، وكان يقول « هذا أمر جناه علينا فألحق بنا غضاضة ، واستزاد برأيه فضيع وصاتنا ، ولم يحكم تدبير ما صيرنا فى يده من أمرنا » . ولم يدافع عن هاشم ، ويستدر عطف الأمير عليه سوى صديقه الوليد بن غانم صاحب المدينة أعنى حاكم قرطبة ، وقد أقنع الأمير بأن يولى وزيره المنكوب عطفه ، وأن يستخدم ولده مكانه ، حتى يتم إطلاق سراحه . وقد لبث هاشم بن عبد العزيز أسيراً فى أو بييدو عاصمة ليون زهاء عامين ، حتى تم افتداؤه وإطلاق سراحه لقاء فدية ضخمة حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل[1] .

وكان من وزراء الأمير محمد ، أمية بن عيسى بن شهيد ، وكان من أجل وزرائه وآثرهم لديه ، وأخصهم بخدمته ؛ والوليد بن غانم المتقدم الذكر ، وكانا يتعاقبان فى منصب ولاية المدينة ، وهو من أهم مناصب الدولة يومئذ ، لما يتطلبه من الحزم وقوة الشكيمة ، والنزاهة فى نفس الوقت . ومنهم تمام بن عامر الثقفى الشاعر الأديب ، وكان مؤرخاً راوية كتب أرجوزة طويلة فى فتح الأندلس ، وقد اشتهر ببراعته فى لعبة الشطرنج ، وكانت من أسباب حظوته لدى الأمير ، وتمكن منزلته لديه ، وقد ذاعت فى أيامه ذيوعاً عظيماً . ومنهم كذلك سليمان ابن وانسوس ، وهو من أشرف البيوتات البربرية ، وكان جده رئيساً مطاعاً بماردة ، وقد ثار فيها أيام الحكم بن هشام ، وكان أديباً وافر الوجاهة ، وقد تولى خطة السوق وهو اسم ولاية الحسبة يومئذ . وكان من الوزراء الكتاب عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، وكان كاتباً بليغاً[2] .

---

(١) ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٢٨ أ و ب و ٢٣٠ أ و ٢٣٥ ب .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٣٠ ب و ٢٣٢ أ و ٢٣٣ ب و ٢٣٥ أ .

وكانت تربط الأمير محمد بأمراء المغرب المعاصرين ولا سيما بنو رستم أمراء تاهرت، وبنو مدرار أمراء سجلماسة وغيرهما ، علائق مودة وصداقة متينة العرى. فكانوا يستمدون منه العون والنصح فى شئونهم ، وكان هو من جانبه شديد الاهتمام بأخبارهم وأحوالهم ، وتتردد إليهم رسله وكتبه فى البحث عن أخبار بنى العباس بدار مملكتهم ، وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام وإفريقية . وكان شارل الأصلع ملك فرنسا (إفرنجة) يقدر خلاله ويتودد إليه ، وربما تبادلا المراسلة والهدايا[1]؛ والظاهر أن ملك فرنسا كان يؤثر سياسة السلم مع حكومة قرطبة خشية أن يتكرر غزو المسلمين لسبتمانيا . وكانت تربطه فى الوقت نفسه علائق مودة ببنى قسىّ سادة الثغر الأعلى، الذين ظهروا بمغامراتهم فيما وراء جبال البرنيه .

وعلى الرغم من أن وقت الأمير محمد لم يتسع كثيراً للأعمال الإنشائية ، لما زخر به من الفتن والغزوات المتوالية ، فقد قام منها بطائفة حسنة . وكان فى مقدمتها منشآته بالمسجد الجامع ، فقد عنى أولا بإتمام الزيادة التى بدأها أبوه عبد الرحمن فى وسطه وأقام فيها المقصورة ، وكان أول من اتخذها هنالك من الخلفاء ، وأصلح جناحه القديم الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل ، وجدده وأعاده إلى رونقه القديم . ولما تمت هذه الزيادات والإصلاحات ركب الأمير إلى الجامع وزاره فى موكب فخم ، وأشادت بعمله الشعراء . وأصلح محمد جامع إستجّة وجامع شذونة ، ومساجد عديدة أخرى فى مختلف الأنحاء ، وأنشأ زيادات كثيرة بالقصر وملحقاته امتازت بالجمال والإناقة . وعنى بتجديد منية الرُّصافة التى أنشأها جده الأعلى عبد الرحمن الداخل ، وجدد حدائقها ومتنزهاتها ، وزودها بالأشجار والغراس النادرة ، وجعلها منتدى نزهه وأسماره . وفى ذلك يقول عباس بن فرناس من قصيدة :

كأن قصور الأرض بعد تمامه　　بنوا لذرى أخفى شخوصاً من الدر
وتنتشر الأبصــار منها إلى مــــدى التنزه بالأطيار والوحش والزهر
فأعجب من أفنانها الغـــرر التى　　يقيل بهن البرد فى وعوة الحر
هم بأخفى سرها غـــير كاتم صـــداها فأخفى السر بها من الجهر
كأن الذى يخفى الحديث بنجوها　　على أخفض الأصوات يشدو على وتر

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ . ويسمى ملك فرنسا هنا خطأ بفردلند .

وأنشأ محمد له كذلك منية خاصة فى مكان ضيعته المسماة «كنتش» الواقعة جنوب غربى قرطبة ، عرفت «بمنية كنتش» وعنى بتجميلها ، وجعلها كذلك موطناً لنزهه ومسراته . وهى التى يقول فيها ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :

ألما على قصر الخليفة فانظرا إلى منية شيدت لأزهرا
هى الزهرة البيضاء فى الأرض ألبست لها الزهرة الحمراء فى الجو مغفرا(١)

وكان الأمير محمد ربع القوام ، أبيض مشرباً بحمرة ، أوقص(٢) ، يخضب بالحناء . وكان كثير الأناة والحلم ، عطوفاً على أخوته وآل بيته ، وقد عنى منذ ولايته بشئون الأكابر من أخوته ، فأعد لهم الدور الفخمة خارج القصر ، ووهبهم الضياع المغلة ، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، واستعمل من يصلح منهم للأعمال البعيدة . وكان فوق رجاحة عقله ، أديباً ، يشغف بالبيان ، بليغاً فى كتبه ، محسناً فى توقيعه . بيد أنه لم يكن شاعراً مثل أبيه وجده . وكان مكرماً لأعلام الناس ، وذوى العلم والحجى منهم ، يرفع مجالسهم ، ويكثر من رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من منافستهم وتحاسدهم ، ويأبى الإصغاء لسعاياتهم . وكان يجمع حوله صفوة من الشعراء والعلماء(٣) مثل عباس بن فرناس ، ومؤمن ابن سعيد ، وابن عبد ربه ، وهم من أقطاب الشعر فى عصره ؛ ومن العلماء عبد الله ابن حبيب أعظم علماء الأندلس فى عصره ، وقد توفى فى صدر ولايته ، وبقى بن مخلد وعيسى بن دينار ، ومحمد بن عمر بن لبابة ، ومحمد بن عبد السلام الخشنى ، وغيرهم . وقد اشتهر فى عصره بالأخص الفقيه الورع العلامة بقى بن مخلد ، وكان فقيهاً حر الذهن ، واسع الأفق ، نشأ فى قرطبة ، ورحل إلى إفريقية والمشرق ، ودرس دراسة مستفيضة . ولما عاد إلى الأندلس ، حقد عليه فريق من فقهائها ، لغزارة علمه ، وتفوقه عليهم ، ولاسيما فى أساليب الحديث والرواية ، وحاولوا اتهامه بالزندقة ، والإيقاع به لدى الأمير ، فاستجار بقى بالحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكتب إلى الأمير يناشده الله فى دمه ، ليرى رأيه فيه بعد سماع حجته ، فأسعفه هاشم وشرح للأمير قضيته ، وعقد له الأمير مجلساً لمناجزته خصومه فتناظروا بين يديه ، ودحض بقى تهم خصومه بقوة ، وألزمهم الحجة ، واستبان

---

(١) مخطوط القرويين فى اللوحات ٢٤٣ — ٢٤٧ . وراجع أيضاً البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٠ .
(٢) أعنى قصير العنق .
(٣) أخبار مجموعة ص ١٤٥ .

الأمير فضله وتفوقه ، وأسبغ عليه حمايته ورعايته ، وأعلى منزلته . ولبث بقى عمدة العلماء والفقهاء والمحدثين بالأندلس حتى توفى فى سنة ٢٧٦ هـ ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد[١] .

وكان للفقهاء فى عصر الأمير محمد نفوذ كبير فى بلاط قرطبة ، وفى صوغ سياستها نحو النصارى . وكان محمد ينحو نحو أبيه عبد الرحمن فى سياسة التسامح نحو النصارى ، وكان من أثر ذلك أن أقر الأسقف جومث قومس أهل الذمة على ولايته كما كان فى عهد أبيه ، وذلك بالرغم من اعتراض الفقهاء وسخطهم ؛ وبالرغم مما كان ينقل إليه من نعى المشارقة على بنى أمية استخدام النصارى فى بلاطهم وتوليتهم أسمى المناصب[٢] .

وترك محمد من الولد ثلاثة وثلاثين من البنين وإحدى وعشرين من البنات[٣]

---

(١) مخطوط القرويين اللوحة ٢٤٣ ب ، و٢٥٣ ب . وراجع ترجمة بقى من مخلد فى ابن الفرضى ، تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ، رقم ٢٨٣ ؛ وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ .

(٢) أشار ابن القوطية إلى ذلك فى رواية أوردها عن حديث جرى بين القائد ابن أبى عبدة وبين محمد بن الكوثر أحد كتاب الأندلس ، وصف فيه ابن الكوثر « أنه من عجائب الزمان أن يكون صاحب قلم بنى أمية الأعلى وكاتبها المظيم قومس النصرانى » . وكتب إليه « أن من أعجب العجب أن يبلغ خلايف بنى العباس بالمشرق أن بنى أمية اضطروا فى كتابتهم العظمى وقلمهم الأعلى أن يولوا قومساً النصرانى ابن انتنيان ابن يلياته النصرانية » (واسمه بالإسبانية جومث بن أنتونيو ابن خوليان) — راجع افتتاح الأندلس ص ٨٢ و ٨٣ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

الفصل الثانى

ولاية المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

وبداية ثــورة المولدين

ولاية المنذر . تأهبه لقمع الفتنة . الحاجب هاشم بن عبد العزيز . طغيانه وتوجس المنذر منه . سجنه ومصرعه . حملة إلى طليطلة والثغر الأعلى . اشتداد أمر ابن حفصون وأطماعه . قضية المولدين وأثرها فى ازدياد سلطانه . خروج المنذر لمحاربته . استيلاؤه على أرشدونة وباغة . محاصرته لابن حفصون فى ببشتر . إذعان الثائر ثم نكثه . عود المنذر إلى محاصرته . مرض المنذر ووفاته . رواية عن اغتيال المنذر . رفع الحصار عن ببشتر . صفات المنذر وخلاله .

وصل المنذر بن محمد بجيشه إلى قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، عائداً من مقاتلة ابن حفصون . وفى الحال أعلنت بيعته فى الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣ هـ (أغسطس سنة ٨٨٦ م) . وكان فى الرابعة والأربعين من عمره . وكان مولده فى قرطبة سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، وكان منذ فتوته أثيراً عند أبيه بين أبنائه الثلاثة والثلاثين ، مستأثراً بثقته وولايته عهده . يختاره لجلائل الأمور ، ويندبه لقيادة الجيش كلما جد الخطب . وقد أبلى المنذر حسبما رأينا بلاء حسناً ، فى مقاتلة الثوار والخوارج ؛ وحينما تولى العرش ، كانت الفتنة قد تفاقمت ، وعمت الثورة معظم الأنحاء ؛ وكان المنذر رجل الموقف فتأهب لإتمام المهمة التى بدأها ، من العمل على سحق الثورة ، وتأييد النظام والأمن ، وحماية العرش والدولة ، من كيد الخوارج والطامعين .

وعهد المنذر بحجابته إلى القائد هاشم بن عبد العزيز حاجب أبيه وقائده ، وكان هذا الوزير القوى ، فى أواخر عهد الأمير محمد ، قد استأثر بالسلطة ، وأصبح أقوى رجل فى الدولة . وكان المنذر يخشاه ويتوجس من نفوذه وسلطانه ؛ وكان خصوم هاشم يكثرون من السعاية فى حقه وإحفاظ المنذر عليه ، وتحذيره من أطماعه . فلما توفى الأمير محمد ، رأى المنذر أن يستمر هاشم فى حجابته براً منه بذكرى أبيه ، وأملا فى تحسن الأمور ؛ ولكن الظاهر أن الحاجب استمر فى طغيانه ، ولم يكترث للقوى المتألبة عليه ، وأذكت مساعى خصومه فى نفس المنذر

نوجسه القديم منه ، وسخطه عليه ، فلم يمض سوى قليل حتى اعتزم المنذر أمره ، وأمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه ، ثم دس عليه فى سجنه من قتله ، وهدم داره ، واستصفى أمواله ، وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ٢٧٣ هـ ، أعنى لشهرين فقط من ولايته . وكانت ضربة جريئة تنبىء عن قسوته وصرامته . واستمر أولاد الحاجب القتيل فى السجن ، حتى أطلقوا بعد وفاة المنذر أيام أخيه الأمير عبد الله ، وردت إليهم أموالهم[1] . وفى تلك المحنة يقول هاشم بن عبد العزيز من شعر نظمه فى سجنه :

سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يك أمسى شامتاً بى فإنه سينهل فى كأسى وشيكاً ويشرب

وندب المنذر لحجابته مكان الحاجب المقتول ، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ، وقد لبث بنو شهيد حسبما رأينا عصراً يستأثرون بمناصب الحجابة والكتابة .

وسير المنذر بعد ذلك بقليل حملة إلى طليطلة . وكانت قد عادت إلى الثورة ، واجتمع إلى أهلها كثير من البربر المنفيين من مدينة ترجيله أو ترجاله[2] ، الواقعة جنوبى غربى طلبيرة ، فهزم الثوار وقتل منهم ألوف[3] . وفى نفس هذا العام أيضاً ، غزا محمد بن لب زعيم الثغر الأعلى السابق ، ألبة والقلاع ، وقاتل النصارى وهزمهم ، وكان قد نزل عن سرقسطة حسبما تقدم وعاد إلى سابق ولائه[4] .

على أن أعظم ما كان يشغل المنذر ، هو القضاء على ابن حفصون عماد الثورة ومثير ضرامها فى الجنوب . وكان ابن حفصون مذ بلغته وفاة الأمير محمد ورحل عنه المنذر ، قد اشتد بأسه وقويت نفسه ، وأخذ يعمل لإخضاع القواعد والحصون الجنوبية كلها ، فبسط سلطانه على كورة ريه بأسرها ، وامتد سلطانه إلى أرشدونة ومالقة وجيان وإستجة وغيرها . واجتمع إليه المغامرون والخوارج من سائر أقطار الأندلس ، وأخذ يطمح إلى الاستيلاء على الأندلس كلها ، وأظهر الدعوة لبنى العباس ، وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية (تونس) فى ذلك ، ولكن ابن الأغلب

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ و ١١٩ .

(٢) وهى بالإسبانية Trujillo .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ .

لم يستجب إلى دعوته(١). ولم يكن ابن حفصون ثائراً عادياً يعتمد فقط على أساليب العنف، ولكنه كان صاحب دعوة سياسية يدعو الكافة إلى اعتناقها. وقد كان ابن حفصون حسبما قدمنا مولداً، يمثل فى ثورته، كل ما يجيش به المولدون نحو العرب الفاتحين ونحو حكومة قرطبة من الحفيظة والبغض. وقد أشرنا من قبل فى حديثنا عن عناصر الأمة الأندلسية، إلى أولئك المولدين — وهم الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح — وبينا كيف كانوا يؤلفون عنصراً من أهم عناصرها، من حيث الكثرة والمستوى الإجتماعى، وقد كانوا بالرغم من اندماجهم فى المجتمع الإسلامى يحتفظون دائماً بنزعة إستقلالية واضحة، ويبغضون العرب والبربر معاً، وقد ظهرت هذه النزعة الاستقلالية بالأخص فى الثغر الأعلى، حيث لبث بنو موسى، وبنو عمروس، وبنو الطويل، وهم جميعاً من الأسر المولدة القوية، عصراً يتحدون السلطة المركزية ويقاومونها. وكانت ثورة ابن حفصون زعيم المولدين فى الجنوب، هى المرحلة الثانية لتلك النزعة الثورية التى رفع المولدون لواءها ضد حكومة قرطبة. وهكذا كان ابن حفصون يدعو المولدين ومن إليهم من عشاق الخروج والفوضى، إلى تأييد قضية الإستقلال والحرية، ويذكرهم بما ينالهم من عسف السلطان، وانتزاعه لأموالهم، وتكليفهم فوق طاقتهم، وكيف أذلتهم العرب واستعبدتهم، وقضت على حرياتهم واستقلالهم؛ وأنه إنما ينهض ليأخذ بثأرهم، ويرفع عنهم نير الطغيان والعبودية. وناهيك بما كانت تبثه هذه الدعوة المثيرة، فى نفوس سكان هذه المناطق الجبلية من الحماسة والتعلق بقضية الحرية، وهى لا تعنى فى نظرهم سوى التفانى فى مقاتلة حكومة قرطبة. وهكذا كانت الجموع الغفيرة تحتشد حول ابن حفصون ودعوته، ويشتد نفوذه ويمتد سلطانه بسرعة؛ وبالرغم من أن حكومته كانت تقوم على الخروج والثورة، وكان معظم صحبه من أهل البغى والشر، فقد كان الأمن يسود المناطق التى يسيطر عليها؛ وكان صارماً فى أحكامه وعقوباته، شديداً على كل مخالف ومستهتر، وكان فوق ذلك كله متودداً لأصحابه، متواضعاً يكرم الشجعان ويثيبهم، فكانت هذه العوامل كلها مما يقوى نفوذه ويوطد سلطانه(٢).

(١) ابن حيان فى المقتبس (القسم المطبوع) ص ٩٣

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨.

وبلغ ابن حفصون فى زحفه إلى المنطقة الوسطى أحواز جيان ، وما يليها من الغرب ، واستولى على باغة « بريجو »[1] وأسر حاكمها ، واستولى على قبرة ، الواقعتين فى جنوبى غربى جيان ، وعلى حصن أشرس الواقع فى شمال كورة ريه . وسير المنذر بعض قواته إلى تلك الأنحاء ، فاستردت حصن أشرس وبعض القرى المجاور لقبرة . وفى ربيع العام التالى (٢٧٤ هـ — ٨٨٧ م) خرج المنذر بنفسه فى قواته معتزماً أن يسحق الثائر ، وأن يقضى على الثورة فى الجنوب ، وزحف تواً على كورة ريه ، وحاصر أرشدونة الواقعة فى جنوب غربى لوشة حتى سلمت ، وقبض على عيشون حاكمها من قبل الثائر وعلى صحبه ؛ وافتتح حصون جبل باغة (بريجو) وأسر بها بنى مطروح حلفاء الثائر ، وهم حرب وعون وطالوت ، وبعث بهم جميعاً إلى قرطبة حيث قتلوا صلباً ، وصلب مع عيشون خنزير وكلب ، إمعاناً فى التمثيل به . وكان ابن حفصون أثناء ذلك ممتنعاً بقلاعه فى ببشتر ، فطوقه المنذر بقواته وشدد فى حصاره ، وقطع كل علائقه مع الخارج . فلما ضاق الثائر ذرعاً بالحصار وشعر بنفاد أقواته ، لجأ إلى الخديعة وعرض التسليم والخضوع ، وطلب الصلح الأمان ، على أن يسير بأهله وولده إلى قرطبة ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وعقد له الأمان ، وأمده بالثياب والدواب والمؤن ؛ وطلب الثائر من الأمير مائة بغل لتحمل أهله ومتاعه فزوده بها ، وبعث بها ابن حفصون إلى قلاعه ، ورفع المنذر الحصار عن ببشتر ، وقفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن ابن حفصون فر من الجيش تحت جنح الظلام ، وعاد إلى ببشتر وامتنع بها ، بعد أن قويت نفسه بما حصل من الأمداد . فاستشاط المنذر حنقاً لتلك الخيانة المثيرة ، وارتد راجعاً بجنده إلى ببشتر ، وضرب حولها الحصار مرة أخرى ، معتزماً ألا يبرحها حتى يقبض على الثائر حياً أو ميتاً ، واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوماً . ومرض المنذر أثناء ذلك ، واستقدم أخاه عبد الله من قرطبة لينوب عنه فى متابعة الحصار ، ولم يأت منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) حتى قضى المنذر نحبه تحت أسوار ببشتر ، بعد حكم لم يطل سوى عامين . وفى بعض الروايات أن المنذر توفى قتيلا بتدبير أخيه عبدالله ، وأن عبد الله رغبة منه فى التخلص من أخيه واعتلاء العرش مكانه ، حرض طبيبه (حجامه) على قتله ، ففصده الطبيب بمبضع مسموم

---

(١) وهى بالإسبانية **Priego** .

أثناء حصاره لببشتر ، فتوفى من أثر السم . ويؤيد هذه الرواية من مؤرخى الأندلس، ابن القوطية وابن حزم، ويرى ابن حزم بنوع خاص أنها رواية معقولة يؤيدها خلق عبد الله وسياسته الدموية . ذلك أنه قتل فيما بعد اثنين من أبنائه ، وهما محمد والد الناصر والمطرِّف، ثم قتل أخوين له وهما هشام والقاسم ، فليس غريباً أن يكون هو مدبر جريمة يرتفع بها إلى العرش(١) .

وعلى أثر وفاة المنذر، رفع الحصار عن بُبَشتر للمرة الثانية ، وقفل الجيش راجعاً إلى قرطبة ، وأنقذ ابن حفصون من خطر محقق ، وعاد ينظم شئونه ، ويوطد سلطانه فى الأنحاء الجنوبية .

وكان المنذر أميراً وافر العزم والحزم ، ذا شجاعة وبأس ، وكان خلال الفتنة التى ثار ضرامها فى أيام أبيه ، معقد آمال الحكومة والجيش ، وكان زعماء الفتنة يهابونه ويخشون جانبه ، لما عرف من حدته وصرامته ، وكان موته تحت أسوار ببشتر ضربة مؤلمة لحكومة قرطبة . ولو امتد به الأجل قليلا لاستطاع أن يقضى على ابن حفصون وأضرابه من زعماء الفتنة ، ولأمنت الأندلس شر تفاقمها بعد ذلك . وكان المنذر فوق ذلك يعشق مجالس الشعر والأدب ، ينشده الشعراء قصائدهم ويجزل لهم العطاء . وكان من شعراء دولته ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد والعكى وغيرهما(٢) .

وكان المنذر أسمر طويلا ، جعد الشعر ، كث اللحية ، بوجهه أثر جدرى(٣) .

---

(١) ابن القوطية فى افتتاح الأندلس ص ١٠٢ ، وابن حزم نقلا عن ابن حيان فى رسالة « نقط العروس » ص ٧٨و٧٩. وينقل صاحب البيان المغرب أقوال ابن حزم ج ٢ص ١٠٦و١٦١.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٣ ص ١٤٠ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ ؛ والبيان لمغرب ج ٢ ص ١١٦ .

الفصل الثالث

ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

١ – ثورة المولدين والعـــرب

عبد الله يلى العرش فى ظروف صعبة . استفحال الثورة وامتدادها إلى زعماء العرب والبربر . ابن حفصون يحاول التفاهم مع الأمير . نكثه ومسير عبد الله إلى قتاله . الثورة فى جيان . عيث ابن حفصون واشتداد غاراته . مسير عبد الله إلى قتاله . موقعة بلاى . هزيمة ابن حفصون وفراره . أهمية موقعة بلاى وأثرها الحاسم . أقوال الشعر فيها . ثورة القبائل العربية بعد المولدين . الثورة فى كورة ريه واستفحالها . سوار بن حمدون القيسى . استيلاؤه على إلبيرة وغرناطة . مصرعه . قيام سعيد بن جودى مكانه . الحرب بين العرب والمولدين . تفاهم سعيد مع الأمير . مصرعه وشاعريته . محمد بن أضحى . تفاقم الثورة بين القبائل العربية . الثورة فى جيان وتدمير . امتداد الفتنة إلى إشبيلية . بنو عبدة وبنو حجاج وبنو خلدون . رياسة بنى عبدة . ثورة كريب بن خلدون وعيثه فى أحواز إشبيلية . ثورة بنى حجاج . مصرع أمية والى إشبيلية . الإضطراب والفوضى . مسير المطرف بن عبد الله إلى إشبيلية وهزيمته للثوار . حكم إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون للمدينة . مصرع كريب وانفراد إبراهيم بالحكم . خروجه على الأمير وعوده إلى الطاعة . دولة بنى حجاج فى إشبيلية وقرمونة . وفاة إبراهيم وخلاله .

خلف المنذر على العرش ، أخوه عبد الله بن محمد ، وبويع فى نفس اليوم الذى توفى فيه أخوه ، فى محلة الجيش تحت أسوار بُبشتر ، فى منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) . وكان مولده بقرطبة فى نفس العام الذى ولد فيه أخوه المنذر ، أعنى فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤) وأمه أم ولد تدعى بهار ، وكان حينما تولى الملك فى السادسة والأربعين من عمره .

وعلى أثر البيعة ارتد عبد الله مع جيشه عائداً إلى قرطبة ، ومعه جثمان أخيه المنذر ، فدفن بمقبرة القصر ، واستتم عبد الله البيعة دون أن يعارضه أحد من أخوته العديدين .

وبدأ عبد الله حكمه الطويل المضنى فى ظروف قاتمة ، والخلاف يمزق أوصال المملكة ، وعرش بنى أمية يهتز تحت ضربات الخوارج والمتغلبين . ويصف لنا ابن الأثير عهد الأمير عبد الله فى هذه العبارة الجامعة : « وفى أيامه امتلات الأندلس

بالفن ، وصار فى كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته » (١).

والحقيقة أن الثورة كانت قد استفحلت ، واندلع لهيبها فى كل ناحية ، ولم تبق قاصرة على المناطق الجبلية ، بل تجاوزتها إلى القواعد والمدن الكبيرة ، مثل إشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ؛ ولم تبق كذلك قاصرة على زعماء المولدين الذين تحدوهم نحو حكومة قرطبة عاطفة بغض طبيعى ، ولكنها امتدت إلى زعماء القبائل العربية أنفسهم ، إذ رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم ، وتدعيم سلطانهم ؛ وظهر البربر فى الوقت نفسه فى الميدان ، فاستعصم كثير من زعمائهم بالحصون النائية ، ونشبت المعارك العنصرية القديمة بين العرب والمولدين حيثما التقت حشودهم ، كما حدث فى كورة ريُّه وإشبيلية ؛ ونشبت مثل هذه الخصومات بين العرب والبربر ، وفيما بين العرب أنفسهم ، واستقل زعماء العرب بإلبيرة وجيان ومنتيشة ولورقة ومدينة سالم ، واستقل زعماء المولدين بالثغر الأعلى وبطليوس وباجة وجيان ومرسية ، وغدت إشبيلية مسرحاً للتنافس الدموى بين العرب والبربر ، وبسط ابن حفصون سلطانه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية فيما بين البحر ووادى شنّيل ؛ وهكذ عمت الثورة معظم جنبات الأندلس ، ولم يبق لحكومة قرطبة سلطان حقيقى إلا فى منطقة العاصمة وأحوازها .

— ١ —

كان عبد الله يواجه هذه الخطوب كلها . وكان يرى إخماد الفتنة مسألة حياة أو موت بالنسبة لسلطان العرش ، وكانت هذه مهمته الشاقة التى كرس لها كل جهوده . وكان يرى أن الثورة فى الجنوب هى أخطر ما يواجه العرش ، وأن ابن حفصون قد غدا قوة يخشى بأسها ، وأنه يجب أن تكرس الجهود لتحطيم ثورته وسحق قواه . وكان ابن حفصون يشعر من جانبه ، بأنه يواجه قوة العرش كلها ، ومن ثم فقد حاول عقب ارتقاء الأمير عبد الله أن يحصل على هدنة يستطيع خلالها أن ينظم شئونه ويوطد سلطانه ؛ فبعث إلى قرطبة ابنه حفصاً مع جماعة من أصحابه ليعقدوا السلم باسمه مع عبد الله ، على أن يستقر فى منطقة ببشتر فى طاعة الأمير ، فاستجاب عبد الله إلى طلبه ، ورد ابنه وصحبه رداً جميلا وأجزل لهم الصلات ، وبعث معهم عبد الوهاب بن عبد الرؤوف والياً من قبله على كورة ريُّه ليكون مع

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ .

ابن حفصون شريكاً فى حكمها ، ولكن لم تمض بضعة أشهر ، حتى نكث ابن حفصون العهد وطرد عامل الأمير ، وأغار على البلاد المجاورة ، واستولى على أرشدونة ، وعاث فساداً فى تلك المنطقة ، فسار إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) واجتاح منطقة ببشتر ونحوها ، ولكنه لم ينل من الثائر مأرباً ؛ ولما ارتد إلى قرطبة خرج ابن حفصون فى أثره ، وتوغل حتى إستجة واستولى عليها ، فبعث إليه عبد الله الجند فردته عنها .

ولبثت الثورة على اضطرامها فى الجنوب . وخرج خير بن شاكر فى جيّان ، وطرد منها عامل الأمير واستولى عليها ، فسارت إليه جند الأندلس بقيادة أحمد ابن محمد بن أبى عبدة ، وحاصرته وقتلت كثيراً من أصحابه ، وخربت معظم دور جيان ، ثم عادت دون إخضاعه . وهنا بعث ابن حفصون جماعة من أصحابه إلى جيان بحجة معاونة ابن شاكر ، ولكنهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون ، فبعث بها إلى الأمير عبدالله سعياً إلى مصانعته ومطاولته[1]. ولكن الأمير لم يخدع بسعيه . وسار ابن حفصون إلى جيان فعاث فيها وانتهب أموالها ، وأذل أهلها ، وساد الذعر والفوضى فى تلك الأنحاء .

ودفع ابن حفصون غاراته شمالا حتى أحواز قرطبة ، وبلغ من جرأته أن حاول إحراق مخيم الأمير فى ضاحية شَقُندة على مقربة من العاصمة . فعندئذ عول الأمير عبدالله على أن يخرج لقتاله مرة أخرى ، فحشد ما استطاع من قواته ، واتجه نحو الجنوب إلى ناحية قبرة Cabra حيث حشد الثائر قواته فى معقل بلاى أو « بَلِّيّ » (بولى)[2] ، وكان حصن بلاى من أمنع حصون قبرة الواقعة على مقربة من جنوب شرقى قرطبة . وقد افتن ابن حفصون فى تقويته وتحصينه ، وجعله مركزاً للسيطرة على كورة قبرة كلها ، والإغارة على المدن والحصون القريبة من قرطبة ، وتهديد أطراف العاصمة ذاتها . وكانت قوات الثور تبلغ زهاء ثلاثين ألفاً ، ولا تعدو قوات الأندلس ثمانية عشر ألفاً ، بل أربعة عشر ألفاً على قول

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ٩٢ و٩٣ .

(٢) هى بالإسبانية **Poley** أو **Polei** ، وما يزال موقعها قائماً معروفاً إلى اليوم تحتله قرية أجيلار **Aguilar** الحديثة الواقعة جنوبى قرطبة .

ابن حيان[١]. ووقع اللقاء بين الفريقين على ضفاف نهر الفوشكة أحد فروع نهر الوادى الكبير[٢] على قيد مسافة قصيرة من بلاى ، فى الثانى من صفر سنة ٢٧٨ هـ (١٦ مايو سنة ٨٩١ م) . وقاد جند الأندلس القائد عبيد الله بن محمد ابن أبى عبدة . وتولى ابن حفصون قيادة جنده بنفسه . ونجح فرسان الأندلس فى هزيمة الجناح الأيمن للثوار وتمزيقه ، فدب الذعر إلى باقى القوات الثائرة ، وركنت إلى الفرار ، وهرعت الخيل فى آثارهم فقتلت كثيراً منهم ، وفر ابن حفصون فى بعض قواته إلى حصن بلاى معولا على الامتناع به ، ولكن هجره معظم جنده ، مؤثرين الفرار على حصار غير مأمون العاقبة ؛ فلما رأى ابن حفصون عبث المقاومة ارتد فى نفر من صحبه إلى شعب الجبال الجنوبية ، بعد أن فقد معظم قواته ، وقتل من الثوار أثناء الموقعة وخلال المطاردة ألوف عدة ، واحتل عبدالله حصن بلاى وقتل من جنده زهاء ألف ، واستولت جند الأمير على محتوياته . وكانت موقعة بلاى موقعة فاصلة فى معنى من المعانى ، وفيها أصيب ابن حفصون بضربة أليمة لم يصب بمثلها من قبل . ولم ير الأمير مطاردة الثائر جنوباً ، ولكنه آثر أن يزحف غرباً إلى إستجة التى كانت تدين بطاعته ، فحاصرها أياماً حتى سلمت والتمس أهلها العفو والأمان[٣] .

وسار الأمير بعد ذلك فى أثر ابن حفصون إلى ببشتر قاعدته الرئيسية ، وكان الثائر قد التجأ إليها عقب الهزيمة ، واجتمع إليه كثير من أنصاره من أهل الجزيرة . وعاث الأمير فى تلك المنطقة ، ولم يخرج ابن حفصون إلى لقائه ، ولكنه حينما ارتد جيش الأندلس أدراجه ، حاول مطاردته ، واشتبك مع مؤخرته فى معركة هزم فيها ورد على أعقابه (ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ) . وعلى أثر هذه الغزوة الموفقة ،

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ١٠٤ . ويقول ابن عبد ربه وهو معاصر للمعركة ، وربما شهدها بنفسه مع الأمير ، إن قوات الأندلس كانت ثمانية عشر ألفاً منهم أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة وأربعة آلاف من حشم الأمير ومواليه (راجع العقد الفريد ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ٤ ص ٤٩٨) .

(٢) ويسمى بالإسبانية **Las Carchenas** (لاساس كارشيناس) .

(٣) يورد لنا ابن حيان رواية ضافية وتفاصيل كثيرة عن موقعة بلاى (المقتبس ص ٩٤–١٠٥). وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ و١٢٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ . ويضع دوزى تاريخ الموقعة فى ١٥ إبريل سنة ٨٩١ م . ولكن إبريل يوافق شهر المحرم سنة ٢٧٨ هـ . وقد حدثت الموقعة فى بداية صفر . راجع : **Dozy : Hist.; V.II. p. 68-73** .

اختار الأمير عبد الله قائده البطل عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة للوزارة ، إثابة له وتكريماً ، وعرفاناً لما أسداه إلى العرش وإلى الدولة ببراعته وبطولته[١] :

وقد أشاد الشعراء بذكر موقعة بلاى وإستجة ، وما أحرزه الأمير فيها من النصر الباهر ، فمن ذلك قصيدة طويلة لابن عبد ربه يقول فيها :

نجا مستكناً تحت جنح من الدجى ... وليس يودى شكرنا أنعم الجنح
يودون أن الصبح ليـل عليهم ... ونحن نود الليل لو أنه صبح
أقادح نار كان طعم وقـودها ... بعينك فانظر ما أضاء لك القدح
محا السيف ما زخرفت أول وهلة ... ودونك فانظر بعد ذلك ما يمح
فكم شارب منكم صحى بعد سكرة ... وما كان لولا السيف من سكره يصحو
كأن « بلايا » والخنازير حولها ... مقطعـة الأوصال أنيابها كلح
ديار الذين كذبوا رسل ربهم ... فلاقوا عذاباً كان موعده الصبح
فيا وقعة أنست وقيعة راهـط ... ويا عزمة من دونها البطن والنطح
ويا ليلة أبقت لنـا العز دهرنا ... وذلا على الأعداء صل به الترح
بدولة عبد الله ذى العـز والتقى ... يخبر فى أدنى مقاماته المـدح[٢]

ولابن عبد ربه قصيدة أخرى يهنئ فيها الأمير بفتح بلاى هذا مطلعها :

الحق أبلج واضح المنهـاج ... والبـدر يشرق فى الظلام الدّاج
والسيف يعدل ميل كل مخالف ... عميت بصـيرته عن المنهـاج

ومنهـا :

لما حفلن إلى « بلاى » عشـية ... أقوت معـاهدها من الأعـلاج
فكأنما جاشت خـلال ديارهم ... أسد العرين خلت بسرب نعاج
ونحى ابن حفصون ومن يكن الردى ... والسيف طالبه فليس بنـاج
فى ليـلة أسرت به فكأنمـا ... خيلت لـديه ليـلة المعـراج
هذى الفتوحات التى أذكت لنا ... فى ظلمة الآفاق نور سـراج

---

(١) راجع المقتبس ص ١٠٠ .

(٢) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المقتبس ص ٩٧ — ٩٩ .

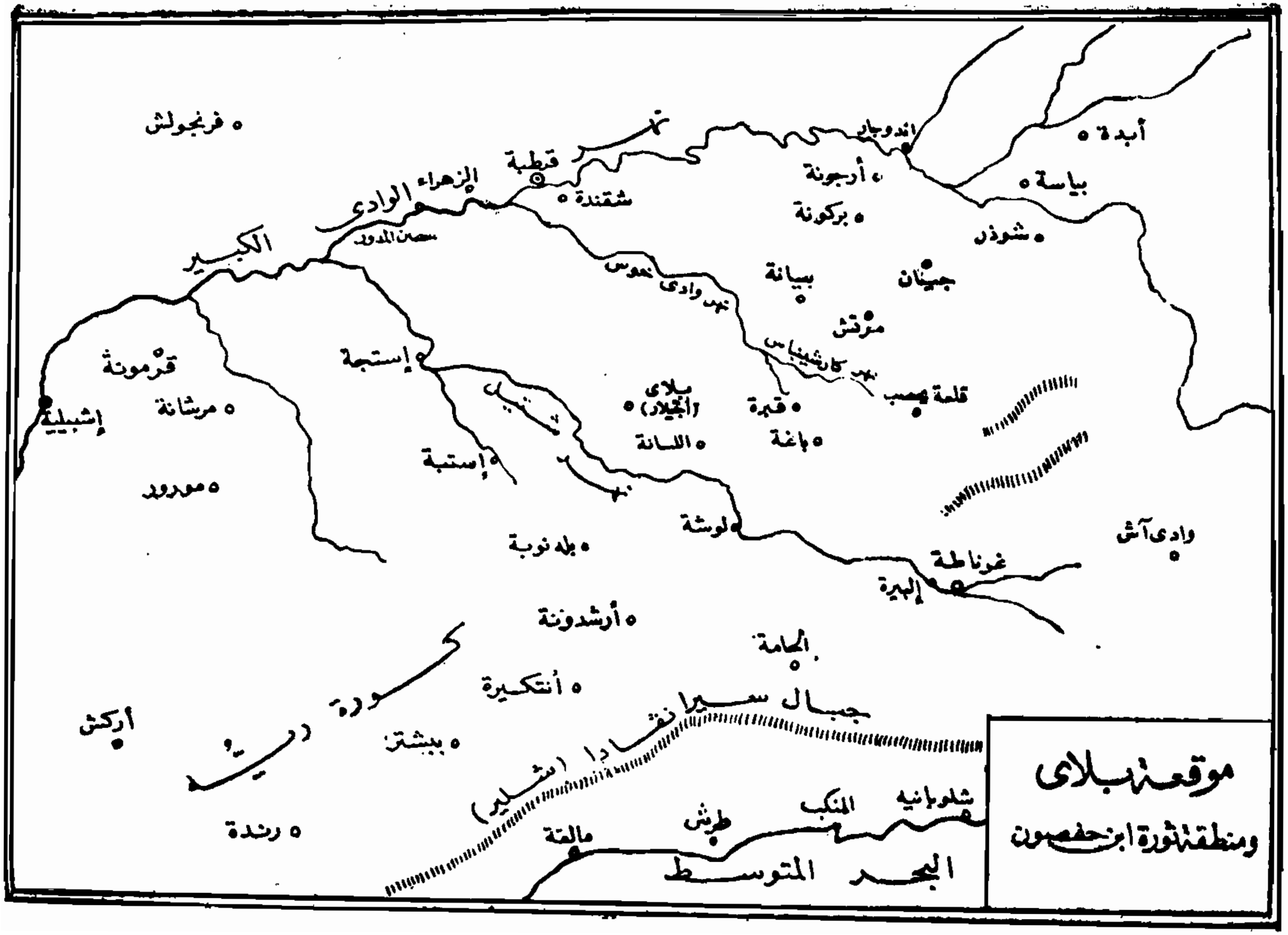

موقعة بلاى
ومنطقة ثورة ابن حفصون
فرنجولش
نهر الوادي الكبير
قرطبة
الزهراء
شقندة
حصن المدور
أندوجار
أرجونة
بركونة
أبدة
بياسة
شوذر
جيان
بيانة
مرتش
نهر وادي عجوس
نهر كارشينياس
قلعة يحصب
قبرة
باغة
بلاى (الجيلار)
اللسانة
إستجة
قرمونة
إشبيلية
مرشانة
موررور
إستبة
نهر شنيل
لوشة
بلد نوبة
غرناطة
إلبيرة
وادي آش
أرشدونة
الحامة
أنتكيرة
كورة رية
أركش
ببشتر
جبال سيرانفادا (شلير)
رندة
شلوبانية
المنكب
طرش
مالقة
البحر المتوسط

- ٢ -

وهنا نقف قليلا فى تتبع ثورة المولدين وزعيمهم ابن حفصون ، لنعطف على أخبار الثورات التى قام بها الزعماء العرب فى الوقت نفسه ، فى مختلف القواعد والثغور .

كانت المناطق الجنوبية فى الوقت التى تجيش فيه بثورة المولدين فى الغرب ، تجيش فى الشرق بثورة أخرى عمادها القبائل العربية . وكانت سياسة اصطفاء الموالى التى جرى عليها بنو أمية فى الأندلس منذ بداية أمرهم ، قد أخذت تحدث أثرها فى نفوس القبائل العربية ، وأضحت هذه القبائل ترى فى سياسة حكومة قرطبة نوعاً من الطغيان والمهانه . ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين فى الثغر الأعلى وفى المناطق الجنوبية ، ألفت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها ، والانتصاف لعصبيتها وكرامتها . وكانت كورة إلبيرة مركز نشاطهم فى الجنوب ؛ ففى سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٩) ثار فى ناحية البراجلة من كورة إلبيرة يحيى بن صقالة القيسى ، وكان ذا وجاهة ومال ، والتفت حوله البيوتات العربية ، واشتد فى مطاردة المولدين والنصارى[١]، فثاروا به ولم يلبث أن قتل فى بعض المواقع التى نشبت بينه وبينهم ؛ فتصدر لزعامة العرب عندئذ سوّار بن حمدون القيسى ؛ وكان سوار زعيما مجرباً . وافر الشجاعة والبأس ، فهرعت العرب إلى لوائه ، وأغار على حصون المولدين والنصارى فى تلك المنطقة ، فانتزع معظمها ، وامتدت رياسته حتى قلعة رباح ، وجعل مركزه فى حصن منت شقند[٢] على مقربة من إلبيرة ثم زحف على إلبيرة وفيها جعد بن عبد الغافر واليها من قبل الأمير ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، فهزم جعد وأسر ، وقتل كثير من أصحابه (٢٧٦ هـ) ، وتعرف هذه الموقعة بواقعة المدينة[٣]. ثم أطلق سوار جعدا فتحالف مع ابن حفصون على قتاله . وقوى أمر سوار واشتد ساعده وكثر أنصاره ، فسار إلى غرناطة واستولى عليها واتخذها قاعدة له ، ونشبت بينـــه وبين المولدين وزعيمهم ابن حفصون عدة معارك ، هزم فيها ابن حفصون وقتل بعض قواده . وكان سوار

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ٥٥ .

(٢) ويسميها ابن حيان منت شاقر (المقتبس ص ٥٥).

(٣) المقتبس ص ٥٥ و ٥٧ .

فوق فروسيته شاعراً جزلا فصيحاً يأسر الجموع بذلاقته . ولكن رياسته لم تطل سوى نحو عام ، إذ قتل فى كمين دبره له خصمه القديم جعد والى إلبيرة ، وحفص بن المرة قائد ابن حفصون . فقد خرج سوار ذات يوم من غرناطة إلى بعض غاراته فى نفر قليل من أصحابه ، وكان حفص قد رتب قواته فى أماكن مستورة على مقربة من المدينة ، فانقضت على سوار وفتكت به وبأصحابه ومثل بجثته . فخلفه فى رياسة العرب سعيد بن سليمان بن جودى السعدى زعيم قبيلة هوازن ، وكان مثل صديقه سوار بطلا شجاعاً وفارساً مجرباً ، وشاعراً أديباً ، وخطيباً مفوها ، قد تفقه مع فروسيته فى فنون العلم والأدب(١)، فالتفت حوله القبائل ، واشتدت وطأته على المولدين وزعيمهم ابن حفصون وهزمه مراراً ، وأسره ابن حفصون فى بعض الوقائع ثم أطلقه لقاء فدية كبيرة . ولما رأى الأمير عبد الله غلبة العرب على كورة إلبيرة ، أقر سعيداً على ولايتها فحكمها باسم الأمير ، واستمرت زعامته بضعة أعوام حتى قتل غيلة فى دار عشيقته اليهودية ، وذلك فى أواخر سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) ، ويقال إنه قتل بتدبير الأمير عبد الله ، وكان من أهم أسباب قتله أبيات من الشعر قالها فى ذم بنى أمية جاء فيها :

يا بنى مروان جدوا فى الهرب ... نجم الثائر من وادى القصب
يا بنى مروان خلوا ملكنــا ... إنمــا الملك لأبناء العرب

ولسعيد بن جودى شعر كثير ، وقد أورد لنا ابن الأبار بعض قصائده ، وهى تنم عن مقدرته وقوة شاعريته(٢) .

ولما قتل سعيد بن جودى ، قام بأمر العرب من بعده فى كورة إلبيرة ، محمد ابن أضحى الهمذانى صاحب حصن الحامّة (الحمة) ، وأقره الأمير عبد الله على رياسته ، ونشبت بينه وبين ابن حفصون وقائع عديدة كانت سجالا بينهما ؛ ولبث سعيد على رياسته لتلك المنطقة ، حتى قضى عليها الناصر فى بداية عهده ، واستولى على الحامة وغيرها من النواحى الثائرة فى تلك المنطقة(٣) .

---

(١) المقتبس ص ٦٠ و ٦١ .

(٢) راجع فى أخبار سوار بن حمدون وسعيد بن جودى ، ابن الأبار فى « الحلة السيراء » (ليدن) ص ٨٠ – ٨٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤١ ، والمقتبس ص ٢٩ و ٣٠ .

(٣) الحلة السيراء ص ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ .

واتسع نطاق الثورة بين القبائل والبطون العربية والمولدين ، فخرج فى مدينة ابن السليم (شذونة)[1] منذر بن ابراهيم ، واستقل برياستها إلى أن قتله بعض أتباعه ؛ وخرج آخرون من الزعماء فى كورة جيان ، وكان أشدهم مراساً عبيد الله ابن أمية بن الشالية ، وهو من زعماء المولدين . وقد خرج فى منطقة جبل شمتان وما يليها ، وامتد سلطانه حتى حصن قسطلونة[2] ، وقوى أمره وأنشأ له بلاطاً وجيشاً ، وحالف ابن حفصون وصاهره بأن زوج ابنته من جعفر ولد ابن حفصون . واستمر ابن الشالية ممتنعاً بمعاقله ، طوال أيام الأمير عبد الله ، ولم تنته ثورته إلا فى أوائل عهد الناصر حيث عاد إلى الطاعة ، وعينه الناصر والياً لمنطقة شمتان . وثار سعيد بن مستنه فى باغة ، وقوى أمره ، فسار إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) عقب موقعة بلاى ، وغزا حصن كركبوليه ، الواقع بين قرطبة وجيان ، وهو معقله وأمنع حصونه ، واشتد فى حصاره حتى اضطر إلى التسليم ، وهدم الأمير جميع حصونه[3] . وثار بغربى الأندلس اثنان من زعماء المولدين أيضاً هما بكر بن يحيى بن بكر ، ثار بشنتمرية الغرب وحصنها واستقل بها ، وبسط سلطانه على ما حولها ، وتشبه بالأمراء ، فأنشأ له بلاطاً وحكومة ، وكان جواداً يأوى أبناء السبيل ويحفظ الطرق ، وفى أواخر عهد الأمير عبدالله عاد إلى الطاعة . وعبد الملك بن أبى الجواد ، وقد ثار فى باجة وميرتلة . وكان كلاهما من أتباع عبد الرحمن الجليقى وأنصاره . وثار فى لَبْلة عثمان بن عمرون وأخرج منها عامل الأمير ، وامتدت الفتنة إلى المنطقة كلها . وغلب إسحاق بن إبراهيم العقيلى المعروف بابن عطاف على حصن منتيشة من أعمال جيان وامتنع به ، مستظلا مع ذلك بطاعة الأمير . وفى شرقى الأندلس خرج ديسم بن إسحاق فى كورة تدمير وغلب على مدينتى مرسية ولورقة ، واستفحل أمره ، وكان أديباً يصل الأدباء والشعراء . وسير إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) حملة بقيادة عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم ، فاخترقت ولاية تدمير وعاثت فيها وهاجمت مرسية وأرغمتها على دفع الخراج ، ونشبت بينهم وبين قوات ديسم فى ظاهر لورَقة ،

---

(١) Medina Sidonia . وهذه تسمية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) .

(٢) جبل شمنتان هو بالإسبانية Somontin ، وهو يقع شمالى جيان بين مدينة ليناريس الحديثة ونهر الوادى الكبير ؛ وحصن قسطلونة هو بالإسبانية Castalona .

(٣) المقتبس ص ١٠٦ .

معركة هزم فيها الثوار ، بيد أنها لم تكن معركة حاسمة[١]. وقامت ثورات محلية أخرى فى بعض القواعد والحصون ، بيد أنها كانت على الأغلب ثورات قليلة الخطورة ، محدودة الأثر ، وكانت حكومة قرطبة تراها فى المحل الثانى ، ولم تكن ثورة القبائل العربية تصطبغ بتلك المرارة التى كانت تطبع ثورات المولدين والبربر . ولبث كثير من أولئك الزعماء الخوارج على رياستهم واستقلالهم حتى بداية عصر الناصر[٢] .

— ٣ —

وكانت إشبيلية ، أعظم القواعد الأندلسية بعد قرطبة ، فى أثناء ذلك ، مسرحاً لفتنة دموية استطال أمدها . وكان سكان إشبيلية مزيجاً من العرب والمولدين والنصارى ، وكانت منزل عدد كبير من البيوتات العربية العريقة التى تمتاز بالثراء والعصبية . وبالرغم مما كان يسود بين هذه العناصر فى معظم الأحيان من عوامل الجفاء والشقاق ، فقد استطاعت إشبيلية أن تحافظ على سكينتها وولائها مدى حين . فلما أخذت القبائل العربية فى ولاية الأمير عبد الله تجيش بعوامل الخروج والثورة ، هبت ريح الاضطراب على إشبيلية وسرت إليها عوامل الفتنة ، وظهر الزعماء المتطلعون إلى الرياسة على مسرح الحوادث . وكان بنو أبى عبدة ، وبنو حجاج ، وبنو خلدون ، يومئذ أعظم البيوتات العربية فى إشبيلية . فأما بنو أبى عبدة فكان منهم كثير من رجال الدولة والقادة ، وكان زعيمهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبى عبدة ، وكان من وجوه القوم المقربين لدى حكومة قرطبة . وأما بنو حجاج فإنهم يرجعون بنسبتهم إلى لخم ، ويتصلون فى الوقت نفسه من ناحية الأمومة بملوك القوط ، وذلك عن طريق سارة القوطية حفيدة وتيزا ملك القوط[٣] ، وكان زعيم بيتهم يومئذ عبد الله بن حجاج وأخوه إبراهيم . وأما بنو خلدون فإنهم ينتسبون إلى العرب اليمانية فى حضرموت ، وإليهم ينتسب المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، وكان زعيم بيتهم يومئذ كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد[٤] .

---

(١) المقتبس ص ١١٨ .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه الثورات ، المقتبس ص ٩ — ١١ و ١٦ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ — ١٤١ .

(٣) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٦٠ و ٦١ .

(٤) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٠ و ٣٨١ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٦ .

وكان هنالك إلى جانب هذه الأسر العربية الصميمة ، عدد من الأسر المولدة القوية الغنية . وكان التنافس بين العرب والمولدين فى النفوذ والرياسة ، من أهم أسباب الاضطراب فى المجتمع الأندلسى يومئذ .

وكانت الرياسة فى إشبيلية قديمة فى بيت أبى عبدة ، حيث كان جدهم أبو عبدة واليها من قبل عبد الرحمن الداخل ، وكان حفيده أمية بن عبد الغافر واليها فى الوقت الذى نتحدث عنه ؛ وكان الأمير عبد الله قد أرسل إلى جانب أمية ولده محمداً ، ليكون عضداً أدبياً له فى حكم المدينة . وفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) كان بنو خلدون أول من رفع لواء الثورة فى إشبيلية ، وخرج زعيمهم كريب بن عثمان ابن خلدون فى أنصاره وحلفائه من المولدين والبربر ، الذين رأوا أن يعملوا على إذكاء المعركة بين الأسر العربية ، وتحالف مع ابن مروان الجليقى الثائر ببطليوس . وعاث كريب وأصحابه فى أحواز إشبيلية وقطعوا السبل ، ولكنه لم ينل من المدينة مأرباً . ثم ثار المولدون ضد العرب اليمانية لمقتل واحد من كبرائهم ، وتحرك بنو حجاج فى نفس الوقت . وخشى أمية العاقبة فدس على زعيمهم عبد الله ابن حجاج من قتله ، فحل فى الحال مكانه أخوه إبراهيم ، وحمى وطيس الفتنة ، واشتد بنو حجاج وأنصارهم من العرب فى قتال أمية ، وقتل أمية فى النهاية مدافعاً عن نفسه . فأرسل الأمير عبد الله إلى إشبيليه حاكماً جديداً من قبله ، هو عمه هشام ابن عبد الرحمن ، ولكنه لم ينجح فى تهدئة المدينة الثائرة ، وقتل الثوار ولده ، وسادت الفوضى ، واضطرب حبل الأمن فى إشبيلية وما جاورها ؛ فعندئذ أرسل عبد الله ولده المطرِّف ، ومعه الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية على رأس حملة قوية إلى إشبيلية (٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م) . فلما أشرف المطرف على إشبيلية وثب بالقائد عبد الملك فقتله ، وندب للقيادة مكانه أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ، وأرسل إلى والده الأمير عبد الله محضراً يبرر فيه تصرفه ، ونشبت الموقعة بين المطرف وبين الثوار خارج المدينة ، فهزمهم وردهم إلى سور المدينة ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر إبراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون وغيرهما من زعماء الفتنة ، ولم يطلق سراحهم حتى أذعنت المدينة الثائرة لمطالبه ، وسلمت الخراج المطلوب ، وقدم زعماء الفتنة رهائن من الولد والأهل ، واتُّفق على أن يشترك

فى حكم المدينة إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفى طاعته[١] . وكان كريب طاغية شديد الوطأة فنفر منه الشعب . أما إبراهيم فكان رفيقاً دمث الخلق فكثر أنصاره ، ورجحت كفته ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يحصل من الأمير عبد الله سراً على عهد بولاية المدينة . ثم اعتزم أمره ودبر مقتل كريب ابن خلدون وأخيه خالد ، وانفرد بحكم إشبيلية (٢٨٢ هـ)[٢] ، وأقره عبد الله على ولاية إشبيلية وقرمونة . وسطع نجم بنى الحجاج وقوى أمرهم ، وطالب إبراهيم الأمير بالإفراج عن ولده عبد الرحمن ، المعتقل رهينة فى قرطبة ، فلما تباطأ الأمير فى إجابته خلع الطاعة وتحالف مع ابن حفصون[٣] ، وسار معه فى قواته لمقاتلة قوات الأندلس (٢٨٩ هـ) حسبما نفصل بعد . وقدر الأمير عبد الله خطورة هذا التحالف وتوجس من عواقبه ، وعاد فأجاب رغبة إبراهيم ، وأفرج عن ولده عبد الرحمن ورده إليه مكرماً (٢٨٩ هـ) ، فجنح إبرهيم إلى الطاعة مرة أخرى ، وارتضى أداء الجزية للأمير ، ونبذ حلف ابن حفصون ، وقنع الأمير من جانبه بهذا المظهر من الخضوع والطاعة ، واستقرت الأمور فى إشبيلية[٤] .

وأبدى إبراهيم بن حجاج فى إدارة ولايته همة وبراعة ، واتخذ سمة الملوك وأنشأ له بلاطاً ، وحرساً خاصاً قوامه خمسمائة فارس غير المشاة ، وحصن مدينة قرمونة ، وجعل بها مرابط خيله[٥] ، وفرض الضرائب وأصلح نظم الحكم والقضاء ، وعمل على توثيق أواصر المودة بينه وبين حكومة قرطبة . وكان يبعث بالأموال والهدايا إلى الأمير عبد الله ، ويمده بجنده فى بعض غزواته . وكان إبراهيم فوق ذلك رضى الخلق ، محبوباً من الشعب ، جواداً يقصده الشعراء وينشدونه مدائحهم

---

(١) يقول ابن خلدون إن كريباً انفرد أولا بحكم إشبيلية ، وسعى ابن حجاج إلى انتزاعها منه ، فتحالف مع ابن حفصون ، ثم جنح إلى مصانعة كريب فأشركه معه فى حكم المدينة (كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨١) . وراجع المقتبس ص ١١١ .

(٢) أو فى أوائل سنة ٢٨٦ هـ ، على رواية ابن حيان (المقتبس ص ٨٤) .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) المقتبس ص ١٣١ .

(٥) وما تزال مدينة قرمونة تحتفظ حتى اليوم ببعض الأبواب والأطلال الأندلسية القديمة التى تدل على حصانتها أيام المسلمين ، وما زالت بالأخص تحتفظ بباب « إشبيلية » الشهير كاملا بعقده العظيم وشرفته العربية الرائعة .

فيجزل صلاتهم ؛ وكان ممن مدحه شاعر العصر أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ومما قاله فى مدحه :

ألا أن إبراهيم لجـــة ســـاحل — من الجود أرست فوق لجة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهو بوجهه — وقرمونة الغـــراء ذات الفضائل
إذا ما تحلت تلك من نور وجهه — غدت هذه للناس فى زى عاطل

واستمر إبراهيم بن حجاج فى حكم إشبيلية وقرمونة ، حتى توفى سنة ٢٩٨ ﻫ (٩١٠ م)[١] فى سن الثالثة والستين ، فخلفه فى حكم إشبيلية ولده عبد الرحمن ، وفى حكم قرمونة ولده محمد حتى انتهت دولتهم فى بداية عهد الناصر[٢].

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٧ . ويضع ابن عذارى وفاته فى سنة ٢٨٨ ﻫ (البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٢) والرواية الأولى أرجح . وراجع أخبار ابن حجاج فى المقتبس ص ١١ – ١٤ .

(٢) راجع فى تفاصيل ثورة بنى حجاج ، ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٣٥ و ج ٧ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ – ١٣٥ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٦ و ٩٧ .

الفصل الرابع

ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

٢ – ذروه الفتنـــة الكبرى

عود إلى ثورة المولدين . ابن حفصون يعود إلى الميدان . عود الصوائف إلى غزوه . إستيلاؤه على إستجة . مسير أبان بن عبد الله لقتاله . المعارك فى الجزيرة الخضراء . تحالف ابن حفصون ومحمد ابن لب . ابن حفصون يعلن اعتناقه للنصرانية . تفرق أنصاره . التحالف بين ابن حجاج وابن حفصون . الحرب بين جند الأندلس وابن حفصون . هزيمة الثائر وانتهاء حلفه مع ابن حجا . توالى الحملات والصوائف لقتال ابن حفصون . استقلال ابن مروان ببطليوس . ثورة ابن تاكيت فى الثغر الأدنى . محاصرة جند قرطبة لماردة . الخلاف بين ابن مروان وابن تاكيت . وفاة ابن مروان واستمرار بنيه فى حكم بطليوس . بنو ذو النون فى طليطلة . استيلاء بنى قسى عليها وحكمهم لها . سقوطها فى يد ابن الطربيشة . بنو ذو النون فى شرق طليطلة . استيلاء ابن يحيى الأنقر على سرقسطة . بنو قسى فى تطيلة وطرسونة . غزوات لب فى ليون وناڤار . وفاة لب وولاية أخيه عبد الله . ظهور محمد بن عبد الله الطويل فى الثغر الأعلى . القتال بينه وبين بنى قسى . أفول نجم بنى قسى . غزوات الطويل فى أراضى النصارى . مصرعه وذهاب دولته . الأمير عبد الله ومقارعته للثورة . انتهاز ملك ليون لمشاغل حكومة قرطبة . استيلاؤه على سمورة . ظهور ابن القط فى أحواز طليطلة . زعمه بأن هو المهدى . القتال بينه وبين ملك ليون . مصرع ابن القط وتفرق شمله . تفاهم ملك ليون مع الثوار . افتتاح الجزائر الشرقية . وفاة الأمير عبد الله . خلاله وصفاته . صرامته وعدله وتقشفه . حجابه وقواده . اصطفاؤه للموالى . أولاده . مأساة ولديه محمد والمطرف . اغتيال المطرف لأخيه محمد . حكم عبدالله بإعدام المطرف . بطشه بأخوته . أقوال ابن حزم فى صرامته وسفكه للدماء . صفة الأمير عبدالله وخلاله . أدبه وشاعريته . اصطفاؤه للعلماء والشعراء . شعراء العصر وأدباؤه وفقهاؤه .

لم تشغل ثورة القبائل العربية فى إشبيلية وباجة وإلبيرة وتدمير وغيرها، حكومة قرطبة عن متابعة الجهاد لإخماد ثورة المولدين . وقد كانت ثورة المولدين فى الواقع أخطر وأشد رسوخاً ، وأبعد أثراً . وقد استطاع زعيم ثورة المولدين فى الجنوب عمر بن حفصون ، أن يستغرق معظم جهود حكومة قرطبة منذ أواخر عهد الأمير محمد ، ولكن هزيمة الزعيم الثائر فى موقعة بلاى (بولى) سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) وما ترتب عليها من تضعضع قواته ، فلت من عزيمته ووضعت حداً موقتاً لطغيانه . بيد أن حكومة قرطبة لم تركن إلى هذه الهدنة الموقتة ، فقد كانت تعرف

ابن حفصون وتعرف مبلغ خطره ، ومقدرته على العدوان والبغى ، وكان ابن حفصون من جانبه ، يعمل جاهداً لتنظيم قواه واستكمال أهبته ، لاستئناف صراعه المرير مرة أخرى .

ومن ثم فإنه لم يمض عامان على موقعة بلاى ، حتى عادت الصوائف تتردد لغزو ابن حفصون ومطاردته . فنى سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) سار المطرف بن الأمير عبدالله فى جند الأندلس إلى كورة ريه ، وحاصر ابن حفصون فى ببشتر معقله ، وعاث فى بسائطه . وآثر ابن حفصون فى البداية أن يستعصم بمعقله ، ثم خرج إلى لقاء المطرف فهزم ، وقتل فى هذه الموقعة حفص بن المرة أشجع قواد ابن حفصون وأشدهم مراساً[١]. فلما عادت جند الأمير إلى قرطبة ، عاد ابن حفصون يدبر خطط العدوان ، ثم جمع جموعه وزحف على إستجة ، واستولى عليها للمرة الثانية ، وذلك فى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م)[٢] . وإستجة تقع جنوب غربى العاصمة على مسافة غير بعيدة عنها ، فبادر الأمير عبد الله باستقدام الجند من النواحى ، وفى العام التالى (٢٨٥ هـ) سير ولده أبان لقتال ابن حفصون ومعه القائد أحمد بن أبى عبدة . واخترقت الحملة الجزيرة الخضراء ، وعكفت على مهاجمة الحصون الخارجية حتى وصلت إلى طريف ، ثم ارتدت إلى ببشتر ثم إلى أرشدونة ثم إلى إلبيرة وحصن شلوبانية ؛ ونشبت بينها وبين قوات ابن حفصون عدة معارك محلية ، ثم عادت إلى قرطبة عن طريق وادى آش[٣] . ولكن هذه المعارك لم تسفر عن أية نتيجة حاسمة ، واقتنعت حكومة قرطبة بأنه لا بد من مضاعفة الأهبة لكى تستطيع أن تضع حداً لعدوان الزعيم الثائر .

وفى سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) عقد ابن حفصون ومحمد بن لب زعيم بنى قسى حلفاً متبادلا ، وأرسل محمد ولده لباً فى بعض قواته إلى ابن حفصون ليوثق هذا التحالف ؛ ولكن لباً لم يلبث أن تلقى نبأ موت أبيه أمام أسوار طليطلة ، فغادر ابن حفصون دون أن يبرم أمراً ، وهكذا فشل هذا التحالف قبل نضجه[٤].

وفى سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) أعلن عمر بن حفصون أعتناقه للنصرانية هو وسائر

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٢ . وراجع Dozy : Hist. ; V. II, p. 84

(٢) المقتبس ص ١٠٨ .

(٣) المقتبس ١٢٢ .

(٤) المقتبس ص ١٢٧ .

أفراد أسرته ، واتخذ له إسما نصرانياً هو صمويل ، وكان أبوه قد فعل ذلك منذ أعوام ، ولم يخلص عمر بن حفصون للإسلام قط ، وكان يسرّ النصرانية دائماً ، ولم يمنعه من إعلانها سوى خوفه من تفرق أنصاره ؛ وقد تحقق ما كان يخشاه إذ هجره كثير من أنصاره ، وتبرأوا من فعلته ، وخرج عليه بعض قواده المسلمين ، وامتنعوا بحصونهم ، وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير ، واشتد السخط عليه فى سائر جنبات الأندلس ، ورأى المسلمون فى قتاله نوعاً من الجهاد[١] . وحاول ابن حفصون من جانبه ، أن يقوى مركزه بعقد محالفات جديدة ، ففاوض ألفونسو الثالث ملك ليون وبنى قسى ، كما فاوض بعض أمراء المغرب ، ولكن العون الحقيقى جاء من ناحية أخرى. ذلك أن إبراهيم بن حجاج سيد إشبيلية وقرمونة ، لما ساءت العلائق بينه وبين الأمير عبدالله بسبب رفضه إطلاق سراح ولده ، قطع الجزية ، وأعلن استقلاله ، وتحالف مع ابن حفصون (٢٨٨ هـ — ٩٠٠ م) ، وغدا الإثنان قوة يحسب حسابها[٢] .

وتوجست حكومة قرطبة شراً من هذا التحالف ، فبعث الأمير إلى ابن حفصون يعرض عليه شروطاً مغرية للصلح ، فقبل الثائر هذا العرض ، وبعث إلى قرطبة أربع رهائن من أصحابه ، منهم خازنه وحليفه سعيد بن مستنة الثائر من قبل فى باغة Priego[٣] . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى حدث خلاف فى تنفيذ الشروط بين الفريقين ، وعاد ابن حفصون فأعلن الخلاف وتأهب للحرب ، وعاونه حليفه ابن حجاج بقوة من الفرسان ، وسارت جند الأندلس بقيادة أحمد ابن أبى عبدة ، وخرج ابن حفصون من إستجة التى اتخذها قاعدة لملاقاته . واشتبك الفريقان فى «إستبة» الواقعة جنوبى إستجة ، على مقربة من نهر شنيل ، فهزم جند الأندلس فى البداية ، وقتل منهم بضع مئات ، ولكنهم عادوا فكروا على قوات ابن حفصون بعنف ، وأوقعوا بها هزيمة شديدة (٢٨٩ هـ — ٩٠٢ م) ، وعلى أثر ذلك أمر الأمير عبد الله بقتل رهائن ابن حفصون ، ما عدا ابن مستنة ، إذ افتدى حياته بالخضوع والطاعة . وخشى إبراهيم بن حجاج على

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص١٤٣ ، والمقتبس ص١٢٨ . وراجع دوزى : Hist.; V. II. p. 84 & 85 . وكان ابن حفصون أيضاً يتكلم « الأعجمية » ، وهى الإسبانية القديمة أو الرومانش .

(٢) المقتبس ص ١٢٩ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزى : Hist., V. II. p. 86 .

ولده ، ففاوض الأمير فى الصلح ، فأجابه إلى طلبه ، وأطلق سراح ولده عبد الرحمن وعاد إلى سابق ولائه(١) .

وتوالت حملات الأمير بعد ذلك على ابن حفصون . فى سنة ٢٩١هـ (٩٠٤م) سار أبان بن الأمير عبد الله ، ومعه القائد أحمد بن أبى عبدة إلى ريُّه ، فعاث فى تلك الناحية وهزم ابن حفصون فى عدة مواقع . وفى العام التالى (٩٠٥م) خرجت الصائفة لقتال ابن حفصون فاستولت على بعض حصونه ، وأوقعت بقواته هزيمة شديدة فى وادى بلون على مقربة من جيان ، وقتل كثير من جنده(٢) . وفى سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) سارت جند الأندلس إلى ببشتّر معقل الثائر ، وعاثت فى تلك المنطقة . وفى سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) سارت حملة قوية بقيادة أحمد بن أبى عبدة إلى كورة ريه ، واشتبكت مع قوات ابن حفصون فى عدة معارك شديدة ، ثم سارت شمالا إلى حصون إلبيرة وجيان وحاصرت منتلون حيناً ، وحاول ابن حفصون من جانبه أن يهاجم حصن جيان ، فردته جند الأندلس وطاردته . وفى العام التالى غزت جند الأندلس منطقة ببشتّر مرة أخرى . ورد ابن حفصون بأن أغار وحليفه ابن مستنة ، الذى خلع الطاعة مرة أخرى ، على بسائط قبرة وبعض قرى قرطبة ، فلقيته جند الأندلس وهزمته . وسارت فى العام التالى (سنة ٢٩٩ هـ) حملة أخرى إلى ببشتّر فعاثت فى بسائطها(٣) ؛ وهكذا استمرت حملات الأندلس متوالية متلاحقة على ابن حفصون زهاء ثلاثين عاماً . وبالرغم من أن حكومة قرطبة استطاعت أن تعمل باستمرار على مناهضته وإحباط خططه وإنهاك قواه ، فإنها لم تفلح فى القضاء عليه ، وإخماد الحركة الثورية المضطرمة ، التى استطاع أن يحمل لواءها بقوة وجلد وعزم لا مثيل لها .

— ٢ —

وقد أشرنا من قبل ، إلى خروج عبدالرحمن بن مروان الجليقى بمدينة بطليوس منذ أيام الأمير محمد ، وكيف أن حكومة قرطبة فشلت فى إخضاعه ، وانتهى الأمر باستقلاله ببطليوس وما جاورها . ولما تولى الأمير عبد الله، لم ير مناصاً من

---

(١) راجع دوز : Hist., V. II, p. 86-88

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٤ .

(٣) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ — ١٥٣ .

إقراره على استقلاله بتلك القاعدة المنيعة ؛ وهكذا لبث ابن مروان سيد بطليوس بلا منازع . فحصنها وجملها ؛ وبسط حكمه على الأنحاء المجاورة ، وكان من حلفائه فى تلك المنطقة حسبما قدمنا يحيى بن يحيى بن بكر الثائر بمدينة شنتمرية الغرب[1] بولاية أكشونبة ، وعبد الملك بن أبى الجواد الثائر بمدينة باجة Beja . وكان يحيى زعيما مقداماً، فحصن شنتمرية ، وأقام بها حكومة منظمة ، وضبط الأمور وقمع أهل الشر[2] . وفى سنة ٢٧٦ ﻫ (٨٨٩ م) نكث ابن مروان بعهده ، وعاون كريب بن خلدون الثائر باشبيلية ، على مهاجمة المدينة ونهب أحوازها . ولم يمض قليل على ذلك حتى ثار البربر فى الثغر الأدنى[3] بزعامة محمد بن تاكيت المصمودى وزحف على ماردة فى شرقى بطليوس ، واستولى عليها ، فسارت إليه الجند من قرطبة ، فتقدم لإنجاده ابن مروان ، ولبث الحصار مدة ارتحلت بعدها جند الأمير خائبة . وكان بماردة جموع من العرب والبربر من قبائل كتامة ومصمودة ، فسعى ابن تاكيت فى إخراج العرب وكتامة منها ، واستقل بها مع شيعته . ولم يلبث أن ثار الخلاف بينه وبين جاره ابن مروان ، ونشبت بينهما الحرب ، فهزمه ابن مروان وظهر عليه . ثم توفى عبد الرحمن بن مروان بعد قليل ، فخلفه فى حكم بطليوس ابنه مروان ، واشتد فى مطاردة البربر ، ولكن ولايته لم تدم سوى شهرين ، فخلفه على بطليوس حفيد لابن مروان يدعى عبد الله ، واستمر بنو مروان سادة بطليوس حتى انتزعها منهم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧ ﻫ (٩٢٩ م) ، وقضى على دولتهم[4] .

وكانت طليطلة قاعدة الثغر الأوسط ، قد سقطت فى يد بنى ذى النون أيام المنذر . وكان بنو ذى النون من أكابر زعماء البربر فى تلك المنطقة ، وينتمون إلى قبيلة هوارة ، وكان زعيمهم موسى بن ذى النون قد ظهر فى عهد الأمير محمد ،

---

(١) Santa Maria de Algarve ، وهذا بخلاف شنتمرية الشرق أو شنتمرية ابن رزين، التى اشتهرت أيام الطوائف وتعرف فى الإسبانية باسم Albarracin .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ .

(٣) هو فى جغرافية الأندلس عبارة عن المنطقة الغربية الواقعة بين نهر دويرة ونهر التاجه. ومن مدنها قورية وقلمرية وشنترين وغيرها ، وأما الثغر الأعلى فهو عبارة عن سرقسطة وأعمالها من المدن الشمالية المتاخمة لحدود نافار وليون وقطلونية . ويشمل الثغر الأوسط طليطلة وأعمالها .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ و ١٣٤ .

واستقل بشنت برية حسبما ذكرنا من قبل . ثم زحف على طليطلة فى قوة كبيرة من البربر ، واستطاع بممالأة بعض زعمائها أن يستولى عليها ، وذلك فى سنة ٢٧٤ هـ (٨٨٨م). وحكم بنو ذى النون طليطلة بضعة أعوام ، ثم غلبهم عليها محمد بن لب بن موسى كبير بنى قسى وزعيم الثغر الأعلى ، وكان بنو قسى قد فقدوا زعامتهم يومئذ فى الثغر الأعلى بخروج سرقسطة من أيديهم ووقوعها فى يد أبى يحيى التجيبى حسبما نذكر بعد ، فتحولوا إلى الثغر الأوسط واستولوا على طليطلة سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٧ م) . وبعث محمد بن لب ولده لبّا إلى أحواز جيان ، فهاجم حصن قسطلونة واستولى عليه . والظاهر أن كانت ثمة لتلك الحملة علاقة بمشروع التحالف بين بنى قسى وابن حفصون حسبما قدمنا ، ولكن محمداً بن لب لم يلبث أن قتل بعد ذلك بعامين تحت أسوار سرقسطة ، وهو يحاول انتزاعها من التجيبيين [1]، ولم يستطع ولده لب أن يستمر فى حكم طليطلة فأبعد عنها حيناً . ولكن أهل طليطلة عادوا فدعوه إلى حكمها ، فبعث إليهم أخاه المطرِّف فتولى حكمها . ثم خرج عليه محمد بن إسماعيل بن موسى من أبناء عمومته ، فحكمها حتى مصرعه فى سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦) قتيلا بيد أهلها . وعندئذ تولى حكم طليطلة زعيم من البربر المحليين هو ابن الطربيشة ، وهو حليف ابن ذى النون ، واستمر فى حكمها حتى انتزعها منه عبد الرحمن الناصر فى أوائل حكمه . واستمر بنو ذى النون أبناء موسى وهم الفتح ويحيى ومطرف بعد وفاة أبيهم ، فى حكم المناطق الواقعة فى شرقى طليطلة ، مثل إقليش ووبذة ثم قلعة رباح [2] وغيرها ، إلى نهاية عهد الأمير عبد الله وأوائل عهد الناصر . وكان مطرِّف أشهرهم وأنجبهم ، وقد استمر معتصماً بوبذة حتى استنزله الناصر منها ، ثم ولاه عليها واستقام بها شأنه ، وحضر مع الناصر واقعة الخندق [3]. وكان لبنى ذى النون هؤلاء فيما بعد شأن ، وكانت لهم أيام الطوائف فى طليطلة دولة سطعت مدى حين .

أما لُبُّ بن محمد فاستقر فى تطيلة ، وكان النزاع يضطرم فى الثغر الأعلى منذ أعوام طويلة بين التجيبيين وبنى قسى .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) وهى بالإسبانية على التوالى : **Uclés, Huete, Calatrava** .

(٣) ابن حيان فى المقتبس ص ١٩ .

وتذكر لنا الرواية فى أصل نباهة بنى تجيب ، أنه لما ثار بنوقسى فى الثغر الأعلى ، واحتلوا قواعده ، نُوه للأمير محمد بن عبد الرحمن ، بأولاد عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر التجيبى ، فاستدعاهم ، وبنى لهم قلعة أيوب على مقربة من سرقسطة ، وعين لضبطها عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى ، وبنى لهم قلاعاً حصينة فى شميط ودَرَوْقه ، وفُرتش ، ونصبهم لمحاربة بنى قسى ، وعقد لهم على قومهم ، وأجرى عليهم أرزاق الغزو . ولما انتزع الأمير المنذر سرقسطة من محمد بن لب بن موسى فى سنة ٢٧٠ هـ ، توالى عليها عمال الأمير ؛ وكان عليها فى بداية عهد الأمير عبد الله واليها أحمد ابن البرّاء ، فتظاهر محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز (وهو المعروف بأبى يحيى وبالأنقر) بمهاجمة والده عبد الرحمن والخروج عليه ، والتجأ إلى سرقسطة تحت كنف ابن البراء وحمايته ، وفى ذات يوم وثب بحاميه ابن البراء وقتله غيلة ، واستولى على سرقسطة ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) وفقاً لرواية العذرى ، أو فى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) وفقاً لرواية ابن حيان . وكان وثوب أبى يحيى الأنقر بابن البرّاء على هذا النحو ، فيما يبدو بتفاهم مع الأمير عبد الله ، إذ كان يشك فى ولاء حاكمه . ومن ثم فقد أقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها[1] .

وحاول محمد بن لُبّ أن ينتزع سرقسطة من أبى يحيى ، فهاجمها وحاصرها غير مرة ، حتى قتل تحت أسوارها سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) حسبما أسلفنا . قال ابن حيان : « وهوى نجم القسويين (بنى قسى) بعد مهلك محمد واعتورهم الإدبار ، وغشيتهم دولة الجماعة ، وجمع الثغر كله لأبى يحيى »[2] . ولبث أبو يحيى على استقلاله بسرقسطة ، حتى وفاته فى عهد الناصر سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) .

ولما توفى محمد بن لُبّ ، خلفه ولده لب فى تطيلة وما جاورها . والظاهر أنه آثر يومئذ مهادنة الأمير والانضواء تحت لوائه ، وأقره عبد الله على حكم تطيلة وطرسونة وما جاورها . وشغل لُب فى الأعوام التالية بغزو أراضى النصارى

(١) « نصوص عن الأندلس » . من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار للعذرى ص ٤١ . وابن حيان فى المقتبس ص ٨٥ و ٨٦ .

(٢) المقتبس ص ٨٧ .

المجاورة ، فغزا فى سنة ٢٩٠ ﻫ (٩٠٣ م) أرض ليون واستولى على بعض حصونها ، وهزم ألفونسو الثالث فى معركة نشبت بينهما ، ثم غزا ناحية بليارش Pallars ، واستولى على حصون إيلاسر ومولة وقشتيل ، وقتل بها كثيراً من النصارى . وفى العام التالى خرج لب لمحاصرة سرقسطة ، وخرب ما حولها من القرى ولكنه لم ينل منها مأرباً . وفى سنة ٢٩٤ ﻫ (٩٠٦ م) ، غزا لب ناڤار وزحف على طريق بنبلونة ، فحشد سانشو (شانجه) ملك ناڤار كل قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها لب وقتل كثير من جنده . وكان لب زعيماً مقداماً وافر الجرأة والشجاعة ، وتوفى شاباً فى الثانية والثلاثين من عمره ، فكانت وفاته ضربة شديدة لسلطان بنى قسىّ . وخلفه فى تُطيلة أخوه عبد الله بن محمد بن لب[1] ، وسار على أثره من الانضواء تحت لواء الأمير ، ومتابعة الإغارة على أرض النصارى . وهنا ظهر على مسرح الحوادث فى الثغر الأعلى زعيم جديد هو محمد بن عبد الملك بن شبريط المعروف بالطويل ، وسمى بذلك لطوله الفائق . وكان بنو شبريط أو بنو شبراط من أكبر أسر المولدين بالثغر ، وكان منزلهم بوشقة وبربشتر[2] وكان عميدهم شبريط قد ظهر فى أواخر المائة الثانية فى عصر الحكم بن هشام ، وتغلب حيناً على وشقة . ولكن بنى قسى غلبوا على تلك الأنحاء دهراً ، وحجبوا بنى شبريط وغيرهم من أعيان المولدين عن الظهور . فلما اضمحل شأن بنى قسى ، عاد بنو شبريط إلى الظهور ، واستطاع الطويل أن يستقر فى وشقة تراث أسرته ، وذلك منذ بداية عهد الأمير عبد الله ، ثم حاول أن يتوسع بالإغارة على بعض أملاك جيرانه بنى قسى ، فاستولى على لاردة ، ولكنه اضطر إلى إعادتها إلى محمد بن لب باشارة الأمير عبد الله ، ثم وقع الخلاف بينه وبين لب بن محمد على بعض الحصون المجاورة ، ونشب بينهما قتال هزم فيه الطويل . ومضت بعد ذلك عدة أعوام ، شغل فيها الطويل على ما يظهر بمحاربة جيرانه النصارى فى منطقة البرنيه ، فى أحواز ناڤار وجاقة ، وسوبرابى وبليارش وغيرها . ولما توفى لب بن محمد ، رأى الطويل الفرصة سانحة لتنفيذ خطته ومشاريعه ، فزحف على أراضى بنى قسى مرة أخرى ، واستولى على لاردة وبربشتر وحصن منتشون[3]

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٤٥ ؛ وراجع دوزى Hist.; V. II., p. 93

(٢) ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٤ .

(٣) راجع ابن حيان فى المقتبس ص ٨٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

(٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م) وركد أمر بنى قسى فى الثغر من ذلك الحين . بيد أنهم استمروا فى بعض القواعد والحصون حتى قضى الناصر على دولتهم فى سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤م) . أما الطويل فقد قوى أمره واشتد بأسه ، وكان قد تزوج من دونيا سانشا الحسناء ابنة الكونت أسنار أحد سادة أراجون ، وحفيدة غرسية إنيجيز ملك ناڤار . وتعرف الروايات النصرانية ، من جراء هذه المصاهرة ، محمداً الطويل معرفة حسنة ، وتذكره بإفاضة وتسميه « الملك الطويل »[١] . وعكف الطويل بعد ذلك على الإغارة على الأراضى النصرانية المجاورة ، فخرج فى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) إلى منطقة بليارش ، وعاث فيها وقتل كثيراً من النصارى ، واستولى على حصن روطة وهدمه ، ثم استولى على حصن منت بطروش . وفى العام التالى خرج الطويل إلى منطقة بليارش مرة أخرى ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى[٢] . ولما رأى عبد الله بن لب قوة الطويل واشتداد بأسه ، آثر مهادنته ، وفى أواخر سنة ٢٩٨هـ (٩١١م) تحالف الإثنان على غزو ناڤار والزحف إلى عاصمتها بنبلونة ، وسار كل منهما فى طريق مستقل ، وأغار الطويل على بعض الحصون ، وهدم الكنائس ، ولكنه ارتد حينما علم بأن سانشو ملك ناڤار يسير لقتاله . وغزا عبد الله فى طريقه حصوناً أخرى ، وقتل وسبى كثيراً من النصارى . وفى العام التالى (٩١٢ م) غزا الطويل أراضى برشلونة ونشبت بينه وبين صاحبها الكونت سنير Sunier معركة هزم فيها الكونت وقتل كثير من أصحابه[٣] ، ولكن الطويل لم يلبث أن قتل فى العام التالى (٣٠١ هـ — ٩١٣ م) . والظاهر أنه قتل خلال غزوة أخرى قام بها فى قطلونية[٤] ، فخلفه أولاده فى حكم أراضيه[٥] .

---

(١) نشر العلامة المستشرق ف . كوديرا بحثاً ضمنه سيرة الطويل حسبما تعرضها المصادر اللاتينية والعربية ، وذكر فيه تفاصيل كثيرة شائقة . راجع البحث المذكور فى مجلة أكاديمية التاريخ بمدريد : **Mohamed Atauil, rey moro de Huesca (B.R.A.H.) T. XXXVI (1900). p.316—24.**

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٩ و ١٥٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ .

(٤) يذكر لنا ابن عذارى تاريخ وفاة الطويل فى حوادث سنة ٣٠١ هـ . ولكنه لا يقول لنا أين قتل ومن الذى قتله (ج ٢ ص ١٧٠) .

(٥) يذكر لنا الأستاذ كوديرا فى بحثه السالف الذكر أسماء أبناء الطويل وهم أربعة من الذكور هم عبد الملك ، وعمروس ، وفورتونيو ، وموسى ، وابنة تسمى دونيا بلاسكيتا .

— ٣ —

وكان عهد الأمير عبد الله يدنو عندئذ من نهايته ، ولم تشهد الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل فترة كهذه ، عمت فيها الفتنة وسرى ضرامها إلى كل ولاية وقاعدة ، ولم ينكمش سلطان الدولة الأموية بالأندلس قدر انكماشه فى تلك الفترة . وكان على الأمير عبد الله أن يكافح دون هوادة لإنقاذ الدولة والعرش من خطر الانهيار ، فقضى حكمه الذى استطال خمسة وعشرين عاماً فى سلسلة لا نهاية لها من الفتن والغزوات والمعارك المستمرة ، مزقت خلالها أوصال المملكة ، واهتزت أسس الدولة إلى الأعماق ، ونضبت قواها ومواردها . وبالرغم من أن الأمير عبد الله لم يوفق إلى القضاء على الثورة فى سائر النواحى ، فإنه استطاع أن يقضى على الخطر الداهم ، وأن يمزق شمل الثوار ، وأن يستميل نفراً من أخطر زعمائهم ، وأن يبسط سلطان العرش من الناحية الإسمية على الأقل ، على بعض القواعد الهامة مثل إشبيلية وسرقسطة . وكان لهذه النتائج الأولى أثرها فيما بعد فى عهد خلفه عبد الرحمن الناصر ، فى التمهيد للقضاء على عناصر الثورة ، وتوطيد سلطان الدولة والعرش .

ويحاول الوزير المؤرخ ابن الخطيب أن يلقى ضوءاً على أسباب ذيوع الثورة فى الأندلس فى هذا العصر فى قوله : « والسبب فى كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأول ، منعة البلاد وحصانة المعاقل ، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين ، فهم شوكة وحدٌ بخلاف سواهم . والثانى ، علو الهمم ، وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة ، أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض . والثالث ، الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من ملك النصارى ، الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض . فكان الأمراء من بنى أمية يرون أن اللجاج فى أمورهم ، يؤدى إلى الأضلولة ، وفيها فساد الأموال ، وتعذر الجباية ، وتعريض الجيوش إلى الانتكاب ، وأولياء الدولة إلى القتل . ولا يقوم السرور بغلبة الثائر ، بما يوازنه من ترحة هذه الأمور »(١) .

ولم تترك مقارعة الثورة لعبدالله فرصة للقيام بغزوات فى أراضى النصارى .

---

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ٣٦ .

وشغلت البعوث والصوائف كلها أعواماً متوالية ، بمحاربة الخوارج والثوار فى مختلف الأنحاء . ولم يقم النصارى من جانبهم بغزوات ذات شأن فى الأراضى الإسلامية : وشغل ألفونسو الثالث ملك ليون (جليقية) الذى خلف أباه أردونيو على العرش فى سنة ٨٦٦م بتنظيم مملكته وتوطيد حدودها ، منتهزاً فرصة الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية . وكان من أعظم أعماله استيلاؤه على مدينة سمورة وهى من أمنع مدن الحدود الشمالية الغربية ، وذلك فى سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣م)[١]. وحصن ألفونسو سمورة وأسكنها النصارى ، واتخذها قاعدة للإغارة على الأراضى الإسلامية المجاورة ومعظم سكانها من البربر[٢]. ولما اشتدت الفتنة وعمت سائر النواحى ، ظهر فى أحواز طليطلة وطلبيرة ، أحمد بن معاوية المعروف بابن القط ، وهو من ولد هشام بن عبد الرحمن ، ودعا لنفسه بين البربر فى تلك الأنحاء ، وزعم أنه المهدى ، وكان عالماً ومشعوذاً وافر الذكاء والعزم ، فالتفت حوله جموع غفيرة من البربر ، وأعلن الجهاد وقصد إلى سمورة لافتتاحها ، وكتب إلى ألفونسو رسالة عنيفة يدعوه فيها إلى الإسلام وينذره بالويل إذا أبى . وكان ألفونسو يومئذ فى قواته على مقربة من سمورة ، فسار إلى لقاء المهدى وقواته ، ودارت الموقعة فى مخائض نهر دويرة أمام سمورة ، فهزم النصارى أولا وارتدوا ، وحاصر المهدى سمورة . ولكن حدث عندئذ أن انسحب زعماء البربر فى قواتهم خشـــية من تفوقه عليهم وغدره بهم . وصمد ابن القط فيمن بقى معه ، ثم نشبت بينه وبين النصارى موقعة ثانية قاتل فيها ببسالة حتى قتل ومزقت قواته ، واحتز رأسه وسمر فوق أحد أبواب سمورة . وكان ذلك فى شهر رجب سنة ٢٨٨ هـ (يوليه سنة ٩٠١ م) وبذا انهارت حركته ووطد ألفونسو سيادته فى تلك الأنحاء[٣] .

وكان ألفونسو الثالث يعمل على انتهاز كل فرصة لإذكاء الفتنة والاضطراب فى المملكة الإسلامية ، وكان يقصده الثوار وفى مقدمتهم عميدهم ابن حفصون ، للتحالف معه ضد حكومة قرطبة ؛ واستدعاه أهل طليطلة فى أواخر عهد الأمير

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) المقتبس ص ١٠٩ .

(٣) راجع تفاصيل حركة ابن القط وموقعة سمورة ، فى المقتبس ص ١٣٣ – ١٣٩ ، وكذلك فى ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ٩١ – ٩٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزى : Hist.; V. II. p. 132—134.

عبد الله ودفعوا إليه الجزية ،واستولى فى عودته على بعض الحصون . وكانت هذه أول غزوة للنصارى على ضفاف نهر التاجُه ، بيد أنها كانت غزوة عابرة ولم تخلف أثراً ثابتاً. وأما الثغر الأعلى فقد كان بنوقسيّ ، وفى مقدمتهم لب بن محمد بن لب ، يحاربون ألفونسو ويحاربهم من وقت إلى آخر .

وكان من الحوادث البارزة فى عهد الأمير عبد الله افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) . وقد رأينا فيما تقدم كيف أرسل عبد الرحمن بن الحكم فى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) حملة بحرية إلى ميورقة لغزوها ، ومعاقبة أهلها على تعرضهم لسفن المسلمين وكيف تعهد أهلها بالجزية والولاء . وفى أواخر عهد الأمير عبد الله فى سنة ١٩٠ هـ (٩٠٣م) سار عصام الخولانى إلى ميورقة فى قوة بحرية من المجاهدين ، فحاصرها تباعاً ، وكان عصام قد حملته الرياح قبل ذلك وهو فى طريقه إلى الحج إلى ميورقة فعرفها ، واختبر أحوال هذه الجزائر الغنية ، وأدرك سهولة فتحها وعرض مشروعه على الأمير عبد الله ، فأقره وأمده بالسفن والقطائع . ولما وفق إلى فتحها أقره الأمير على ولايتها . ومن ذلك الحين تدخل الجزائر الشرقية فى حظيرة المملكة الإسلامية[١] .

وكان أيضاً من الحوادث البارزة فى هذا العهد الحافل بالخطوب والمحن ، المجاعة الشديدة التى وقعت فى سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) والتى قاست الأندلس منها الشدائد والأهوال .

— ٤ —

وتوفى الأمير عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (أكتوبر سنة ٩١٢ م) فى الثانية والسبعين من عمره ، بعد أن حكم خمسة وعشرين عاماً ملؤها الاضطراب والفتن. وكان أميراً ورعاً جم التقشف والتواضع ، جواداً محباً للخير ، كثير البر بالفقراء وذوى الحاجات ، يفرز لهم سهماً من مال الجبايات[٢] ، عالماً أديباً فصيحاً رفيع البيان ، ينظم الجيد من الشعر. وكان بالرغم مما شغله طوال حكمه من الفتن والخطوب ، شديد العناية بشئون الحكم وتوطيد أركانه ، وتعرف أحوال الشعب ورغباته ، وكان من أشد الناس حرصاً على

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) المقتبس ص ٣٣ و ٣٤ .

إقامة العدل ، وقمع الظلم والبغى ، وسحق الظلمة . وكان يجلس للفقراء يوماً فى كل أسبوع بباب أنشأه عند ركن القصر خصيصاً لذلك وسماه باب العدل ، ليقضى فى مظالم الناس بنفسه ، وليستمع إلى كل ذى حاجة ومظلمة ، وأنشأ باباً حديدياً يتمكن الناس بواسطته من تقديم شكاويهم وظلاماتهم حتى لا يحرم بذلك ضعيف من مخاطبته[1]. وكان لصرامته وشدة وطأته على الطغاة وأهل السلطان ، أثر كبير فى شيوع العدل فى عهده ، والحد من بغى ذوى الجور والظلم ، كما كان لبالغ تقواه وتواضعه ، واحتشامه وتقشفه فى حياته الخاصة ، وفى مظاهره وحياته الملوكية ، أثر كبير فى تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة ، والاقتصاد فى اللهو والملاذ ، فى عصر كثرت فيه الخطوب والمحن .

وتولى الحجابة فى بداية عهد عبدالله ، عبد الرحمن بن أمية بن شُهيد حاجب أخيه المنذر ، ثم تولاها من بعده سعيد بن محمد بن السليم حيناً ، ثم عزله عبد الله فى أواخر عهده ، ولم يول أحداً من بعده لحجابته ، واقتصر فى تدبير شئون الدولة على الوزراء والكتاب ، وبالأخص على بدر الخصى الصقلبى وكان يؤثره ويوليه ثقته[2].

وكان من حسن الطالع أن استطاع الأمير عبدالله ، أن يعتمد فى مواجهة الفتنة الغامرة التى أحاقت بعرشه وملك أسرته ، على عون نفر من أكابر رجال الحرب والسياسة ، الذين أبدوا فى معالجة الخطوب مقدرة فائقة . وكان فى مقدمة أولئك الرجال بنو عَبْدة وهم من صميم موالى بنى أمية . وقد تولى عدة منهم الوزارة والقيادة للأمير عبد الله ، ومنهم عبيدالله محمد بن أبى عبدة ، الظافر فى موقعة بلاى ، وأحمد بن محمد بن عيسى بن أبى عبدة ، وسلمة بن على بن أبى عبدة ، وقد اضطلع كلاهما بقيادة كثير من الصوائف . وينسب أعظم الفضل إلى هؤلاء القادة فى مقارعة الفتنة ، وإنقاذ العرش والدولة[3]. وتولى القيادة والوزارة منهم أيضاً عبد الرحمن بن حمدون بن أبى عبدة ، وعبد الله بن محمد بن أبى عبدة ولد القائد الشهير[4]. وكان من وزراء الأمير عبد الله أيضاً ، عبد الملك بن عبد الله

---

(١) راجع المقتبس ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨ . وقد استعملت هذه الوسيلة فى كثير من العصور لإيقاف الأمير على مظالم رعاياه بطريقة مباشرة .

(٢) ابن حيان فى المقتبس ص ٤ .

(٣) المقتبس ص ٢٩ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ ، و ١٥٧ ، وأخبار مجموعة ص ١٥١ . وكذلك المقتبس ص ٦ .

ابن أمية ، وقد قتله ولده المطرف أثناء حملة إشبيلية حسبما أسلفنا . والزعيم البربرى سليمان بن وانسوس وزير أبيه من قبل ، وكان من أقدر وزرائه وأعقلهم ، عزله عن الوزارة ثم اضطر لإعادته للاستعانة بخبرته ونصحه(١) ؛

وكان الأمير عبد الله ، إلى جانب هؤلاء الوزراء والقادة ، الذين يمثلون العصبية العربية أو البربرية ، يعتمد على ولاء الموالى والفتيان ، ويقدم الموالى الشاميين على البلديين ، أسوة بما رتبه أبوه الأمير محمد ، وكان من زعماء الفتيان فى بلاطه ريّان صاحب الطراز ، وبدر الوصيف وزميله أفلح . وسنرى فيما بعد كيف نما نفوذ أولئك الفتيان فى بلاط قرطبة ، واستفحل فى عهد الناصر حتّى غلب على كل نفوذ آخر(٢) .

ورزق الأمير عبد الله من الولد إثنا عشر إبناً وثلاثة عشر بنتاً(٣) . ووقعت داخل الأسرة الملكية فى عهده عدة حوادث محزنة أسبغت على اسمه وخلاله سحباً قاتمة . من ذلك مصرع ولديه محمد والمطرّف . وكان محمد أكبر أبنائه وولى عهده ، وكان أخوه الأصغر مطرف يحقد عليه ، ويرى أنه أحق بولاية العهد لما كان والده يحبوه به من ثقته ، ويعهد إليه به من جلائل الأمور والغزوات ، فما زال يدس فى حق أخيه ويغرى أباه عليه ويتّهمه بممالأة الثوار ، والاتصال بابن حفصون ، حتّى توجس منه أبوه الأمير شراً ، وأمر باعتقاله فى جناح من القصر . ولما تواترت الأدلة بعد ذلك على براءته ، واعتزم عبدالله إطلاق سراحه ، بادر مطرف إليه فى معتقله ، وأثخنه طعاناً حتّى أجهز عليه . وهنا تختلف الرواية فيقال إن الأمير عبد الله حزن أشد الحزن لمصرع ولده الأكبر ، وهم بقتل أخيه وقاتله مطرف ، لولا أن ثناه عن ذلك رجال دولته ، ويقال من جهة أخرى إن مطرّفاً لم يرتكب جريمته إلا بوحى أبيه وموافقته(٤) . وكان مصرع محمد فى شوال سنة ٢٧٧ هـ

---

(١) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦٦ و ٦٧ .

(٢) راجع الحلة السيراء ص ٦٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٣ .

(٣) يذكر لنا صاحب البيان المغرب أسماء أبناء الأمير عبد الله وبناته (ج ٢ ص ١٥٦) .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ . ويقول صاحب البيان إن محمداً خرج بالفعل على أبيه ، وفر إلى ابن حفصون ، ثم عفا عنه أبوه وعاد إليه ، حتّى انتهت وشاية أخيه باعتقاله (ص ١٥٤ و ١٥٥) . وذكر ابن الأثير أن الأمير عبد الله قتل ولده محمداً فى حد من الحدود (ج ٨ ص ٢٤) .

(٨٩١ م) وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، فتولى أبوه عبد الله كفالة ولده الرضيع عبد الرحمن ، وكان قد مضى على مولده ثلاثة أسابيع فقط ، وأسكنه معه فى قصره ، ولما بلغ أشده وظهرت نجابته ، عنى بتعليمه وتربيته ، وقربه إليه وأولاه ثقته ثم جعله كاتب سره[1]. وقد شاء القدر أن يخلف الطفل اليتيم فيما بعد جده على العرش ، وأن يغدو أعظم خلفاء الأندلس .

ولم تذهب جريمة المطرف دون عقاب. ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام حتى ساءت العلائق بين مطرف وبين أبيه ، ولما سار المطرف على رأس الصائفة إلى إشبيلية فى سنة ٢٨٢ﻫ (٨٩٥ م) ، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ، وثب المطرف بالوزير لعداوة بينهما وقتله ، وأثمر سعى خصوم المطرف هذه المرة ، وصُور لأبيه كما صور أخوه من قبل ، فى صورة الخارج عليه المتربص به ، فقضى بإعدامه ، وقطع رأسه وبذا كفر عن دم أخيه ودم الوزير[2] .

واستراب عبدالله أيضاً بإخوته ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما قيل من أن أخاه المنذر توفى قتيلا ، وأنه هو الذى أوحى إلى طبيبه بتدبير قتله . وبطش عبد الله بأخوين آخرين له هما هشام والقاسم ابنا محمد بن عبد الرحمن . فأما هشام فاتهم بالتآمر على أخيه ، فقبض عليه وقضى بإعدامه (٢٨٤ ﻫ) . وأما القاسم فقبض عليه وزج إلى السجن ، ثم دس عليه عبد الله من قتله بالسم . واعتقل كذلك عدة من أمراء بنى أمية وأكابر رجال الدولة ، وقتل بعضهم . وقد أسبغت هذه الوقائع الدموية سحابة قاتمة على خلال الأمير عبدالله وسيرته ، ولم ينجح فى محوها ورعه وزهده وحبه للخير . وقد نعى عليه الفيلسوف ابن حزم هذا الإسراف فى البطش فى أقوال استشهد بها ابن حيان وغيره من مؤرخى الأندلس ، وجاء فيها أن الأمير عبدالله « كان قتالا تهون عليه الدماء ، مع الذى كان يظهره من عفته ، فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره إياه ، وأوطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذى فصده به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون ، فكانت فيه منيته وتطوق دمه . ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد آخر ، محمداً والد الخليفة الناصر لدين الله ،

---

(١) المقتبس ص ٤٠ .
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ .

وأخاه عدوه المطرف ؛ ثم قتل أخوين له معاً أيضاً ، قتل هشاماً بالسيف ، والقاسم أخاه بالسم ، إلى من قتله غيرهم »[١] .

وتجمل الرواية خلال الأمير عبدالله وصفاته فى العبارات الآتية : « وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بنى أمية بالأندلس ، وأمثلهم طريقة ، وأتمهم معرفة ، وأمتنهم ديانة ، لكنه كان منغص الحال بدوام الفتنة ، وتضييق نطاق الخطة ، ونقصان مقدار التزكية ، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه ، والبخل يطوقه طبيعة ليست له تحط من قدره »[٢] ويزيد ابن حيان على ذلك قوله : « وغمصوا دينه بما كان من هو ن الدماء عليه ، وإسراعه إلى سفكها ، حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهما من صحابته ورعيته ، أخذاً لأكثرهم بالظنة ، مقوياً فى إيثامهم بالشبهة »[٣] .

وكان للأمير عبدالله بالرغم من هذا الجانب المظلم ، خلال مشرقة ، منها أدبه وفصاحته وشاعريته. وتنوه الرواية بهذه الموهبة فيقول لنا صاحب أخبار مجموعة ، إن الأمير عبد الله كانت له توقيعات بليغة ، وأشعار بديعة فى الغزل والزهد ، لا يكاد أن يقع مثلها أو تنسب إلى من تقدمه نظيرها[٤] . ويقول ابن حيان « كان متصرفاً فى فنون ، متحققاً منها بلسان العرب ، بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب من الأخبار ، آخذاً من الشعر بحظ وافر »[٥]. ويقول صاحب البيان المغرب إنه كان شاعراً مطبوعاً له أشعار حسان[٦]، ومن شعره فى الغزل قوله :

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ... ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها ... بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتى به ... فى مجلس يخفى على من معك

---

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٨٧ و ٧٩ ، والمقتبس ص ٤١ ، وكذلك ص ١٢٢ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ و ١٦١ .

(٢) ابن حيان ، نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى ، فى المقتبس ص ٣٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) المقتبس ص ٣٩ .

(٤) أخبار مجموعة ص ١٥٢ .

(٥) المقتبس ص ٣٤ .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٩ .

كم حاجـــة أنجــزت إبرازها   تبــارك الرحمن ما أطوعــك

وقوله :

ويحى على شــادن كحيــل   فى مثــله يخلع العــذار
كأنمـــا وجنتـــاه ورد   خالصــــة النور والبهــار
قضيب بان إذا تثـنى   يــدير طرفاً به أحوار
فصفو ودى عليـــه وقف   ما اطّــرد لليــل و النهــار

ومن قوله فى الزهد :

يا من يراوغــه الأجـــل   حتى م يلهيــك الأمــل
حتّى م لا تخشى الــردى   وكأنه بك قــد نــزل
أغفلت عن طلب النجــاة   ولا نجـــاة لمــن غفــل
هيهـــات يشــغلك المــنى   ولا يدوم لك الشـــغل
فــكأن يومك لم يــكن   وكأن نعيـــــك قد نزل

وكان يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويعظمهم ويقربهم ويستدعيهم ،ويرتاح لمديحهم . قال ابن حيان : « وكان مجلس الأمير عبدالله قبل الخلافة وبعدها ، أعمر مجالس للفضائل ، وأنزهها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعالم » . وكان فى مقدمة أصدقائه وجلاسه زعيم شعراء العصر ، أبو عمر أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ؛ وكان شاعر الدولة الأموية ، ومادح أمرائها منذ الأمير محمد حتى الناصر ؛ وموسى بن محمد بن حُدير المعروف بالزهد ؛ وسعيد بن عمرو العكى ؛ وعبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدى ، وسعيد ابن عبد ربه ابن أخى صاحب العقد ؛ وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب . وكان من أخص وزرائه فى تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمان الأديبان عبد الملك بن جَهور ، وعبد الملك بن شُهيد . وكان من عادته أن يلجأ إلى العلماء وأهل الرأى فى المشورة ، ويستعين بآرائهم وأحكامهم فيما يواجه من أحداث وخطوب ؛ وكان بقيّ بن مخلد فقيه العصر وأعظم علمائه أكثرهم حظوة لديه ، وكان يبجله ويزوره فى داره ، ويقتبس منه ، ويستمع لنصحه[1] .

---

(١) المقتبس ص ٣٤ و ٣٨ و ٤١ و ٤٢ .

ولم يتسع عهد الأمير عبد الله الفياض بالثورات والفتن للأعمال الإنشائية ، بيد أنه يمكن أن نذكر من منشآته القليلة «الساباط» الموصل بين القصر والمسجد الجامع ، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبنى فوق عقد كبير يفضى من القصر إلى الجامع ، ويتصل به على مقربة من المحراب .

وكان الأمير عبد الله بن محمد ، أبيض ، أصهب ، مشرباً بحمرة ، أزرق العينين ، أقنى الأنف ، يخضب بالسواد ، إلى الطول أميل[1]. ووصفه ابن حيان بقوله : « كان جميل الطلعة ، ضخماً ، مهيباً ، نبيلا »[2] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ .
(٢) المقتبس ص ٣٦ .

الفصل الخامس

المملكة الإسبانية النصرانية

خلال القرن التاسع الميلادى

ألفونسو الثانى ملك جليقية . النضال بين الأندلس وبين المملكة النصرانية . موقعة الصخرة . غزو ألفونسو للأراضى الإسلامية . غزو الحكم لجليقية . غزو المسلمين لألبة والقلاع . راميرو الأول . الحرب الأهلية فى جليقية . غزو محمد بن عبد الرحمن لجليقية . وفاة راميرو وولاية ولده أردونيو . تحالف أردونيو مع الثوار المسلمين . غزو الأمير محمد لألبة والقلاع . التحالف بين موسى بن موسى وملك ناڤار . الحرب بين أردونيو وبنى قسى . هزيمة موسى ومصرعه . تحالف لب بن موسى مع أردونيو . غزو أردونيو لأراضى المسلمين . غزوة المنذر بن محمد لناڤار . غزوات أخرى لألبة والقلاع . وفاة أردونيو وولاية ولده ألفونسو الثالث . الحرب الأهلية فى جليقية . اتساع المملكة النصرانية فى عهد الفونسو الثالث . توغله فى أراضى المسلمين . عقد السلم بينه وبين محمد بن عبد الرحمن . أحوال المملكة النصرانية . نفوذ الكنيسة فى توجيه العرش الإسبانى . معارك بين المسلمين والنصارى . الثورة ضد ألفونسو . نزوله عن العرش . وفاته وخلاله . مملكة ناڤار . أصلها ونشأتها . مدافعة البشكنس عن استقلالهم . تحالف ناڤار مع بنى قسى . المصاهرة بين الأسرتين . التنافر بين ناڤار وليون . سانشو ملك ناڤار . الحرب بين سانشو وبنى قسى .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن نشأة المملكة الإسبانية النصرانية عقب افتتاح المسلمين لاسبانيا ، وكيف نمت هذه المملكة الوليدة المحتجبة فيما وراء الجبال الشمالية ، بخطوات بطيئة ولكن ثابتة ، وكيف شغل عنها ولاة الأندلس فلم ينهضوا لسحقها، انتقاصاً لشأنها وخطرها ، حتى غدت فى أواخر القرن الثامن عاملا يحسب حسابه ، وبدأت حكومة قرطبة تنظر إلى هذه القوة الجديدة التى توالت غزواتها للأراضى الإسلامية بعين الاهتمام والتوجس ، وتخصص لمقارعتها شطراً كبيراً من جهودها ومواردها .

وقد انتهينا فى أخبار هذه الحقبة من تاريخ المملكة الإسبانية النصرانية ، إلى عصر ألفونسو الثانى الملقب بالعفيف ، الذى تولى الملك سنة ٧٩١ م (١٧٥ ﻫ) .

وكان ألفونسو الثانى ملكاً حازماً مقداماً ، فضبط المملكة ونهض بها نهضة شاملة ، وحصن ثغورها وقواعدها ، وعمل على تحسين شئونها الاجتماعية ، وجعل عاصمتها مدينة «أوبييدو» Oviedo . وكانت مملكة جلّيقية أومملكة أشتوريش (أستورياس) كما كانت تسمى يومئذ ، تمتد من ولاية بسكونية شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا حتى نهر دويرة جنوباً ، ولكنها لم تكن عندئذ كما كانت أيام ألفونسو الكاثوليكى تشمل ولاية نافار أو بلاد البشكنس ، التى استطاعت أن تستقل بنفسها ، وقامت بها غير بعيد مملكة نصرانية مستقلة أخرى .

واستطال حكم ألفونسو الثانى زهاء نصف قرن . عاصر فيه ثلاثة من أمراء الأندلس ، هم هشام بن عبد الرحمن ، وولده الحكم ، وحفيده عبد الرحمن ، وتوالت فيه مراحل النضال بين الأندلس والمملكة النصرانية ، فنشبت الحرب بينهما مراراً عدة ، وتبادلا الغزو كلٌّ لأراضى الآخر مراراً ؛ وكانت أهم الأحداث البارزة فى حلقات هذا النضال ، هزيمة الجلالقة والبشكنس بقيادة ألفونسو الثانى على يد المسلمين فى موقعة الصخرة فى قاصية جليقية فى سنة ٧٩٥ م (١٧٩ هـ) . وفى سنة ٨١٠ م (١٩٣ هـ) فى عهد الحكم بن هشام عبر ألفونسو الثانى بقواته نهر دويرة ، وغزا الأراضى الإسلامية ، وتوغل فى سيره حتى قُلُمرية وأشبونة ، وعاث فى تلك الأنحاء أيما عيث ، ورد الحكم على ذلك بنفسه فى صيف العام التالى غازياً إلى جليقية ، وتوغل فى منطقة وادى الحجارة ، وأثخن فى تلك الأنحاء عقاباً للنصارى وزجراً لهم على عدوانهم .

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت الجيوش الأندلسية ، بقيادة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فى سنة ٨٢٣ م (٢٠٨ هـ) ، غازية إلى ألبة والقلاع ، على أثر غزو ألفونسو الثانى للثغر الأعلى ، وإغارته على مدينة سالم ، وهزم المسلمون النصارى فى عدة مواقع ، وعاثوا فى أراضى جلّيقية ، وخربوا مدينة ليون ، وأملوا على النصارى صلحاً شديداً قاسياً[1] .

ولما توفى ألفونسو الثانى فى سنة ٨٤٢ م ، خلفه على العرش ولده راميرو الأول أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية . على أنه لم يخلفه دون نضال . ذلك أن

---

(١) راجع فى تفاصيل الحروب والغزوات المتقدمة « دولة الإسلام فى الأندلس » الفصل السابع من القسم الأول من الكتاب الثانى ص ٢٠٨ وما بعدها ، وكذلك المراجع .

راميرو حينما توفى أبوه كان فى ولاية بردوليا الشرقية ، التى عرفت فيما بعد بقشتالة (كاستيليا) Castilla نظراً لكثرة قلاعها ، يرقب حركات المسلمين . وكان عبد الرحمن بن الحكم يقوم عندئذ بغزوته الكبرى فى الثغر الأعلى ، ويثخن فى بلاد البشكنس ، وكان ألفونسو يخشى أن يتدفق هذا السيل المخرب إلى أحواز جليقية ، ولكن عبد الرحمن ارتد إلى قرطبة بعد أن غزا بنبلونة ، وخربها ، وسحق البشكنس وحلفاءهم ثوار الثغر الأعلى . وتوفى ألفونسو بعد ذلك بقليل ؛ فوثب فى أوبييدو زعيم من الأشراف يدعى الكونت ريوتيانوس واستولى على العرش ؛ وعلم راميرو بذلك وهو فى بردوليا فهرع إلى جليقية ، وجمع جيشاً فى مدينة « لك » وسار إلى أشتوريش ليقاتل المغتصب . ولقيه ريوتيانوس فى قواته على ضفاف نهر نارسياس ، وما كادت المعركة تضطرم بين الفريقين ، حتى هجر ريوتيانوس معظم جنده ، وهزم هزيمة شديدة ، وقبض عليه ، وسملت عيناه ، واعتقل بقية حياته فى أحد الأديار ؛ واسترد راميرو عرشه ، وأطاعته سائر جليقية وأشتوريش .

ولكن علاقة العرش بالأشراف لبثت على توترها ، ولم تمض أعوام قلائل حتى دبر الأشراف ثورة جديدة ضد راميرو (٨٤٥ م) . ثم تلتها فى سنة ٨٤٨م ثورة أخرى ، واستطاع راميرو فى كل مرة أن يخمد الثورة ، وقبض على معظم الزعماء والخوارج وأعدم الكثير منهم .

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن حكومة قرطبة كانت فى معاملتها للزعماء الخوارج عليها ، تبدو أكثر اعتدالا وتسامحاً . فقد كانت تعفو أحياناً عن الثوار ، وكانت تؤثر اصطناع القادرين والأكفاء منهم ، وكانت فى عقابهم أقل قسوة ونكالا . وقد يرجع ذلك إلى ظروف الأحوال فى الأندلس ، فقد كانت الثورات شعبية أو قبلية على الأغلب . أما فى جليقية فكان زعماء الثورة من الأشراف والزعماء الإقطاعيين الأقوياء ، وكان خطرهم على العرش أشد وأدعى إلى التوجس والحذر[١] .

وشغلت المملكة النصرانية فى بداية عهد راميرو ، كما شغلت المملكة الإسلامية ، برد خطر النورمانيين الذين فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة فى سنة ٨٤٢ م حسبما

---

(١) Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien, B. I. s. 263

أسلفنا . وشغلت حكومة قرطبة بالأخص حيناً بتحصين أطراف المملكة ، وإصلاح ما تخرب من أعمالها . وما كاد أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ينتهى من ذلك ، حتى نشط إلى استئناف غزو المملكة النصرانية ورد غارات النصارى ، فسير ولده محمداً فى سنة ٨٤٧م إلى جليقية فاخترق بسائطها ، وحاصر مدينة ليون ، وعاث فى تلك المنطقة . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إن المسلمين التقوا براميرو على مقربة من مدينة سالم ، وهزموه هزيمة شديدة ، واستولوا على عدد من الحصون ، وعلى كثير من الغنائم والأسرى . وفى رواية أخرى أن راميرو التقى بالمسلمين على مقربة من كلاڤينجو بجوار قلهرّة ، وأنه هزمهم بالرغم من قلة جنده ، وتنسب هذا النصر إلى خرافة خلاصتها أن راميرو رأى القديس ياقب فى نومه ليلة المعركة ووعده بالنصر (١). على أن الروايات الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة وهذا النصر المزعوم .

وأنفق راميرو بقية عهده القصير فى العمل على تنظيم شئون مملكته وتوطيد الأمن فيها ، وأنشأ عدداً من الكنائس والأديار ، ثم توفى فى ديسمبر سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام نحو ثمانية أعوام ، تاركاً عرش أشتوريش وبردوليا لولده أردونيو.

— ٢ —

وتولى أردونيو عرش المملكة النصرانية عقب وفاة أبيه بقليل ، وبدأ أعماله بتحصين المدن المتاخمة لحدود المسلمين ، مثل تودة وليون وأسترقة ، وأصلح باقى القلاع والحصون تأهباً للدفاع ، وأخمد الثورة فى ولاية بسكونية ، وفرض عليها سلطانه . ولما ظهرت أعراض ثورة المولدين فى الأندلس فى بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقامت طليطلة بثورتها على حكومة قرطبة ، أرسل أردونيو مدداً إلى الثوار ، ولكن جيش الأندلس هزم الثوار وحلفاءهم النصارى فى موقعة وادى سليط شر هزيمة (٨٥٤ م) . وفى العام التالى غزا الأمير محمد ألبة والقلاع وعاث فيها ، ولكن الأندلس شغلت بعد ذلك بظهور النورمانيين وغزوهم لثغور الأندلس وبسائطها القريبة ، فوقف سير الصوائف إلى الشمال بضعة أعوام . ولكن أردونيو كان يواجه عندئذ خطر قوة جديدة ، أخذت تنمو وتشتد فى الولايات الشمالية . ذلك أن موسى بن موسى بن قسىّ ، استطاع أن يبسط سلطانه

(١) Aschbach : ibid , B. I. s. 259.

على الثغر الأعلى ؛ وأن ينشئ فيه إمارة مستقلة قوية ، واقترن غرسية أمير ناڤار بابنة موسى وتحالف معه ، ليستعين به على مقاومة المسلمين ، ومقاومة جيرانه النصارى من الغرب . وفى أوائل عهد الأمير محمد ، عبر موسى جبال البرنيه بقواته ، وغزا جنوبى فرنسا ، واضطر ملكها شارل الأصلع إلى مهادنته ومسالمته ، وأغدق عليه الهدايا والتحف . ولما رأى أردونيو نهوض قوة موسى وخطرها عليه ، اضطر أن يسعى إلى محالفته ، ولكنه ما لبث أن تركه مغضباً إذ كان موسى يؤازر البشكنس الثائرين عليه بتحريض صهره أمير ناڤار ، ولم ير أردونيو فى النهاية بداً من مخاصمة موسى ومحاربته ، وهاجم أردونيو بعض الحصون الغربية التابعة لموسى ، فسار موسى لقتاله ومعه صهره غرسية ملك ناڤار فى قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها موسى وجرح وقتل صهره غرسية . ثم توفى موسى متأثراً بجراحه (٨٦٢ م) . وكانت ضربة شديدة أصابت سلطان بنى قسىّ فى الشمال . ولما شعر لب بن موسى عقب وفاة أبيه بقوة المملكة النصرانية ، وخطرها ، على سلطان أسرته ، سعى إلى مهادنة أردونيو ومحالفته على قتال المسلمين ، وردهم عن الولايات الشمالية .

وانتهز أردونيو فرصة اشتغال حكومة قرطبة بأمر النواحى الثائرة ، فعبر نهر دويرة بقواته ،وغزا مدينة قورية وأسر واليها ،ثم غزا شلمنقة ، وهزم المسلمين ، وعاث فى تلك الأنحاء[1] . فسير محمد جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فاخترق ألبة والقلاع ، وهزم النصارى فى كل موطن ، ووصل إلى بنبلونة ، وعاث فى نواحيها . وتوالت حملات الأندلس بعد ذلك على ألبة والقلاع ، ونشبت بين المسلمين وأردونيو معارك متعاقبة ، هزم فيها النصارى جميعاً حسبما فصلنا ذلك فى موضعه[2] . وأراد محمد أن يقضى نهائياً على مملكة جليقية فسير السفن إلى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ووصل الأسطول الأندلسى بالفعل إلى مصب نهر منهو ، ولكن العواصف ثارت وحطمت السفن ، وفشل المشروع فى المهد (٨٦٦ م) .

ولزم أردونيو عقب هزائمه المتوالية السكينة بقية عهده ، ثم توفى فى شهر مايو

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II. p. 366.

(٢) راجع تفاصيل هذه المعارك فى أخبار أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن (ص ٢٩٤ — ٢٩٩ و ص ٣١١) .

سنة ٨٦٦م ، واختار قبيل وفاته ولده البكر ألفونسو لولاية عهده ، فخلفه على العرش باسم ألفونسو الثالث ولما يبلغ الرابعة عشر من عمره .

— ٣ —

وما كاد الملك الفتى يجلس على العرش ، حتى ثار عليه الكونت فرويلا حاكم ولاية جليقية وولد الملك برمند ، مطالباً بالعرش ، وسار فى قواته إلى أوبييدو ، ففر ألفونسو إلى ولاية ألبة ، واستولى فرويلا على القصر ، وأعلن نفسه ملكاً . ولكن الأشراف القوط الذين يرون فى العرش رمزهم وملاذهم ، لم يرقهم هذا الاغتصاب ، فثاروا على فرويلا وقاتلوه حتى قتل ، وعاد ألفونسو إلى أوبييدو ظافراً واسترد عرشه .

ولم يمض قليل على ذلك حتى دبر أخوة ألفونسو ، وهم فرويلا ونونيو وبرمند وأدڤاريوس مؤامرة لعزله وانتزاع العرش منه ، ولكن المؤامرة افتضحت قبل نضجها ، وقبض ألفونسو على أخوته وعاقبهم بسمل أعينهم واعتقالهم ، ولم ينج من بطشه سوى برمند إذ فر إلى أسترقة واستولى عليها ، واستطاع بمؤازرة المسلمين أن يستقل بحكمها بضعة أعوام(١) .

وكان حكم ألفونسو الثالث الذى استطال أربعة وأربعين عاماً ، فاتحة عهد جديد من القوة والنهوض بالنسبة للمملكة النصرانية ، وكان ألفونسو أميراً وافر العزم والكفاية ، فاستطاع خلال حكمه الطويل بالحروب والزواج أن يدفع حدود مملكته حتى جبال البرنيه شرقاً ؛ وعبر نهر دويرة إلى أراضى المسلمين مراراً ، ووصل فى غزواته إلى ضفاف التاجُه ، وغزا عدة من المدن الإسلامية المتاخمة مثل ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يضم هذا البسيط إلى مملكته ، فانه استطاع أن يشدد الضغط على الأندلس من هذه الناحية ، وأن يرد تيار الغزوات الإسلامية . وفى سنة ٨٧٨ م حاول المسلمين غزو ليون وأسترقة ، فبادر ألفونسو إلى لقائهم ، وهزمهم فى موقعتين على مقربة من سمورة ، وأرغم أخاه برمند على الفرار من أسترقه ، والالتجاء إلى المسلمين . وفى سنة ٨٨١م غزا ألفونسو أراضى المسلمين وعبر دويرة والتاجه ، ووصل فى زحفه حتى أحواز ماردة ووادى أنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وتقول الرواية النصرانية

(١) Crónica General : ibid. Vol. II. p. 376 — Aschach : ibid. B. I. s. 301

أنه التقى بالمسلمين عند سفح جبل أريفر من جبال سيرّا مورينا (جبل الشارّات) وهزمهم وقتل منهم عدة آلاف وهى موقعة لم تشر إليها الروايات الإسلامية(١) .

وكانت ريح الثورة تهب يومئذ على معظم جنبات الأندلس ، وتشغل حكومة قرطبة بمقارعة بنى قسى فى الثغر الأعلى . وتحالف محمد بن لب زعيم الأسرة الثائرة مع ألفونسو الثالث ، ليستعين به على قتال المسلمين ، ولكن المسلمين نجحوا فى انتزاع سرقسطة معقل ابن لب ، وزحفوا على ألبة لمقاتلة النصارى ، وعندئذ آثر ألفونسو أن يعقد السلم مع المسلمين ، وعقدت بالفعل بينه وبين الأمير محمد بن عبد الرحمن حسبما فصلنا من قبل ، معاهدة صلح استمرت ردحاً طويلا .

ذلك أن ملك النصارى رأى بالرغم مما كان يشغل حكومة قرطبة من ثورات متعاقبة ، أن يقنع بتأمين حدوده وأراضيه من خطر الغزو الإسلامى ، وأن يتفرغ لشئون مملكته الداخلية ، وكانت هذه الشئون تستغرق جل اهتمامه ، وكانت الأزمات والقلاقل السياسية والاجتماعية تتعاقب ، لأسباب وبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصرانى وظروفه . وقد وقعت فى عهد ألفونسو عدة ثورات محلية ترجع بالأخص إلى المبالغة فى فرض الضرائب على الضياع ، وثار أصحاب الضياع لهذا الجور غير مرة فى أنحاء مختلفة ، وطالبوا بالحد من تغريمهم على هذا النحو لصالح الكنيسة ورجال الدين ، ولكن هذه الثورات الإقطاعية أخمدت تباعاً ، وصودرت معظم الضياع لصالح الكنيسة ، واستمر العرش فى الإغداق على الأديار ورجال الدين .

ومما تجدر ملاحظته أن الملوكية الإسبانية ، كانت تدين منذ نشأتها بمنتهى الولاء والطاعة للكنيسة وللكرسى الرسولى . وكانت البابوية تتمتع فى توجيهها بأعظم نفوذ . وكان العرش الإسبانى يشعر دائماً بأنه يستمد سلطانه من الكنيسة ، ويرجع إلى البابوية فى كل أمر يمس شئون السلطة الروحية . ومن ذلك أن ألفونسو الثالث كتب إلى البابا يوحنا الثامن يستأذنه فى عقد المؤتمر الكهنوتى وتعيين الأساقفة ، فأذن له ، وطلب إليه أن يبعث بفرقة من الفرسان للمعاونة فى محاربة المسلمين فى صقلية وجنوبى إيطاليا . وعقد المؤتمر الكهنوتى بالفعل فى أوبييدو سنة ٨٧١ م ونظمت فيه شئون الكنيسة الإسبانية . وكان ألفونسو الثالث ملكاً تقياً ورعاً ، وكانت

Aschbach : ibid , B. I, s. 303 (١)

الكنيسة ورجال الدين يحظون منه بأوفر قسط من الرعاية والإغداق ، وكان هذا الجود المغرق يحمله على الإسراف فى فرض الضرائب على الطوائف المدنية ، وبذا يبث إليها بذور السخط والانتقاض(١) .

وفى أواخر عهد ألفونسو نشبت الحرب بينه وبين بنى قسىّ سادة الثغر الأعلى ، وأغار زعيمهم محمد بن لب غير مرة على أراضى المملكة النصرانية وناڤار . وكذلك نشبت الحرب بين ألفونسو وبين ابن القط المعروف بالمهدى الذى تزعم البربر فى منطقة سمورة حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . ولكن هذه المعارك التى وقعت يومئذ بين المسلمين والنصارى لم تتسم بالطابع الرسمى ، وكان يضطلع بها الزعماء الخوارج على حكومة قرطبة ، ومن ثم فقد استمر التهادن بين حكومة قرطبة وبين المملكة النصرانية طوال عهد الأمير محمد ، فإبنه الأمير المنذر ، ثم أخيه الأمير عبد الله . وبالرغم من أن ألفونسو لم يكن يترك فرصة لإذكاء الفتنة فى المملكة الإسلامية وتعضيد الخوارج عليها ، فإنه التزم عهده المعقود معها ، ولم يقم بغزوات ذات شأن فى الأراضى الخاضعة لها .

ودبرت عدة مؤامرات لخلع ألفونسو وانتزاع العرش منه . وكان المتآمرون من خاصة أسرته . وحاول المتآمرون لأول مرة تمكين أولاده وزوجه خمينا من الحكم ، ولكن ألفونسو استطاع أن يقف على المؤامرة وأن يقضى عليها . وقبض على ولده غرسية واعتقله فى قلعة أوبييدو . ولكن هذا الفشل لم يفت فى عضد المتآمرين ، فدبروا مؤامرة جديدة برياسة الملكة خمينا ، وهى امرأة ذات أطماع تهيم بالسلطان ، واشترك فى تدبيرها الكونت نونيو صاحب برغش وأولاد الملك الثلاثة وهم : أردونيو وفرويلا وجند سالقوس ، وانضم إليهم قسم من الجيش وفريق كبير من الشعب ، وسيطروا على كثير من المعاقل . وخشى ألفونسو عاقبة الحرب الأهلية فقبل شروط الثوار ، ونزل عن العرش لولده الأكبر غرسية ، وعين أردونيو حاكماً لحليقية ، وفرويلا حاكماً لأشتوريش ، ووقع ذلك فى سنة ٩١٠م ، وبذا اختتم ألفونسو عهده الذى استطال أربعة وأربعين عاماً . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى فى شهر اكتوبر من نفس العام وقد جاوز الثامنة والخمسين من عمره(٢) .

---

(١) Aschbach : ibid, B. I. s. 346 & 352

(٢) Crónica General: ibid, Vol. II. p. 382

وتشيد الرواية بخلال ألفونسو الثالث ، وتصفه بالحزم والشجاعة ، وتقول لنا إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين شديد الوطأة فى محاربتهم ، ولكنه حينما عقد السلم مع حكومة قرطبة احترم عهده والتزم الوفاء به . وكان ألفونسو فى الوقت نفسه نصيراً للآداب والعلوم بجزل صلاته لأهل العلم ، وكان من سعة أفقه أن عهد بتربية ولده أردونيو إلى بعض العلماء المسلمين(١) ، وكان حسبما أسلفنا تقياً ورعاً يخص الكنيسة بأوفر رعايته وعطائه ، وقد أنشأ كثيراً من الكنائس والأديار ، وابتنى كنيسة شنت ياقب الشهيرة . وقد رأينا كيف حمله إسرافه فى الإغداق على الكنيسة ورجال الدين ، على المبالغة فى فرض الضرائب على الضياع ، فكان ذلك من عوامل الإنتقاض والثورة على سياسته ؛ وبذل ألفونسو جهوداً كبيرة فى تحصين مدن الحدود ، وفى مقدمتها برغش وسمورة وسيمانقة (شنت منكش) ، وزودها بالسكان والجند ، لكى تغدو سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين .

ومنذ وفاة ألفونسو تسمى المملكة الإسبانية النصرانية مملكة ليون ، بعد أن كانت تسمى مملكة أشتوريش وجليقية ؛ وقد نقل ابنه وخلفه غرسية قاعدة المملكة من أوبييدو إلى مدينة ليون لتوسط موقعها بين جليقية وأشتوريش ؛ وتسبغ الرواية النصرانية على ألفونسو الثالث لقب (ألفونسو الكبير) El magno ، لما امتازت به المملكة النصرانية فى عهده من القوة والنهوض والاتساع ، وما تمتعت به خلال عهده الطويل من السلم والرخاء .

— ٤ —

إلى جانب مملكة أشتوريش أو مملكة ليون الإسبانية الشمالية ، كانت تقوم فى غربى البرنيه فى بلاد البشكنس الجبلية ، إمارة أو مملكة نصرانية أخرى هى مملكة ناڤار (نبرّة) . ويحيط الغموض بأصل هذه المملكة الصغيرة ونشأتها . وكل ما نعرفه من ذلك هو أن قبائل البشكنس ، كانت حتى أواخر القرن الثامن الميلادى تخضع لبعض السادة الإقطاعيين التابعين لمملكة الفرنج ، وربما حكمها دوقات كانتاريا أو أمراء أشتوريش . وكانت قاعدتهم مدينة بنبلونة الحصينة ، التى حكمها المسلمون ردحاً من الزمن ، ثم فقدوها فى أواخر القرن الثامن أيام غزوات الفرنج لاسبانيا الشمالية . وكانت بلاد البشكنس أو ناڤار منذ الفتح ميداناً للغزوات

(١) Aschbach : ibid , B. I. s. 352

الإسلامية والفرنجية . وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها إلى المملكة النصرانية . ولكن قبائل البشكنس كانت تتفانى دائماً فى الذود عن استقلالها . ولما شغلت المملكة النصرانية بمنازعاتها الداخلية ، لبثت ناڤار مدى حين مقصد الصوائف الإسلامية ، واجتاحها المسلمون مراراً .

وفى نهاية القرن الثامن الميلادى فى نحو سنة ٧٩٩ م ، ظهر فى ناڤار زعيم من السادة يدعى أزوار وجعل نفسه أميراً مستقلا . ولما توفى سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه سانشو . ولكن أميراً آخر من الزعماء البشكنس هو غرسية إنيجز بن إنيجو أريستا تغلب عليه وانتزع منه الإمارة . وتعرف الرواية الإسلامية إنيجو أريستا هذا وتسميه « ونقه بن شانجه ملك البشاكسة »[1]. وهنا تبدو ناڤار لأول مرة فى صورة المملكة المستقلة ، ويبدأ ثبت ملوكها المتعاقبين . ومما يجدر ذكره أن مملكة ناڤار الناشئة ، رأت أن ترتبط برباط التحالف والمصاهرة مع إمارة إسلامية مجاورة هى إمارة بنى قسىّ سادة الثغر الأعلى ، وهم حسبما قدمنا يرجعون إلى أصل نصرانى أو قوطى. وقد تزوج إنيجو أريستا رأس الأسرة الناڤارية بأرملة موسى بن فرتون ابن قسى ، وتزوح موسى بن موسى من إبنة غرسية إنيجز ، وتزوج غرسية وإخوته من بنات لب بن موسى بن فرتون ، وتزوج بعض إخوة موسى وأبنائه من بنات أمراء ناڤار[2] .

وهكذا كانت وشائج التحالف والمصاهرة تربط بين الأسرتين المسلمة والنصرانية ، وتوثقت هذه الوشائج واستطالت دهراً . وكذلك رأى غرسية إنيجز أن يتحالف مع عمر بن حفصون زعيم الفتنة فى الأندلس . وكانت علائق ناڤار بجارتها المملكة النصرانية الكبيرة أو مملكة ليون يشوبها الكدر . ذلك أن مملكة ناڤار الصغيرة كانت دائماً تخشى مطامع ليون وغدرها ، وقد حارب غرسية إنيجز أردونيو ملك ليون ، إلى جانب صهره موسى بن موسى ، فى موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م حسبما أسلفنا .

وخلف غرسية ولده فرتون الذى لبث أسيراً فى قرطبة ردحاً طويلا . ثم خلفه ولده سانشو غرسية . وفى رواية أن سانشو هذا لم يكن ولداً لفرتون أو لغرسية

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٨ .
(٢) جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٨ .

ولم يكن من أمراء البيت المالك ، ولكنه متغلب من نوع آخر انتزع الملك لنفسه . وعلى أى حال فقد استقر سانشو غرسية ملكاً على نافار . وهو أول من تلقب من أمراء نافار بألقاب الملك ، وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية . وقد حكم سانشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض مع المسلمين أيام الأمير عبدالله عدة حروب ووقائع ، وشغل حيناً بقتال بنى قسى الذين تصرمت علائقهم مع مملكة نافار ، وهاجم لب ابن محمد بن لب زعيم بنى قسى نافار غير مرة ، ونشبت بينه وبين سانشو على مقربة من بنبلونة وقائع متوالية انتهت بهزيمة لب ومقتله فى سنة ٩٠٧ م ، فخلفه أخوه عبدالله فى رياسة تطيلة وما جاورها ، واستمر فى محاربة نافار وهزم سانشو فى سنة ٩١١ م ، وتقول الرواية الإسلامية إن شانجه بن غرسية البشكنسى صاحب بنبلونه أعنى سانشو غرسية ، غزا مدينة تطيلة فى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٤م) ، فقتل كثيراً من المسلمين ، وأسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب بن موسى القسوى . فدخلها أخوه مطرّف بن محمد فى اليوم التالى ، وقام مكان أخيه . وقد كان عبد الله وأخوه مطرف من أبطال الثغر الأعلى ، وكانت لهما غزوات عديدة مظفرة فى أراضى النصارى[1] . وشغل سانشو أيضاً بقتال الطويل وغيره من زعماء الثغر الأعلى حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وسنعرض فى فصل قادم إلى حروبه مع عبد الرحمن الناصر .

---

(١) المقتبس لابن حيان — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية بالرباط لوحة ٦١ أ ، وهو الذى أشرنا فى مقدمة الكتاب إلى اكتشافه بين مخطوطات الخزانة الملكية .

فهرست الموضوعات[1]

صفحة

مقـــدمة ٥

الكتاب الأول

فتوح العرب فى إفريقية والأندلس وغاليس
وعصر الولاة فى الأندلس

الفصل الأول : فتوح العرب فى إفريقية. ١٤
الفصل الثانى : إسبانيا قبل الفتح الإسلامى ٢٧
الفصل الثالث : فتح إســـبانيا ٣٨
الفصل الرابع : إسبانيا بعد الفتح الإســـلامى ٦٣
الفصل الخامس : غاليس بين العرب والفرنج ٧٧
الفصل السادس : بلاط الشـــهداء... ... ... ٩٢
للفصل السابع : الأندلس بين المد والجزر ١١٢
الفصل الثامن : الحـــرب الأهليـــة ١٢٢
الفصل التاسع : خاتمة عصر الولاة ١٢٩

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الأول ــ عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن عبد الحكم

(١) رأينا أن نكتفى بأن نثبت هنا فهرس الموضوعات والخرائط لهذا القسم الأول من الكتاب. أما ما عدا ذلك من الملاحق والفهارس المختلفة الأخرى، فسوف نثبتها فى نهاية القسم الثانى من الكتاب.

صفحة

الفصل الأول : مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ١٤٠
الفصل الثانى : بعث الدولة الأموية فى الأندلس ١٤٧
الفصل الثالث : ولاية عبد الرحمن الداخل — ١ .. .. ١٥٧
الفصل الرابع : موقعة رونسفال أو باب شزوا ١٦٨
الفصل الخامس : ولاية عبد الرحمن الداخل — ٢ .. .. ١٨٥
الفصل السادس : خلال عبد الرحمن ومآثره ١٩٢
الفصل السابع : المملكة النصرانية الشمالية منذ قيامها إلى ولاية
ألفونسو الثانى ٢٠٧
الفصل الثامن : هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام ٢٢٣
الفصل التاسع : عبد الرحمن بن الحكم ٢٥٤

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الثانى — عصر الإمارة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد

وعهد الفتنة الكبرى

الفصل الأول : ولاية محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ، وطوالع الثورة الأولى ٢٨٨
الفصل الثانى : ولاية المنذر بن محمد بن عبدالرحمن ، وبداية ثورة المولدين ٣١٧
الفصل الثالث : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
١ — ثورة المولدين والعرب ٣٢٢
الفصل الرابع : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
٢ — ذروة الفتنة الكبرى ٣٣٥

صفحة

الفصل الخامس : المملكة الإسبانية النصرانية. ٠٠٠
خلال القرن التاسع الميلادى ٣٥٣

* * *

فهرست الخرائط

١ — خريطة عامة لإسبانية المسلمة (موضوعة فى فاتحة الكتاب) ... ...
٢ — موقعة وادى لكه وخط سير طارق ٤٣
٣ — مواقع غزوة شارلمان لسرقسطة ومعركة باب الشزرى ١٧٩
٤ — المملكة الإسبانية النصرانية ٢١٧
٥ — موقعة بلاى ومنطقة ثورة ابن حفصون ٣٢٧

THE MOORISH EMPIRE IN SPAIN

FROM THE CONQUEST
TO THE FALL OF THE OMAYYAD CALIPHATE

by

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of "The End of the Moorish Empire in Spain" "The Petty Kingdoms to the Almoravide Conquest" "The Almoravides and Almohades" "Los Monumentos Moros en Espana y Portugal" "Decisive Moments in the History of Islam" etc.

Publisher : Al-Khangi Bookshop, Cairo